



جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

فنّ الرسالة عند مُحيي الدين بن عبد الظاهر
"دراسة موضوعية وفنية"

إعداد الطالبة

إيمان فاضل قطيش القبيلات

إشراف

الأستاذ الدكتور سمير الدروبي

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة
الماجستير في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2006



MUTAH UNIVERSITY

Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (14)

إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالبة إيمان فاضل القبيلات الموسومة بـ:

فن الرسالة عند محيي الدين بن عبد الظاهر

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية.

القسم: اللغة العربية.

التاريخ	التوقيع	
2006/5/9		أ.د. سمير محمود الدروبي
2006/5/9		أ.د. صلاح محمد جرار
2006/5/9		أ.د. جهاد شاهر المجالي
2006/5/9		د. ماهر أحمد المبييضين

عميد الدراسات العليا
أ.د. أحمد القطامين



MUTAH-KARAK-JORDAN

Postal Code: 61710

TEL :03/2372380-99

Ext. 5328-5330

FAX:03/ 2375694

e-mail:

dgs@mutah.edu.jo

sedgs@mutah.edu.jo

http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤتة - الكرك - الاردن

الرمز البريدي: 61710

تلفون: 03/2372380-99

فرعي 5328-5330

فاكس 03/2 375694

البريد الالكتروني

الصفحة الالكترونية

الإهداء

أهدي هذا الجهد المتواضع إلى:

قدوتي، وأُسوتي الحسنة، ودافعي إلى الأمام دائماً... والدي الفاضل، نبع
الحنان الذي لا ينضب... والدتي الحبيبة، عزِّي وبهائي... إخواني وأخواتي، سكني
وأمانِي... زوجي العزيز، فلذة كبدي... طفلي الصغيرة "لين".

إيمان فاضل القبيلات

الشكرُ والتقدير

في نهاية المطاف، لا يسعني إلا أن أشكر الأستاذ الدكتور سمير الدروبي وأقدّره؛ لتفضّله بقبول الإشراف على هذا العمل المتواضع، ولرحابة صدره، وعمله على تذليل الصعوبات التي اعترضت طريقي في أثناء الكتابة، كما أنني أشكر أعضاء لجنة المناقشة؛ لتحملهم عبء دراسة العمل، وهم: أ.د صلاح جرّار، و أ.د. جهاد المجالي، و د. ماهر مبيضين، ولا يغيب عن البال -أخيراً- شكرُ أساتذتي عامّةً في جامعة مؤتة، وكل من مدّ لي يد العون.

إيمان فاضل قبيلات

فهرس المحتويات

الصفحة	المحتوى
أ	الإهداء
ب	الشكر والتقدير
ج	فهرس المحتويات
و	الملخص باللغة العربية
ز	الملخص باللغة الإنجليزية
1	الفصل الأول: عصر محيي الدين بن عبد الظاهر، وشخصيته
1	1.1 المقدمة
3	2.1 عصر محيي الدين بن عبد الظاهر
3	1.2.1 الحياة السياسيّة
13	2.2.1 الحياة الاجتماعيّة
18	3.2.1 الحياة الثقافيّة
28	3.1 شخصية محيي الدين بن عبد الظاهر
28	1.3.1 حياته
28	1.1.3.1 اسمه ونسبه
30	2.1.3.1 مولده ونشأته
30	3.1.3.1 شيوخه
30	4.1.3.1 عمله
32	5.1.3.1 مؤلفاته
35	6.1.3.1 شعره
39	2.3.1 أقوال العلماء فيه
40	3.3.1 وفاته

الصفحة	المحتوى
41	الفصل الثاني: الرسائل السياسية، والإدارية، والحربية
41	1.2 الرسائلُ السياسيةّة
41	1.1.2 المخاطبات الإعلامية (العهود)
66	2.1.2 العلاقات الخارجية
66	1.2.1.2 العلاقات مع الدول الإسلامية
70	2.2.1.2 العلاقات مع الدول غير الإسلامية
106	2.2 الرسائلُ الإداريّة
106	1.2.2 التقاليد
116	2.2.2 المراسيم
119	3.2.2 التواقيع
129	3.2 الرسائلُ الحربيّة
129	1.3.2 وصفُ رحلات الجيش
161	2.3.2 البشاراتُ والتهاني
192	3.3.2 التذاكر
197	الفصل الثالث: الرسائل الاجتماعية، والإخوانيّة، والأدبيّة
197	1.3 الرسائلُ الاجتماعيّة
197	1.1.3 إبطال الحشيش
198	2.1.3 الإقطاع
203	3.1.3 الصداق
206	4.1.3 التعزية
211	5.1.3 الصيد
213	2.3 الرسائلُ الإخوانيّة
214	1.2.3 الاستدعاء
216	2.2.3 الإهداء

الصفحة	المحتوى
222	3.3 الرسائلُ الأدبيَّة
222	1.3.3 المدح
224	2.3.3 الهجاء
241	3.3.3 الوصف
256	الفصل الرابع: الخصائصُ الفنيَّة
256	1.4 بناءُ الرسالة، ولغتها وأسلوبها، والصورة والخيال
256	1.1.4 بناء الرسالة
271	2.1.4 اللغة والأسلوب
279	3.1.4 الصورة والخيال
291	2.4 المحسنات البديعيَّة
291	1.2.4 السجع
297	2.2.4 الجناس
304	3.2.4 الطباق
308	4.2.4 التورية
311	3.4 التَّنَاصُ ونثر محيي الدين بن عبد الظاهر
314	1.3.4 التَّنَاصُ الدينيُّ
321	2.3.4 التَّنَاصُ الأدبيُّ
328	الخاتمة
332	المراجع

الملخص

فنُ الرسالةِ عندَ مُحبي الدين بن عبد الظاهر
"دراسة موضوعية وفنية"

إيمان فاضل القبيلات

جامعة مؤتة، 2006

يدرس هذا البحث رسائل القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر من الناحيتين: الموضوعية والفنية، ويتألف من أربعة فصول تحوي موضوعات مختلفة، تناول الفصل الأول منها مقدمة بيّنت السبب الذي دفع الباحثة لاختيار موضوع الدراسة، إلى جانب توضيح خط سيرها فيها، عن طريق عرض جزئياتها وأبرز المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها، إضافةً إلى ذكر أهم الصعوبات التي واجهتها في أثناء كتابتها.

كما أنه تناول عصر الكاتب، وشخصيته من خلال عرض مظاهر الحياة السياسية، والاجتماعية، والثقافية التي سادت آنذاك، مع بيان أثرها في الأدب، والتعريف بشخصية الكاتب عن طريق الحديث عن حياته، ومؤلفاته، وشعره، وأقوال العلماء فيه، ووفاته.

وخصّص الفصل الثاني لعرض جزء من رسائل ابن عبد الظاهر، ودراستها دراسة موضوعية، فحوى الرسائل السياسية، والرسائل الإدارية، والرسائل الحربية. وأفرد الفصل الثالث لدراسة الجزء المتبقي من رسائله، فتكفّل بالرسائل الاجتماعية، والرسائل الإخوانية، والرسائل الأدبية.

وتعرّض الفصل الرابع لدراسة الخصائص الفنية لرسائل الكاتب المعروضة في الفصول السابقة، فتخصّص بإظهار بناء الرسالة، ولغتها وأسلوبها، والصورة والخيال، إضافةً إلى المحسنات البديعية التي ضمّنت فيها، وتناول كذلك الحديث عن مصطلح التناص، وبيان مظاهره في رسائل ابن عبد الظاهر السابقة.

Abstract

The Art of Epistle by Muhilddeen Bin Abdul Dhahir An Objective and Artistic Study

Eman Fadel Al-Qbailat
Mu'tah University, 2006

The present study investigates Al-Qadhi Muhilddeen Bin Abdul Dhahir's letters from two perspectives: objective and artistic. The study falls into four chapters which have tackled different subjects.

Chapter One includes an introduction showing the author's motivation which has led him to choose the subject under investigation. Further, it includes the outline of the study through displaying its details, the main references as well as the difficulties encountered by the researcher during the process of writing. It also includes the author's era, his personality through displaying the political, social and cultural aspects which were dominating then, clarifying its impact on literature, identifying the author's characteristics through narrating his autobiography, works, poetry, scholars' sayings and his death.

Chapter Two is devoted to showing a part of Muhilddeen Bin Abdul Dhahir's letters, and studying them objectively and the content of the political management and war letters.

Chapter Three tackles the rest of his letters especially the social, brethren and literary letters.

Chapter Four is devoted to studying the artistic features of the author's letters shown previously. It displays the structure of the letter, its language and style, imagination and illusion. It also tackles intercontextuality displaying its aspects in Bin Abdul Dhahir's previous letters.

الفصل الأول

عصر محيي الدين بن عبد الظاهر، وشخصيته

1.1 المقدمة

ازدهر فنُّ الترسُّل في العصر المملوكي إلى حدٍّ كبير، وكان ديوان الإنشاء محطةً لتجمُّع الكتاب المبدعين آنذاك؛ نظراً لحاجة السلاطين الأعاجم إليهم، وذلك لأنهم يشكِّلون حلقة وصلٍ بينهم وبين رعاياهم.

وقد توالى على إدارة ذلك الديوان أسرٌ جلييلة القدر، ذاع صيتها فيما بعد كأسرة بني عبد الظاهر، وأسرة أبناء الأثير، وآل فضل الله العمري. والملاحظ أنَّ الباحثين اهتمُّوا بالأسرتين الأخيرتين على حساب أفراد الأسرة الأولى، على الرغم من جودة ترسلهم، فقد جاءت الأخبار عنهم مقتضبة ومتناثرة في طيَّات بعض المؤلفات.

ونظراً لعدم وجود دراسات مختصة بالحديث عن أفراد تلك الأسرة ونتائجهم الأدبي المتمثِّل بالرسائل خاصَّة، ارتأت الباحثة ضرورة التعريف بعميدهم ورأس أسرتهم على الأقل، عن طريق الحديث عن عصره، وحياته، وجمع رسائله المختلفة، ودراساتها دراسة موضوعيَّة وفنيَّة، تحت عنوان "فنُّ الرسالة عند محيي الدين بن عبد الظاهر"؛ ليتبيَّن القارئ أسلوبه في الكتابة، ومدى إبداعه فيها.

ولكن، لا بدُّ من الإشارة -قبل الحديث عن موضوع الدراسة- إلى أنَّ كتاب حسين عاصي المسمَّى "محيي الدين بن عبد الظاهر، عصره وتراثه التاريخي" -الذي استعانت به الباحثة في بعض المواضع- ركَّز فيه مؤلفه على دراسة كتاب "تشریف الأيَّام والعصور في سيرة الملك المنصور" لمحيي الدين بن عبد الظاهر، ومع أنَّه أورد شيئاً من رسائله، إلَّا أنَّه لم يتعرَّض لتحليلها، وبهذا لا يمكن عدُّه دراسة سابقة لرسائل الكاتب المذكور.

أمَّا منهج البحث الذي سلكته الباحثة في هذه الدراسة فهو المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، إذ استعانت بالتاريخ في معظم فصولها، وذلك عند حديثها عن عصر الكاتب وشخصيته، وعند إشارتها إلى بعض الأحداث التي ارتبطت برسائله

المختلفة، كما أنها استعانت بالوصف والتحليل أثناء دراستها لتلك الرسائل من الناحيتين: الموضوعية والفنية، إذ إنها قسّمتها وفقاً لموضوعاتها، وتعرّضت - أحياناً - إلى تحليل بعض القضايا التي تضمّنتها، إضافةً إلى إظهارها لأهم الخصائص الفنية التي امتازت بها.

وقد وُزّعت الدراسة على النحو التالي:

الفصل الأول: تحدّثت فيه الباحثة عن عصر محيي الدين بن عبد الظاهر وشخصيته، فأظهرت أهم معالم الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، التي سادت آنذاك، وركّزت على شخصية الكاتب من خلال الحديث عن حياته، التي تضمّنت: اسمه ونسبه، ومولده ونشأته، وشيوخه، وعمله، وعن مؤلفاته، وشعره، وأقوال العلماء فيه، ووفاته.

الفصل الثاني: تناولت فيه رسائل الكاتب السياسية، والإدارية، والحربية، ودرستها دراسة موضوعية، إذ قسّمت الأولى منها إلى مخاطبات إعلامية، ورسائل خارجية، وقسّمت الثانية إلى تقاليد، ومراسيم، وتواقيع، كما أنها قسّمت الثالثة إلى وصف رحلات الجيش، والبشارات والتّهاني، إضافةً إلى التّذاكر.

الفصل الثالث: تعرّضت فيه إلى الرسائل الاجتماعية، والإخوانية، والأدبية، ودرستها دراسة موضوعية، فتمثّلت الرسائل الاجتماعية ببعض المظاهر التي شاعت حينذاك، كإبطال الحشيش، والإقطاع، والصّدّاق، والتّعزية، والصيّد، وتمثّلت الرسائل الإخوانية -التي تبادلها الكاتب مع أصدقائه- بالاستدعاء، والإهداء، أمّا الرسائل الأدبية فقد تمثّلت بالمدح والهجاء والوصف.

الفصل الرابع: عمدت فيه الباحثة إلى دراسة الخصائص الفنية لرسائل محيي الدين بن عبد الظاهر كاملةً، فتعرّضت لبناء الرسالة، ولغتها وأسلوبها، والصورة والخيال فيها، إضافةً إلى الحديث عن المحسّنات البديعية التي استخدمها الكاتب في إنشائه، كالسّجع، والجناس، والطباق، والتّورية، وأفردت الموضوع الأخير لدراسة مصطلح التّناصّ بنوعيه: الديني، والأدبي في الرّسائل جميعها.

وقد اعتمدت الباحثة في دراستها على مصادر ومراجع عدّة، منها ما هو تاريخي، ومنها ما هو أدبي، ومنها ما هو موسوعي، ومن الأمثلة عليها: كتاب

"صبح الأعشى في صناعة الإنشا" للقلقشندي، و"التحفة الملوكية في الدولة التركية" و"زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" لبيبرس المنصوري، و"السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزي، و"الوافي بالوفيات" للصقدي، و"قوات الوفيات" لابن شاکر الكتبي، و"نهاية الأرب في صناعة الأدب" للنويري، و"مطالع البدور في منازل السرور" للغزولي، و"المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" لابن الأثير، و"حسن التوسل إلى صناعة الترسل" للحلبي، و"التعريف بالمصطلح الشريف" لابن فضل الله العمري، إضافة إلى كتب محيي الدين بن عبد الظاهر.

ومن أبرز المراجع التي اعتمدت عليها: كتاب "عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي" لمحمود رزق سليم، و"قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام" لأحمد مختار العبّادي، و"الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول" لعبد اللطيف حمزة، و"الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري" لعلي صافي حسين، و"أدب العصر المملوكي الأول" لفوزي محمد أمين، و"الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي" لمحمد ماهر حمادة، و"الرسائل الفنية في العصر العبّاسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري" لمحمد محمود الدروبي، و"التنافس نظرياً وتطبيقاً" لأحمد الزعبي.

وقد تمثلت الصعوبات التي واجهت الباحثة -في أثناء دراستها- بتناثر رسائل ابن عبد الظاهر في ثنايا الكتب بأنواعها، وسقوط بعض عباراتها ونقاط كلماتها، وعدم وضوحها أحياناً؛ نظراً لورودها في بعض المخطوطات، كمخطوط "مطالع البدور في منازل السرور" للغزولي، إضافة إلى لجوئه للتطويل والإطناب في رسائله السياسية، والإدارية، والحربية خاصة.

2.1 عصر محيي الدين بن عبد الظاهر

1.2.1 الحياة السياسية

عاش محيي الدين بن عبد الظاهر في القرن السابع الهجري، في الفترة الممتدة ما بين سنتي (620-692 هـ)، وبذلك يكون قد عاصر حكم الدولتين: الأيوبية والمملوكية.

وإنّ ما يميّز تلك الفترة، ازدهارها بالأحداث السياسية المهمّة، التي كان لها أثرها في صعيد الحياة الاجتماعيّة والثقافيّة آنذاك.
ومن أبرز تلك الأحداث:

أولاً: انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك:

استولى المماليك على مقاليد الحكم من الأيوبيين بفضل السلطنة شجرة الدرّ، زوج السلطان الصّالح نجم الدين أيّوب، الذي تولّى عرش السلطنة سنة (637هـ)⁽¹⁾ وقد صادفت وفاته والديار المصريّة تمرّ في أصعب الأوقات، حيث قرّر لويس التّاسع شنّ حملته الصليبيّة عليها سنة (648هـ)⁽²⁾.

ونظراً للأثر الذي تركه وفاة الحاكم في نفوس الجنود؛ عمدت شجرة الدرّ إلى إخفاء خبر وفاة السلطان⁽³⁾، واستمرّت في مراقبة أحداث المعركة، مع وضع الخطّة الحربيّة المناسبة، وإصدار الأوامر للجيش المقاتل⁽⁴⁾ "ممهورة بالعلامة السلطانيّة"⁽⁵⁾. وقبل إشاعة خبر وفاته، أرسلت في طلب ابنه توران شاه، الذي كان مقيماً - وقتها - في حصن كيفا، وربّبت الأمور اللاّزمة من أجل تنصيبه سلطاناً على البلاد⁽⁶⁾.

¹ القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت 821 هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميريّة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصريّة العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت)، 429/3.

² انظر: المنصوري، ركن الدين بيبرس (ت 725 هـ)، التّحفة الملوكيّة في الدّولة التركيّة، نشره ووضع حواشيه عبد الحميد صالح حمدان، ط1، الدّار المصريّة اللبنيّة، القاهرة، 1987م، ص 25، و العبادي، أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشّام، (د.ط)، دار التّهضة العربيّة، بيروت، 1986م، ص 99-102.

³ انظر: سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، (د.ط)، مكتبة الأدب ومطبعتها بالجاميز، مج1، ق1، ج1/19، و حسن، علي إبراهيم، تاريخ المماليك البحريّة، ط3، مكتبة التّهضة المصريّة، القاهرة، (د.ت)، ص 37.

⁴ انظر: حسن، تاريخ المماليك البحريّة، ص 37.

⁵ المرجع نفسه، ص 37.

⁶ حسن، تاريخ المماليك البحريّة، ص 37، والعبّادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشّام، ص 108، وسليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مج1، ق1، ج1/19، ويذكر ابن أصل، جمال الدين (ت 697 هـ) في كتابه (مفرّج الكرب في أخبار بني أيّوب) أنّ الأمير حسام الدين أبا عليّ حكى له قائلاً: "لما ودّعني السلطان الملك الصّالح عند سفره إلى دمشق قال لي: إني مسافر إلى الشام وأخاف أن يعرض لي موت وأخي الملك العادل بقلعة مصر، فيأخذ البلاد وما يجري عليكم منه خير، فإن عرض لي في سفري هذا مرض ولو أنّه وجع إصبع أو حمّى يوم، فأعدمه، فإنّه لا خير فيه لكم، وولدي شاه لا يصلح للملك، فإن بلغك موتي، فلا تسلّم البلاد لأحد من أهلي بل سلّمها إلى الخليفة المستعصم بالله"، حقّقه ووضع حواشيه حسنين محمد ربيع، راجعه وقدم له سعيد عبد الفتاح عاشور، (د.ط)، (د.ت)، 375/5.

وعند استلامه عرش السلطنة، تابع مسيرة الجهاد ضد الصليبيين، الذين واصلوا زحفهم نحو فارسكور، فهزمهم وأسر قائدهم⁽¹⁾، وعلى الرغم من أن هذا العمل يُحمد له، إلا أنه شرع-بعد ذلك- في فساد الأحوال، فهذا ابن عبد الظاهر، يقول عنه: إنه عمد إلى "إعطاء مَنْ لا يستحقّ، وإحرام من يستحقّ، ويتوّعد من لا ذنب له، ويغري الناس بالناس... وآل الأمر به إلى أن صار يبسط السّجّادة ويقوم يُصلي على غير طهارة، وتدخل إليه الكيزان مملوءة خمرًا على أنه ماء، ويشرب ذلك بحضور الناس"⁽²⁾، ولم يقف عند هذا الحدّ فحسب، بل تنكّر لشجرة الدّر ولم يحفظ لها صنيعها، إذ طالبها بأموال والده؛ ممّا دفعها إلى التّأمر عليه والتّدبير لقتله⁽³⁾.

وبعد مقتل توران شاه، أصبح العرش شاغراً؛ فعمد زعماء المماليك إلى تنصيب شجرة الدّر سلطنةً لمصر، غير أن فترة حكمها لم تزد على ثمانين يوماً⁽⁴⁾؛ بسبب رفض الخليفة العبّاسي تأييدها، وسخريته بأهل مصر؛ لإقامتهم امرأة عليهم، حيث قال لهم: "إن كانت الرّجال قد عدمت عندكم فأعلمونا، حتى نسير إليكم رجلاً"⁽⁵⁾.

وقد كان لهذه العبارة صداها في نفوس المصريين؛ فعارضوا استمرار سلطنتها، ممّا دفع المماليك إلى الإشارة عليها بالزّواج من أتابكها⁽⁶⁾ عزّ الدين أيبك،

¹ انظر: المنصوري، التحفة الملوكة في الدولة التركية، ص25، والعبّادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشّام، ص108-109، وسليم، عصر سلاطين المماليك، مج1، ق1، ج1/19.

² ابن عبد الظاهر، محيي الدين (ت 692 هـ)، الرّوض الزّاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرّياض، ط1، 1976م، ص49.

³ انظر: العبّادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشّام، ص11-12، وحسن، تاريخ المماليك البحريّة، ص37.

⁴ انظر: حسن، تاريخ المماليك البحريّة، ص37، والعبّادي، قيام دولة المماليك، ص117-118، وسليم، عصر سلاطين المماليك، مج1، ق1، ج1/21.

⁵ المقرئزي، تقّي الدين أحمد بن علي (ت 845 هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك، صحّحه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، طبعة منقّحة، مطبعة لجنة التّأليف والترجمة والنّشر، القاهرة، 1957م، ج1، ق2/368.

⁶ أتابك: يتألف هذا اللقب من لفظين تركيين، وهما أطا بمعنى أب، وبك بمعنى أمير.. أطلق هذا اللقب في أيام المماليك بمصر على مقدّم العساكر أو القائد العام، على اعتبار أنّه أب العساكر والأمراء جميعاً، وكان يسمى أتابك العسكر، البقلّى، محمد قنديل، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983م، ص14.

والتنازل له عن العرش⁽¹⁾، وبتمام هذا الأمر، انتقلت السلطنة من أيدي الأيوبيين إلى أيدي المماليك، وذلك لأنّ أيبك أول سلطان مملوكي يتولّى عرش مصر في تلك الفترة.

ولكنه لم ينفرد بالحكم وحده؛ فقد شاركته زوجته في تدبير شؤون البلاد، بدليل قول بيبرس المنصوري: "إلا أنّ شجرة الدر كانت مشاركة له في الأمر، وعلامتها تخرج على التّواقيع"⁽²⁾، ولا غرو في ذلك؛ فهي "مبجّلة عند الجميع، وكلّ من البحريّة"⁽³⁾ لها مطيع"⁽⁴⁾؛ إذ إنّها السّبب الرئيس في انتقال السلطنة إليهم.

غير أنّ الأمر لم يقتصر على شجرة الدر؛ فقد عمد بعض أمراء المماليك-بعد اتّفاقهم مع السلطان-على إقامة سلطان أيوبيّ يشاركه في الحكم⁽⁵⁾، ويبدو أنّهم لجأوا إلى ذلك حفاظاً على دولتهم الوليدة من أي خطر يمكن أن يداهما، ويقوّض دعائمها بسبب هذا الانتقال المفاجئ.

وعندما قويت شوكة السلطان المملوكيّ بازدياد مناصريه؛ بادر إلى خلع شريكه الأيوبي⁽⁶⁾، إلّا أنّه لم يهنأ طويلاً باستبداده بعرش السلطنة؛ لأنّ الخلاف الذي دبّ بينه وبين زوجته أودى بحياته، بسبب عزمه على الزّواج بغيرها⁽⁷⁾؛ ممّا دفعها

¹ انظر: حسن، تاريخ المماليك البحريّة، ص 37، والعبّادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشّام، ص 123.

² المنصوري، التّحفة الملوكيّة في الدّولة التركيّة، ص 27.

³ البحريّة: طائفة من الأجناد السلطانية، وكان عملهم المبيت بالقلعة وحول دهاليز السلطان في السفر كالحرس، وأول من رتّب هذه الطائفة وسماها بهذا الاسم هو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص 61.

⁴ المنصوري، التّحفة الملوكيّة في الدّولة التركيّة، ص 27.

⁵ انظر: المنصوري، المصدر نفسه، ص 28، وابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي (ت 930هـ)، بدائع الزّهور في وقائع الدّهور، حققه وكتب له المقدّمه محمد مصطفى، ط 2، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، 1982م، ج 1، ق 289/1.

⁶ المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، ق 384/2، والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئزية، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشّرقاوي، ط 1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998م، 125/3، وابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن (ت 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة، طبعة مصوّرة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد والنّشر، القاهرة، (د.ت)، 12/7.

⁷ ذكر المنصوري في كتابه التّحفة الملوكيّة في الدّولة التركيّة أنّ أيبك "أرسل إلى صاحبيّ الموصل وحماة يخطب ابنتيهما عوضاً عنها"، ص 39، وذكر أبو الفداء، إسماعيل بن عليّ بن محمود (ت 732هـ) في كتابه (تاريخ أبي الفداء المسمّى (المختصر في أخبار البشر) "أنّه بلغها أنّ المعزّ أيبك المذكور، قد خطب بنت بدر الدين لؤلؤ، صاحب الموصل، ويريد أن يتزوّجها، فقتلته"، علق عليه ووضع حواشيه محمود ديوّب، ط 1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1997م، 300/2.

إلى التدبير لقتله، فكانت وفاته سنة (655هـ)⁽¹⁾، وبهذا يكون قد حكم مصر مدة سبع سنوات.

وانتقلت السلطنة بعد وفاة أبيك إلى ابنه علي، الذي لم يزد عمره عن عشر سنوات⁽²⁾؛ فعين سيف الدين قطز أتباعاً له⁽³⁾، إلا أن السلطان لم يحسن تدبير شؤون البلاد، فقد كان "طائش العقل، يلعب بالحمام مع أولاد الغلمان"⁽⁴⁾؛ فعمد قطز إلى اغتصاب عرش السلطنة في الوقت الذي واصل فيه التتار زحفهم نحو الديار الشامية، بعد سقوط بغداد في أيديهم سنة (656هـ)⁽⁵⁾، وقد أنكر عليه بعض المماليك هذا العمل؛ فاعتذر إليهم قائلاً: "إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من شئتم"⁽⁶⁾.

وقد خرج للقاء التتار، الذين أعملوا يد الخراب في الديار الشامية سنة (658هـ)⁽⁷⁾، فالتقاهم في عين جالوت، وبعد تحقيق النصر عليهم، قفل عائداً إلى دياره، لكن، لم يتسن له الوصول إليها؛ ذلك أن الأمير بيبرس البندقداري تأمر عليه وقلته بعدما رفض تسليمه نيابة حلب⁽⁸⁾.

وسرعان ما انتقلت السلطنة بعد مقتل قطز إلى قاتله بيبرس، الذي يعد من أقوى رجال الدولة آنذاك، إذ كان "يملاً الدنيا مهابة"⁽⁹⁾؛ لذلك استحق أن يتولى عرش السلطنة، وقد امتاز بحسن سياسته لشؤون البلاد؛ بسبب اتصافه "بالشجاعة والإقدام على الحروب وحسن ترتيبها، مع الدهاء والكرم، وحب الخير، والإحسان إلى

¹ انظر: المنصوري، التحفة الملوكية، ص 39، وزبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالدس.ريتشاردز، (د.ط)، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، 1998م، 24/42.

² المنصوري، التحفة الملوكية في الدولة التركية، 39/42، وذكر أبو الفداء في كتابه "المختصر في أخبار البشر" أن عمر علي كان خمس عشرة سنة عندما تولى عرش السلطنة، 300/2.

³ انظر: المنصوري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، 24/42، وحسن، تاريخ المماليك البحرية، ص 43.

⁴ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 1، ق 302/1.

⁵ المنصوري، التحفة الملوكية في الدولة التركية، 35/42.

⁶ المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، ق 418/2.

⁷ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص 63.

⁸ انظر: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 67-68، والمنصوري، التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص 45، وشافعي بن علي، ناصر الدين (ت 730هـ)، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق ونشر عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، ط 2، الرياض، 1989م، ص 66.

⁹ سليم، عصر سلاطين المماليك، مج 1، ق 1، ج 1/27.

الفقراء"⁽¹⁾، وبهذه الصفات استمرّ في حكم مصر والشّام⁽²⁾ زهاء سبع عشرة سنة، أي أنّ فترة حكمه امتدّت ما بين سنتيّ (658-676هـ)، وتعدّ هذه الفترة من أطول الفترات التي تولاها حاكم مملوكيّ في ذلك الوقت.

ومن أبرز الأعمال التي قام بها خلال سلطنته: إحياء الخلافة العبّاسيّة بالقاهرة بعد ثلاث سنوات من زوالها من بغداد على أيدي التتار⁽³⁾، إضافةً إلى جعل القضاء بيد قضاة يمثلون المذاهب السنيّة الأربعة⁽⁴⁾.

ويبدو أنّ الظاهر بيبرس-قبل وفاته- كان مدركاً بأنّ الصّراع سيديبّ في صفوف أمراء المماليك-بعد وفاته- طمعاً في السلطنة، وفي الوقت نفسه كان راغباً ببقائها في بيته، لذلك عمد إلى سنّ نظام ولاية العهد للمرّة الأولى في دولته، فكتب به لابنه بركة خان، الذي تولى عرش السلطنة من بعده⁽⁵⁾، ولكنّ هذا النّظام لم يمنع بعض الأمراء من التآمر عليه، والدّسّ له، حتى اضطرّ إلى خلع نفسه سنة (678هـ)، وسبب ذلك يلخصه محمود رزق سليم في قوله عنه: إنّهُ: "بطش ببعض الأمراء، فأضمرّوا له الحقد والضّغينة، وحاكوا له المؤامرات، وأعلنوه بالحرب، حتى اضطرّ إلى أن يخلع نفسه من السلطنة، وينزح إلى الكرك، حيث مات بعد قليل"⁽⁶⁾.

ومن ثمّ وقع اختيار المماليك على أخيه سلامش الذي لم يزد عمره عن سبع سنوات⁽⁷⁾، ليحلّ محلّه، على الرّغم من عرضهم السلطنة-قبل اختياره- على صهر الملك السّعيد، الأمير سيف الدين قلاوون⁽⁸⁾، لكنّه رفض الولاية، وردّ عليهم قائلاً:

¹ سليم، عصر سلاطين المماليك، مج 1، ق 1، ج 1/27.
² امتدّ نفوذ المماليك إلى بلاد الشّام بعد عين جالوت، إذ إنّ السلطان قطز أناب الأمير سنجر الحلبي في دمشق، وبذلك أصبح المماليك ورثة الأيوبيين في حكم مصر والشّام، انظر: عاشور، عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشّام، ط 2، دار النهضة العربيّة، القاهرة، 1976م، ص 203-204.
³ انظر: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 99-112، 141، 148، والمنصوري، التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص 47-48، 51.
⁴ انظر: شافع بن علي، حسن المناقب السريّة، ص 220، والقلقشندي، صبح الأعشى، 36-35/4، والمقريزي، المواعظ والاعتبار، 344/2.
⁵ تولى السلطنة "في صفر سنة (676هـ)"، القلقشندي، صبح الأعشى، 431/3.
⁶ سليم، عصر سلاطين المماليك، مج 1، ق 1، ج 1/28.
⁷ انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 270/7، وأبا الفداء، المختصر في تاريخ البشر، 344/2.
⁸ ذكر شافع بن علي في كتابه "حسن المناقب السريّة" أنّه في سنة (674هـ) "عقد للملك السّعيد ولد السلطان على ابنة السلطان الملك المنصور قلاوون"، ص 326.

"أنا لم أخلع الملك السعيد شرهاً إلى المملكة، ولا طمعاً في السلطنة، لكن حفظاً للنظام، وأنفةً لجيوش الإسلام أن يتقدم عليهم الأصاغر، ويمتحنوا منهم الأعيان والأكابر، ويضيعوا مصالح العساكر، والأولى أن لا يخرج الأمر عن ذرية الظاهر"⁽¹⁾، فاتفقوا على تعيينه أتابكاً للسلطان⁽²⁾.

وعدم قبول قلاوون الولاية-في ذلك الوقت- لا يعني أنه لم يكن يصبو إليها؛ إذ إنه سرعان ما بدأ بالسيطرة على شؤون البلاد، مستغلاً طفولة السلطان، الذي كان العوبة في يديه، يسيّرهما كيفما شاء، حتى إن نفوذه قد ظهر بأجلى صورته عندما ضربت السكة باسم السلطان على أحد الوجهين، وباسمه على الوجه الآخر، إضافة إلى الخطبة لهما معاً⁽³⁾، وما أن أصبح الوقت مناسباً، حتى بادر إلى خلعه والاستيلاء على عرشه⁽⁴⁾.

غير أن الخطوة التي أقدم عليها قلاوون، كانت ضرورية للبلاد؛ لأنها بحاجة إلى حاكم واعٍ يسيّر أمورها، وشخص قلاوون مناسب لهذا المنصب، فقد كان من أقوى الرجال آنذاك، وشخصيته مقاربة لشخصية الظاهر بيبرس، إذ سار على نهجه في سياسته لشؤون البلاد وتدبيرها⁽⁵⁾.

وقد استمر في حكم البلاد إحدى عشرة سنة، أي أن فترة حكمه امتدت ما بين سنتي (678-689هـ)⁽⁶⁾، فانتقلت السلطنة بعده إلى ابنه الأشرف خليل، وهو آخر سلطان مملوكي عاصره محيي الدين بن عبد الظاهر، الذي توفي سنة (692هـ)⁽⁷⁾.

¹ المنصوري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، 173/42.

² انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 270/7، والمنصوري، التحفة المملوكية في الدولة التركمانية، ص 90، وضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات مصر- الشام، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص 36.

³ انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 270/7، وابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 346/1، وحسن، تاريخ المماليك البحرية، ص 56.

⁴ انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 287/7-288، وابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 347/1.

⁵ انظر: ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 36، وحسن، تاريخ المماليك البحرية، ص 58.

⁶ القلقشندي، صبح الأعشى، 431/3.

⁷ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ)، الوافي بالوفيات، باعتناء دوروتيا كرافولسكي، ط 2، يطلب من دار النشر فرانز شتايز شتوتغارت، ألمانيا، 6، ق 258/17.

وقد عمد الأشرف في بداية حكمه إلى التّخلّص من أصحاب السّطوة والنّفوذ، ممّا أثار حقد الأمراء عليه؛ فأضرموا له الشرّ⁽¹⁾، حتى إنّ العداء الذي دبّ بينه وبين بيدرا، نائب السلطنة أودى بحياته سنة (693هـ)⁽²⁾، ويعدّ فتح الأشرف لعدّا⁽³⁾ من أهم الأعمال التي قام بها خلال سلطنته القصيرة، التي لم تدم سوى ثلاث سنوات وعدّة شهور.

وبعد وفاته، استمر الحكم من بعده في بيت قلاوون، من أبنائه وأحفاده، إلى أن زالت دولة المماليك البحريّة سنة (784هـ)⁽⁴⁾.

ثانياً: تدعيم أركان الدولة الناشئة:

سعى المماليك إلى تدعيم أركان دولتهم الناشئة، فبدأوا بتوفير أسباب الأمن لها، وذلك بقضائهم على العناصر المعارضة لهم إذ ذاك.

ويعدّ الأيوبيون من أبرز تلك العناصر، إذ إنّ خطرهم ألجأ السلطان عزّ الدين أيبك-كما ذكر سابقاً- إلى إقامة سلطان أيوبيّ يشاركه في الحكم، إذ تمّ استدعاء مظفر الدين موسى، ابن الملك المسعود يوسف صاحب اليمن، فبوع بالسلطنة ولقب بالملك الأشرف، ومن ثمّ أصبحت السّكة تضرب باسم السلطانين معاً، إضافة إلى الخطبة لهما في الوقت نفسه⁽⁵⁾، غير أنّ مشاركة الأشرف لأيبك في حكمه، لم تشكّل عائقاً في طريق سيطرته على البلاد، بدليل قول المقرئزي: "وصارت المراسيم تبرز عن الملكين، إلا أنّ الأمر والنهي للمعزّ، وليس للأشرف سوى مجرد الاسم"⁽⁶⁾.

¹ المنصوري، التحفة الملوكية، ص 125، وحسن، تاريخ المماليك البحريّة، ص 62، وذكر موير، وليم في كتابه (تاريخ دولة المماليك في مصر) أن الأشرف خليل "كان لا يعبأ بقتل النفس جرياً وراء وسائسه وأوهامه، فتراه آونة يأمر بخلق أحد خصومه، ثم لا يلبث أن يرضى عنه ويقربّه، ثم يعيد الكرة تارة أخرى، فيقبض عليه ويذيقه العذاب"، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، ط 1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م، ص 68.

² انظر: المنصوري، المصدر نفسه، ص 136، وابن تغري بردي، المنهل الصّافي والمستوفى في بعد الوافي، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، (د.ط.)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، 1985م، 276/5-277، وابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر (ت779هـ)، تذكرة النّبيه في أيام المنصور وبنيه، حققه ووضع حواشيه، محمد محمّد أمين، راجعه سعيد عبد الفتاح عاشور، (د.ط.)، مطبعة دار الكتب، مصر، وزارة الثقافة، مركز تحقيق البحوث، 1976م، 167/1.

³ وقد فتحها في سنة (690هـ)، المنصوري، التحفة الملوكية، ص 126-127.

⁴ انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 431/3-435، وحسن، تاريخ المماليك البحريّة، ص 58.

⁵ انظر: المنصوري، التحفة الملوكية، ص 28، والمقرئزي، المواعظ والاعتبار، 237/2، والسلوك لمعرفة دولة الملوك، ج 1، ق 369/2، وابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 289/1.

⁶ المقرئزي، المواعظ والاعتبار، 124/3.

وعند إقدام أيبك على خلع شريكه الأيوبي سنة (650 هـ)⁽¹⁾، زالت دولة بني أيوب نهائياً، فقد كان الأشرف آخر سلطان أيوبي يتولّى عرش مصر آنذاك، على الرغم من قيام الأيوبيين بمحاولات عديدة، كان الهدف منها إعادة السيطرة على مصر، وإحياء سلطنتهم فيها من جديد، إلا أن جميع محاولاتهم باءت بالفشل⁽²⁾. ونتيجة لتلك المحاولات، توسّط الخليفة العباسي لعقد صلح بين الطرفين سنة (651 هـ)، على أن تكون مصر وغزّة والقدس للمماليك، بينما تظلّ بقية البلاد الشاميّة تحت سيطرة الأيوبيين⁽³⁾.

وقد تمثّل عنصر المعارضة الثّاني بثورات العربان، التي تكرّرت طوال عهدهم⁽⁴⁾، فعمدوا إلى إخمادها بأساليب مختلفة كان الرّابط بينها، افتقارها للشفقة والرّحمة، وتأديتها إلى الموت، ولا غرو في ذلك إذا ما علم بأن تلك الثّورات رفضت سلطنتهم، ونادت بإعادة الحكم إلى العرب الأحرار، الذين لم يمستهم الرّق أبداً⁽⁵⁾.

و يقول البوصيريّ في مدح أيّدمر -الذي كان والياً على القاهرة سنة (678 هـ)- عند تنكيّله بالعربان:

فَمَعَشَرٌ رَكِبُوا الْأَوْتَادَ فَانْقَطَعَتْ	أَمْعَاؤُهُمْ فَتَمَنَّوْا أَنَّهُمْ نُحِرُوا
وَمَعَشَرٌ قَطَّعَتْ أَوْصَالُهُمْ قَطْعًا	فَمَا يَلْفَقُهَا خَيْطٌ وَلَا إِبْرُ
وَمَعَشَرٌ بِالظُّبَا طَارَتْ رُؤُوسُهُمْ	عَنِ الْجُسُومِ فَقَلْنَا إِنَّهَا أَكْرُ
وَمَعَشَرٌ وَسَطُوا مِثْلَ الدَّلَاءِ وَلَمْ	تُرْبِطْ حَبَالُهَا بِهَا يَوْمًا وَلَا بَكْرُ

¹ المقرئزي، المواعظ والاعتبار، 237/2.

² انظر: المنصوري، التحفة الملوكيّة، ص 27-31، وأبا الفداء، المختصر في تاريخ البشر، 291/2، وحسن، تاريخ المماليك البحريّة، ص 40.

³ انظر: ابن عبد الظاهر، الروض الزّاهر، ص 55-56، والمنصوري، التحفة الملوكيّة، ص 31، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 10/7، والمقرئزي، السلوك، ج 1، ق 385/2، وأبا الفداء، المختصر في تاريخ البشر، 293/2.

⁴ انظر: ابن عبد الظاهر، الروض الزّاهر، ص 51، 414-415، وشافعي بن علي، حسن المناقب السريّة، ص 104، والمنصوري، التحفة الملوكيّة، ص 33، والقلقشندي، صبح الأعشى، 68/4، والمقرئزي، السلوك، ج 1، ق 386/2، وابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 345/1، وأمين، فوزي محمّد، أدب العصر المملوكي الأوّل "ملاحم المجتمع المصري"، ط 2، دار المعرفة الجامعيّة، 2003م، ص 65-66، والعبّادي، قيام دولة المماليك، ص 128-132.

⁵ انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 13/7، والمقرئزي، السلوك، ج 1، ق 386/2، والعبّادي، قيام دولة المماليك، ص 130.

وَمَعَشَرَ سُمُّرُوا فَوْقَ الْجِيَادِ وَقَدْ
وآخَرُونَ فَدَّوْا بِالْمَالِ أَنْفُسَهُمْ
شَدَّتْ جُسُومُهُمُ الْأَلْوَاخُ وَالْدُّسُرُ
وَقَالَتِ النَّاسُ: خَيْرٌ مِنْ عَمَى عَوْرٍ
مَوَاتٌ سَوْءٌ تَلَقَّوْهَا بِمَا صَنَعُوا
وَمِنْ وَرَاءَ تَلَقَّيْهِمْ لَهَا سَقَرٌ⁽¹⁾

إضافة إلى ذلك، كان لحركة الجهاد التي تولّاها المماليك -منذ قيام دولتهم حتى نهايتها- والتي تمثّلت بمحاربة الصليبيين والتتار، وتحرير الأراضي العربيّة من سيطرتهم، إضافة إلى فتح كثير من المعاقل والحصون⁽²⁾، كان لها أكبر الأثر في بسط نفوذ دولتهم الناشئة، وإضفاء طوق من القداسة عليها، فهزيمة التتار على أيدي المماليك في عين جالوت -مثلاً- كان لها أكبر الأثر في إعلاء شأن دولتهم، إذ إنّها الهزيمة الأولى التي تلحق بالتتار خلال تاريخهم الطويل، على يد دولة ناشئة ما زالت في طور التأسيس⁽³⁾، وإنّ ما يدلّ على المكانة العالية التي احتلّتها دولة المماليك بعد هذه الموقعة، أنّ المظفر نور الدين سلطان دولة بني رسول باليمن، حجّ بصحبة جيشه إلى الحجاز في العام التالي لها، وقد طلعت -هناك- أعلامه وأعلام سلطان مصر معاً، فسأله أحد أمرائه بأنّ يقدم أعلامه على أعلام المصريين، إلّا أنّه ردّ عليه قائلاً: "أتراني أُوخِرُ أعلام ملكٍ كَسَرَ التتار بالأمس، وأُقدّمُ أعلامي لأجل حضوري"⁽⁴⁾.

كما كان لإحياء الظاهر بيبرس الخلافة العبّاسية بالقاهرة دورٌ كبير في رفد دولة المماليك الناشئة، إذ إنّها احتلّت مركز زعامة العالم الإسلامي آنذاك؛ نظراً للمكانة التي احتلّتها الخلافة في نفوس الناس، فقد كانت "محوراً تطوف به قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ورمزاً يرمز إلى تألفهم وتآزرهم، وعلماً روحياً يستظلّون به"⁽⁵⁾، وقد أقدم بيبرس على هذه الخطوة "ليظهر أمام العالم

¹ البوصيري، شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد (ت696 هـ)، ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيّد كيلاني، ط2، ملتزم الطبع والنشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1973م، ص139.

² لمعرفة الفتوحات التي قام بها سلاطين المماليك، انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1/339-340، 363-362، 377.

³ انظر: العبادي، قيام دولة المماليك، ص167-168.

⁴ الخزرجي، علي بن حسين، العقود اللؤلؤيّة في تاريخ الدولة الرّسوليّة، غنيّ بتصحيحه وتنقيحه محمد بسيوني عسل، ط2، دار الآداب، بيروت، 1983م، 124/1.

⁵ سليم، عصر سلاطين المماليك، مج3، ق1، ج19/2.

الإسلامي بمظهر الحامي للخلافة، وليجعل لنفسه شيئاً من النفوذ والزّعامَة على البلاد الإسلاميّة، كما يجعل من دولته النّاشئة دولة شرعيّة يجب المحافظة عليها⁽¹⁾. وبناءً على الأهميّة التي اكتسبتها مصرُ بسبب إحياء الخلافة فيها؛ استمرّ سلاطين المماليك -فيما بعد- بالمحافظة عليها "وقد عاشت .. في القاهرة -ولكن بلا سلطة فعليّة- حتى جاء الفتح العثمانيّ (سنة) (923هـ = 1517 م)"⁽²⁾.

2.2.1 الحياة الاجتماعيّة

عاش المماليك -منذ استيلائهم على عرش السّلطنة- عيشة ترّفَة؛ نتيجةً لجريان الأموال في أيديهم، وفي المقابل عاش معظم أفراد المجتمع المصريّ عيشةً مُعدمة، قوامها الفقر وانعدام القوت، فإذا كان "المصروف في مطبخ الملك الظاهر عشرة آلاف رطل (لحم) كل يوم، عنها وعن توابعها عشرون ألف درهم نقره"⁽³⁾⁽⁴⁾، فإنّ غالبية الشعب المصريّ كانوا يحلمون برغيف خبز واحد، يستون به جوعهم. وبناءً على ذلك، امتاز المجتمع المصريّ-آنذاك- بالطّبقيّة، أي أنّ أفرادهم كانوا يقسمون إلى طبقات مختلفة؛ نظراً للحالة الماديّة لهم، وبما أنّ الثروة تركّزت في أيدي المماليك، فقد احتلّوا قِمّة تلك الطبقات التي تتسلسل إلى أن تصل القاعدة، حيث يتواجد عامّة الشعب المصريّ البائس.

وقد تحدّث غير عالم عن النّظام الطّبقيّ في مصر زمن سلاطين المماليك، كالمقريزيّ -مثلاً- الذي يقول: "إنّ الناس بإقليم مصر في الجملة على سبعة أقسام: القسم الأوّل أهل الدّولة، والقسم الثّاني أهل اليسار من التّجّار، وأولي النّعمة من ذوي الرّقاهية، والقسم الثّالث الباعة وهم متوسّطو الحال من التّجّار، ويقال لهم أصحاب البزّ، ويلحق بهم أصحاب المعاش، وهم السّوّقة، والقسم الرّابع أهل الفلح، وهم أهل

¹ العبادي، قيام دولة المماليك، ص 180.

² فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، ط 3، دار العلم للملايين، بيروت، 603/3، ويقول ضيف في كتابه (عصر الدول والإمارات)، "وظلت الخلافة العبّاسيّة قائمة بمصر طوال حكم المماليك إلى أن أخذ السّلطان سليم الأوّل العثمانيّ آخر خلفائها معه إلى القسطنطينيّة، وأخذ سلاطين آل عثمان يتقلّدون الخلافة على المسلمين إلى أن أزالها مصطفى كمال أتاتورك"، ص 35.

³ الذّراهم النقره: هي التي "يكون ثلثاها من فضّة وثلثها من نحاس"، القلقشندي، صبح الأعشى، 439/3.

⁴ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 198/7.

الزّراعات والحرث، سكّان القرى والريف، والقسم الخامس الفقراء، وهم جلّ الفقهاء وطلاب العلم، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم، والقسم السادس أرباب الصناعات والأجراء أصحاب المهن، والقسم السّابع ذوو الحاجة والمسكنة، وهم السّؤال الذين يتكفّفون النّاس ويعيشون منهم⁽¹⁾.

وإذا كان المقرّيزيّ قد قسم أفراد المجتمع المصريّ إلى سبع طبقات، فإنّ عبداللطيف حمزة يرى أنّهم كانوا خمس طبقات "تبدأ بالخليفة أو السلطان، ومن حوله الحاشية التي تتألف من الوزير والأمراء، ومن في مرتبة هؤلاء، ثمّ تلي ذلك طبقة الموظّفين في ديوان الإنشاء وديوان الجيش والبحريّة، وتسير مع هذه الطبقة - أو تعلو عليها - في بعض الأحيان - طبقة القضاة ورجال الحسبة والشرطة، ثمّ تأتي بعد ذلك طبقة التّجار وطلبة العلم، وأخيراً العامّة، وهم الذين يؤلّفون في العادة الجزء الأكبر من الهرم الاجتماعيّ"⁽²⁾.

أمّا شوقي ضيف فيرى أنّهم كانوا ثلاث طبقات، وهي: "طبقة الحكّام، وطبقة وسطى من كبار التّجار، وطبقة دنيا من الفلاحين والعامّة"⁽³⁾.

ومهما يكن من أمر تلك الطبقات، فإنّ أيّاً من أفرادها لم يحظَ باحترام المماليك وتقديرهم، بقدر ما حظي به رجال الدين والتّجار، وسبب احترامهم لرجال الدين عائد -أولاً- إلى أنّهم يقدّرون لهم جهدهم الذي بذلوه من أجل تعليمهم دين الإسلام⁽⁴⁾، وعائد ثانياً - إلى الخشية منهم؛ إذ إنّهم "يمثّلون سلطة الأمة بإزاء سلطة الحكومة... يذودون عن حقوقها، يقفون من أجلها في وجوه الملوك والحكّام"⁽⁵⁾، فقد كان بمقدورهم تحريض أفراد الشعب ضدّ أيّ حاكم منهم، وانتزاع السلطنة من بين يديه، ودليل ذلك ما ذكره الأسنوي أثناء حديثه عن وفاة الشيخ عزّ الدين بن عبد

¹ المقرّيزيّ، إغاثة الأمة بكشف الغمّة، نشره محمّد مصطفى زيادة وجمال الدين الشّيال، (د.ط)، مطبعة لجنة التّأليف والترجمة والنشر، 1940م، ص 72-73.

² حمزة، عبد اللطيف، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، ط 8، دار الفكر العربي، 1968م، ص 67.

³ ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 53.

⁴ المقرّيزيّ، السلوك، ج 1، ق 3 / 383.

⁵ حمزة، الحركة الفكرية، ص 69.

السلام، حيث قال: "ولمّا بلغ السلطان خبر وفاته، قال: لم يستقرّ (لي) ملكي إلا الساعة، فإنه لو أمر الناس في شأني بما أراد، لبادروا إلى امتثال أمره"⁽¹⁾. ذلك شأن رجال الدين، أمّا التجار فقد كان سببُ احترامهم مختلفاً كلّ الاختلاف عن سابقه، إذ إنه نابع من الثروة الطائلة التي تمتّعوا بها، نتيجة النشاط التجاري الذي شهدته مصر آنذاك، ولذلك فقد عدّوهم "المصدر الأساسي الذي يمدّهم بالمال في ساعات الحرج والشدة"⁽²⁾.

أمّا بقية أفراد المجتمع من عامة الشعب⁽³⁾، فلم يكونوا سوى محطّ استغلال الطبقات العليا، إذ فرضت عليهم ضرائب مختلفة، أرهقت كواهلهم، فعانوا من انعدام القوت في أوقات غلاء الأسعار، وكان الموت مصير أكثرهم⁽⁴⁾، وليس ذلك فحسب، وإنّما أخذت أموالهم عند نفاذ الأموال من خزائن الدولة، في أوقات تعرّض البلاد لبعض الأمور الحرجة⁽⁵⁾، ومع ذلك، ظلّوا محافظين على ابتسامتهم، وروحهم الفكاهة، التي يقول عنها مصطفى الصاوي: إنّها "استعلاء على ما صادف شعب مصر من محن، فهو لم يرسّب في أعماقه الكوارث كي تعقد من شخصيته، أو تجعلها مترمّنة كدرة، وإنّما حاول بالنّادرة والنكتة أن يفرّج عن كربّه، وأن ينفّس عن حزنه، فيحتفظ بصفاء نفسه وبساطة طبعه"⁽⁶⁾.

ويبدو أنّ السياسة الظّالمة، التي مارسها بعض سلاطين المماليك ضدّ أفراد الشعب المصريّ، أدّت إلى انقسام بعضهم إلى فريقين متناقضين: الفريق الأوّل قرّر أفراد الهروب من واقعهم المرير إلى رحاب الحياة الدينيّة، فانضمّوا إلى صفوف

¹ الأسنوي، جمال الدين (ت 772هـ)، طبقات الشافعيّة، تحقيق كمال يوسف الحوت، ط 1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1987م، 84/1.

² عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص 324.

³ العامّة: هم "جمهور الناس من عامّة الشعب في سلطنة المماليك، سواء أكانوا من العاملين من ذوي الدّخل المتوسّط، أم العاطلين عن العمل، أم المتقاعدسين عن تعاطي الحرف المختلفة في المجتمع"، الحجّي، حياة ناصر، أحوال العامّة في حكم المماليك، ط 1، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، 1984م، ص 15-16.

⁴ انظر: المقرئزي، المواعظ والاعتبار، 296/1، وابن إيّاس، بدائع الزهور، ج 1، ق 333-319/1، الجمال، أحمد صادق، الأدب العامي في مصر العصر المملوكي، (د.ط)، الدّار القوميّة للطباعة والنشر، القاهرة، 1966م، ص 23-34.

⁵ انظر: ابن إيّاس، بدائع الزهور، ج 1، ق 336-337.

⁶ الجويني، مصطفى الصاوي، ملامح الشخصية المصريّة في الدراسات البيانيّة في القرن السابع الهجري، (د.ط)، الهيئة المصريّة العامّة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970م، ص 148.

المتصوفة، الذين حظوا باهتمام السلاطين ورعايتهم، فقد بنوا لهم الخوانق والزوايا، ووقفوا فيها كل ما يحتاجونه من مقومات الحياة⁽¹⁾، ولعل هذا الأمر كان دافعا رئيسا لانضمام أفراد الفريق إليهم، إذ إنهم وجدوا عندهم المأوى الذي يحميهم، ولقمة العيش التي تسد جوعهم.

وقد فضل أفراد الفريق الثاني الانغماس في الملاهي والملذات⁽²⁾، فكانوا يسرون عن أنفسهم باللهو تارة، وباقتراف المنكرات تارة أخرى، تلك المنكرات التي أكثروا منها في أوقات الاحتفالات والأعياد⁽³⁾، فهذا المقريري مثلا- يقول عن عيد النيروز: "كانت المنكرات ظاهرة فيه، والفواش صريحة في يومه... يتجمع المؤنثون والفاسقات... وبأيديهم الملاهي، وترتفع الأصوات، وتُشرب الخمر والمزِرُ شربا ظاهرا بينهم وفي الطرقات، ويتراش الناس بالماء والخمر، وبالماء ممزوجا بالأقذار، فإن غلط مستورٌ وخرج من داره لقيه من يرشهُ، ويفسد ثيابه، ويستخف بجرمته، فإما فدى نفسه وإما فُضح"⁽⁴⁾، ونتيجة لذلك انتشر الفساد في الديار؛ فاندفع بعض السلاطين إلى محاربة أسبابه، كالظاهر بيبرس الذي أصدر أمرا سنة (665هـ) "بإبطال ضمان الحشيش وإحراقها، وأخرب بيوت المُسكرات، وكسر ما فيها من الخمر وأراقها، ومنع الحانات من الخواطيء"⁽⁵⁾.

وقد صاحب الفساد السابق فسادا آخر مستتر، شاع بين بعض أفراد الطبقات العليا، تمثل بالرشا، التي لجأوا إليها في معظم الأحيان- تحقيقا لمآربهم، وغالبا ما

¹ انظر: حسين، علي صافي، الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري (دراسة في الأدب المصري)، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، 1964م، ص 19، 29-30، والجَمال، الأدب العامي، ص 37، وعاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص 353.

² من أبرز الملاهي والملذات التي مارسوها: الصيد، المناقرة والمناطحة، الترد والشطرنج، الألغاز والأحاجي، الغناء والرقص، المجون، ويشمل: الخمر، الحشيشة، الشذوذ والغلمان، انظر: أمين، أدب العصر المملوكي الأول، ص 343-409.

³ احتفل المصريون بوفاء النيل وبالأعياد الدينية كالفطر والأضحى إضافة إلى بعض أعياد التصاري، كعيد البشارة، والصليب، والغطاس، وغير ذلك، وبيع بعض أعياد الفرس كالنوروز أو النيروز كما يطلق عليه في بعض الأحيان، انظر: المقريري، المواعظ والاعتبار، 1/747-732، وأمين، أدب العصر المملوكي، ص 279-284.

⁴ المقريري، المواعظ والاعتبار، 2/357-358.

⁵ ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1/326.

كانت تلك المآرب تتعلّق بولاية أحد المناصب المرموقة آنذاك⁽¹⁾، فكانت النتيجة أن تخطّى "كلّ جاهل ومفسد وظالم وباغٍ إلى ما لم يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة"⁽²⁾، وبما أن الرّشوة أوصلت -في بعض الأحيان- أراذل الناس إلى بعض المناصب الدينيّة والدينيّة: كالوزارة، والقضاء، ونيابة الأقاليم، وولاية الحسبة، فلا يُستبعد ابتعادهم عن الرّسالة التي أوكلوا لأجل تحقيقها، والتي تتمثّل بإحقاق الحقّ وإبطال الباطل؛ إذ إنّ الذي يرشي لابدّ من قبوله الارتشاء يوم ما.

وعند الدّخول إلى رحاب الحياة الدينيّة في ذلك الوقت، يلاحظ أنّ أبرز ما يميّزها، إقدام المماليك على محاربة المذهب الشيعيّ، وذلك لأنهم اعتنقوا الإسلام، واتّبَعوا المذهب السنيّ، وعندما لاحظوا انتشار التّشيع -الموروث عن الفاطميين- في بعض نواحي الدّيار المصريّة، حاولوا القضاء عليه ومحو آثاره، مقتفين بذلك أثر الأيوبيين، فلجأوا إلى استخدام القوّة حيناً، وإنشاء المدارس التي اهتمّت بتدريس المذاهب السنيّة الأربعة حيناً آخر، إضافة إلى تشجيعهم لحركة التّصوّف⁽³⁾، ولعلّ إقدامهم على تلك الخطوة (أي محاربة التّشيع) نابع من محاولتهم تدعيم أركان دولتهم، عن طريق إضفاء طوق من القداسة الدينيّة عليها؛ فقد حملوا راية الجهاد ضدّ أعداء الإسلام والمسلمين أوّلاً، وأحيوا الخلافة العبّاسيّة ثانياً، وحاولوا القضاء على التّشيع ونشر المذهب السنيّ ثالثاً.

غير أنّ قسوة المماليك لم تقتصر على أصحاب المذهب الشيعيّ فحسب، بل طالّت اليهود والنّصارى، دليل ذلك ما تحويه بعض الكتب من أخبار تتعلّق بسياسة بعض السّلاطين في معاملتهم، ومن الأمثلة على تلك الأخبار، أنّ الحريق كثر في القاهرة سنة (663هـ)، في أثناء سلطنة الظاهر بيبرس، فشاع بين النّاس أنّ النّصارى هم الذين قاموا بإضرامه، فما كان من السّلطان إلّا أن أمر بجمعهم وإحراقهم، ولكنّ الأتابك فارس أقطاي المُستعرب تشفّع لهم عنده، فاشتراط عليهم بأن

¹ انظر: أحمد، أحمد عبد الرزاق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك (دراسة عن الرّشوة)، (د.ط.)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، 1979م، ص 136-137.

² المقرئزي، إغاثة الأمّة بكشف الغمّة، ص 43.

³ انظر: حمزة، الحركة الفكرية، ص 82، وعاشور، العصر المماليكي، ص 349-350، والجمال، الأدب العامي، ص 12-13.

يدفعوا مبلغا من المال لخزائن الدولة جزاء ما فعلوا، وأن يصلحوا المباني التي فَسَدَتْ بفعل الحريق⁽¹⁾.

ولم يكن المنصور قلاوون أقلّ قسوة عليهم من الظاهر بيبرس، إذ إنه حرّمهم من الالتحاق بالوظائف العامة، وأوقع بهم أشدّ العقوبات⁽²⁾، فكانوا في عهده "يركبون الحمير بزنانير في أوساطهم، ولا يجسر نصرانيّ (أن) يحدث مسلما وهو راكب، وإذا مشى فبذلة، ولا يقدر أحد منهم أن يلبس ثوبا مصقولا"⁽³⁾.

أمّا الأشرف خليل، فقد كان رحيمًا بهم في بادئ أمره، إذ سمح لهم بمزاولة بعض الوظائف في دولته، ولكنهم تطاولوا على المسلمين، وما أن علم بذلك حتى أمر بجمعهم ليقتلوا، ولكنّ شفاعة الأميرين: بدر الدين بيدرا، وسنجر الشجاعيّ، حالت دون تحقيق ذلك، فأصدر في الوقت ذاته أمرا مفاده "أن لا يخدم أحدٌ من النصارى واليهود عند أمير، وأمر الأمراء بأجمعهم أن يعرضوا على مَنْ عندهم من الكتاب النصارى الإسلام، فمن امتنع من الإسلام ضُربت عنقه، ومن أسلم استخدموه عندهم"⁽⁴⁾، وكانت النتيجة أن أسلم معظمهم؛ لينجوا بأنفسهم من الموت، ولكنّ إسلامهم أضرّ بالمسلمين كثيرا، فقد "صار الدليل منهم بإظهار الإسلام عزيزا، يُبدي من إذلال المسلمين والتسلّط عليهم بالظلم ما كان يمنعه نصرانيّته من إظهاره"⁽⁵⁾. وبعد ذلك، استمرّت حال اليهود والنصارى متذبذبةً بين الإكرام والإذلال؛ بسبب سطوتهم على المسلمين في حال إكرامهم⁽⁶⁾.

3.2.1 الحياة الثقافيّة

كانت بغداد في بداية حكم المماليك تحتلّ زعامة العالم الإسلاميّ من الناحيتين: الدينيّة والعلميّة؛ وذلك لأنّها مقرّ الخلافة العبّاسيّة، التي ينظر إليها الناس في مختلف البقاع نظرة احترام وتقدير، أضف إلى ذلك أنّها كانت من أبرز المراكز العلميّة

¹ ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1/324-325.

² المقرئزي، المواعظ والاعتبار، 285/3.

³ المصدر نفسه، 778/3.

⁴ المصدر نفسه، 779/3.

⁵ المصدر نفسه، 780/3.

⁶ انظر: المقرئزي، المواعظ والاعتبار، 500-498/2، وحمزة، الحركة الفكرية، ص 353-349.

آنذاك، وقد توافد عليها كثير من أبناء البلاد المجاورة؛ طلبا للعلم والمعرفة، ولكن اجتياح التتار لأرضها سنة (656هـ) هدم كل شيء، إذ إنهم لم يكتفوا بقتل أهلها وتشريدهم فحسب، بل عمدوا إلى طمس معالم الحضارة فيها، فأحرقوا مكتباتها، وألقوا ما فيها من الكتب النفيسة في نهر دجلة⁽¹⁾.

وقد كان لانتقال الخلافة العباسية إلى الديار المصرية واستقرارها في القاهرة سنة (661هـ) دورٌ كبير في نقل النشاط العلمي إلى أراضيها، وسبب ذلك يذكره السيوطي بقوله: "الإيمان والعلم يكونان مع الخلافة أينما كانت"⁽²⁾، وبذلك أصبحت مصر وريثة لبغداد في مكانتها: الدينية والعلمية.

وإن كان استقرار الخلافة العباسية في مصر عاملا رئيسا في إكسابها أهمية علمية جعلت منها قبلة جديدة لوفود أهل العلم، فإن اهتمام سلاطينها بالعلم والعلماء ساعد في إكسابها تلك الأهمية أيضا؛ فقد عمدوا إلى تشييد مدارس عديدة، عُيّنت بتدريس العلوم المختلفة، وأغدقوا على مرتاديها أموالا طائلة، وللتعرف على ذلك بدقة، يُستحضر ما أورده شوقي ضيف في كتابه (عصر الدول والإمارات) عن المدرسة الظاهرية، التي أنشئت في عهد الظاهر بيبرس سنة (662هـ)، إذ قال مبينا مدى الأهمية التي أولاها الظاهر لمرتادي تلك المدرسة: "أجرى الرواتب على أساتذتها وطلابها، وألحق بها مساكن لهم، كما ألحق بها مكتبة تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم، وبنى بجانبها مكتبا لتحفيظ أيتام المسلمين كتاب الله، وأجرى لمن به من الأطفال الجرايات والكسوة"⁽³⁾.

ومثل ذلك فعل المنصور قلاوون بالمدرسة المنصورية، التي أنشئت في عهده سنة (683هـ)، إلا أنه افتتح إلى جانبها مارستانا ضخما، عُني بالمعالجة الصحية من جهة، وبالمعرفة العلمية من جهة أخرى، فقد كان المارستان مشفى وكلية طب في آن واحد، وذلك لأن المنصور قلاوون أمر بتخصيص قاعة فيه لرئيس أطبائه،

¹ انظر: سليم، عصر سلاطين المماليك، مج3، ق1، ج10/2، 17، وفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، (د.ط)، المطبعة البوليسية، (د.ت)، ص 860.

² السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت 911 هـ)، حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1968م، 94/2.

³ ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 84، وانظر عن المدرسة الظاهرية عند المقرئ في المواعظ والاعتبار، 476/3-479، والسيوطي في حسن المحاضرة، 264/2.

كي يتسنى له إلقاء دروسه على طلبة الطب آنذاك، وقد سار بقية سلاطين المماليك على نهج الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون في عنايتهما بالعلم وأهله؛ فاستمروا ببناء المدارس وتشجيع العلماء إلى أن زالت دولتهم⁽¹⁾.

وإلى جانب المدارس، استمرت المساجد والجوامع بعقد حلقات التدريس في رحابها، وقد كان مدار الحديث فيها عن العلوم الدينية أولاً، والعلوم التي ترتبط بالدين ثانياً، يقصد بذلك العلوم اللغوية، التي تساعد على تقويم لسان المرء في نطق آيات القرآن الكريم من جهة، وتكسبه قدرة على سبر ما غمض معناه فيها من جهة أخرى، إلى غير ذلك من المهام التي تساعد على فهم العقيدة وأمورها⁽²⁾.

ونتيجة للتشجيع الذي حظي به العلماء في دار الخلافة؛ نشطت حركة التأليف، إذ إنهم عمدوا إلى تأليف الكتب في موضوعات مختلفة: كالعلوم الدينية، والعلوم اللغوية، والتاريخ، والطب، وغيرها، ولعل الهدف من ذلك محاولة إصلاح الدمار الذي أصاب العلم في بغداد، ومن الأمثلة على تلك الكتب:

أولاً: كتب اختصت بالحديث عن بعض العلوم الدينية، ومنها: (التحرير والتحرير في أقوال أئمة التفسير في معاني السميع البصير) لابن النقيب، و (الإمام في الحديث وشرحه)، و (شرح العنوان في أصول الفقه) لابن دقيق العيد، و (البحر المحيط في التفسير)، و (الروض الباسم في قراءة عاصم)، و (المورد الغمر في قراءة أبي عمرو) لأبي حيّان الأندلسي.

ثانياً: كتب اختصت بالحديث عن بعض العلوم اللغوية، ومنها: (لسان العرب) لابن منظور، و (الكافية الشافية)، و (عدة اللافظ وعمدة الحافظ) لابن مالك، و (التذكرة في اللغة)، و (التجريد لأحكام سيبويه)، و (التنزيل والتكميل في شرح التسهيل) لأبي حيّان الأندلسي.

ثالثاً: كتب التراجم وتاريخ الدول والسير، ومنها: (وفيات الأعيان) لابن خلكان، و (الوافي بالوفيات) للصقدي، و (وفات الوفيات) لابن شاکر الكتبي، و (التحفة الملوكية في الدولة التركية)، و (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) لبيبرس المنصوري،

¹ انظر: السيوطي، حسن المحاضرة، 264/2، 265، 269، 271، والمقريزي، المواعظ والاعتبار، 480/3، 485-486، 547-552، وضيف، عصر الدول والإمارات، ص 84، 101.

² انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، 213/3-230، وضيف، عصر الدول والإمارات، ص 84-85.

و(الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر)، و(تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور)، و(الألطف الخفية من السيرة السلطانية الأشرفية) لمحيي الدين بن عبد الظاهر.

رابعاً: كتب في الطب وتراجم الأطباء، ومنها: (الشامل في الطب)، و(المهذب في الكحل) لابن النفيس، و(حكايات الأطباء في علاجات الأدوية)، و(عيون الأنبياء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة.

خامساً: كتب موسوعية: وهي الكتب التي جمع فيها أصحابها علوماً شتى، ومن الأمثلة عليها: (مباهج الفكر ومناهج العبر) للوطواط الكتبي، و(نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري⁽¹⁾.

غير أن النشاط لم يقتصر على حركة التأليف فحسب، وإنما نشطت إلى جانبها حركة الترجمة والتعريب، وقد أبدى سمير الدروبي اهتمامه بتلك الحركة؛ فأفرد لها أبحاثاً تناول فيها أهم الأسباب التي ساعدت على نشاطها، وأبرز أصناف الترجمة في ديوان الإنشاء المملوكي، واللغات التي تمت الترجمة منها وإليها، مع عرض لأهم المترجمات عن تلك اللغات إلى العربية⁽²⁾.

وإذا ما أُلقيت نظرة على الأدب في تلك الفترة بشقيه: نثره ونظمه، يلاحظ أنه كان متماشياً مع الأحداث، سواء سياسية، أم اجتماعية، أم ثقافية، ومعبّراً عنها في الوقت ذاته، وفي هذه الدراسة يُكتفى بالعرض الموضوعي الذي سيُقدّم فيما بعد لرسائل محيي الدين بن عبد الظاهر؛ للتدليل على مدى مواكبة النثر لتلك الأحداث، أمّا الآن فسيقتصر على ضرب أمثلة شعرية نظمها شعراء عديدون في أحداث مختلفة جرت آنذاك، ويبدأ -أولاً- بقصيدة نظمها أحد الشعراء في مدح المظفر قطز، الذي هزم التتار في موقعة عين جالوت سنة (658هـ)، ومنها:

¹ انظر: حمزة، الحركة الفكرية في مصر، ص 178، 227، 228، 242، وبدوي، أحمد أحمد، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، (د.ط)، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، (د.ت)، ص 121، 169، 170، 211، 279، 322، 323، وفروخ، تاريخ الأدب العربي، 611/3-612، وسلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، (د.ط)، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ت)، 359/2-360.

² انظر: الدروبي، سمير، حركة الترجمة والتعريب في ديوان الإنشاء المملوكي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، الأردن، ع 62، 2002م، ص 11-57، وأصناف الترجمة في ديوان الإنشاء المملوكي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، الأردن، ع 65، 2003م، ص 11-36.

هَلَكَ الْكُفْرُ فِي الشَّامِ جَمِيعاً وَاسْتَجَدَّ الْإِسْلَامُ بَعْدَ دُخُوضِهِ
بِالْمَلِكِ الْمُظْفَرِ الْأُرُوعِ سَيْفِ الْإِسْلَامِ عِنْدَ نُهُوضِهِ
مَلِكٌ جَاعِنًا بِعِزِّهِ وَحَزْمِ فَاعْتَزَزْنَا بِسُمرِهِ وَبَبِيضِهِ
أَوْجَبَ اللَّهُ شُكْرَ ذَاكَ عَلَيْنَا دَائِماً مِثْلَ وَاجِبَاتِ فُرُوضِهِ⁽¹⁾

كما أبدى شهاب الدين محمود إعجابه بحنكة الظاهر بيبرس وذكائه في الموقعة التي دارت بين جيشه وجيش التتار عند الفرات سنة (671هـ)؛ إذ لم يجد سبيلاً للوصول إلى الأعداء الذين كانوا يقفون على شطّ الفرات سوى خوضه بصحبة جيشه الجرّار، يقول:

سِرَ حَيْثُ شِئْتَ لَكَ الْمُهِيمُنُ جَارُ وَاحْكُمْ فَطَوْغُ مُرَادِكَ الْأَقْدَارُ
لَمْ يَبْقَ لِلدِّينِ الَّذِي أَظْهَرْتَهُ يَا رُكْنَهُ عِنْدَ الْأَعَادِي ثَارُ
لَمَّا تَرَأَقَصَتِ الرُّؤُوسُ وَحَرَّكَتِ مِنْ مُطْرِبَاتِ قِسِيكَ الْأَوْتَارُ
خَضَتِ الْفُرَاتُ بِسَابِحِ أَقْصَى مَنِيٍّ هَوَجَ الصَّبَا مِنْ نَعْلِهِ آثَارُ
حَمَلْتِكَ أَمْوَاجُ الْفُرَاتِ وَمَنْ رَأَى بَحْرًا سِوَاكَ تُقْلُهُ الْأَنْهَارُ
وَتَقَطَّعْتَ فِرْقًا وَلَمْ يَكُ طَوْذُهَا إِذْ ذَاكَ إِلَّا جَيْشُكَ الْجَرَّارُ
رَشَّتْ دِمَاؤُهُمُ الصَّعِيدَ فَلَمْ يَطْرُرْ مِنْهُمْ عَلَى الْجَيْشِ السَّعِيدِ غُبَارُ
شَكَرْتَ مَسَاعِيكَ الْمَعَاقِلُ وَالْوَرَى وَالتَّرْبُ وَالْأَسَادُ وَالْأَطْيَارُ⁽²⁾

كما أنه مدح المنصور قلاوون عند فتحه حصن المرقب سنة (678هـ)، مركزاً على إظهار منعة ذلك الحصن؛ فقد حاول الملوك فتحه من قبل، إلا أنهم لم يستطيعوا تحقيق ذلك، يقول:

اللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا النَّصْرُ وَالظَّفَرُ هَذَا هُوَ الْفَتْحُ لَا مَا تَزَعُمُ السَّيْرُ
هَذَا الَّذِي كَانَتْ الْأَمَالُ إِنْ طَمَحَتْ إِلَى الْكَوَاكِبِ تَرْجُوهُ وَتَتَنَظَّرُ
فَانْهَضَ وَسِرٌ وَأَمْلَكَ الدُّنْيَا فَقَدْ نَحَلَتْ شَوْقًا مَنَابِرُهَا وَارْتَاخَتِ السُّرُرُ
كَمْ رَامَ قَبْلَكَ هَذَا الْحِصْنَ مِنْ مَلِكٍ فَطَالَ عَنْهُ وَمَا فِي بَاعِهِ قِصَرُ
وَكَيْفَ تَمْنَحُهُ الْإِيَّامُ مَمْلَكَةً كَانَتْ لِدَوْلَتِكَ الْغَرَاءُ تُدْخِرُ
وَكَيْفَ يَسْمُو إِلَيْهَا مَنْ تَأَخَّرَ عَنْ إِسْعَادِهِ مُنْجِدَاكَ: الْقَدَرُ وَالْقَدَرُ

¹ ابن الوردي، زين الدين عمر (ت 749هـ)، تاريخ ابن الوردي، (د.ط)، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، 1969م، 2/296.

² ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/159-160.

غَرَّ الْعِدَا مِنْكَ حِلْمٌ تَحَسَّنَتْهُ هِمَمٌ لِأَشْفَرِ الْبَرْقِ مِنْ تَحْجِيلِهَا غُرَرُ
لَهَا وَإِنْ أَشْبَهَتْ لُطْفَ النَّسِيمِ سَرَى مَعْنَى الْعَوَاصِفِ لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ⁽¹⁾

ويبدو أن الجهاد كان شغلا شاغلا لأفراد تلك الفترة، يهجسون به ليل نهار،
فهذا البوصيري مثلا- رأى في منامه -قبل توجه الأشرف خليل إلى عكا- قائلا
ينشد أبياتا في فتحها، وهي:

قَدْ أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ عَكَا وَأَشْبَعُوا الْكَافِرِينَ صَكَا
وَسَاقَ سُلْطَانَنَا إِلَيْهِمْ خَيْلًا تَذُكُّ الْجِبَالَ دَكَا
وَأَقْسَمَ التُّرْكُ مُنْذُ سَارَتْ لَنْ يَتْرَكُوا لِلْفَرَنْجِ مُلْكَا⁽²⁾

وما أن وصل الأشرف عكا حتى تحقق منام البوصيري؛ إذ إنه فتحها بصحبة
جيشه سنة (690هـ) بعدما دارت بينهم وبين الصليبيين معركة طاحنة وصفها
شهاب الدين محمود قائلا:

وَجَنَّتْهَا بِجِيوشِ كَالسَّيُولِ عَلَى أَمْثَالِهَا بَيْنَ آجَامٍ مِنَ الْقَصَبِ
وَحُطَّتْهَا بِالْمَجَانِيْقِ الَّتِي وَقَفَتْ أَمَامَ أَسْوَارِهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ
وَرُضَّتْهَا بِنُقُوبٍ ذَلَّتْ شِمَمَا مِنْهَا وَأَبَدَتْ مَحِييَاهَا بِلَا نَقَبِ
وَعَنَتِ الْبَيْضُ فِي الْأَعْنَاقِ فَارْتَقَصَتْ أَجْسَادَهَا لَعِبَا مِنْهُنَّ بِاللَّعَبِ
وَخَلِقَتْ بِالْدَمِ الْأَسْوَارَ فَابْتَهَجَتْ طَبِيبًا وَلَوْلَا دِمَاءُ الْقَوْمِ لَمْ تَطِبِ
ظَنُّوا بُرُوجَ الْبُيُوتِ الشَّمَّ مَعْقِلُهُمْ فَاسْتَعَقَلَتْهُمْ وَلَمْ تُطْلِقْ وَلَمْ تَهَبِ
فَأَحْرَزَتْهُمْ وَلَكِنْ لِلسِّيُوفِ لِكِي لَا يَلْتَجِي أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى هَرَبِ
وَجَالَتْ النَّارُ فِي أَرْجَائِهَا وَعَلَّتْ فَأَطْفَأَتْ مَا بِصَدْرِ الدِّينِ مِنْ كَرَبِ
وَأَفْلَتَ الْبَحْرُ مِنْهُمْ مَنْ يُخْبِرُ مَنْ يَلْقَاهُ مِنْ قَوْمِهِ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ⁽³⁾

وقد شاعت ظاهرة رثاء المدن والبكاء عليها في بعض أشعار تلك الفترة -لا
شك في ذلك- إذا ما تُصورَ مدى الدمار الذي حلَّ ببعض المدن الإسلامية على يد
أعدائها، فهذا تقي الدين إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر يرثي بغداد بعد سقوطها
في أيدي التتار سنة (656هـ) قائلا:

¹ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 317/7-318.

² ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق 369/1.

³ ابن الفرات، ناصر الدين محمد عبد الرحيم (ت 696 هـ)، تاريخ ابن الفرات، حققه وضبط نصّه
قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، (د.ط)، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1939م، مج 117/8-118.

لِسَائِلِ الدَّمْعِ عَنِ بَغْدَادَ أَخْبَارُ
يَا زَائِرِينَ إِلَى الزُّورَاءِ لَا تَقْدُوا
تَاجَ الْخِلَافَةِ وَالرَّبِيعُ الَّذِي شَرُفَتْ
يَا نَارَ قَلْبِي مِنْ نَارِ لِحَرْبٍ وَغَى
عَلَا الصَّلِيبُ عَلَى أَعْلَى مَنَابِرِهَا
فَمَا وَقُوفُكَ وَالْأَحْبَابُ قَدْ سَارُوا
فَمَا بِذَلِكَ الْحِمَى وَالْدَّارَ دَيَّارُ
بِهِ الْمَعَالِمُ قَدْ عَفَّاهُ إِقْفَارُ
شُبَّتْ عَلَيْهِ وَوَأْفَى الرَّبِيعَ إِعْصَارُ
وَقَامَ بِالْأَمْرِ مَنْ يَحْوِيهِ زُنَّارُ⁽¹⁾

ورثي كمال الدين بن العديم مدينة حلب بعد عودته إليها، ذلك لأنه غادرها متجهاً إلى مصر عندما دخلها التتار، فبين مدى الدمار الذي أعمله الأعداء فيها قائلًا:

هُوَ الدَّهْرُ مَا تَبْنِيهِ كَفَّاكَ يَهْدِمُ
أَبَادَ مُلُوكَ الْفُرسِ جَمْعًا وَقَيْصَرًا
وَأَفْنَى بَنِي أَيُّوبَ مَعَ كَثَرِ جَمْعِهِمْ
وَمَلِكُ بَنِي الْعَبَّاسِ زَالَ وَلَمْ يَدَعْ
وَأَعْتَابُهُمْ أَضْحَتْ تُدَاسُ وَعَهْدُهَا
وَعَنْ حَلَبَ مَا شِئْتَ قُلْ مِنْ عَجَائِبِ
فِيَاللَّكَ مِنْ يَوْمٍ شَدِيدٍ لُغَامُ—
وَقَدْ دَرَسَتْ تِلْكَ الْمَدَارِسُ وَارْتَمَتْ
وَلَكِنَّمَا لِلَّهِ فِي ذَا مَشْيُ—
وَإِنْ رُمْتَ إِنْصَافًا لَدَيْهِ فَتَظَلَمُ
وَأَصْمَتَ لَدَى فُرْسَانِهَا مِنْهُ أُسْهُمُ
وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَلِيكَ مُعْظَمُ
لَهُمْ أَثَرًا مِنْ بَعْدِهِمْ وَهُمْ هُمْ
تُبَّاسُ بِأَفْوَاهِ الْمُلُوكِ وَتُلْثَمُ
أَحِلَّ بِهَا يَا صَاحِ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ
وَقَدْ أَصْبَحَتْ فِيهِ الْمَسَاجِدُ تُهْدَمُ
مَصَاحِفُهَا فَوْقَ الثَّرَى وَهِيَ ضُخْمُ
فَيَفْعَلُ فِينَا مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ⁽²⁾

وعندما أحيا الظاهر بيبرس الخلافة العباسية بعد ثلاث سنوات من زوالها من بغداد، استبشر الشعراء، فراحوا ينظمون أشعارا عديدة في مدحه، منها قول أحدهم:

يَا أَسَدَ التُّرْكِ وَيَا رُكْنَهُمْ
كَسَرْتَ الطُّغَاةَ جَبَرْتَ الْعَفَاةَ
وَيَا آخِذَ النَّارِ بَعْدَ الْمَخَافَةِ
قَطَعْتَ الْفُرَاتَ وَصَلْتَ الْخِلَافَةَ⁽³⁾
وقول جمال الدين بن الخشاب:

قَصَدَ الْمُلُوكُ حِمَاكَ وَالْخُلَفَاءُ
فَافْخَرُوا فَإِنَّ مَحَلَّكَ الْجَوَزَاءُ⁽⁴⁾

¹ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 52-51/7.

² ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، 307-306/2.

³ ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 314/1.

⁴ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 185، وشافعي بن علي، حسن المناقب السرية، ص 146، والمقريزي، المواعظ والاعتبار، 478/3.

وقد عبّر بعض الشعراء عن مدى سرورهم بالخطوة التي أقدم عليها الظاهر ببيرس في تلك الفترة، والتي تتمثل بإقامة قضاة يمثلون المذاهب السنية الأربعة في وقت واحد، فهذا البوصيري مثلاً- يقول:

غَدَا جَامِعُ ابْنِ الْعَاصِ كَهْفَ أَثْمَةٍ	فَلَلَهُ كَهْفٌ لِلْأُثْمَةِ جَامِعٌ
لَقَدْ سَرَرْنَا أَنْ الْقُضَاةَ ثَلَاثَةً	وَأَنْتَ تَاجُ الدِّينِ لِلْقَوْمِ رَابِعٌ
بِهِمْ بُنِيَّةُ الْإِسْلَامِ صَحَّتْ وَكَيْفَ لَا	نَصَحُ وَهُمْ أَرْكَانُهَا وَالطَّبَائِعُ
فَهُمْ رُخْصاً أَبَدُوا لَنَا وَعَزَائِمًا	هُدَيْنَا بِهَا فَهِيَ النُّجُومُ الطَّوَالِعُ
فَلَا تَبْتَنِسْ إِنْ وَسَّعَ اللَّهُ فِي الْهُدَى	مَذَاهِبِنَا بِالْعِلْمِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ
تَفَرَّقَتْ الْأَرَاءُ وَالْدِينُ وَاجِدٌ	وَكُلٌّ إِلَى رَأْيٍ مِنَ الْحَقِّ رَاجِعٌ
فَهَذَا اخْتِلَافٌ جَرَّ لِلخَلْقِ رَاحَةً	كَمَا اخْتَلَفَتْ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ ⁽¹⁾

كَمَا عَبَّرَ بَعْضُهُمْ عَنْ اسْتِيائِهِمْ مِنْ تِلْكَ الْخَطْوَةِ؛ بِسَبَبِ الْاضْطِرَابِ الَّذِي عَمَّ الْمَجْتَمَعَ نَتِيجَةً لَهَا، فَقَالَ أَحَدُهُمْ سَاخِرًا:

فَاشْرَبْ وَلَطْ وَقَامِرْ وَاحْتَجِجْ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ يَقُولُ إِمَامٌ⁽²⁾

وقد واجه تصرف مستخدمي ذلك العصر انتقاداً شديداً من قبل بعض الشعراء؛ إذ إنهم كانوا يظهرون الورع والتقوى، وفي الوقت ذاته ينهبون أموال الشعب، ولا شك في ذلك إذا ما عُلِمَ أَنَّ الفساد قد تغلغل إلى نفوسهم؛ نتيجة لضعف الوازع الديني فيها، يقول البوصيري:

تَكَلَّمْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَخْدِمِينَ	فَلَمْ أَرَ فِيهِمْ رَجُلًا أَمِينًا
فَخَذْتُ أَخْبَارَهُمْ مِنْ شِفَاهَا	وَأَنْظَرْنِي لِأَخْبَرَكَ الْيَقِينَا
فَقَدْ عَاشَرْتُهُمْ وَلَبِثْتُ فِيهِمْ	مَعَ التَّجْرِبِ مِنْ عُمْرِي سِنِينَا
فَكُتِّبَ الشَّمَالُ هُمْ جَمِيعًا	فَلَا صَحِبَتْ شِمَالُهُمُ الْيَمِينَا
وَقَدْ سَرَقُوا الْغِلَالَ وَمَا عَلِمْنَا	كَمَا سَرَقَتْ بَنُو سَيْفِ الْجُرُونَا
وَكَيْفَ يُلَامُ فُسَّاقُ النَّصَارَى	إِذَا خَانَتْ عُذُولُ الْمُسْلِمِينَا
وَلَوْلَا ذَاكَ مَا لَبَسُوا حَرِيرًا	وَلَا شَرَبُوا خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا

¹ البوصيري، ديوان البوصيري، ص 273.

² السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت 771 هـ)، مُعِيدُ النِّعَمِ وَمُبِيدُ النِّقَمِ (الإصلاح السياسي والإداري في الدول العربية الإسلامية)، ط1، دار الحديث، بيروت، 1983م، ص 102.

وَلَا رَبَّوْا مِنَ الْمُرْدَانِ قَوْمًا كَأَغْصَانٍ يَقْمَنَ وَيَنْحَنِينَ
وَقَدْ طَلَعْتَ لِبَعْضِهِمْ ذُقُونٌ وَلَكِنْ بَعْدَمَا نَتَقُوا ذُقُونًا
تَوَرَّعَ مَعْشَرٌ مِنْهُمْ وَعُودُوا مِنَ الزُّهَادِ وَالْمُتَوَرِّعِينَ
وَقِيلَ لَهُمْ دُعَاءٌ مُسْتَجَابٌ وَقَدْ مَلَأُوا مِنَ السُّحْتِ الْبُطُونَا
فَلَا تَقْبَلْ عَفَافَ الْمَرْءِ حَتَّى تَرَى أَتْبَاعَهُ مُتَعَفِّينًا⁽¹⁾

تلك حال المستخدمين، أمّا بقية أفراد المجتمع فقد كانوا يعيشون في ظلال الفقر وانعدام القوت، وقد صوّر غيرُ شاعرٍ صعوبةَ الحياة التي يحياها، والتي تنطبق على معظم الأفراد إذ ذاك، يقول ابن دانيال عن نفسه:

أَصْبَحْتُ أَفْقَرَ مَنْ يَرُوحُ وَيَغْتَدِي مَا فِي يَدِي مِنْ فَاقَةٍ إِلَّا يَدِي
فِي مَنْزِلٍ لَمْ يَحِوْ غَيْرِي قَاعِدَا فَإِذَا رَقَدْتُ رَقَدْتُ غَيْرَ مُمَدِّدٍ
لَمْ يَبْقَ فِيهِ سِوَى رُسُومٍ حَصِيرَةٍ وَمَخَذَّةٌ كَانَتْ لَأَمِّ الْمُهْتَادِي
مُلْقَى عَلَى طُرَاحَةٍ فِي حَشْوِهَا قَمَلٌ كَمَثَلِ السُّمُومِ الْمُتَبَدِّدِ
وَالْفَارُ يَرْكُضُ كَالْخَيُْولِ تَسَابَقَتْ مِنْ كُلِّ جَرْدَاءٍ الْأَدِيمِ وَأَجْرَدِ
هَذَا وَكَمْ مِنْ نَاشِرٍ طَاوِي الْحَشَا يَبْدُو كَمَثَلِ الْفَاتِكِ الْمُتَرَدِّدِ
هَذَا وَلِي ثَوْبٌ تَرَاهُ مُرَقَّعًا مِنْ كُلِّ لَوْنٍ مِثْلَ رِيَشِ الْهُدُودِ⁽²⁾

ونتيجة لمعاناة أولئك الأفراد من الظلم الاجتماعي، قرّر بعضهم الهروب من واقعهم المرير بالانغماس في الملاهي والملذات، فانتشر الفساد في الديار؛ ممّا دفع الظاهر ببيرس إلى محاربة أسبابه، عن طريق إصدار أمر بتغذية المنكرات، وتوعّد من يخالف أمره بعقاب شديد، وبالفعل، طبّق العقاب -أولاً- على شخص يسمّى ابن الكازروني بسبب سكره، فتمثّل ذلك بتعليق الجرّة والقدح في عنقه، فقال ابن دانيال عندما رأى الحدث:

لَقَدْ كَانَ حَدُّ السُّكْرِ مِنْ قَبْلِ صَلْبِهِ خَفِيفَ الْأَذَى إِذْ كَانَ فِي شَرَعِنَا جَلْدًا

¹ البوصيري، ديوان البوصيري، ص 266-269.

² الكتبي، محمّد بن شاکر (ت 764 هـ)، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، (د.ط)، دار صادر، بيروت، (د.ت)، 333-332/3.

فَلَمَّا بَدَأَ الْمَصْلُوبُ قُلْتُ لِصَاحِبِي: أَلَا تُبْ فَإِنَّ الْحَدَّ قَدْ جَاوَزَ الْحَدَّ(1)

ونظم قصيدة في رثاء إبليس، منها:

مَاتَ يَا قَوْمُ شَيْخُنَا إِبْلِيسُ	وَحَلَا مِنْهُ رَبْعُهُ الْمَأْنُوسُ
وَنَعَانِي حُدُوسِي بِهِ إِذْ تُوقَى	وَلَعَمْرِي مَمَاتُهُ مَحْدُوسُ
هُوَ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَمَا قُلْتُ مَيِّتًا	لَمْ يُغَيِّرْ لِأَمْرِهِ نَامُوسُ
أَيْنَ عَيْنَاهُ تَنْظُرُ الْخَمَرُ إِذْ	عَطَلَتْ مِنْهَا الرَّأُوقُ وَالْمَحْرِيسُ
وَمَوَاعِينُهَا قَدْ تَكَسَّرَتْ وَالْخَمَارُ	مِنْ بَعْدِ كَسَرِهَا مَحْبُوسُ
أَيْنَ عَيْنَاهُ وَالْحَشَائِشُ إِذْ تُحَرُّ	قَ بِنَارِ تِرَاعِ مِنْهَا الْمَجُوسُ
قَلَعُوهَا مِنَ الْبَسَاتِينِ إِذْ ذَاكَ	صِغَارًا خَضِرَاءَ وَهِيَ عَرُوسُ(2)

وقد أدت الظروف السياسية، والاجتماعية، والدينية إلى إكثار الشعراء من نظم المدائح النبوية حتى أصبحت من أبرز مميزات ذلك العصر(3)، ومن الأمثلة عليها قصيدة (البردة)، التي نظمها البوصيري، ومنها:

مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ وَالنَّعْلَيْنِ	نِ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمٍ
نَبِيُّنَا الْأَمْرُ النَّاهِي فَلَا أَحَدٌ	أَبْرُ فِي قَوْلٍ "لَا" مِنْهُ وَلَا "نَعَم"
هُوَ الْحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَى شِفَاعَتُهُ	لِكُلِّ هَوَلٍ مِنَ الْأَهْوَالِ مُقْتَحِمٍ
دَعَا إِلَى اللَّهِ فَالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ	مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلِ غَيْرِ مُنْقَصِمٍ
فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خَلْقٍ	وَلَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمٍ
وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مُلْتَمِسٌ	غَرَفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيمِ(4)

ولم يغفل الشعراء عن تصوير مدى حبّ سلاطين المماليك للعلم وأهله، فهذا السراج الوراق مثلاً- يقول في مدح الظاهر بيبرس، عند الانتهاء من تشييد المدرسة الظاهرية، مبيناً في الوقت ذاته حسن عمارتها:

مَلِكٌ لَهُ فِي الْعِلْمِ حُبٌّ وَأَهْلُهُ	فَلَلَهُ حُبٌّ لَيْسَ فِيهِ مَآلَمُ
فَشَيَّدَهَا لِلْعِلْمِ مَدْرَسَةً غَدَا	عِرَاقٌ إِلَيْهَا شَيْقًا وَشَامُ
وَلَا تَذْكُرْنَ يَوْمًا نِظَامِيَّةً لَهَا	فَلَيْسَ يُضَاهِي ذَا النِّظَامِ نِظَامُ

¹ الكتبي، فوات الوفيات، 245/1، وابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق326/1.

² ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق327/1.

³ انظر: محمد، محمود سالم، المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، ط1، دار الفكر، دمشق،

1996م، ص 17-40.

⁴ البوصيري، ديوان البوصيري، 240-241.

وَلَا تَذْكُرْنَ مَلِكًا وَبَيْبِرْسَ مَالِكًا
فَكُلُّ مَلِكٍ فِي يَدَيْهِ غُلَامٌ
وَلَمَّا بَنَاهَا زَعَزَعَتْ كُلُّ بَيْعَةٍ
مَتَى لَاحَ صُبْحٌ مَا اسْتَقَرَّ ظَلَامٌ
وَمَذْ بَرَزَتْ كَالرَّوْضِ فِي الْحُسْنِ
أُنْبَأَتْ بِأَنَّ يَدَيْهِ فِي النَّوَالِ غَمَامٌ
أَلَمْ تَرَ مُحَرَّابًا كَأَنَّ أَزَاهِرًا
تَفْتَحُ عَنْهُمْ الْغَدَاةَ كَمَامٍ⁽¹⁾

ويقول البوصيري في مدح المنصور قلاوون، عند الانتهاء من تشييد المدرسة المنصورية والمارستان:

أَنْشَأَتْ مَدْرَسَةً وَمَارِسْتَانًا
لِتَصَحَّحَ الْأَدْيَانَ وَالْأَبْدَانَا⁽²⁾

3.1 شخصية محيي الدين بن عبد الظاهر

1.3.1 حياته:

1.1.3.1 اسمه ونسبه:

هو "عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن نجدة الجذامي المصري، المولى القاضي محيي الدين ابن القاضي رشيد الدين" عند الصقدي⁽³⁾ والكتبي⁽⁴⁾.

وعند ابن كثير: "محيي الدين بن عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن علي بن نجدة السعدي"⁽⁵⁾.

وعند ابن الفرات: "عبد الله بن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر المصري، يلقب محيي الدين"⁽⁶⁾.

وعند ابن تغري بردي: "محيي الدين عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدي"⁽⁷⁾.

¹ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، 184-185.

² السيوطي، حسن المحاضرة، 264/2.

³ الصقدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 257/17.

⁴ الكتبي، فوات الوفيات، مج 2/179.

⁵ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملح وأخرون، ط 3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، مج 7، ج 354/13.

⁶ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، مج 8/162.

⁷ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 38/7.

وعند العيني: "محيي الدين عبد الله بن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن علي بن نجدة السروجي السعدي"⁽¹⁾.
وهو "محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان المصري"⁽²⁾ عند السيوطي وابن العماد الحنبلي⁽³⁾.
وعند المقرئ: "محيي الدين أبو الفضل وعبد الله بن رشيد الدين محمد عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدي"⁽⁴⁾.
ويورد الصّدي اسم والده على النحو الآتي: "عبد الله بن نشوان بن عبد الظاهر بن نجدة، الإمام رشيد الدين أبو محمد الجذامي"⁽⁵⁾.
وبناءً على ما سبق فإن اسمه كاملاً هو: محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين أبي محمد عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن علي بن نجدة السروجي السعدي الجذامي الروحي المصري.
وهو -كما لوحظ- يلقّب بـ"محيي الدين" ويكنى بـ"أبي الفضل"، كما أن والده يلقّب بـ"رشيد الدين" ويكنى بـ"أبي محمد".
وينتهي نسبه إلى رَوْح بن زِنْبَاع، وهو من قبيلة جذام التي هاجرت من اليمن ونزلت بلاد الشام، ويقول عنه السمعاني: هو "من أهل فلسطين، من خيار التابعين، كان عابداً غزّاءً، من سادات أهل الشام"⁽⁶⁾.

¹ العيني، بدر الدين محمود (ت 855هـ)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حققه ووضع حواشيه محمد محمد أمين، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989م، 196/3.

² السيوطي، حسن المحاضرة، 1/ 570.

³ ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت 1089)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 421/5.

⁴ المقرئ، السلوك، 1/ 787.

⁵ الصّدي، نكت الهميان في نكت العميان، وقف على طبعه أحمد زكي بك، (د.ط)، المطبعة الجمالية بمصر، 1911م، ص 194.

⁶ السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت 562هـ)، الأنساب، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، ط1، دار الجنان، بيروت، 1988م، 33/2.

2.1.3.1 مولده ونشأته:

أجمعت المصادر على أن مولده كان في سنة (620هـ⁽¹⁾)، وذكر كل من الصّدي⁽²⁾ والكتبي⁽³⁾ بأنه ولد في المحرم منها، وذكر كل من ابن تغري بردي⁽⁴⁾ والعيني⁽⁵⁾ بأنه ولد في مدينة القاهرة.

وقد نشأ وترعرع في كنف عائلة تقدّر العلم، فأثر ذلك في صقل شخصيته الثقافية، إذ إن والده الضّير -الذي كان قاضياً ومقرئاً في الديار المصرية⁽⁶⁾- حفّزه على البدء بحفظ القرآن صغيراً، ومن ثمّ الاتجاه إلى حلقات الدّرس المختلفة، من فقه، وحديث، وتاريخ، وسير، وعندما أيسّر في نفسه قدرة أدبية، اتّجه إلى نظم المقطوعات الشعريّة، وبدأ بالكتابة إلى أن أصبح -فيما بعد- من أشهر كتّاب عصره⁽⁷⁾.

3.1.3.1 شيوخه:

درس على يد صفوة من علماء عصره، إلا أنّ المصادر لم تورد سوى أسماء ثلاثة منهم، فذكر أصحابها بأنه سمع القرآن الكريم عن جعفر الهمدانيّ، وأخذ عن عبد الله بن إسماعيل بن رمضان، وتفقه على يد يوسف بن المخيّلّي، كما أنه تأدّب وكتب عن جماعة من أهل صناعة التّرسّل⁽⁸⁾.

4.1.3.1 عمله:

تمتّع محيي الدين بمعرفة علميّة واسعة، مكّنته من العمل في ديوان الإنشاء، إذ التحق به في عهد الأيوبيين، وبعد انتقال الحكم إلى المماليك استمرّ بالعمل فيه

¹ انظر: الصّدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 258 / 17، والكتبي، فوات الوفيات، 179/2، وابن حبيب، تذكرة النّبيه، 164 / 1، وابن إيّاس، بدائع الزهور، ج 1، ق 372 / 1، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 38/7، والعيني، عقد الجمان، 196 / 3، والسيوطي، حسن المحاضرة، 570 / 1، والزركلي، خير الدين، الأعلام، ط 6، دار العلم للملايين، بيروت، 1984م، 98 / 4.

² الصّدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 258 / 17.

³ الكتبي، فوات الوفيات، 179/2.

⁴ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 38 / 7.

⁵ العيني، عقد الجمان، 196 / 3.

⁶ الصّدي، نكت الهميان، ص 194.

⁷ انظر: ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 415.

⁸ انظر: الصّدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 257-258، والكتبي، فوات الوفيات، 179 / 2، وعاصي، حسين، محيي الدين بن عبد الظاهر، عصره وتراثه التاريخي، ط 1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1993 م، ص 66.

والتدرّج بمناصبه إلى أن أصبح رئيساً له في عهد الظاهر بيبرس، فكان مسؤولاً عن إصدار الرسائل بأنواعها المختلفة، ويقال بأنه احتفظ بذلك المنصب في عهد المنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل⁽¹⁾، ولا يخفى ما لهذا الأمر من دلالة على دقة عمله وبراعته في الكتابة.

كما أن مكانته العلميّة المرموقة، أهّلته للعمل في مجال التدريس، فالتفّ حوله طلبة العلم، ممن ذاعت شهرتهم فيما بعد كالبرزاليّ، وابن سيّد الناس، وأثير الدين، وأبي حيّان وغيرهم⁽²⁾.

وبما أن لفظ القاضي ارتبط باسمه في بعض المصادر، التي تمّ الاطّلاع عليها⁽³⁾، فلا بدّ وأنّه تولّى القضاء يوماً لكنّ أحداً لم يشر إلى ذلك.

وقد ذكر ابن إياس في كتابه (بدائع الزهور) أنّ السلطان المنصور قلاوون نصّب محيي الدين كاتباً لأسراره في سنة (678 هـ)، فكان أوّل من تلقّب بكاتب السرّ في الدّولة المملوكيّة⁽⁴⁾، إلا أنّ بقيّة العلماء أجمعوا على أنّ ابنه فتح الدين بن عبد الظاهر أوّل من تولّى ذلك المنصب⁽⁵⁾، ولعلّ هذا الرّأي أقرب إلى الصّحّة من رأي ابن إياس؛ نظراً لتقدّم أولئك العلماء، وقربهم من عصر محيي الدين وابنه، أضف إلى ذلك أنّ ابن إياس يؤكّد في موضع آخر من كتابه السّابق بأنّ فتح الدين قد "تقدّم على والده في صنعة الإنشاء"⁽⁶⁾، فكان والده -كما يقول المقرئزيّ- "من جملة

¹ انظر: ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 415-416، وعاصي، محيي الدين بن عبد الظاهر، ص 67، وحمزة، الحركة الفكرية في مصر، ص 312.

² انظر: الصّفي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 257/17-258، والكتبي، فوات الوفيات، 129/2، وسلام، الأدب في العصر المملوكي، 404/2.

³ انظر: الصّفي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (د.ط)، (د.ت)، ص 404، والقلقشندي، صبح الأعشى، 1/104، وابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1/348، والزركلي، الأعلام، 4/98، والهاشمي، أحمد، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، (د.ط)، دار الكتب العلميّة، بيروت، (د.ت)، ص 461.

⁴ انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1/348، 372.

⁵ انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 1/104، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 293/7، والسيوطي، حسن المحاضرة، 2/234، وذكر ابن كثير في البداية والنهاية، مج 7، ج 350/1، والعيني في عقد الجمان، 3/145، أن فتح الدين تولّى كتابة الاسرار بعد ابن لقمان حين تولّى الوزارة، ولعلّ في هذا إشارة إلى أنّ ابن لقمان هو أوّل من تولّى منصب كاتب السر في دولة المماليك.

⁶ ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1/370.

من يصرفهم بأمره ونهيه⁽¹⁾، ولا غرو في ذلك؛ إذ إن تولّيه منصب كاتب السرّ جعله يحظى بمكانة مرموقة في دولة المنصور قلاوون.

5.1.3.1 مؤلفاته:

لقد كان للأعمال التي تولّاها محيي الدين دورٌ في اندفاعه إلى تأليف الكتب المختلفة، وتلك الكتب منها ما وصل لهذا العصر، ومنها ما هو مفقود، ومن أهم الكتب التي وصلت، سير سلاطين المماليك الثلاثة: الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل، وهي:

سيرة الظاهر بيبرس، وتسمّى (الرّوض الزّاهر في سيرة الملك الظاهر)⁽²⁾، وقد تحدّث فيها عن فترة حكمه الممتدّة مابين سنتيّ (658 - 676 هـ)، ونظراً لطولها، عمد شافع بن عليّ إلى اختصارها في كتاب سمّاه "حسن المناقب السريّة المنزعة من السيرة الظاهرية"⁽³⁾.

سيرة المنصور قلاوون، وتسمّى "تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور"، وتحدّث فيها عن فترة حكمه الممتدّة ما بين سنتيّ (678 - 689 هـ)، إلا أنها لم تصل كاملة، فقد فقد منها الجزء الأوّل، الذي يحوي السّنّوات من (678 هـ) حتى سنة (680 هـ)؛ لذلك عمد محققها إلى إكمال النقص بالاعتماد على (تاريخ ابن الفرات)⁽⁴⁾.

سيرة الأشرف خليل بن قلاوون، وتسمّى (الألطف الخفيّة من السيرة الشريفة السلطانيّة الأشرفيّة)، وتحدّث فيها عن فترة حكمه الممتدّة ما بين سنتيّ (689 - 693 هـ)، ولكن مؤلّفها انتقل إلى رحمته تعالى في سنة (692 هـ)، وبذلك لم يغطّ فترة حكم الأشرف كلّها، إضافة إلى أن السيرة لم تصل كاملة، إذ لم يبق منها سوى

¹ المقرّبي، المواعظ والاعتبار، 341/3.

² تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط 1، 1976م.

³ تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط 2، 1989م.

⁴ انظر: ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، تحقيق مراد كامل، ط 1، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1961م، ص 53.

الجزء الثالث، الذي يبدأ بالشهور الثلاثة الأخيرة من سنة (690هـ) إلى ربيع الأول سنة (691هـ)⁽¹⁾.

ومن مؤلفاته التي وصلت أيضاً:

كتاب (الدُرُّ النّظيم من ترسل عبد الرّحيم)⁽²⁾ وقد جمع فيه عدداً من رسائل القاضي الفاضل، إذ قال في مقدّمته: "جمعت في هذا الكتاب من رسائل القاضي.. الفاضل عبد الرّحيم بن علي البيسانيّ رحمه الله ما ينتفع به المبتدئ، ويتذكّر به المنتفع"⁽³⁾، ويعدّ هذا الكتاب من أبرز الأدلّة على مدى إعجابه بالقاضي الفاضل وأسلوبه الكتابي.

أمّا مؤلفاته المفقودة فهي:

كتاب (الرّوضة البهيّة الزّاهرة في خطط المعزيّة القاهرة)، ويبدو أنّه تحدّث فيه عن آثار القاهرة⁽⁴⁾ المختلفة من مساجد وقلاع، وحوار، وأسوار، وبرك، وغيرها، بدليل النّصوص التي اقتبسها منه كلّ من القلقشنديّ في كتابه (صبح الأعشى)⁽⁵⁾، والمقريزيّ في كتابه "المواعظ والاعتبار"⁽⁶⁾، الذي يعرف بالخطط المقريزيّة، وقد عمدَ أيمن فؤاد السيّد إلى تحقيق الكتاب، وصدرت النسخة المحقّقة في القاهرة في نهاية القرن الماضي.

¹ نشر الجزء الثالث منها موبيرغ (Moberg)، عام 1902م، وترجمه إلى الهولندية، وذكر السيرة كلّ من زيدان، جرجي في كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية)، راجعه وعلّق عليه شوقي ضيف، (د.ط)، دار الهلال، (د.ت)، 167/3-168، الزركلي في كتابه (الأعلام)، 98/4، وبروكلمان، كارل في كتابه (تاريخ الأدب العربي)، ترجمة رمضان عبد التواب، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، 1977م. 19/6.

² ذكر كلّ من سلام في كتابه، الأدب في العصر المملوكي، 404/2، وضيف في كتابه، عصر الدول والإمارات، ص 416، أنّ محيي الدين ألف كتاباً سمّاه (الفاضل من رسائل القاضي الفاضل)، ولعلّه اسم آخر للكتاب السابق، أو أنّه كتاب آخر جمع فيه رسائل أخرى للقاضي الفاضل.

³ ابن عبد الظاهر، الذر النظم من ترسل عبد الرّحيم، تحقيق أحمد أحمد بدوي، (د.ط)، مكتبة نهضة مصر بالجالة، (د.ت)، ص 8.

⁴ انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج 1، ص 5، والبغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م، مج 463/5، والفقي، محمد كامل، الأدب العربي في العصر المملوكي، ط 3، دار الموقف العربي، مصر، 1984، ص 109 - 110.

⁵ انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 347/3-351، 353-357، 359، 373-374، وغيرها.

⁶ انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، 277، 267، 204، 373، وغيرها.

كتاب (تمائم الحمام) كما ذكره الغزولي⁽¹⁾، وابن فضل الله العمري⁽²⁾، والسيوطي⁽³⁾، وقد تحدّث فيه عن أنساب الحمام وأنواعها، ولعلّ الفترة الطويلة التي قضّاها محيي الدين في ديوان الإنشاء المملوكي، ساعدت على تأليفه لهذا الكتاب؛ بسبب قربه من الحمام الزاجل، الذي كان له دورٌ مهم في المراسلات الخارجيّة آنذاك.

كتاب (النجوم الدريّة في الشعراء العصريّة)، كما ذكره الغزولي⁽⁴⁾، ويبدو أنّه أورد فيه تراجم لشعراء عصره، مع ذكر شيء من أشعارهم⁽⁵⁾.
كتاب (تحرّي الصّواب في تهذيب الكتاب)، وهو في التعليم⁽⁶⁾.
وله مختصر سيرة ابن المأمون البطّاحي الوزير⁽⁷⁾.
وله ديوان شعر، منه نسخة خطيّة محفوظة بمكتبة الجامعة الأزهرية⁽⁸⁾، وقصائد مختارة في ليدن⁽⁹⁾.

وله -أيضاً- مقامة عن مصر والنيل والروضة⁽¹⁰⁾، لعلّها التي أوردها الصّقديّ في كتابه (الوافي بالوفيات)، ومنها: "حكى مسافر بن سيّار، قال: لما ألفت النّوى عن الإخوان، وتساوت عندي الرّحلة إلى البين تساوي الرّحلة إلى الأوطان، وتمادت الغربة تحبوني أهوالها فتزلزلت بي الأرض زلزالها..."⁽¹¹⁾، وقد صوّر فيها

¹ الغزولي، علاء الدين علي بن عبد الله البهائي، مطالع البدور في منازل السرور، ط1، مطبعة إدارة الوطن، 1299هـ، 261/2.

² العمري، ابن فضل الله (749 هـ)، التعريف بالمصطلح الشريف، دراسة وتحقيق سمير الدروبي، ط1، منشورات جامعة مؤتة، الأردن، 1992م، ص 283.

³ السيوطي، حسن المحاضرة، 313/2.

⁴ الغزولي، مطالع البدور، 121/2، والبغدادي، هدية العارفين، مج 463/5، وذكره كلّ من سلام في كتابه (الأدب في العصر المملوكي)، 409/2، وعاصي في كتابه (محيي الدين بن عبد الظاهر)، ص 87 بالتسمية التالية "النجوم الدريّة في الشعراء المصريّة"، مع أنّ سلام اقتبس اسمه من هدية العارفين، مج 463/5.

⁵ انظر: الغزولي، مطالع البدور، 121/2.

⁶ عاصي، محيي الدين بن عبد الظاهر، ص 87.

⁷ المرجع نفسه، ص 87.

⁸ انظر: عاصي، محيي الدين بن عبد الظاهر، ص 87، و الزركلي، الأعلام، 98/4.

⁹ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 19/6.

¹⁰ المرجع نفسه، 20/6.

¹¹ الصّقدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 262-269.

الغربة التي دبّت في نفس بطلها، نتيجة ابتعاده عن بلده مصر، ووصف شوقه وحنينه إليها، كما أنه أطل الحديث عن محاسنها.

6.1.3.1 شعرة:

خلف محيي الدين أشعاراً كثيرة، وردت في كتبه -التي وصلت- وفي كتب معاصريه، ومن تلامه، وعند إمعان النظر في تلك الأشعار، يلاحظ أنها منظومة في موضوعات مختلفة: كالمَدح، والهجاء، والوصف، والرثاء، والغزل، والخمر، والألغاز، وغيرها.

وقد أظهر غير مؤلف إعجابه الشديد بها، من مثل النويري الذي قال في أثناء حديثه عنه: "وله من النظم الفائق ما راق صناعة وحسناً"⁽¹⁾، وابن حبيب، الذي قال أيضاً: "وله النظم الرائع الجامع لأنواع المحاسن"⁽²⁾، إضافة إلى الصفدي الذي استحسّن مقطوعاته القصيرة على قصائده الطويلة، حيث قال: "وأما شعره فأحسّنه المقاطيع، وأما القصائد فربما قصر فيها"⁽³⁾.

ومن الأمثلة على تلك الأشعار، قصيدة نظمها في مدح السلطان الظاهر بيبرس، منها:

يا مالك الدنيا الذي	أمسى بعون الله غالب
يا من به الكفار قد	نُهِشوا بأنياب النّوائب
يا ذا الذي لولاه قد	كان البقاء من العجائب
لولا سيوفك لم يكن	بالنّار للإسلام طالب ⁽⁴⁾

وقصيدة نظمها في مدح السلطان المنصور قلاوون يوم فتح حصن المرقب، الذي يمتاز بمناعته، منها:

أنت أبو الفتح وكم بعدهما	يقول فتح: إن هذا أباي
يا مالك الأرض الذي عزمه	قد سهل المرقى إلى المرقب

¹ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (732 هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت)، 101/8.

² ابن حبيب، تذكرة النبّه، 1 / 164.

³ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 17 / 281.

⁴ شافع بن علي، حسن المناقب السريّة، ص 216.

ومنها:

يا فاتحَ الحصنِ الذي فَتَحَهُ يَأْتِي بِهِ شُكْرُكَ مِنْ يَثْرِبِ
حصنٌ عَظِيمٌ القَدْرِ فِي سِيرَةِ لِمَنْ مَضَى قَبْلَكَ لَمْ يُكْتَبِ⁽¹⁾

وله قصيدة أخرى نظمها في مدح الأشرف خليل بن قلاوون منها:

يا مَلِيكاً⁽²⁾ عطاؤه بالقنَاطِ — يَرِ نَضَاراً وَأَيْنَ مِنْهَا الْأُفُ
والذي سَيْفُهُ قَضَاءٌ مِنَ اللَّ — هِ وَمَا كَذَاكَ السُّيُوفُ
وَهُوَ بِالْعَدْلِ وَالسَّمَاحَةِ وَالْحِلِّ — مِ مِنَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ مَوْصُوفُ⁽³⁾

ومن غزلياته قوله:

عَلَّقْتُهُ غُصْنًا بِبَدْرِ مُثْمَرًا لَكِنْ أَخْضَرَ عَارِضِيهِ مُورِقِ
لَوْ لَمْ تَكُنْ كَالرُّمَحِ قَامَتُهُ لَمَّا أَمْسَى عَلَيْهِ لَوَاءٌ قَلْبِي يَخْفِقِ
قَمَرٌ لَهُ الْوَجْهَ الَّذِي هُوَ جَنَّةٌ أَمْسَى بِهَا يَتَنَعَّمُ الْمُتَعَشِّقِ
فَعِذَارُهُ مِنْ سُنْدُسٍ وَرُضَابُهُ مِنْ كَوْتَرٍ وَخُدُودُهُ إِسْتَبْرَقِ⁽⁴⁾
وله في محبوبه الذي يسمّى النسيم:

يا مَنْ غَدَا لِي مِنْ عَاوَا صَيْفٌ هَجَرَهُ الرِّيحُ الْعَقِيمِ
أُتْرَى يَطِيبُ لِي الْهَوَى وَيُقَالُ لِي: رَقَّ النَّسِيمِ⁽⁵⁾

وله في ذمّ أعور:

وَأَعُورُ الْعَيْنِ ظَلٌّ يَكْشِفُهَا بِلَا حَيَاءٍ مِنْهُ وَلَا خَيْفَةٍ
وَكَيْفَ يُلْفَى الْحَيَاءُ عِنْدَ فَتَى عَوْرَتُهُ لَا تَزَالُ مَكْشُوفَةٍ⁽⁶⁾

وقد وصف دمشق في فصلي الربيع والشتاء، قائلاً:

لَا تَلُومُوا دِمَشْقَ إِنْ جِنْتُمُوهَا فَهِيَ قَدْ أَوْضَحَتْ لَكُمْ مَا لَدَيْهَا
إِنَّهَا فِي الْوُجُوهِ تَضَحْكُ بِالزَّهْرِ — رٍ لِمَنْ جَاءَ فِي الرَّبِيعِ إِلَيْهَا

¹ ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 82-83.

² في الأصل "يا ملك".

³ ابن عبد الظاهر، الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية، نشر الجزء الثالث موبرغ، 1902م، 70/3.

⁴ الكتبي، فوات الوفيات، 186/2-187.

⁵ الغزولي، مطالع البدور، 56/1.

⁶ الصفدي، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، 387/2-388.

نَسَبَ النَّاسُ لِلْحَمَامَةِ حُزْنَنا وَأَرَاهَا فِي الْحُزَنِ لَيْسَتْ هُنَاكَ
خَضَبَتْ كَفَّهَا وَطَوَّقَتْ الْجِيدَ وَغَنَّتْ وَمَا الْحَزِينَ كَذَلِكَ⁽¹⁾

وقال قصيدة في رثاء الملك الظاهر بيبرس الذي توفي سنة (676هـ)، منها:

مَا مِثْلُ هَذَا الرِّزِّ قَلْبٌ يَحْمِلُ كَلَّا وَلَا صَبْرٌ جَمِيلٌ يَجْمَلُ
كَيْفَ السَّبِيلُ وَلَا سَبِيلَ لِسُلُوةٍ فِي ذَا الْمُصَابِ وَلَا جُفُونٌ تَقْبَلُ
اللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّهَا لِمُصَلِّبَةٍ مِنْهَا الرُّوَاسِي خَيْفَةٌ تَنْزَلُزَلُ

ومنها:

لَهْفِي عَلَى الْمَلِكِ الَّذِي كَانَتْ بِهِ الدُّنْيَا تَطْيِبُ وَكُلُّ قَفَرٍ مَنَزِلُ
الظَّاهِرِ السُّلْطَانُ مَنْ كَانَتْ لَهُ مِنْ عَلَى كُلِّ الْوَرَى وَتَطُولُ
بِيبَرَسُ رَكْنُ الدِّينِ وَالسَّمْحِ الَّذِي مِنْ جُودِهِ جُرْدُ السَّحَابِ تَخَجَلُ⁽²⁾

وقال قصيدة أخرى في رثاء المنصور قلاوون، الذي توفي سنة (689هـ)،

مطلعها:

لَوْ تَحَامَى ذَا قُدْرَةٍ مَقْدُورُ كَانَ يُحْمَى قَلَاوَنُ الْمَنْصُورُ

ومنها:

لَمْ يَزَلْ سُقْمُهُ يَزِيدُ وَشَكْوَاهُ تُتَادِي: إِنَّ الْحَيَاةَ غُرُورُ
فَأَتَاهُ مَا يُذْهِلُ الْعَقْلَ وَاللُّبَّ لَدَيْهِ وَمَنْهُ يُعْمَى الْبَصِيرُ
بَاحْتِضَارٍ لَهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَالْعَفْوُ وَالْقَبُولُ حُضُورُ
وَوَفَاةٍ وَافَتْ لَهُ وَالرِّزَايَا مِنْ سَطَاهُ وَخَوْفِهِ تَسْتَجِيرُ
وَالْمَنَايَا تَقُولُ أَيْنَ الَّذِي كَانَ مُجْبِرًا إِذَا الزَّمَانُ يَجُورُ
أَيْنَ مَنْ كَانَ مُلْكُهُ يَمْلَأُ الْأَرْضَ فَكَمْ مَنَبَرٍ لَهُ وَسَرِيرُ
أَيْنَ مَنْ كَانَ عَدْلُهُ يَكْشِفُ الظُّلْمَ وَمِنْهُ دَاجِي الظَّلَامِ يُنِيرُ
أَيْنَ مَنْ شَرَّدَ التَّتَارَ بِجِمَصٍ فإِلَى الْيَوْمِ جَيْشُهُمْ مَكْسُورُ⁽³⁾

¹ الكتبي، فوات الوفيات، 185/2، والنواجي، حلبة الكميت، ص 324.

² شافع بن علي، حسن المناقب السريّة، ص 336-337.

³ ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام و العصور، ص 180-182.

وَتَرَاهَا بِالْتَّلَجِ تَبْصِقُ فِي لِحَا — يَةِ مَنْ مَرَّ فِي الشَّاءِ عَلَيْهَا⁽¹⁾
كما وصف الياسمين، قائلاً:

وياسمين قد بدت
كمثل ثوب أخضر
أشجاره لمن يصف
عليه قطن قد ندف⁽²⁾

ومن ألغازه قوله في "شبابية":

وناطقة بالروح عن أمر ربها
سكتنا وقالت للنفوس فأطربت
تعبّر عما عندنا وتترجم
فنحن سكوت والهوى يتكلم⁽³⁾

وقوله في الباب:

أي شيء تراه في الدور والكت
يحفظ المال والحريم ولولا
هو زوج وتارة هو فرد
وطليق في نشأته ولكن
وثلاثاً تراه في الخط لكن
وتراه للحشر ينسب حيناً
فأجبنى عنه بقيت مطاعاً
ب مجازاً هذا وذاك مُحَقَّق
ه حقيقاً لكان ذلك يُسْرِق
وهو في أكثر الأحيان يُطْرَق
بحديد من بعد ذلك يُوثَّق
هو اثنان كله إن يُفَرِّق
وهو مع ذاك لا يرى يتزندق
لست في حلبة الفضائل تُسَبِّق⁽⁴⁾

وله في الخمر:

سَلَفْتَنَا عَلَى الْعُقُولِ السُّلَافَةِ
ضَيَّقْتَنَا بِالنَّشْرِ وَالْبِشْرِ وَالْيُسْرِ
فَقَاضَتْ دُيُونَهَا بِلَطَافِهِ
رِ أَلَا هَكَذَا تَكُونُ الضِّيَافَةُ⁽⁵⁾

وله في مجلس شراب:

فِي مَجْلِسٍ ظَهَرَتْ سَرَائِرُ حُسْنِهِ
فَكَانَهُ فَلَكُ السَّمَاءِ وَكُؤُوسُهُ
وَجَلَّتْ بَصَائِرُنَا وَجُوهَ سُرُورِهِ
كَشْمُوسِهِ وَسَقَاتُهُ كَبَدُورِهِ⁽⁶⁾

وقال في الحمامة:

¹ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 289/17.
² النواجي، شمس الدين محمد بن الحسن، حلبة الكمييت في الأدب و النوادر المتعلقة بالخدمات، مخ، ص 245.
³ الكتبي، فوات الوفيات، 185/2.
⁴ الغزولي، مطالع البدور، 19/1.
⁵ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 39/7، وابن حبيب، تذكرة النبيه، 164/1.
⁶ النواجي، حلبة الكمييت، ص 216.

2.3.1 أقوال العلماء فيه

أشادَ عددٌ من العلماء بمحيي الدين بن عبد الظاهر، سواء أكانوا من معاصريه، أم من الذين جاءوا بعده، فحكموا له بالنقدّم على سائر أقرانه، كما أظهروا إعجابهم الشديد بنثره ونظمه، فهذا النويريُّ مثلاً- (ت 732هـ)، يقول عنه: "كان-رحمه الله- من أجلّ كتّاب العصر، وفضلاء المصر، وأكابر أعيان الدّول، والذي افتخر بوجوده أبناء عصره على الأول، له من النّظم الفائق ما راق صناعة وحسنا، ومن النّثر الرائق ما فاق بلاغةً ومعنى، فقصائده مدوّنة مشهورة، ورسائله بأيدي الفضلاء ودفاترهم مسطورة، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة، وطريقه في البلاغة أسهل طريق، وفي الفصاحة أوضح محجّة، وهو-رحمه الله- ممّن عاصرته، ولسوء الحظّ لم أشاهد محيّا الوسيم، ولم أفز بالنّظر إلى طلاقة وجهه الكريم"⁽¹⁾.

أما الصّفديّ (ت 764هـ) فيصفه بأنّه: "شيخ أهل التّرسّل ومن سلك الطّريق الفاضليّة في إنشائه.. وكان بارع الكتابة في قلم الرّقاع، ظريفا، ذا عربيّة حلوة، وكان ذا مروءة وعصبية"⁽²⁾.

ويصل إعجابه به إلى مداه، حتّى إنّهُ ينصّبهُ إماما على كتّاب عصره، إذ يقول: هو "أحد أشياخ الإنشاء، لا بل إمام من ترسّل وتوصّل إلى المقاصد الغريبة بحسن ما خاطب، ولطف ما توسّل"⁽³⁾.

ويبيّن ابن كثير (ت 774هـ) تفوّقه على سائر أقرانه في الإنشاء، إذ يقول في أنشاء تعريفه به: هو "كاتب الإنشاء بالديار المصريّة، وآخر من برز في هذا الفنّ على أهل زمانه، وسبق سائر أقرانه"⁽⁴⁾.

ويؤكّد ذلك ابن حبيب (ت 779هـ)، في قوله عنه: "كان جليل القدر كبير المحلّ، حسن الكتابة، غزير الفضل، جميل السّيرة، أوحّد عصره في الإنشاء، يُضرب به المثل... وله النّظم الرائق الجامع لأنواع المحاسن"⁽⁵⁾.

¹ النويري، نهاية الأرب، 101/8-102.

² الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 17/257-258.

³ الصفدي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، ص 404.

⁴ ابن كثير، البداية والنهاية، 13/354.

⁵ ابن حبيب، تذكرة النّبيه، 1/164.

ويعيد ابن الفرات (ت 807هـ) تأكيده على ما ذكره ابن كثير وابن حبيب، إذ يقول: "وكان القاضي محيي الدين.. متمكناً من صناعة الإنشاء، وله فيها اليد الطولى" (1).

ويعيد ذلك ابن تغري بردي (ت 874هـ)، قائلاً: "وكان محيي الدين هذا من سادات الكتاب ورؤسائهم وفضلائهم" (2).

ويبيد السيوطي (ت 911هـ) إعجابه الشديد بنثره ونظمه، حيث يقول: "له النظم الفائق، والنثر الرائق" (3).

وأخيراً، يقول عنه ابن إياس (ت 930هـ): "كان عالماً، فاضلاً، ناظماً، ناثراً، وله ديوان أدبيات كلّه غررٌ ومحاسن" (4).

3.3.1 وفاته

أجمع العلماء على أنّ محيي الدين توفي بالقاهرة سنة (692هـ) (5)، عن اثنين وسبعين عاماً، إلا أنّهم اختلفوا في يوم وفاته، فبعضهم يقول: إنه توفي يوم الثلاثاء، رابع شهر رجب (6)، وبعضهم يقول: إنه توفي يوم الأربعاء، ثالث شهر رجب (7)، وقد نُقلَ جثمانه إلى القرافة الصغرى، ودُفِنَ بترابته التي أنشأها فيها (8).

¹ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 162/8.

² ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 38/7.

³ السيوطي، حسن المحاضرة، 570/1.

⁴ ابن إياس، بدائع الزهور، 372/1.

⁵ انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 258/17، والكتبي، فوات الوفيات، 179/2، وابن حبيب، تذكرة النبّه، 164/1، وابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 38/7، والمقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، 787/1، والعيني، عقد الجمان، 193/3، والسيوطي، حسن المحاضرة، 570/1.

⁶ انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 354/13، والعيني، عقد الجمان، 196/3.

⁷ انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 38/7، وابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 162/8.

⁸ ابن إياس، بدائع الزهور، 372/1، وابن كثير، البداية والنهاية، 354/13، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 38/7، والعيني، عقد الجمان، 196/3.

الفصل الثاني

الرسائل السياسية، والإدارية، والحربية

1.2 الرسائل السياسية

1.1.2 المخاطبات الإعلامية:

ازداد الاهتمام بالرسائل السياسية في العصر المملوكي؛ لحاجة الدولة إليها، إذ إنها تنظم أمورها الداخلية والخارجية في آن واحد، ومن تلك الرسائل ما يستوجب إعلام محتواها وإذاعته للناس كافة، ومن أبرز الرسائل الإعلامية التي أنشأها محيي الدين على لسان الخلفاء والسلاطين:

العهود

العهد في (لسان العرب): "الوصية والأمر"⁽¹⁾، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى﴾⁽²⁾، أي أوصيناه وأمرناه، وقوله -أيضاً-: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾⁽³⁾، أي أوصيكم وأمركم، وفي الحديث: "تمسكوا بعهد ابن أم عبد"⁽⁴⁾⁽⁵⁾، أي ما يوصيكم به ويأمركم.

والعهد من أهم الرسائل الديوانية⁽⁶⁾، ينشئه الكاتب على لسان الخليفة للسلطان، أو على لسان السلطان لأحد أبنائه، أو من يختاره خلفاً له في حال وفاته⁽⁷⁾، مع إطلاق يده في شؤون الدولة من وقت كتابة العهد له.

وغالباً ما يعهد الخليفة للسلاطين في حياته، فيتنازل عن سلطاته وممتلكاته كافة لهم، ولا يخفى ما لهذا من دلالة على شكلية الخلافة آنذاك، إذ كان الخليفة مجرداً

¹ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711هـ)، لسان العرب، (د.ط)، دار إحياء التراث، بيروت، (د.ت)، مادة (عهد).

² سورة طه، آية 115.

³ سورة يس، آية 60.

⁴ ابن أم عبد، هو عبدالله بن مسعود.

⁵ ابن منظور، لسان العرب، مادة (عهد).

⁶ من أهم الرسائل الديوانية بالنسبة للسلاطين، فهم يضمنون به شرعية سلطنتهم، ويحافظون على بقاء السلطنة في نسلهم.

⁷ انظر: العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص 112.

شخصٍ ذي حرمةٍ وافرة، تتزيى باسمه الخطبُ والصُرُوف، وبطلعتِه المحافِلُ الرّسميّة.

وتحتوي رسائل العهود أموراً أساسيّة، لا بدّ من توافرها، كالخطبة الاستفتاحيّة التي تتضمّن الحمد والمدح والثناء، وتحتوي -عادة- عبارات تمهّد للحدث الرئيس، ويُتطرّق فيها إلى ذكر خصال المعهود إليه، وألقابه، إضافة إلى ألقاب العاهد، ونصّ الولاية الرسميّ، الذي يبيّن تنازل العاهد عن سلطاته وممتلكاته جميعها للمعهود إليه، لكن إلى حين غير معلوم، مع إيداعه بعض الوصايا التي تنير له طريقه المستقبلي، والاختتام بالدعاء في بعض الأحيان.

ويستحسن البدء بعهد الخليفة الحاكم بأمر الله للمنصور سيف الدين قلاوون سنة (678هـ)، ويستهلّه محيي الدين بخطبة يقول فيها: "الحمدُ لله الذي جعلَ آيةَ السّيف ناسخةً لكثيرٍ من الآيات، وفاسخةً لعقودِ أولي الشكِّ والشُّبهات، الذي رفعَ الخلقَ على بعضِ درجات، وأهلَ لأُمورِ البلادِ والعبادِ من جاءت خوارقُ تملكه بالذي إن لم يكن من المُعْجَرات فمنِ الكرامات"⁽¹⁾.

ويمكن تفسير قوله السّابق على وجهين، أولهما: حمد الله تعالى على اكتساب سلطنة قلاوون شرعيّتها عن طريق هذا العهد؛ إذ إنّ الحصول على عهد يصدر عن خليفة عبّاسي، يعدّ من أبرز العلامات التي تؤهل قلاوون للسلطنة، والاعتماد في هذا التفسير على عبارته الأولى "الحمدُ لله الذي جعلَ آيةَ السّيف ناسخةً لكثيرٍ من الآيات، وفاسخةً لعقودِ أولي الشكِّ والشُّبهات" والسيف هنا، سيف الدين قلاوون، أمّا قوله: "من جاءت خوارقُ تملكه بالذي إن لم يكن من المُعْجَرات فمنِ الكرامات"، فيقصد به أنّ قلاوون استخلص السلطنة لنفسه من يدي أبناء بيبرس: السعيد بركة خان، وأخيه سلامش، ويعدّ هذا الاستخلاص معجزه أو كرامة من الله بهما عليه، وفي الوقت ذاته تستحقُّ شكر الناس؛ لأنّه انتشلهم من وضع لا يحسدون عليه، إذ تحكّم غير المؤهلين لحمل أعباء السلطنة بشؤون دولتهم.

وثانيهما: حمد الله على إعادة الخلفاء العبّاسيين إلى الحكم ثانية، بعد تدمير حاضنة خلافتهم وتشريدهم، فبالسّيف تحقّق لهم ذلك، عندما تمّت هزيمة أعدائهم في

¹ الفلقشندي، صبح الأعشى، 116/10.

عين جالوت، فجاء تملك الحاكم بأمر الله زمام أمور الدولة، معجزة من عند الله وكرامة، إذ لم يعد شخص على وجه البسيطة - وقتها - يتوقع عودة خلافتهم من جديد، وهذا الوجه له معززات، لأن الكاتب يواصل حديثه مباشرة عن الخلافة والخلفاء بشيء من التفصيل: "ثم الحمد لله الذي جعل الخلافة العباسية بعد القطوب حسنة الابتسام، وبعد الشحوب جميلة الاتسام، وبعد التشريد كل دار إسلام لها أعظم من دار السلام. والحمد لله على أن أشهدا مصارع أعدائها، وأحمد لها عواقب إعادة نصرها وإدائها، وردّ تشيتها بعد أن ظن كل أحد أن شعارها الأسود ما بقي منه إلا ما صانته العيون في جفونها، والقلوب في سويدائها"⁽¹⁾.

وبعد الحمد، لا بدّ من ذكر الشهادتين، والصلاة على النبي وآل بيته وصحابته الكرام: "ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة يتلذذ بذكرها اللسان، وتتعطر بنفحاتها الأفواه والأردان، وتتلقاها ملائكة القبول فترفعها إلى أعلى مكان، ونصلي على سيدنا محمد الذي أكرمنا الله به وشرف لنا الأنساب، وأعزنا به حتى نزل فينا محكم الكتاب، صلى الله عليه وعلى آله الذين انجبا الدين منهم عن أنجاب، ورضي الله عن صحابته الذين هم خير أصحاب، صلاة ورضواناً يوفى قائلها أجره يوم الحساب من الكثرة بغير حساب يوم الحساب"⁽²⁾.

ويمهد لذكر الخليفة العباسي بعبارات تنم عن أهمية ظهوره للأمة في ذلك الوقت، وفي الوقت ذاته يشير إلى رفعة الخلافة، وعلو قدرها في دارها الجديدة: "وبعد حمد الله على أن أحمد عواقب الأمور، وأظهر للإسلام سلطاناً اشتدت به للأمة الظهور، وشفيت الصدور، وأقام الخلافة العباسية في هذا الزمن بالمنصور كما أقامها في ما مضى بالمنصور"⁽³⁾، واختار لإعلان دعوتها من يحيي معالمها بعد العفاء ورسومها بعد الدثور، وجمع لها الآن ما كان جمح عليها فيما قبل من خلاف كل ناجم، ومنحها ما كانت تبشرها به صُحف الملاحم، وأنفذ كلمتها في ممالك الدولة العلوية بخير سيف مشحوذ ماضي العزائم، ومازج بين طاعتها في القلوب وذكرها

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 116/10.

² المصدر نفسه، 117-116/10.

³ المنصور: هو أبو جعفر عبد الله، ثاني خلفاء بني عباس، تولى الحكم في سنة (136هـ)، وهو الجد الأكبر للحاكم بأمر الله، انظر: المصدر نفسه، 261-254/3.

في الألسنة⁽¹⁾، وإن كان قد ذكر بأن الله أقام الخلافة في ذلك الزّمن بالمنصور، عاد ثانية وقال: "وكيف لا والمنصور هو الحاكم؟"⁽²⁾، أي الحاكم بأمر الله.

ويكثر من سبك عبارات المدح له، فيبين أن الله -عز وجل- اختاره من بين الناس وأظهره؛ لحفظ الأمة وحمايتها، ولكنّ اختياره لم يأت عبثاً، فقد توافرت فيه مجموعة من الخصال الحميدة، التي أهلتها لتولّي أمور المسلمين، كالكرم، والشجاعة، والحلم: "وأخرج لحياطة الأمة المحمّدية ملكاً تقسم البركات عن يمينه، وتقسم السعادة بنور جبينه، وتُقهّر الأعداء بفتكاته، وتُمهر عقائل المعازل بأصغر راياته، ذو السعد الذي مازال نوره يشفّ حتى ظهر، ومُعجزه يرفّ إلى أن بهر، وجوهره ينتقل من جيد إلى جيد⁽³⁾ حتى علا الجبين، وسرّه يكمن في قلب بعد قلب حتى علم -والحمد لله- نبأ تمكينه في الأرض بعد حين، فأختره الله على علم، واصطفاه من بين عباده بما جبله الله عليه من كرم وشجاعة وحلم، وأتى به الأمة المحمّدية في وقت الاحتياج عونا، وفي إبان الاستمطار غيثاً، وفي حين عيث الأشبال في غير الافتراس ليثاً"⁽⁴⁾.

وقد عمد الكاتب إلى ما سبق تمهيداً للحدث الرئيس، المتمثّل بتفويض الولاية لقلّاوون، وكى يكتسب العهد شرعيةً، يُذكر الكاتب بنسب الخليفة العبّاسي المتّصل بنسب الرّسول عليه أفضل الصلاة والتسليم، ولعلّ هذا الأمر يساهم -أيضاً- في امتثال الرّعية لأوامره: "فوجب على من له في أعناق الأمة المحمّدية مبايعة رضوان، وعند أيمانهم مصافحة أيمان، ومن وجبت له البيعة باستحقاقه لميراث منصب النبوة، ومن تصحّ به كل ولاية شرعية يؤخذ منه كتابها بقوة، ومن هو خليفة الزّمان والعصر، ومن بدعواته تنزل بالنّصر عليكم معاشر الإسلام ملائكة النّصر، ومن نسبه بنسب نبيّكم -صلّى الله عليه وسلّم- مُتّشجّ، وحسبه بحسبه ممتزج⁽⁵⁾، أن يفوض ما فوضه الله إليه من أمر الخلق إلى من يقوم عنه بفرض الجهاد والعمل بالحقّ، أن يولّيه ولايةً شرعيةً، تصحّ بها الأحكام، وتنضبط أمور الإسلام، وتأتي

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 117/10.

² المصدر نفسه، 117/10.

³ (من جيد إلى جيد) في الأصل، و ما أثبت يناسب المعنى.

⁴ القلقشندي، صبح الأعشى، 117/10 - 118.

⁵ يعود نسب الحاكم بأمر الله وخلفاء بني عبّاس كافّة إلى عمّ الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- العبّاس بن عبد المطلب، المصدر نفسه، 254/3.

هذه العصبة الإسلامية يوم تأتي كل أمة بإمامهم من طاعة خليفتهم هذا بخير إمام⁽¹⁾.

ومن مستلزمات العهد عند إعلانه بصيغته الرسمية، ذكر ألقاب المعهود إليه، ومن ثم إيداء العاهد تنازله عن سلطاته كافة لصالحه، مع بسط نفوذه على أجزاء الدولة والأقاليم التابعة لها، وما سيتم فتحه مستقبلاً، وفي هذا العهد يتفرّد قلاوون بالنظر في أمور المسلمين بغير شريك، وهذا ما أُشير إليه سابقاً بمصطلح شكليّة الخلافة: "وخرج أمرُ مولانا أمير المؤمنين -شرّفه الله- أن يكون للمقرّ العالي، المولوي، السلطاني، الملكي، المنصوري -أجلّه الله ونصره، وأظفره وأقدره، وأبدّه وأيدّه- كلّ ما فوضّه الله لمولانا أمير المؤمنين من حُكم في الوجود، وفي التّهائم والنّجود، وفي المدائن والخزائن، وفي الظواهر والبواطن، وفيما فتحه الله وفيما سيفتحه، وفيما كان فسد بالكفر والرجاء من الله أنّه سيصلحه، وفي كلّ جودٍ ومِنّ، وفي كلّ عطاء ومِنّ، وفي كلّ هبة وتمليك، وفي كلّ تفرّد بالنظر في أمر المسلمين بغير شريك، وفي كلّ تعاهد ونبذ، وفي كلّ عطاء وأخذ، وفي كلّ عزل وتولية، وفي كلّ تسليم وتخلية، وفي كلّ إرفاق وإنفاق، وفي كلّ إنعام وإطلاق، وفي كلّ تجديد وتعويض، وفي كلّ حمدٍ وتقريض، ولاية عامّة تامّة، مُحكمة محكمة، منضّدة منظمّة، لا يتعقّبها نسخ من خلفها ولا من بين يديها، ولا يعترّيها فسخ يطرأ عليها، يزيدها مرّ الأيام جدّة يُعاقبها حُسن شباب، ولا ينتهي على الأعوام والأحقاب"⁽²⁾، والعبارة الأخيرة تبين استمراريّة هذا العهد وتجددّه.

ولا بدّ من تحلية العهد ببعض الوصايا التي تساعد صاحبه في الحفاظ على سلطنته المستقبلية، وإدارة شؤونها بشكل صحيح، وغالباً ما يتمّ التركيز في تلك الوصايا على الناحيتين: الدينية والعسكرية، فالعودة إلى كتاب الله وسنّة رسوله، والتزام الشرع الإسلامي، والعمل بجزئياته وكتّياته من أولى الوصايا التي تطرح في هذا العهد: "نعم، ينتهي إلى ما نصبّه الله للإرشاد من سنّة وكتاب، وذلك من شرع الله

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 118/10.

² المصدر نفسه، 118/10.

أقامه للهداية علماً، وجعله إلى اختيار الثواب سُلماً، فالواجب أن يعمل بجزئيات أمره وكلياته، وأن لا يخرج أحد عن مقدماته⁽¹⁾.

ولا بد من تحقيق العدل والمساواة بين الناس، والابتعاد عن الظلم، ولا بد من أخذ الأموال بالحقّ وصرفها بطريقة صحيحة، تعود بالنفع على الرعيّة والمجتمع في آن معاً: "والعدل فهو الغرس المثمر، والسحاب المُمطر، والروض المزهّر، وبه تنزلُ البركات، وتخلف الهبات، وتربو⁽²⁾ الصدقات، وبه عمارة الأرض، وبه تؤدّى السنة والفرص، فمن زرع العدل اجتنى الخير، ومن أحسن كُفي الضرر والضّير، والظلم فعاقبته وخيمة، وما يطول عمر الملك إلا بالمعدلة الرحيمة، والرعيّة فهم الوديعة عند أولي الأمر، فلا يُخصّص بحسن النظر منهم زيدٌ ولا عمرو، والأموالُ فهي ذخائرُ العاقبة والمال، والواجب أن تؤخذ بحقّها وتتفق في مستحقّها"⁽³⁾.

ولم ينس توصيته بالجهاد، ولا غرو في ذلك، فهو من أهم العوامل التي ساهمت في الحفاظ على سلطنتهم واستمرارها، فقد ظهروا حماة للإسلام والمسلمين عن طريقه، ويركّز على أهمية الجهاد بنوعيه: البري والبحري، فبهما يتمّ الحفاظ على أمن الدولة ومنع الأعداء من السيطرة على أراضيها، ولا يخفى ما للجهاد من أهمية في تخليد ذكر الدولة وسلاطينها على مرّ السنين: "والجهادُ برّاً وبحراً، فمن كنانة الله تُفوّق سهامه، وتورّخُ أيّامه، ويُنتضى حسامه، وتجري منشأته في البحر كالأعلام⁽⁴⁾، وتُنشر أعلامه، وفي عُقرِ دارِ الحربِ يُحطّ ركابه، ويُخطّ كتابه، وترسل أرسانه، وتَجوس خلالها فرسانه، فليلزم منه ديدنا، ويستصحب منه فعلا حسنا"⁽⁵⁾.

وكي يتحقق ذلك، لابدّ من الاهتمام بجيوش الإسلام بإحسان معاملتهم، وإجزال العطايا لهم: "وجيوشُ الإسلام وكماتُه⁽⁶⁾، وأمراؤه وحماتُه، فهم من قد علمتَ قَدَم هجره، وعظم نصره، وشدة باس، وقوة مراس، وما منهم إلا من شهد الفتوحات

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 118/10-119.

² "وتربى" في الأصل، والصحيح ما أثبت.

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 119/10.

⁴ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾، سورة الرحمن، آية 24.

⁵ القلقشندي، صبح الأعشى، 119/10.

⁶ الكمات: جمع كمى، وهو الشجاع المتكمى في سلاحه، لأنه كمى نفسه، أي سترها بالدرع والبيضة، لسان العرب، مادة (كمى).

والحروب، وأحسنَ في المُحَاماة عن الدين الدُّؤوب⁽¹⁾، وهم بقايا الدُّول، وتحايا الملوك الأول، لا سيَّما أولي السَّعي النَّاجح، ومَن لهم نسبة صالحية⁽²⁾، إذا فخرُوا بها قيل لهم: نِعَمَ السَّلف الصَّالح، فأوسعهم برًّا، وكُنْ بهم برًّا، وهم بما يجب من خدمتك أعلم، وأنت بما يجب من حُرمتهم أدري⁽³⁾.

ونظرًا لأهميَّة الثَّغور والحصون، يوصيه بحسن تحصينها، وإيكال أمرها إلى من يلمس فيه القوَّة والأمانة، وقوَّة العقل والدين، كما أنَّه يوصيه بإحسان اختيار عمَّاله عامَّة: "والثَّغورُ والحصون فهم ذخائر الشَّدة، وخزائن العديِد والعدَّة، ومقاعد للقتال، وكنائن الرِّجاء والرَّجال، فأحسن لها التَّحصين، وفوِّض أمرها إلى كلِّ قويٍّ أمين، وإلى كلِّ ذي دينٍ متين، وعقلٍ رصين، ونوابٍ الممالك ونوابٍ الأمصار، فأحسن لهم الاختيار، وأجمل لهم الاختبار، وتفقَّد لهم الأخبار"⁽⁴⁾.

ويشهد الحاكم بأمر الله بأهلية قلاوون لتولِّي السلطنة، فالخصال الحسنة التي تتوافر فيه، تجعله غير محتاج للوصايا التي ساقها، إلاَّ أنَّه يعمد إلى ذكرها لأنَّ الله أوصى بالتذكير حين قال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾⁽⁵⁾: "وأما ما سوى ذلك، هو داخلٌ في حدود هذه الوصايا النافعة، ولولا أن الله أمرنا بالتذكير، لكانت سجايا المقرِّ الأشرف السلطاني، الملكي، المنصوري، مكتفية بأنوار المعية الساطعة"⁽⁶⁾.

ويستكمل وصاياه، طالبا إليه التزام تقوى الله، ومحاربة أعداء الإسلام وأخذ الثَّار منهم، وإحسان معاملة مجاورهم المسلمين: "وزمام كلِّ صلاح يجب أن يشغل به جميع أوقاته، هو تقوى الله، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾⁽⁷⁾. فليكن ذلك نصب العين، وشغل القلب والشفقتين، وأعداء الدين من أرمن وفرنج وتتار، فأذقهم وبَّال أمرهم في كلِّ إيرادٍ للغزو وإصدار، وثُر لأن تأخذ للخلفاء العباسيين ولجميع المسلمين منهم الثَّار، واعلم أنَّ الله نصيرك على ظلمهم،

¹ "الدَّؤوب" في الأصل، والصحيح ما أثبت.

² نسبة إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب.

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 119/10.

⁴ المصدر نفسه، 119/10.

⁵ سورة الأعلى، آية 9.

⁶ القلقشندي، صبح الأعشى، 120/10.

⁷ سورة آل عمران، آية 102.

وما للظالمين من أنصار. وأمّا غيرهم من مجاورهم من المسلمين، فأحسن باستفادك منهم العلاج، وطبّهم باستصلاحك، فبالطبّ الملكي والمنصوري ينصلح المزاج، والله الموفق بمنّه وكرمه⁽¹⁾.

أما العهد الثاني، فهو عهد الظاهر بيبرس لابنه السعيد بركة خان سنة (662هـ)، وهو أول عهد ينشأ عن سلطان لابنه في دولة المماليك، وكعادة الكتاب جميعهم، يبدوّه محيي الدين بخطبة استفتاحيّة، يستهلّها بقوله: "الحمد لله منمّي الغروس، ومبهج النفوس، ومزيّن سماء المملكة بأحسن الأهلّة، وأضوأ البدور، وأشرق الشّموس، الذي شدّ أزر الإسلام بملوك يتعاقبون مصالح الأنام، ويتناوبون تدبيرهم كتناوب العينين واليدين في مهمّات الأجساد، وملمّات الأجسام"⁽²⁾.

والسطور السابقة تتمّ عن موضوع الرسالة الرئيس، فإذا اكتفى المرء بقراءتها، استشعر بأنّها كتبت استفتاحاً لرسالة عهد، وعبارة "الذي شدّ أزر الإسلام بملوك يتعاقبون مصالح الأنام، ويتناوبون تدبيرهم..." كافية للتدليل على ذلك، ويبدو أن السعيد بركة كان صغيراً وقت كتابة العهد له، إذ تمّ ختانه في سنة كتابته ذاتها.

ويعدّ تقليد السعيد بركة ولاية العهد نعمةً من نعم الله الكثيرة، التي منّ بها على عباده، وهي تستحق الشكر -أيضاً- كغيرها من النعم، وفي العهد، لا بدّ من ذكر الشهادتين، والصلاة على النبيّ الكريم، و آل بيته وصحابته، كما مرّ سابقاً: "نحمده على نعمه التي أيقظت جفن الشكر المتغافي، وأوردت منهل الفضل الصّافي، وخولت الآلاء حتى تمسكت الآمال منها بالوعد الوافي، وأخذت بالوزن الصّافي. ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده، لا شريك له، شهادة عبدٍ كثّر الله عدده وعُدده، وأحمد أمسه ويومه، ويحمد -إن شاء الله- غده، ونصلي على سيّدنا محمّد الذي أطلع الله به نجم الهدى، وألبس المشركين به أردية الردى، وأوضح به مناهج الدين وكانت ﴿طَرَائِقُ قِدَا﴾"⁽³⁾، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، صلاة لا تنقضي أبداً"⁽⁴⁾.

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 120/10.

² ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص204.

³ سورة الجن، آية 11.

⁴ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص205.

ويسترسل بعد ذلك بذكر الأعمال التي خدم السلطان بها أمته، فيشير إلى قيامه بجهاد أعداء الإسلام والمسلمين، والقضاء عليهم، وإعلاء راية الدين، ولعلّه تعمّد ذكرها؛ كي يرضخ الجميع لأمره، إذ إنّها الطريقة الوحيدة لشكره على ما فعل، ويبدو أنّ بيبرس -حينها- كان يخاف ردّة فعل الرعيّة على قراره، الذي أصدره للمرّة الأولى في دولته: "وبعد: فإنّا لمّا ألهمنا الله مصالح الأمم، وخولّنا⁽¹⁾ من الحرص على مهمّات العباد الذي قطع به شأفة الكفر وحسم، وأتى بنا والشرك قد علّم كلُّ أحد اشتعال ناره، فكان علماً بنارٍ مضرمة، لا ناراً على علم، وقدّرنا⁽²⁾ من دفع الكفر من جميع الجوانب، وقمعهم من كلّ جهة حتى رميناهم بالحتف الواصل و العذاب الواصب، فأصبح الشرك من الإبادة في شرك، والإسلام لا يخشى من فتك، ولا يخاف من درك، وثغور الإسلام عالية المبتى، نامية المقتنى، جانية ثمار الاذخار من هنا ومن هنا، تراحم بروجها في السّماء البروج، وتشاهد الأعداء منها سماء قد بُنيت وزُيّنت وما لها من فروج، وعساكرُ الملة المحمديّة في كلّ طرف من أطراف الممالك تجول، وفي كلّ وادٍ تهيم حتى تشعر بالنصر، ولكنها تفعل ما تقول، قد دوّخت البلاد فقتلت الأعداء تارة بالإلمام، وتارة بالأوهام، وسلّت سيوفها فراعتهم يقظةً بالقراع ونوماً بالأحلام. نرى أنّا قد لذّ لنا هذا الأمر التذاذ المستطيب، وحسن لدينا موقعه فعكفنا عليه عكوف المستجيد، ولبيّناه تلبيةً المستجيب، وشغلنا فيه جميع الأوقات والحواسّ، وتقسّمت مباشرته، ومؤامراته سائر الزّمن حتى غدا أكثر تردّداً إلى النفس من الأنفاس، واستنفذنا الساعات في امتطاء الضمّر الشّوس، وادّراع مُحكم الدّلاص، التي كأنّها ومضاتُ برق أو شعاعُ شمس، وتجريدُ المُرهفات التي قد جفت لحاظها الأجفان، وجرت فكالماياه، واضطربت فكالغدران، وتفويق السّهام التي غدت قسيّها من إتعابنا لها تنن، واعتقال السمهريّة⁽³⁾ التي تفرع الأعداء سنّها ندما كلّما قرعت هي السنّ، إلى غير ذلك من كلّ غارة شعواء تُسيء للكفار الصّباح، وتصدم كالجبال، وتسير كالريّاح، ومنازلاتٍ كم استلبت من موجود، وكم

¹ "وخولّناه" في الأصل، وما أثبت من صبح الأعشى، 163/10.

² "وقدّره" في الأصل، والسياق يقتضي ما أثبت.

³ السمهري: الرّمح الصليب العود، لسان العرب، مادة (سمهر).

استتجزت من نصر موعود، وكم مدينة أضحت لها مُدنية، ولكن أخرها الله إلى أجل معدود⁽¹⁾.

ويُتبع قوله السابق مباشرة بحديث عن السعيد بركة، فقد لاحظ والده نموّه، وتوسّم فيه الخير، فعمد إلى تقليده ولاية العهد؛ تشريفاً له، وعونا له في قضاء أمور المملكة والأمة، وتعهّد بحسن تربيته وتنشئته؛ ليضمن خير الأمة مستقبلاً، وهذا كلّ صاغه الكاتب بعبارات تعجّ بالمدح للأب وابنه، ولعلّه عمد إلى ذلك ليكسب رضا الطرفين حاضراً ومستقبلاً: "وكانت شجرتنا المباركة قد امتدّت منها فرع تفرّسنا فيه الزيادة والنموّ، وتوسّمتنا منه حسن الجنى المرجو، ورأينا أنه الهلال الذي أخذ في ترقّي منازل السّعود إلى الإبدار، وأنه سِرّنا الذي صادف مكان الاختيار له حسن الاختبار. أردنا أن ننصبّه في منصبٍ أحلّ لنا الله فسيح غرفه، ونشرّفه بما خولنا الله من شرفه، وأن تكون يدنا ويده تقتطفان من ثمره، وجيدنا وجيده يتحلّيان بجوهره، وأن نكون للسلطنة الشريفة السمع والبصر، وللمملكة المعظّمة في التناوب بالإضاءة الشمس والقمر، وأن تصول الأمة منا ومنه بحدّين، ويبطشوا⁽²⁾ من أمرنا وأمره بيدين، وأن نربيّه على حُسن سياسة تحمّد الأمة -إن شاء الله- عاقبتها عند الكبر، وتكون الأخلاق الملوكية منتشئة معه، ومنتشبة به من الصّغر، ويجعل سعي الأمة بتمنّي مثله حميداً، ويهب لهم منه سلطاناً نصيراً، وملكا سعيداً، ويقوّي به عضدّ الدين، ويريش جناح المملكة، وينجح مطالب الأمة بإياله⁽³⁾، وكيف لا ينجح مطلب يكون فيه بركة؟"⁽⁴⁾.

ومع أنّ الكاتب صرّح بمراد السلطان سابقاً، إلا أنّه عاد ليصوغه بصورته الرّسميّة، التي تقتضي ذكر اسم المعهود إليه، وبسط نفوذه على المملكة وما يتبعها، مع بيان سلطاته: "وخرج أمرنا -لا برح مُسعداً ومُسعفاً، ولا عدمت الأمة منه خلفاً مُنيلاً، ونوءاً مُخلفاً- بأن يكتب هذا التقليد لولدنا الملك السعيد ناصر الدين بركة خاقان محمّد -جعل الله مطلع سعده بالإشراق محفوفاً، وأرى الأمة من ميامنه ما

¹ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 205-207.

² (يبطشون) في الأصل، والصحيح ما أثبت فهو فعل مضارع منصوب بحذف النون من آخرة لأته من الأفعال الخمسة.

³ الإيالة: السياسة، لسان العرب، مادة (أول).

⁴ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 207.

يدفع للدهر صرّفاً، ويحسن بالتدبير تصريفاً- بولاية العهد الشريف على قُرب البلاد
وبُعْدِهَا، وغورِها ونجدِها، وعساكرِها وجنْدِها، وقلاعِها وثغورِها، وبرورِها
وبحورِها، وولاياتِها وأقطارِها، ومدنِها وأمصارِها، وسهلِها وجبلِها، ومعطَلِها
ومغتَلِها، وما تحوي أقطاره الأقاليم، وما يُنسب للدولة القاهرة من يمن وحجاز
ومصر وغرب، وسواحل وشام بعد شام، وما يتداخل ذلك من قفارٍ ومن بيدٍ في
سائر هذه الجهات، وما يتخلَّلها من نيلٍ وملح، وعذب وفرات، ومن يسكنها من حقيرٍ
وجليل، ومن يحتلّها من صاحب رُغاء⁽¹⁾ وثُغاء⁽²⁾، وصليل وصهيل. وجعلنا يدَهُ في
ذلك كلّه مبسوطة، وطاعته المشروطة، ونواميسه المضبوطة، ولا تدبير مُلك كلّي
ولا جزئيّ إلا بنا أو بولدنا يُعمل، ولا سيف ولا رزق إلا بأمرنا هذا يُسلّ وهذا
يُسأل، ولا دَسْت سلطنة إلاّ بأحدنا يتوضّح منه الإشراف، ولا غصن قلم في روضٍ
أمرٍ ونهي إلاّ ولدنا أو لديه تمتدّ له الأوراق، ولا منبر خطيب إلاّ باسمنا يمس، ولا
وجه درهم ولا دينار إلاّ بنا يُشرق، ويكادُ تبرّجاً لا بهرجاً يتطلّع من خلال
الكيس⁽³⁾.

وفي النصّ السابق إشارةٌ إلى وجوب طاعة المعهود إليه، وإشارةٌ إلى مشاركته
السلطان في الخطبة، وضرب السكّة باسميهما في الوقت ذاته.
وهذا العهد مختلف عن سابقه، فبعد أن يصدر السلطان أمره لابنه بتقلّده، لا
يعمد إلى ذكر الوصايا، بل يتعهّد بتلقينه المناسب منها، بحيث تتشأ معه، وتمتزج
بلحمه ودمه، ويعرّج -أخيراً- على ذكر بعض صفاته؛ ليثبت أهليّته لتولّي هذا
المنصب، ويختتم بالدعاء قائلاً: "فليتقلّد الولدُ ما قلّدناه من أمور العباد، وليشركنا فيما
يباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد، وسنتعاهد الولد من الوصايا بما سينشأ
معه توأماً، ويمتزج بلحمه ودمه، حتى يكاد يكون ذلك إلهاً لا تعلّماً، وفي الولد -
بحمد الله- من نقاء الذهن، وصحّة التصوّر ما يتشكّل فيه الوصايا أحسن التشكيل،
وتظهر صورة الإبانة في صفائه الصّقل، فلذلك استغنيا عن شرحها هاهنا مسرودةً،

¹ الرّغاء: صوت ذوات الخفّ، صوت الإبل، لسان العرب، مادة (رغا).

² الثّغاء: صوت الشّاء والمعز وما شاكلها، المصدر نفسه، مادة (ثغا).

³ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 207-208.

وفيه -بحمد الله- من حُسْن الخَلِيقَةِ ما يُحَقِّقُ أَنَّها بِشَرَفِ الإِلْهَامِ موجودة، والله لا يعدمنا منه إِشْفاقاً وبرّاً، ويجعله أَبداً لِلأُمَّةِ سَنَداً وَذُخْراً، إِنْ شاءَ اللهُ تَعَالَى⁽¹⁾(2).

ويستفتحُ عهد المنصور قلاوون لابنه، الملك الصالح علاء الدين علي سنة(679هـ) بعبارات الحمد والثناء، فقد تشرّفت السلطنة بوليّ العهد، الذي أرسله الله عوناً لوالده؛ كي يساعده في حمل أعباء الدولة، على أَنَّ اختياره لم يأت عبثاً، إذ تمتّع بأخلاق حسنة أهّلته لتولّي زمام هذا المنصب: "الحمدُ لله الذي شَرَفَ سريرَ المَلِكِ مِنْهُ بعلِيّه، وحاطَهُ مِنْهُ بوصِيّه، وعَضَدَ مَنْصُورَهُ بولايَةِ عهدٍ صالحٍ، وأَسَمَى حاتمَ جُوده بمكارمَ حازها بسبقِ عديّه، وأبْهَجَ خَيْرَ الأَباءِ مِنْ خَيْرِ الأَبْناءِ بِمَنْ سَمَوْا بِهِ مِنْهُ بِشَرِيفِ الخلقِ وأَبِيّه، وَغَذَى رَوْضَهُ بِمُتَابَعَةِ وَصِيّه وبِمَسارعةِ وَلِيّه"⁽³⁾.

واجتماع السلطان ووليّ عهده في آن معاً، نعمة من نعم الله، تستوجب الشكر: "نحمدهُ على نعمِهِ التي جمعت إلى الزَّهْرِ الثَّمَر، ودَارَكَتْ بِالْبَحْرِ وباركت في النَّهْرِ، وأَجْمَلْتَ المَبْتَدَأَ وأَحْسَنْتِ الخَبْر، وجمعت في لَذائِذِ الأَوَاقَاتِ وَطِيبِهَا بَيْنَ رَوْنِقِ الأَصَالِ وَرِقَّةِ البُكَر. ونشهدُ أَنَّ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وحده، لا شريكَ لَهُ، شهادة نُلَبِسُ الأَلْسِنَةَ مِنْها فِي كُلِّ سَاعَةٍ ثوباً جديداً، وَنَتَفَيَّأُ مِنْها ظِلاًّ مديداً، وَنَسْتَقَرُّ مِنَ الأَمالِ ما يَراهُ سِوانا بَعِيداً، وَنُصَلِّي على سَيِّدِنا مُحَمَّد، الذي طَهَّرَ اللهُ بِهِ هَذِهِ الأُمَّةَ مِنَ الأَدْناسِ، وجعلها بِهَدايَتِهِ زَاكِيةَ الغِراسِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، الَّذِينَ مِنْهُمْ مَنْ فَهَمَ حَسَنَ اسْتِخْلَافِهِ بالأَمْرِ لَهُ بِالصَّلَاةِ بِالنَّاسِ⁽⁴⁾، وَمِنْهُمْ مَنْ بَنَى اللهُ بِهِ قِوَاعِدَ الدِّينِ وجعلها موطَّدةَ الإِساسِ⁽⁵⁾، وَمِنْهُمْ مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرةِ وَوَأَسَى بِمالِهِ حِينَ الضَّرَّاءِ⁽⁶⁾ والباسِ⁽⁷⁾، وَمِنْهُمْ مَنْ قالَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لأَعْطِينَ الرَّايَةَ

¹ عبارة (إِنْ شاءَ اللهُ تَعَالَى) ذكرها القلقشندي في صبح الأعشى، 10/ 166.

² ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 208-209.

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 10/ 173.

⁴ يقصد بذلك الخليفة أبا بكر الصديق، الذي أمَّ المسلمين، وصلى بهم في السنة العاشرة للهجرة النبوية، بناءً على أمر الرسول له بذلك عند مرضه، بعد انتهائه من أداء فريضة الحج.

⁵ يقصد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.

⁶ (الضراء) في الأصل، وما أثبت ورد في صبح الأعشى، تحقيق محمد حسين شمس الدين، طبعة دار الكتب العلمية، 10/ 178.

⁷ يقصد الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

غداً رجلاً يُحِبُّهُ اللهُ ورسولُهُ وَيُحِبُّ اللهُ ورسولُهُ⁽¹⁾ فحَسُنَ الْاِلْتِمَاسُ بِذَلِكَ وَالِاقْتِبَاسُ،
وزاد في شرفِهِ أَنْ طَهَّرَ أَهْلَ بَيْتِهِ، وَأَذْهَبَ عَنْهُمْ الْأَرْجَاسَ، صَلَاةً لَا تَزَالُ تَتَرَدَّدُ
تَرَدَّدَ الْأَنْفَاسِ، وَلَا تَبْرَحُ فِي الْأَنَاءِ حَسَنَةَ الْإِيْنَاسِ⁽²⁾.

والملاحظ في هذا العهد وسابقه، أن الكاتب يعمد عند صلاته على النبي
الكريم إلى ذكر شيء من فضائله على البشر، كإخراجهم من الظلمات إلى النور،
وتطهيرهم من الأدناس، وإيضاحه مناهج دينهم، وغير ذلك، ولكنه هنا يزيد فيذكر
شيئاً من أعمال صحابته، ويخصّ منهم الخلفاء الراشدين، ولعلّه أراد من ذلك أن
يبين للناس أنه كما للرسول الكريم وصحابته فضائل على الأمة الإسلامية، كذلك
للسلطان فضائل عليها، ومن أهمّها تكليفه لولده الصالح علاء الدين بولاية العهد؛
نظراً لحسن أخلاقه، وبذلك يكون قد ضمن خير الأمة في المستقبل.

ويواصل مدح الأب وابنه، مع التركيز على أحقية الابن بتولي ذلك المنصب،
فقد ألهم الأخلاق الملوكية، فأصبح بفضلها عالماً بمتطلبات السلطنة، وقادراً على
إدارة شؤونها، لذلك فهو ينوب عن والده في حال غيابه: "وبعد، فإنّ خير من شُرِّفَتْ
مراتبُ السلطنة بحلولة، وفوقّت ملابسُ التحكيم بقبوله، ومن تزهى مطالعُ الملك
بإشراقه، وتتبادرُ الممالكُ مذعنةً لاستحقاقه، ومن يزدهي ملكٌ منصوره -نصره الله
بولده ووليّ عهده مكنة- بانيه، ومن يتشرفُ إيوانُ عظمة: إن غاب والده في
مصلحة الإسلام فهو صدره، وإن حضر فهو ثانيه، ومن يتجمل غابُ الإيالة منه
بخير شبلٍ كفل ليثاً، ويتكفل غوث الأمة بخير وابل خلف غيثاً، ومن ألهم الأخلاق
الملوكية وأوتي حكمها صبيّاً، ومن خصّصته الأدعية الشريفة بصالحها ولم يكن
بدعائها شقيّاً، ومن رفعت به هضبةُ الملك حتى أمسى مكانها علياً، ومن هو أحقّ
بأن يُنجب الأمل وينجح، وأولى بأن يُتلى له: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾⁽³⁾، ومن
هو بكلّ خيرٍ مليّ، ومن إذا فوّضت إليه أمورُ المسلمين، كان أشرف من لأموهم

¹ يقصد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب، مسلم، أبو الحسين القشيري النيسابوري (ت 261هـ)، صحيح
مسلم، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، 1440/3.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 10/ 173-174.

³ سورة الأعراف، آية 142.

يلي، ومن يتحقق من والده الماضي الغرار، ومن اسمه العالي المنار، أن لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي⁽¹⁾.

ولابد من ذكر ألقاب المعهود إليه كما مرّ سابقاً، ولابد من التركيز على وجوب طاعته، فهو أمل الأمة، وطريق صلاح البلاد وما يتبعها من ثغور: "ولما كان المقام العالي، الولدي، السلطاني، الملكي، الصالح، العلائي -عزّده الله به الدين، وجمع إذعان كل مؤمن على إيجاب طاعته؛ لمباشرة أمور المسلمين، حتى يُصبح وهو صالح المؤمنين- هو المرجو لتدبير هذه الأمور، والمأمول لصلاح البلاد والثغور، والمدّخر في النصر لشفاء ما في الصدور، والذي تشهدُ الفراسة لأبيه وله بالتحكم: أوليس الحاكم أبو علي هو المنصور؟، فلذلك اقتضت الرحمة والشفقة على الأمة، أن يُنصب لهم ولي عهد، يتمسكون من الفضل بعروة كرمه، ويسعون بعد الطواف بكعبة أبيه لحرمة، ويقتطفون أزهار العدل وثمار الجود من كلمه وقلمه، وتستسعد الأمة منه بالملك الصالح الذي تُقسم الأنوار لجبينه، وتقسم المبار من كراماته وكرمه"⁽²⁾.

ويبدو أن الطاعة المتطلّبة من الأمة لولي العهد، تصل إلى درجة الفرض والتقدس، وهذا يظهر في النص السابق عندما قال: "ويسعون بعد الطواف بكعبة أبيه لحرمة".

ومن مستلزمات العهد ذكر ألقاب العاهد، ومن ثمّ إصدار أمر الولاية بصيغته الرسمية، وإعلان سيطرة المعهود إليه على الدولة وأقاليمها، وجميع من يقطنها بمختلف أجناسهم وطبقاتهم: "فلذلك خرج الأمرُ العالي، المولوي، السلطاني، الملكي، المنصوري، السيفي -أخدمه الله القدر، ولازالت الممالك تتباهى منه ومن وليّ عهده بالشمس والقمر- أن يفوض إليه ولاية العهد وكفالة السلطنة المعظمة، ولاية تامّة عامّة، شاملة كاملة، شريفة منيفة، عطوفة رؤوفة"⁽³⁾، في سائر أقاليم الممالك وعساكرها وجنودها، وعربها وتركمانها وأكرادها، ونوابها وولاتها، وأكابرها وأصاغرها، ورعاياها ورعاتها، وحكامها وقضاتها، وسارحها وسانحها، بالديار

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 10/ 142.

² المصدر نفسه، 10/ 174-175.

³ (رءوفة) في الأصل، والصحيح ما أثبت.

المصرية وثورها وأقاليمها وبلادها وما احتوت عليه، والمملكة الحجازية وما احتوت عليه، ومملكة النوبة وما احتوت عليه، والفتوحات الصّقدية، والفتوحات الإسلامية السّاحلية وما احتوت عليه، والممالك الشّاميّة وحصونها، وقلاعها ومدنها، وأقاليمها وبلادها، والمملكة الحمصيّة، والمملكة الحصنيّة الأكراديّة والجبلية وفتوحاتها، والمملكة الحلبية وثورها وبلادها وما احتوت عليه، والمملكة الفراتية وما احتوت عليه، وسائر القلاع الإسلامية برّا وبحرا، وسهلا ووعدرا، شاما ومصر، يمنا وحجازا، شرقا وغربا، بعدا وقربا، وأن تُلقَى إليه مقاليد الأمور في هذه الممالك الشريفة، وأن تستخلفه سلطنة والده -خَلَدَ اللهُ دولته- لتشهد الأمة منه في وقت واحد سلطانا وخليفة⁽¹⁾.

ويُتّضح ممّا سبق اتساع رقعة الدولة ونفوذ سلطانها، من خلال تعداد الأماكن التابعة لها والواقعة تحت سيطرة صاحبها.

ولابدّ من إذاعة العهد وإعلامه للناس جميعا، سواء أكانوا داخل نطاق الدولة أم خارجها: "ولاية واستخلافًا تُسندهما الرواة، وتترنم بهما الحداة، وتعيهما الأسماعُ، وتنطقُ بهما الأفواه، تفويضا يعلن لكافة الأمم، ولكلّ ربّ سيف وقلم ولكلّ ذي علم وعلم، بما قاله - صَلَّى اللهُ عليه وسلم - لسميّه⁽²⁾ - رضي الله عنه - حين أولاه من الفخار ما أولاه: "مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ"⁽³⁾، فلا مَلِكٌ إقْلِيمٌ إلّا وهذا الخطاب يصله ويوصله، ولا زعيم جيش إلّا وهذا التفويض يتبعه ويشمله، ولا إقْلِيمٌ إلّا وكلّ من به يقبله ويقبله، ويتمثّل بين يديه ويمثّله، ولا منبر إلّا وخطيبه يتلو فرقان هذا التّقديم ويرتلّه"⁽⁴⁾، إذا فكلّ فرد ملزم بقبول هذا العهد، والخضوع له، وإذاعته.

ويرصّع العهد بعدد من الوصايا الهامة، التي تنير درب المعهود إليه، وهي مشابهة للوصايا التي طرحت سابقا في عهد الخليفة العبّاسي، الحاكم بأمر الله للمنصور قلاوون، وتتمثّل بتقوى الله، والتزام شرعه، والعمل بأوامره والابتعاد عن نواهيه، وإقامة العدل، والاهتمام بالرّعيّة ورعايتهم، مع تطبيق أحكام الشريعة

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 10/ 175.

² يقصد علي بن أبي طالب، فهو وولي العهد كلاهما يسمى عليّا.

³ الترمذي، محمد بن عيسى (ت 279هـ)، سنن الترمذي، حقّقه أحمد محمود شاكر وآخرون، (د.ط)، دار

إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، 5/ 633.

⁴ القلقشندي، صبح الأعشى، 10/ 175 - 176.

الإسلامية عليهم إذا اقتضى الأمر ذلك: "وأما الوصايا، فقد لقنا ولدنا وولي عهدنا ما انطبع في صفاء ذهنه، وسرت تغذيته في نماء غصنه، ولابد من لوامع للتبرك بها في هذا التقليد الشريف تنير، وجوامع بعير لحيثها⁽¹⁾ حيث يصير، وودائع ينبئك عنها ولدنا -أعزنا الله ببقائه- ولا ينبئك مثل خبير: فاتق الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وانصر الشرع، فإنك إذا نصرته ينصرك الله على أعداء الدين وعداك، واقض بالعدل مخاطبا ومكاتبا حتى يستبق إلى الإيعاز به لسانك ويمناك، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر عالما أنه ليس يخاطب غداً بين يدي الله عن ذلك سوانا وسواك، وانه نفسك عن الهوى، حتى لا يراك الله حيث نهاك، وحط الرعية، ومُر النواب بحملهم على القضايا الشرعية، وأقم الحدود"⁽²⁾.

كما يجب عليه تجميع الجنود وإرسالهم لمحاربة الأعداء براً وبحراً، وحفظ الثغور ومتابعة أمورها، والاستفادة من آراء والده وخبرته في تسيير شؤون البلاد، وعليه احترام أكابر الدولة وإكرامهم، والأخذ بمشورتهم، حتى إن كانوا ممن ينتسبون للدولة الأيوبية من أتباع السلطان الصالح نجم الدين أيوب خاصة: "وجند الجنود، وابعثها براً وبحراً من الغزو إلى كل مقام محمود، واحفظ الثغور، ولاحظ الأمور، وازدد بالاسترشاد بآرائنا نورا على نور، وأمراء الإسلام الأكابر وزعماءه، فهم بالجهاد والذب عن العباد أصفياء الله وأحباءه، فضاعف لهم الحرمة والإحسان، واعلم أن الله اصطفانا على العالمين وإلا فالقوم إخوان، لا سيما أولو السعي الناجح، والرأي الراجح، ومن إذا فخروا بنسبة صالحة قيل لهم: نعم السلف الصالح، فشاورهم في الأمر، وحاورهم في مهمات الأمور في كل سرّ وجهر، وكذلك غيرهم من أكابر الأمراء الذين هم من تحايا الدول، وذخائر الملوك الأول، أجرهم في هذا المجرى، واشرح لهم بالإحسان صدرا"⁽³⁾.

وعليه -أيضاً- رعاية الجيوش والإحسان إليهم، فبهذا يكسب محبتهم وطاعتهم، ويوصيه بالبلاد ويجعل أهلها وديعةً عنده يجب الحفاظ عليهم والإحسان إليهم؛ ليعضمن طاعتهم لأوامره كافة: "وجيوش الإسلام هم البنان والبنيان، فوال إليهم

¹ هكذا في الأصل.

² القلشندي، صبح الأعشى، 11/ 176.

³ المصدر نفسه، 10/ 176 - 177.

الامتتان، واجعل محبتك في قلوبهم بإحسانك إليهم حسنة المربي، وطاعتك في عقائدهم قد شغفها حباً، ليصبحوا بحسن نظرك إليهم طوعاً، وليحصل كل جيش منهم من التقرب إليك بالمناصحة نوعاً، والبلاد وأهلها فهم عندك الوديعه، فاجعل أوامرك لهم بصيرةً وسميعةً⁽¹⁾.

وأخيراً يتعهد بتلقين ولي العهد نصائح أخرى، تنشأ معه، وتلتصق بشخصه، وينهي العهد بأدعية مختلفة: "وأما غير ذلك من الوصايا، فسندخلك منها بما ينشأ معك توأماً⁽²⁾، ونلقنك من آياتها محكما فمحكما، والله تعالى ينمي هلاكك حتى يوصله إلى درجة الإبدار، ويغذي غصنك حتى نراه قد أينع بأحسن الأزهار وأينع الثمار، ويرزقك سعادة سلطاننا الذي نعت بنعته تبركا، ويلهمك الاعتضاد بشيعته، والاستئان بسنته، حتى تصبح كتمسكنا بذلك متمسكا، ويجعل الرعية بك في أمن وأمان، حتى لا تخشى سوءاً ولا تخاف دركا، والاعتماد على الخط الشريف -أعلاه الله تعالى- أعلاه إن شاء الله تعالى"⁽³⁾.

ونظراً لوفاء ولي العهد السابق سنة (687هـ)⁽⁴⁾، عمد قلاوون إلى تولية أخيه الملك الأشرف، صلاح الدين خليل مكانه، ويبين الكاتب في عهده استمرارية طاعة الله سبحانه وتعالى، والرضا بحكمه، وشكره أيضاً، على الرغم من المصائب التي يبتلي بها عباده أحياناً، ويقصد بذلك وفاة علاء الدين علي، كما أنه يتابع حمد الله لتبنيته السلطان وتصديره على ما ابتلي به، وشكره في الوقت ذاته لتعويضه إيّاه بالأشرف خليل: "الحمد لله الذي لم يزل له السمع والطاعة فيما أمر، والرضا والشكر فيما هدم من الأعمار وما عمر، والتفويض في التعويض إن غابت الشمس وبقي القمر، نحمده على أن جعل سلطاننا ثابت الأركان، نابت الأغصان، كل روضة من رياض ذات أفنان، لا ترزعه ريح عقيم، ولا يخرج رزء عظيم عن الرضا والتسليم، ولا يعتبط من جملته كريم إلا ويغتبط من أسرته بكريم"⁽⁵⁾.

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 177/10.

² (توأم) في الأصل، والصحيح ما أثبت.

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 177/10.

⁴ يذكر ابن إياس في كتابه (بدائع الزهور) بأن علاء الدين علي توفي بسبب مرضه بالحمى الكبدية، ج 1،

ق 1، ص 357-358.

⁵ النويري، نهاية الأرب، 112-111/8.

ويواصل حديثه على نمط العهود السابقة قائلاً: "ونشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، شهادة تزيد قائلها تفويضاً، وتُجزل له تعويضاً، وتحسن له على الصبر الجميل في كل خطب جليل تحريضاً، ونشهد أن محمداً عبده الذي أنزل في التسليّة به: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾⁽¹⁾، والنبي الذي أوضح الله به المناهج، وبيّن السبل، صلى الله عليه وعلى آله ما تجاوبت المحابر والمنابر في البكر والأصل، وما بددت عقود ونظمت، ونسخت آيات وأحكمت، ونقضت أمور وأبرمت، وما عزمت آراء فتوكلت وتوكلت فعزمت، ورضي الله عن أصحابه الذين منهم من كان للخليفة نعم الخليفة، ومنهم من لم يدرك أحد في تسويد النفس الحليفة ولا في تبييض الصحيفة مدّه ولا نصيفه، ومنهم من يسره الله لتجهيز جيش العسرة فعرف الله معروفه، ومنهم من عمل صالحاً أرضى ربّه فأصلح في ذريته الشريفة"⁽²⁾.

ومن لطائف الله بعباده أن عوضهم عن وليّ عهدهم رحمة الله - بأخيه الأشرف خليل، الذي كان معدّاً لتوليّ ذلك المنصب، بما يمتلكه من صفات خيرة، فهو خير خلف لخير سلف، وقد عبّر الكاتب عمّا سبق بعبارات تزخر بالمدح والثناء: "وبعد، فإنّ من ألطاف الله بعباده، واكتتاف عواطفه ببلاده، أن جعلنا كلّما وهى للملك ركنٌ شديدٌ شيّدنا ركناً عوضه، وكلّما اعترضت للمقادير جملة بدّلنا آية مكان آية وتناسينا تجلّداً تلك الجملة المعترضة، فلم نحوج اليوم لأمسّه إن كان حميداً، ولا الغارس لغرسه إن كان ثمره يانعاً وظلّه مديداً، فأطلعنا في أفق السلطنة كوكب سعد كان لحسن الاستخلاف معدّاً، ومن لقبيل المسلمين خير ثوابا وخير مردّا، ومن يبشّر الله به الأولياء المتّقين ويُنذر به من الأعداء قوماً لداً، ومن لم يبق إلاّ به أنسنا بعد ذهاب الذين نحُبهم وبقي كالسيف فردا"⁽³⁾، والذي ما أمضى حدّه في ضريبة إلاّ قدّ البيض والأبدان قدّا، ولا جهز راية كتيبة إلاّ أغنى غناء الذاهبين وعدّ

¹ سورة آل عمران، آية 144.

² النويري، نهاية الأرب، ص 112-113.

³ يشير إلى قول عمرو بن معد بن يكرب الزبيدي: ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا، أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي (ت 231 هـ)، ديوان الحماسة، برواية أبي منصور موهوب بن محمد بن الخضر الجواليقي، تحقيق عبدالمنعم أحمد صالح، (د. ط)، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، (د. ت)، ص 57.

للأعداء عدًا⁽¹⁾، ولا بعثة جزع فقال: "كم من أخ لي صالح"⁽²⁾ إلا لقيته ورع فقال: "وخلقت يوم خلقت جدًا"⁽³⁾، وهو الذي بقواعد السلطنة الأدرى وبقوانينها الأعرف، وعلى الأولياء الأعطف، وبالرعايا الأرف، والذي ما قيل لبناء ملك: هذا عليه قد وهى إلا وقيل: هذا بناء مثله منه أسمى ملكا وأشرف، والذي ما برح النصر يتسم من مهاب تأميلة والفلاح، ويتسم ثغره فتتوسم الثغور من تبسمه النجاح، وينقسم نوره على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلا وهو يشرئب إلى ملاحظة جبين عهده الوضاح ويتفق اشتقاق النعوت⁽⁴⁾ فيقول التسلي للتلمي سواء الصالح والصلاح، والذي ما برح لشعار السلطنة إلى توقله وتنقله أتم حنين، وكأنما كوشفت الإمامة العباسية بشرف مسماه فيما تقدم من زمن من سلف من حين، فسمت ووسمت باسمه أكابر الملوك وأخاير السلاطين، فخطب كل منهم مجازاً لا كهذه الحقيقة بخليل أمير المؤمنين، والذي كم جلا بهاء جبينه من بهيم، وكم غدا الملك بحسن رأيه ويمن آرائه يهيم، وكم أبرأ مورده العذب هيم عطاش، ولا ينكر الخليل إذا قيل عنه: إنه أبراهيم، ومن تشخص الأبصار لكمالهِ يوم ركوبه حسيرة، وتلقي البنان سلاحها ذهلا وهي لا تدري لكثرة الإيماء إلى جلاله إذا يبدو مسيره، والذي ألهم الله بجوده وجوده صبرا جميلا، وآتاهم من نفاسة كرمه وحراسة سيفه وقلمه تأمينا وتأميلا، وعظم في القلوب والعيون بما من برّه سيكون، فسمته الأبوة الشريفة ولدا، وسماه الله خليلا⁽⁵⁾.

وعند الوصول إلى نصّ الولاية الرسميّ، تلمح فيه أمورٌ مخالفة لما عهد سابقا، ففي العهود السابقة عمد الكاتب إلى ذكر اسم المعهود إليه أو ألقابه، حتى إذا ما فرغ من ذلك، عمد -على لسان السلطان- إلى بسط نفوذه على المملكة وما يتبعها من أقاليم، مع ذكرٍ لأسماء بعضٍ منها، ولكن نصّ الولاية هذا يخلو من تلك الأمور، إذ يبدو الكاتب بسطور ينوّه فيها إلى أهمية تولية الأشرف خليل، ومن ثمّ يدخل في نصّ الولاية الرسميّ من دون ذكر ألقاب المعهود إليه، وفي الوقت ذاته يبسط

¹ البيت هنا أيضا لعمر بن يكر من القصيدة السابقة نفسها، أبو تمام، ديوان الحماسة، ص 57.

² هذا البيت من القصيدة نفسها، وهو صدر البيت، وعجزه: بؤاته بيديّ لحداء، المصدر نفسه، ص 57.

³ هذا البيت من القصيدة نفسها، وهو عجزه، وصدره ألبسته... أثوابه، أبو تمام، المصدر نفسه، ص 57.

⁴ كلاهما مشتق من الفعل (صلح).

⁵ النويري، نهاية الأرب، 113/8-115.

سيطرتة على البلاد بشكلٍ عام دون التطرّق إلى ذكر الأسماء، وبعد ذلك، يطلق يده في أمور السلطنة المختلفة فيفتح له مجال التصرف بها: "ولمّا تحتمّ من تفويض أمر الملك إليه ما إلى وقته المعلوم قد تأخّر، وتحيّن حينه فكمّل بزيادة كزيادة الهلال حين بادر تمامه فأبدر، اقتضى حسنُ المناسبة لنصائح الجمهور، والمراقبة لمصالح الأمور والمصاوبة لمناجح البلاد والثغور، والمقاربة من فواتح كلّ أمر ميسور، أن نفوض إليه ولاية العهد الشريف بالسلطنة الشريفة المعظّمة، المكرّمة المفخّمة المنظّمة، وأن تُبسّط يده المنيفة لمصافحتها بالعهود وتحكيمها في العساكر والجنود، وفي البحور والثغور، وفي التهائم والنجود، وأن يُعقد بسيفها وقلمها كلّ قطع ووصل، وكلّ فرع وأصل، وكلّ نصر ونصل، وكلّ ما يحمي سرحا، ويهي منحا، وفي المثيرات في الإعداء على الأعداء نقعا، وفي المغيرات صُبحا، وفي المنع والإطلاق، وفي الإرفاد والإرفاق، وفي الخميس إذا ساق، وفي الخمس إذا انساق، وفي السيوف إذا بلغت التراقي وقيل: من راق، وفي الرماح إذا التفت الساق منها بالساق، وفي المعاهدات والهدن، وفي الفداء بما عرّض من عرّض وبالبدن للبدن، وفيما ظهر من أمور الملك وما بطن، وفي جميع ما تستدعيه بواعثه في السر والعلن، وتستترعيه نوافته من كبتٍ وكتب متفرّقين أو في قرن، عهدا مباركة عوده وتمائم، وفواتحه وخواتمه، ومناسمه ومواسمه، وشروطه ولوازمه:

على عاتق الملك الأغرّ نجاده وفي يد جبار السموات قائمة⁽¹⁾»⁽²⁾.

وعند قراءة مطالع نصوص الولاية السابقة، يُلاحظ أنّها تبدأ بصيغ متشابهة: "خرج أمر مولانا أمير المؤمنين..."، "خرج أمرنا..."، "خرج الأمر العالي..."، ولكن الكاتب هنا يغيّر أسلوبه، فيبدأ نصّ الولاية بقوله: "اقتضى حسنُ المناسبة لنصائح الجمهور.. أن نفوض إليه ولاية العهد الشريف..."، ولعلّ القارئ يشعر برسمية في مطالع الولاية السابقة أكثر منها هنا، إذ إنّها تشدّ انتباه السامع للأمر الذي يتلوها أولا، وتشعر بنوع من الإلزام من خلال استخدام الفعل (خرج) ثانياً.

¹ هذا البيت للمتنبّي، من قصيدة قالها في مدح سيف الدولة الحمداني، عند منصرفه من الظفر بحصن بردويه، وعودته إلى أنطاكية، وكان ذلك في سنة (337هـ)، المتنبّي، أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت354هـ)، ديوان أبي الطيب المتنبّي، صححه وقارن نسخه وجمع تعليقاته عبد الوهاب عزام، (د.ط)، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1944م، ص 248.

² النويري، نهاية الأرب، 117-115/8.

ويجب على الأفراد الالتزام بهذا العهد وقبوله بمختلف طبقاتهم، فحكم السلطان لا رادّ له، وهذا العهد غير قابل للنقض، تزيده الليالي والأيام استمرارية وجدة، وهو نعمة من نعم السلطان التي منّ بها على رعيته، لذلك فهي تستوجب الشكر: "لا رادّ لحكمه، ولا ناقض لبرمه، ولا داحض لما أثبتته الأقالم من مكنون علمه. ويزيده مرّ الليالي جدّة وتقادّم الأيام حسن شباب⁽¹⁾"

وتلزم السنون والأحقاب استيداعه حتى الذراري والأعقاب، فلا سلطان ذا قدر وقُدرة، وذا أمر وإمرة، ولا نائب في مملكة قرّبت أو بُعدت، ولا مقدّم جيوش أتهمت وأنجدت ولا راع⁽²⁾ ولا رعيّة، ولا ذا حكم في الأمور الشرعيّة، ولا قلم إنشاء، ولا قلم حساب ولا نوي أنساب، ولا نوي أسباب، إلّا وكلّ داخل في قبول عقد هذا العهد الميمون، و متمسك بمحكم آيات كتابه المكنون، والتسليم لنصّه الذي شهدته من الملائكة الكرام الكاتبون، وأمست بيعته بالرّضوان محفوفة، والأعداء يدعونها تضرّعا وخيفة، فليشكروا الصّنع الذي بعد أن كانت الخلفاء تُسلطن الملوك، قد صار سلطانهم يُقيم لهم من ولاة العهد خليفة بعد خليفة⁽³⁾.

وتتكرّر وصايا العهود السابقة هنا، مع بعض الإضافات، ويستهلّها بضرورة الالتزام بتقوى الله وشرعه، وتطبيق العدل، والمساواة بين الناس، والإحسان إليهم، وإجزال العطايا لحاشيته، إضافة الى إكرام ضيوفه: "وأما الوصايا، فأنت يا ولدنا الملك الأشرف -أعزّك الله- بها الدّرب، ولسماع شدوها وحدوها الطّرب، الذي للغو لا يضطرب، فعليك بتقوى الله، فإنّها ملائكة سدادك وهلاك أضدادك، وبها يُراش جناح نجاحك، ويحسن إقتداء اقتداحك، فاجعلها دفين جوائح تأمّلك ووعيك، ونُصب عيني أمرك ونهيك، والشرّع الشّريف، فهو قانون الحقّ المتّبع، وناموس الأمر المستمع، وعليه مدار إعاء كلّ إيعاز، وبه يتمسك من أشار وامتاز، وهو جنّة والباطل نار ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾⁽⁴⁾، فلا تخرج في كلّ حال عن لوازمه وشروطه، ولا تتكّب عن مُعلّقه ومنوطه، والعدل، فهو مثمّر غروس

¹ التبريزي، الخطيب، شرح ديوان أبي تمام، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1992م، 58/1.

² (راعي) في الأصل، وما أثبت هو الصحيح.

³ النويري، نهاية الأرب، 117/8 - 118.

⁴ سورة آل عمران، آية 185.

الأموال، ومعمّر بيوت الرّجاء والرّجال، وبه تزكو الأعمارُ والأعمال، فاجعله جامع أطراف مراسمك، وأفضلَ أيّام مواسمك، وسمِّ به فعلك، وسمِّ به فرضك ونفلك، ولا تفرد به فلانا دون فلان، ولا مكانا دون مكان، واقرنه بالفضل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾⁽¹⁾، وأحسن التّخويل، وأجمل التّتويل، وكثّر لمن حولك التّموين والتمويل، وضاعف الخيرَ في كلّ مُضافٍ لمقامك ومستضيفٍ بإنعامك، حتى لا تعدم في كلّ مكان وفي كلّ زمان من النّعماء ضيافةُ الخليل⁽²⁾ (3).

وعليه تزويد الثّغور بكلّ ما يضمن الحماية لها، إذ إنّها تلعب دورا هامّا في حفظ البلاد من الأعداء، وضمان نُصرة جيوشها: "والثّغور، فهي للمالك مباسمها، فاجعل نواجذها تفتّرُ عن أحسن ثنايا الصّوّن، ومراشفها شنبّة الشّفاء بحُسنِ العَون، ومُنْها بما يحمي السّرح مِنْها، وأعِنها بما يدفع المكاره عنها، فإنّها للنّصرِ مقاعد، وبها حفظُ البلاد من كلّ مارٍ من الأعداء مارد"⁽⁴⁾.

ويوصيه بأمراء الجيوش، فيطلب إليه تقديرهم، ورعايتهم، وإكرامهم، والاستفادة من آرائهم، كما يوصيه بأوليائه الذين صاحبه منذ بداية حكمه، وساهموا في إعلاء شأن دولته، فيجب عليه احترامهم، وتقريبهم، ليكونوا خير معين له في تدبير شؤون سلطنته: "وأمرّاء الجيوش، فهم السّور الواقية بين يدي كلّ سور، وما منهم إلّا بطل بالنّصر مشهور كما سيفه مشهور، وهم ذخائر الملوك، وجواهر السلوك، وأخاير الأكابر الذين خلصوا من الشّكوك، وما منهم إلّا مَنْ له حرّمات سلفت، وحقوق عرضت، ومواتٌ على استلزام الرّعاية للعهود وقّفت، فكن لجنودهم متحبّبا، ولمرابعهم مُخصّبا، وفي حمدهم مُطنّبا، وفي شكرهم مُسهّبا، والأولياء المنصوريّين الذين هم كالأولاد، ولهم سوابق أمتٌ من سوابق الإيجاد، وهم من علمت استكانة من قربنا، ومكانة من قلبنا، وهم المساهمون فيما ناب، وما برحوا

¹ سورة النحل، آية 90.

² يقصد بهذا قصة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام مع ضيوفه من الملائكة، وقد ذكرها الله في كتابه في مواضع عديدة، منها قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾، سورة الذاريات، آية 24.

³ النويري، نهاية الأرب، 8/118-119.

⁴ المصدر نفسه، 8/119.

للدولة الظفر والنايب، فأسهم لكل منهم من احترامك نصيبا، وأدم لهم ارتياحك، وألن جمالك، وقو بهم سلاحك، تجد منهم ضروبا، وتر كلاً منهم في أعدائك ضروبا⁽¹⁾. ولم ينس توصيته بجيش البحر، الذي لا تقل أهميته عن أهمية جيش البر، فهو يحفظ البلاد من غارات الأعداء، التي تُشنّ عن طريق البحر، ويمنع تسللهم إليها، إذ تقف سفنه كالأسوار في وسطه، تدافع عن البلاد، وتقذف الرعب في قلوب أعدائها، ولذلك، يجب عليه الاهتمام بهذا الجيش وتجهيزه بما يلزم: "وكما أنا نوصيك بجيوش الإسلام، كذلك نوصيك بالجيش الذي له المنشآت في البحر كالأعلام، فهو جيش الأمواه والأمواج، المضاف إلى الأفواج من جيش الفجاج، وهو الجيش السليمانى في إسراع السير، وما سميت شوانيه غربانا إلا ليجمع بها لنا ما اجتمع لسليمان -صلى الله عليه وسلم- من تسخير الرّيح والطّير، وهي من الدّيار المصريّة على ثبج البحر الأسوار، فإن قذفت قذفت الرعب في قلوب الأعداء، وإن أقلعت قلعت منهم الآثار، فلا تخله من تجهيز جيشه، وسكن طيش البحر بطيشه، فيصبح لك جيشان كلّ منهما نوكر و فرّ، هذا في برّ بحر وهذا ببحر بر"⁽²⁾.

وللمرّة الأولى يذكر الكاتب في وصاياها بيوت العبادات، فيوصي وليّ العهد - على لسان والده- بتشييدها، ورفع اسم الله فيها، والاهتمام بها، وإغداق الأموال عليها، ويوصيه كذلك ببيوت الأموال فيأمره بملئها بأنواع الصّروف المختلفة؛ كي يضمن بها الاكتفاء وقت الحاجة: "وبيوت العبادات، فهي التي إلى مُصلّى سميتك خليل الله تنتهي محاربها، وبها لنا ولك وللمسلمين سرى الدّعوات وتأويبها، فوفها نصيبها المفروض غير منقوص، ومُر برفعها وذكر اسم الله فيها حسب الأمر المنصوص، وأخواتها من بيوت الأموال الواجبات الواجبات، من حيث إنّها كلّها بيوت لله هذه للصّلاة وهذه للصّلات، وهذه كهذه في رفع المنار، وجمع المبار، وإذا كانت تلك ممّا أن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه، فهذه تُرفع ويُذكر فيها اسمه على الدرهم والدينار، فاصرف إليها اجتهدك فيما يعود عليها بالثّمن، كما يعود على تلك بالتّوير، وعلى هذه بإشحانها بأنواع الصّروف، كإشحان تلك باستواء الصّفوف،

¹ النويري، نهاية الأرب، 120-119/8.

² المصدر نفسه، 121-120/8.

فإنها إذا أصبحت مصونة، احتملت -بحمد الله- المعونة، وكفلت بالمؤونة وبالزيادة على المؤونة، فتكمل هذه لكل ولي دنياه كما كملت تلك لكل ولي دينه⁽¹⁾.

ويجب عليه مراعاة حدود الله، وتطبيقها على مستحقيها، وعدم الرأفة بهم، ليحفظ بذلك الأمن والانضباط: "وحدود الله، فلا يتعداها أحد، ولا يرأف فيها ولد بوالد ولا والد بولد، فأقمها وقم في أمرها حتى تتضبط أتم الضبط، ولا تجعل يد القتل مغلولة إلى عنقها ولا تبسطها كل البسط، فلكل من الجنايات والقصاص شرط شرطه الله وحد حده، فلا يتجاوز أحد ذلك الحد، ولا يخرج عن ذلك الشرط"⁽²⁾.

ويلزمه بالجهاد، لا يحيد عنه أبداً، فقد اعتاد المماليك على القيام به منذ القدم، فيحثه على غزو الأعداء والفتك بهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، مستخدماً الأسلحة بأنواعها المختلفة، ومستعيناً في الوقت ذاته بشتى أنواع الخيول: "والجهاد، فهو الدين المألوف من حيث نشأتنا ونشأتك في بطون الأرض وعلى ظهور الخيل، فمل على الأعداء كل الميل وصبحهم من فتكاتك بالويل بعد الويل، وارمهم بكل شمري قد شمر من يده عن الساعد، ومن رُمحه عن الساق، ومن جواده الذيل، واذهب بهم في ذلك كل مذهب، وأبن بنجوم الخرصان كل غي وغيب، وتكثر في غزوهم من الليل بكل أدهم، ومن الشفق بكل أحمر وأشقر، ومن الأصيل بكل أصفر، ومن الصبح بكل أشهب، وانتهب أعمارهم واجعلها آخر ما يسلب، وأول ما ينهب، ونرجو⁽³⁾ أن يكون الله قد خبأ لك من الفتوحات ما يستنجزها لك صادق وعده، وأن ينصر بك جيوش الإسلام في كل إنجاد وإتهام، وما النصر إلا من عنده"⁽⁴⁾.

وللمرة الأولى -أيضاً- يتطرق في وصاياه إلى بيت الله الحرام، فيوصيه برعايته وحمايته، وإكثار البر له، وتطهيره من الضرائب المختلفة: "وبيت الله المحجوج من كل فج، المقصود من كل نهج، يسر سبيله، ووسع الخير وأحسن سبيله، وأوصل من برك لكل من الحرمين ما هو له، لتصبح ربوعه بذلك مأهولة،

¹ النويري، نهاية الأرب، 122-121/8.

² المصدر نفسه، 122/8.

³ "نرجوا" في الأصل، والصحيح ما أثبت.

⁴ النويري، نهاية الأرب، 123-122/8.

واحمه ممّن يرد فيه بالحادٍ بظلم، وطهره من كلّ مكسٍ وغرم، ليعود نفعك على البادي والعاكف، ويصبح واديه وناديه مستغنيين بذلك عن السحاب الواكف⁽¹⁾.

وإن عاملَ السلطان رعاياه بمختلف طبقاتهم معاملةً حسنةً وعادلةً في الوقت ذاته، ضمن الحفاظ على سلطنته أولاً، إذ إنهم يلعبون دوراً خطيراً في زعزعة عروش السلاطين، ودليل ذلك ما ذكر سابقاً عن ثورات العربان، ودور رجال الدين في تحريض أفراد المجتمع على الانقلاب ضدهم إذا أرادوا ذلك، وضمن كذلك نصرتهم له إذا ما هدد الأعداء الدولة والسلطنة يوماً، ولذلك كلّه، يختتم الوصايا هنا بضرورة الاهتمام بالرعايا وإجزال العطايا لهم: "والرعايا، فهم للعدل زروع، وللاستثمار فروع، ولاستلزام العمارة شروع، فمتى جادهم غيثٌ أعجب الزرع نباتهم، ونمت بالصلاح أقواتهم، وصلحت بالنماء أوقاتهم، وكثرت للجنود مستغلاتهم، وتوافرت زكواتهم، وتنوّرت مشكاتهم ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾⁽²⁾»⁽³⁾.

أضف إلى ذلك أنهم يساهمون في إعلاء شأن الدولة بين الدول الأخرى، من خلال إتقانهم للأعمال المختلفة التي يقومون بها وهدفهم منها ليس القوت فحسب، وإنما خير البلاد كذلك.

ويُصرّح أخيراً باسم وليّ العهد كاملاً، ويأمره على لسان السلطان بتقليد هذا العهد والتمسك بعروته، ومن ثمّ يطرح بعض الأدعية، ولا يُخلي ذلك من عبارات المدح والثناء: "هذا عهدنا للسيد الأجلّ الولد الملك الأشرف صلاح الدنيا والدين، فخر الملوك والسلاطين، خليل أمير المؤمنين -أعزّنا الله ببقائه- فليكن بعروته متمسكاً، وبنفحته متمسكاً، وليتقلّد سيف هذا التقليد، ويفتح مغلق كلّ فتح منه بخير إقليد، وها نحن قد كثّرنا لديه جواهره فدونه ما يشاء تحليته: من تتويج مفرق، وتختيم أنامل، وتسوير زند، وتطويق جيد، ففي كلّ ذلك تبجيل وتمجيد، والله تعالى يجعل استخلافه للمتّقين إماماً، وللدين قواماً، وللمجاهدين اعتصاماً، وللمعتدين

¹ النويري، نهاية الأرب، 123/8.

² سورة البقرة، آية 261.

³ النويري، نهاية الأرب، 123/8.

انقصاما، ويطفئ بمياه سيوفه نار كلّ خطبٍ حتى تصبح كما أصبحت نار سميّه - صلى الله عليه وسلم- بردا وسلاما إن شاء الله تعالى⁽¹⁾.

2.1.2 العلاقات الخارجية

تميّزت مصر عن غيرها من الدّول بموقعها الاستراتيجي المميز، الذي جعلها تتحكم بالتجارة آنذاك، إضافة إلى تحكمها بالوفود الحاجّة إلى بيت الله الحرام، ونظرا لذلك، ازدادت أطماع الآخرين في السيطرة عليها، فأكثرُوا من توجيه الحملات العسكرية إليها، إلا أنّ المماليك كانوا لها بالمرصاد في كلّ مرّة.

وقد كان للهزيمة التي ألحقوها بالتّار في عين جالوت دور في ارتفاع قدرهم بين الدّول، والرّهبة منهم، وبالتالي بادر العديد إلى تحسين علاقاتهم معهم -سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك- عن طريق طلب صلح، أو هدنة، أو أمان، إلى غير ذلك، مع إرسال عدد من الهدايا النادرة التي تساهم في توطيد العلاقات بينهم.

وقد عاد هذا الأمر على المماليك بالخير الوفير؛ وذلك لأنهم ضمنوا بعضاً من الاستقرار الخارجي، وكسبوا عدداً من المؤازرين في الأوقات العصيبة، وغنموا المال الوفير، إضافة إلى توسّع حدود دولتهم عن طريق ضمّ بعض الأماكن إليها، لقاء موافقتهم على إقامة تلك العلاقات.

1.2.1.2 العلاقات مع الدّول الإسلاميّة:

رغبَ سلاطين المماليك منذ ابتداء أمرهم في مدّ سيطرتهم على البلدان الإسلاميّة المجاورة، ودليل ذلك ما ذكره محيي الدين أثناء حديثه عن فتح السلطان الظاهر بيبرس لخبر سنة (626 هـ)، حيث قال: "ثم إنّ السلطان أبت همّته إلا افتتاح البلاد القريبة والبعيدة... ورأى أنّ بلاد الحجاز طريق البلاد اليمنيّة وظهر البلاد الكركيّة والشوبكيّة، ونظر إلى جهة خيبر... فتوجّه (إليها) الأمير أمين الدين وافتتحها"⁽²⁾، ويُعدّ هذا الفتح خطوة أولى في طريق سيطرة المماليك على البلاد الحجازية.

¹ النويري، نهاية الأرب، 123/8-124.

² ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 220.

وبعد مرور أربع سنوات، استغلّ الظاهر بيبرس بعض الخلافات التي دارت بين أمراء الحجاز، فتدخل في شؤونها الداخلية، بحجة حلّها، إلا أنّ هدفه الرئيس يتمثّل بإحكام السيطرة عليها، وبالفعل، تحقّق مراده، إذ ذكر اسمه في الخطبة، وضربت السكّة به -فيما بعد- بتلك البلاد⁽¹⁾، ومن ذلك الوقت أصبح أمراء الحجاز تابعين لسلطين المماليك، مطيعين لأوامرهم، ودليل ذلك نصّ اليمين التي حلف بها أمير مكة، نجم الدين أبو نُميّ سنة (681هـ-)، في سلطنة المنصور قلاوون، ومنه: "إنّي أخلصت نيّتي واصفيت طويّتي، وساويت بين باطني وظاهري في طاعة مولانا السلطان الملك المنصور، وولده السلطان الصالح وطاعة أولادهما، ووارثي ملكيهما... وإنّي لا يخرجني عن طاعتهما طاعة أحد غيرهما.. ولا أشرك في تحكّمهما عليّ ولا على مكة وحرّمها وموقف جبلها زيدا ولا عمرو... وإنّي والله استمرّ بتقرّد الخطبة والسكّة بالاسم الشريف المنصوري، وأفعل في الخدمة فعل المخلص الوليّ، وإنّي والله والله أمتلّ مراسمه امتثال النائب للمستتيب، وأكون لداعي أمره أول سامع مجيب"⁽²⁾.

وقد كان لسيطرة المماليك على الحجاز دور في توطيد علاقاتهم مع البلدان الإسلامية الأخرى كاليمن مثلاً، إذ عمد ملكها المظفر نور الدين الرّسوليّ إلى التودد لسلطينهم؛ خوفاً من تفكيرهم بالسيطرة على مملكته وانتزاعها من بين يديه، متخذين الحجاز وسيلة في ذلك، وقد تبودلت الرسائل المختلفة بين الجانبين، مصحوبة بالهدايا الثمينة، وسيتم عرض الرسائل التي أنشأها محيي الدين عن سلطين المماليك إلى ملوك اليمن عند تناول الرسائل الحربيّة والاجتماعيّة.

وقد حرص ملوك بلاد المغرب -أيضاً- أو الغرب كما تسمّى في بعض الأحيان على إبقاء علاقات الصداقة دائمة بينهم وبين سلطين المماليك، لا سيما وأنّ مصر كانت طريق حجهم الوحيد إلى بيت الله الحرام، أضف إلى ذلك أن سلطة سلطينهم على الحجاز اقتضت من أولئك الملوك طلب الإذن بحج بعض رعاياهم إذا ما أرادوا ذلك؛ كي يضمنوا لهم الأمان في رحلتهم الطويلة⁽³⁾.

¹ انظر: المقرئزي، السلوك، ج1، ق2، ص 579.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 318/13-319.

³ ابن عبد الظاهر، تشرّيف الأيام والعصور، المقدّمة، ص 49.

وعند البحث عن الرسائل التي أنشأها محيي الدين عن السلاطين إلى ملوك الغرب، لم يُعثر إلا على رسالة واحدة أنشأها عن الظاهر بيبرس، ولكن لم يُستطع فهم فحواها بدقة؛ بسبب سقوط بعض عباراتها.

ويستفتحها الكاتب بتحية المرسل إليه وذكر ألقابه، حيث يقول: "تحیات الله التي تتابع وفودها وتتوالى، وتشرق نجومها وتلالا، وتتفق إسرافاً ولا تخاف من ذي العرش إقلالا، تخصّ الحضرة السنية، العالمية، العادلة، المستنصرية، ذخيرة أمير المؤمنين، وعصمة الدنيا والدين، وعدّة الموحّدين⁽¹⁾"⁽²⁾.

ولعلّ الملك المُخاطب في هذه الرسالة المستنصر بالله، أبو عبد الله محمد، الذي بويع بالخلافة على تونس سنة (647 هـ)، فخلال فترة حكمه، اتّسعت حدود دولته، لتشمل بعض مناطق الغرب الأوسط إضافة إلى الجزائر، واستمرت خلافته إلى سنة (675 هـ)⁽³⁾.

ويُتبع الكاتب حديثه السابق بدعاء مطوّل، يمزجه بمدح الملك المذكور، مركزاً فيه على إبراز خصاله المختلفة كالعدل، والفضل، والكرم، إلى غير ذلك، يقول: "تخصّ الحضرة السنية... لازالت سماؤها بالعدل مغدقة الأنواء، مشرقة الأنوار، ورياضها بالفضل مورقة الأغصان، مونقة الثمار، ولا برحت ظوالّ الأمان في أبوابها تنشد، وقصائد القصور في إنصافها تُنشد، وسرى الآمال عند صباح أمرها يُحمد، وأحاديث الكرم عن جودها ترسل وإلى وجودها تسند، وسلامه الذي يكاثر نسيم الروض الأنيق، ويفاخر جديده عتيق المسك، وأين الجديد من العتيق، يغاديان تلك الأنداء المباركة مغداة الغوادي من وابل المطر، ويراوحانها مراوحة الرقة للأصل والبر، حيث العزة القعساء يمتدّ رواقها، والنعمة الغراء تخصف أوراقها والديمة الوطفاء يتوالى إغداقها، ويتتالى إغراقها، وحيث العدل منشور الجناح،

¹ الموحّدون: هم أصحاب المهدي، محمد بن عبدالله بن تومرت، الذي أخذ بقول أئمّة الأشعرية من أهل السنة في تأويل المتشابه، وعندما بُويع لتولي زمام الحكم في المغرب لقّب بالمهدي، وسُمّي أتباعه بالموحّدين، تعريضا بمن يجنح عن التأويل ويقف مع الظاهر، فيوقعه في التجسيم وغيره، وهم يدّعون النسب للخليفة الراشدي عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 5/ 134-137.

² النويري، نهاية الأرب، 8/ 102.

³ انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 5/ 127.

والحقُّ مشهور السلاح، والإنصاف مبرور الأقسام لطالبه باق لا يُزاح، سجيّة تُتوارث توارث الفخار، ومزية تستأثر بالهداية استتثار النجوم بالأنوار، وشيم تُستصحب استصحاب الأهلّة للإبدار⁽¹⁾.

والآن فليقرأ النصّ المتبقّي من الرسالة:

"فلذلك يتلّفت الأمل إليها تلّفت الساري إلى تبلّج الصّباح، ويرتاح إلى تلقّي إحسانها ارتياح الظامئ إلى ارتشاف الماء القراح، ويحتمي بها في المطالب احتماء الليث بالغابة، ويستمدّ إسعافها استمداد الحديقة من السحابة، ويهزّ عدلها كما هزّ الكميّ المرهف، وينبّه فضلها تنبيه النسيم جفن الزهر الأوطف، فيناجي بالجوّور، ويلتمس لها حسن الصنع الذي لا يزال مبتسم الثغور، فمما قصّ عليه من مناجاته، وطوى عليه طويّة مفاوضاته أنّ القاضي زين الدين بن حباسة من بيت أسلف سلفه جميلاً، وغدا هو على مكارمه دليلاً، وكان له غلامٌ قد سيّر معه جملة ... والاحتفال الحفيّ مسؤول⁽²⁾ في تقدّم يجيب النجاح داعية، ويغدو الفلاح مراوحه ومغاديه، واعتناء يستخلص حقه ممّن عليه اعتدى، ويرى من قبسه نوراً يجد به هدى، فببارقة يضيء لديه الحالك، وبلحمة يهتدي "بحيث أهدت أم النجوم الشوابك"⁽³⁾ وما هو إلا رسمٌ يرسم به وقد قرب البعيد، وآب الشريد، وخاف الخائف، وكفّ الجانف، وجمعت الضّوالّ، وضاق على المختزل واسع المجال، مهابة قد سكنت القلوب، وسياسة قوي الطالب بها وضعف المطلوب، وعزّة لا يزال الرّجاء ينيب إليها فيما ينوب، وأيّ مطلب تُناجى فيه الآلاء المباركة فلا يصحب قيادة، ويستسقى له مژنٌ ولا تعاهد عهاده، وأيّ ذاهب لا يسترجع به ولو أنّه عشّيّات الحمى⁽⁴⁾، وأيّ فائت لا يردّ ولو أنه زمن الشبيبة المعسول اللّمي، وحسب العاني أن يحطّ برحابها رحاله، أو أن يوفد إلى أبوابها آماله وقد تبادرت إليه المناجح متسابقة، وانتظمت لديه المصالح متناسقة، فحينئذ يفعم إناء تأمّيله، ويستوعب الإحسان لجملة

¹ النويري، نهاية الأرب، 102/8 - 103.

² (مسئول) في الأصل، والصحيح ما أثبت.

³ عجز بيت لتأبط شراً وصدرة "يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي"، انظر: أبا تمام، ديوان أبي تمام، ص 39.

⁴ يشير إلى بيت الصمّة القشيري: فليست عشّيّات الحمى برواجع عليك ولكن خلّ عينيك تدمعاً انظر: المصدر نفسه، ص 366.

قصده وتفصيله، ويناديه السّعد من تلك البقعة المباركة، فيوافيه التوفيق بصحائف القبول تحملها الملائكة، أمتع الله ببركاتها التي امتدّ رواقها، وأنار الحالك إشراقها، ولا زالت يراوحها تسليم عطر النفحة، وتصافحها تحيّات جميلة الصّحة، بمنّه وكرمه⁽¹⁾.

ويُلاحظُ في النصّ السابق، سقوط العبارات بعد ذكر الكاتب غلام القاضي زين الدين بن حباسة، ممّا أدّى إلى عدم فهم موضوع الرسالة بشكلٍ صحيح، ولعلّه يتعلّق باعتداء بعض رعايا الملك على ذلك الغلام عند دخوله بلادهم، وسلبهم ما معه، ونظرا لمكانة القاضي المذكور لدى السلطان الظاهر بيبرس، أمر محيي الدين بكتابة هذه الرسالة إلى الملك؛ طالبا إليه مجازاة المعتدين، ولعلّ هذا ما دفع الكاتب إلى التركيز على عدل الملك وإنصافه، وإحقاقه الحقّ، في بداية حديثه، ولكنّ هذا التفسير يبقى ضعيفا؛ لأنّه غير مدعّم بالأدلة التي تثبت صحّته.

2.2.1.2 العلاقات مع الدّول غير الإسلاميّة:

ومع أنّ العداوة استحكمت بين المماليك وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى كالتتار والصليبيين، إلا أنّ قوتهم التي مكنتهم من فتح العديد من الممالك والحصون الخاضعة لسيطرة الطّرفين السّابقين، جعلتهما يلجآن إلى طلب الصّح معهم، فقد طلب ملك عكا⁽²⁾ للمرّة الأولى عقد هدنة بينه وبين السلطان الظاهر بيبرس سنة (666هـ)، فاستقرّت هذه الهدنة بعدما أرسل محيي الدين بن عبد الظاهر والأمير كمال الدين بن شيث لاستحلاف الملك المذكور، واستمرّت من ذلك التاريخ إلى بدايات عهد المنصور قلاوون⁽³⁾، عندها رغب الصليبيون بتجديد الهدنة معه، فقد تكرّرت زياراتهم إليه من أجل ذلك، وبعد عناء طويل عقدت الهدنة سنة (682هـ)، وقد قام محيي الدين بإنشائها وفق مستلزماتها، التي تتطلّب منه استهلالها بعبارة "استقرّت الهدنة بين... مع ذكر أسماء الطّرفين المتهادنين ووظائفهما، بشرط تقديم

¹ النويري، نهاية الأرب، ص 104-105.

² يذكر محيي الدين في كتابه (الروض الزاهر) أنّ اسم هذا الملك "أوك بن هيرّي" لكن المحقق يذكر في الهامش بأن اسمه "هيو هنري"، ص 331.

³ يذكر محيي الدين في المصدر نفسه، أنّ رسل السلطان عادوا إليه ولم يحلف الملك، ص 333، لكن شافع ابن علي يذكر في كتابه "حسن المناقب السريّة" أنّ الملك حلف واستمرّت الهدنة إلى أيام المنصور قلاوون، انظر: ص 282-283.

المسلم على غيره: "استقرت الهدنة بين مولانا السلطان الملك المنصور أبي الفتح قلاوون الملكي الصالح، وولده الملك علاء الدين علي -خَلَدَ الله تعالى سلطنتهما- وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعثليث وبلادها التي انعقدت عليها هذه الهدنة وهم: السنجال⁽¹⁾ أود، كفيل⁽²⁾ المملكة بعكا وحضرة المقدم إفيرير كليام ديباجوك⁽³⁾ مقدم بيت الديوية، وحضرة المقدم إفيرير نيكول⁽⁴⁾ للورن، مقدم بيت الاسبتارية، والمرشان الأجل إفيرير⁽⁵⁾، كورات نائب مقدم بيت اسبتار الأمن⁽⁶⁾⁽⁷⁾.

ومن مستلزمات الهدنة -أيضا- تحديد مدتها بالسنوات، والشهور، والأيام، والساعات، وتحديد بدايتها بالتاريخ القمري والشمسي: "لمدة عشر سنين كوامل، وعشرة أشهر، وعشرة أيام، وعشر ساعات، أولها يوم الخميس، خامس ربيع الأول، سنة اثنتين وثمانين وستمئة للهجرة النبوية -صلوات الله على صاحبها وسلامه- الموافق للثالث من حزيران سنة ألف وخمسمئة وأربع وتسعين لغلبة الإسكندر بن فليبس اليوناني"⁽⁸⁾.

ولا بدّ من بيان البلاد الداخلة في الهدنة، وتحديدتها بدقة، بحيث يذكر كلّ ما تحويه، سواء أكان مملكة، أم قلعة، أم حصنا، إلى غير ذلك، والبداية دائماً للمسلم: "على جميع بلاد السلطان وولده، وهي التي في مملكتها، وتحت حكمها وطاعتها، وما تحويه أيديهما يومئذ من جميع الأقاليم والممالك، والقلاع، والحصون الإسلامية، وثمر دمياط، وثمر الإسكندرية المحروستين، ونسترو، وسنترية وما ينسب إليها من المواني والسواحل، وثمر فوة، وثمر رشيد، والبلاد الحجازية وثمر غزة المحروس، وما معها من المواني والبلاد، والمملكة الكركية، والشوبكية وأعمالها، والصلت وأعمالها، وبصرى وأعمالها ومملكة بلاد الخليل -صلوات الله عليه وسلامه- ومملكة القدس الشريف وأعمالها، وبيت لحم وأعماله وبلاده، وجميع

¹ (الشيخان) في الأصل، وما أثبت من السلوك للمقريري، ج1، ق3، ص985.

² (هيل) في الأصل، وما أثبت من المصدر نفسه، ج1، ق986/3.

³ غير واضح في الأصل، وما أثبت من المصدر نفسه، ج1، ق986/3.

⁴ غير واضح في الأصل، وما أثبت من المصدر نفسه، ج1، ق986/3.

⁵ "افريز" في الأصل، وما أثبت من المصدر نفسه، ج1، ق986/3.

⁶ (الاسبتار الأمن) في الأصل، وما أثبت من المصدر نفسه، ج1، ق988/3.

⁷ القلقشندي، صبح الأعشى، ص51/14.

⁸ المصدر نفسه، 51/14-52.

ما هو داخل فيها ومحسوب منها، وبيت جبريل، ومملكة نابلس وأعمالها، ومملكة الأطرون وأعمالها، وعسقلان وأعمالها وموانئها وسواحلها، ومملكة يافا والرملة وميناها، وقيساريّة وميناها وسواحلها وأعمالها، وأرسوف وأعمالها، وقلعة قاقون وأعمالها وبلادها، وأعمال العوجاء وما معها من الملاحّة، والفتوح السّعيد وأعمالها ومزارعها، وبيسان وأعمالها وبلادها، والطّور وأعماله، واللّجون وأعماله، وجنين وأعمالها، وعين جالوت وأعمالها، والقيمون وأعماله وما ينسب إليه، وطبريّة وبحيرتها وأعمالها وما معها، والمملكة الصّفديّة وما ينسب إليها، وتبنين وهونين وما معهما من البلاد والأعمال، والشّقيف المحروس المعروف بشقيف أرنون وما معه من البلاد والأعمال، وما هو منسوب إليه، وبلاد القزن وما معه خارجا عما عيّن في هذه الهدنة المباركة، ونصف مدينة إسكندرونه، ونصف ضيعة مارن⁽¹⁾ بفدنهما، وكرومهما، وبساتينهما، وحقوقهما، وما عدا ذلك من حقوق إسكندرونه المذكورة، يكون جميعه بحدوده وبلاده للسلطان الملك المنصور ولولده النصف، والنصف الآخر لمملكة عكا، و البقاع العزيزيّ وأعماله، وشعرا وأعمالها، وشقيف تيرون وأعماله، والعامر جميعها [في زلايا]⁽²⁾ وغيرها وبانياس وأعمالها، وقلعة الصّبيبة وأعمالها وما معها من البحيرات والأعمال، وكوكب وأعمالها وما معها، وقلعة عجلون وأعمالها، ودمشق والمملكة الدّمشقيّة -حرسها الله تعالى- وما لها من القلاع، والبلاد، والممالك، والأعمال، وقلعة بعلبك المحروسة وما معها وأعمالها، ومملكة حمص وما لها من الأعمال والحدود، وبلاطنس وأعمالها، وصهيون وأعمالها، وبرزيه وأعمالها، وفتوحات حصن الأكراد المحروس وأعماله، وصافيتا وأعمالها، و[ميعار]⁽³⁾ وأعمالها، والعريمة وأعمالها، و[مرقية وأعمالها]⁽⁴⁾، وحبّا وأعمالها، والقلبيّة وأعمالها، وعكّار وأعماله وبلاده، وقلعة شيزر وأعمالها، وأفامية وأعمالها، وجبلة وأعمالها، وأبو قبيس وأعماله، والمملكة الحلبية، وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد والحصون، وأنطاكية وأعمالها وما دخل في الفتوح

¹ "مأرب" في الأصل، وما أثبت من السلوك ج1، ق 987/3.

² في الأصل غير واضح، وما أثبت من المصدر نفسه، ج1، ق 987/3.

³ بياض في الأصل، وما أثبت من المصدر نفسه، ج1 ق 987/3.

⁴ "قدقيا" في الأصل، وما أثبت من المصدر نفسه، ج1 ق 987/3.

المبارك، وبغراس وأعمالها، والدربساك وأعمالها، والراوندان وأعمالها، وعينتاب وأعمالها، وحارم وأعمالها، ويبرين وأعمالها، وسبج الحديد وأعمالها، وقلعة نجم وأعمالها، وشقيف دركوش وأعماله، والشَّغر وأعماله، وبكاس وأعماله، والسَّويداء وأعمالها، والباب وأعماله، وبزاعا وأعمالها، والبيرة وأعمالها، والرحبة وأعمالها، وسلمية وأعمالها، وشُميميس وأعمالها، وتدمر وأعمالها وما هو منسوب إليها، وجميع ما هو منسوب لمولانا السلطان ولولده من البلاد التي عيّنت في هذه الهدنة المباركة، والتي لم تعين⁽¹⁾.

ولا تخلو الهدنة -عادة- من طرح الشروط الواجب التزامها من الطرفين، وبما أنّ الصليبيين الطّرف الأضعف في هذه الهدنة؛ بسبب مبادرتهم إلى طلب عقدها من السلطان المملوكي، فلا غرابة من الشعور بنبرة الاستعلاء والقوّة من جهة السلطان المملوكي، فهو وحده من له حقّ الاشتراط وطلب الالتزام والتّعهد بالالتزام عن طيب خاطر منه، وأوّل شروطه: التزام المهادين له بحفظ نفوس القاطنين في بلاده المذكورة، والواردين إليها بمختلف أجناسهم وأديانهم، وتأمينهم على تبعاتهم من نساء، وأولاد، وغلّمان، وأموال، وبضائع، ودوابّ وغير ذلك: "وعلى جميع العساكر، وعلى جميع الرّعايا من سائر الناس أجمعين، على اختلافهم وتغيّر أنفارهم وأجناسهم وأديانهم، للقاطنين فيها والمتردّدين في البرّ والبحر، والسّهّل والجبل، في اللّيل والنّهار يكونون آمنين مطمئنّين، في حالتي صدورهم وورودهم، على أنفسهم، وأموالهم، وأولادهم، وحرّيمهم، وبضائعهم، وغلّمانهم، وأتباعهم، ومواشيهم، ودوابّهم، وعلى جميع ما يتعلّق بهم، وكلّ ما تحوي أيديهم من سائر الأشياء على اختلافها من الحكّام بمملكة عكا، وهم: كفيل المملكة بها، والمقدّم إفيرير كليام ديباجوك⁽²⁾، مقدّم بيت الدّيويّة، والمقدّم إفيرير نيكول⁽³⁾ للورن، وإفيرير كورات⁽⁴⁾، نائب مقدّم بيت اسبتار الأمن⁽⁵⁾"⁽⁶⁾.

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 52/14-53.

² غير واضح في الأصل، وما أثبت من السلوك، ج1، ق 988/1.

³ "إفريز بيكوك" في الأصل، وما أثبت من المصدر نفسه، ج1، ق 988/3.

⁴ "أفريز أهداب" في الأصل، وما أثبت من المصدر نفسه، ج1، ق 988/3.

⁵ "الاسبتار الأمن" في الأصل، وما أثبت من المصدر نفسه، ج1، ق 988/3.

⁶ القلقشندي، صبح الأعشى، 54/14.

ولا يقتصر الشرط السابق على المهادين فحسب، بل يتعدّاهم إلى أتباعهم القاطنين في بلادهم الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، وعليهم -أيضاً- الالتزام بعدم التعرّض بالأذى لبلاد السلطان وابنه المذكورة سابقاً، وما سيتمّ فتحه مستقبلاً، أثناء ورودهم إليها، أو التعرّض بالغدر لأهلها وتبعاتهم، والإساءة إليهم: "ومن جميع الفرنج، والإخوة، والفرسان الداخلين في طاعتهم، وما تحويه مملكتهم الساحلية، ومن جميع الفرنج على اختلافهم، الذين يستوطنون عكّا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، من كلّ واصل إليها من برّ أو بحر، على اختلاف أجناسهم وأنفارهم، لا ينال بلاد السلطان وولده، ولا حصونهما، ولا قلاعهما، ولا بلادهما، ولا ضياعهما ولا عساكرهما، ولا جيوشهما، ولا عربهما، ولا تركمانها، ولا أكرادهما، ولا رعاياهما، على اختلاف الأجناس والأنفار، ولا ما تحويه أيديهم من المواشي، والأموال، والغلال، وسائر الأشياء منهم غدر ولا سوء، ولا يخشون من جميعهم أمراً مكروهاً، ولا إغارة، ولا تعرّضاً ولا أذيةً، وكذلك ما يستفتحه ويضيفه السلطان وولده على يديهما، وعلى يد نوابهما وعساكرهما، من بلاد وحصون، وقلاع، ومُلك، وأعمال، وولايات، برّاً وبحراً، سهلاً ووعراً"⁽¹⁾.

وبعدما أنهى الكاتب تحديد بلاد السلطان وابنه، يعمد إلى تحديد بلاد الصليبيين المهادين؛ لكي يعلم الطرفان حدود بلادهما فيلتزمان بها، ولا يتعدّيانها أبداً: "وكذلك جميع بلاد الفرنج، التي استقرّت الآن عليها هذه الهدنة، وهي: مدينة عكّا وبساتينها، وأراضيها وطواحينها، وما يختصّ بها من كرومها، ومالها من حقوق حولها، وما تقرّر لها من بلاد في هذه الهدنة، وهي⁽²⁾: البصة ومزرعتها، مجدل، حمصين، رأس عبده، المنواث ومزرعتها، الكابرة ومزرعتها، نصف وفيه، جبعون، كفر بردى ومزرعتها، كوكب عمقا ومزرعتها، المونيّه، كفر ياسيف ومزرعتها، توسيان، مكر حرسين ومزرعتها، الحديدية، الغياضة، العطوانية، مرتوتوقا، الحارثية، ثمر الطّرة، الرّيب، النابوحيه ومزرعتها، العرج ومزرعتها، المزرعة السّميرية البيضاء، دعوق والطّاحون، كردابه والطّاحون، حدرول، ثلّ النّحل، الغار، الرّخ

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 54/14.

² يذكر محقق الكتاب أنّه لم يعثر على معظم هذه المدن في معجم البلدان وتقويم البلدان، لذلك أبقاها على ما هي عليه في الأصل من الإهمال والنقطة، انظر: المصدر نفسه، هامش (1)، ص 55.

والمجدل، تل كيسان، البروه، الرّامون، ساسا السياسيّة، الشّبكيه، المشيرقة، العطوانية، المنبير، اكليل، هريا سيف العربيّة، هوشه، الزراعة، الجديدة الشّماليّة، الرّحاحية، قسطه، كفر نبتل، الدّويرات، ماصوب، متماس، العبّاسيّة، سيعانه، عين الملك، المنصورة، الرصيفة، حبابا، سرطا، كفرتا، أرض الزّراعة، رولس، صغد عدى، سفر عم، هذه البلاد المذكورة تكون خاصّا للفرنّج، حيفا والكروم والبساتين التي لها جميعها، والقصر وهو الحوش، وكفر توثا، وهي: الكنيسة، والطيرة، والسّبعة، والسّعادة، والمعر، والباچور، وسومرا، تكون حيفا وهذه البلاد المذكورة بحدودها وأراضيها خاصّة للفرنّج وكذلك قرية [مارينا بأراضيها]⁽¹⁾ المعروفة بها وكرومها وغرومها يكون خاصا للفرنّج، ودير السياج⁽²⁾ ودير مارإلياس⁽³⁾ بأراضيها المعروفة بهما وكرومهما وبساتينهما يكون خاصّا للفرنّج⁽⁴⁾.

ويعود الكاتب مرة أخرى لتحديد بعض المناطق التّابعة للسلطان وابنه من بلاد الكرمل، ولا غرو في ذلك، إذ لا بدّ من اتخاذ الحيطة والحذر مع أناس الغدر شيمتهم: "وعلى أن يكون للسلطان الملك المنصّور، ولولده الصّالح من بلاد الكرمل، وهي الدّالية، ودونه، وضريبة الريح، والكرك، ومعليا، والرّامون ولوبنه، وبسور، وخربة يونس، وخربة خميس، وشميا، دوانه، يكون خاصا للفرنّج في بلاد أخرى ذكرها وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها للسلطان وولده بكمالها"⁽⁵⁾.

ويتعهّد الكاتب عن السلطان وابنه بعدم التعرّض بالأذى لبلاد الصّليبيين المذكورة سابقا، ويتعهّد في الوقت ذاته بتأمين سكّانها والمتردّدين إليها، والخارجين منها، على أنفسهم وتبعاتهم، وذلك بعدم التعرّض لهم بسوء أو أذية: "وتكون جميع هذه البلاد العكاوية، وما عيّن في هذه الهدنة المباركة من البلاد السّاحلية، أمانة من السلطان الملك المنصور، وولده الملك الصّالح، وأمانة من عساكرهما وجنودهما، ومن خدمهما، وتكون هذه البلاد المشروحة أعلاه، الدّاخله في هذه الهدنة المباركة – الخاصّ بها، وما هو مناصفة – مطمئنة هي ورعاياها، وسائر أجناس الناس فيها،

¹ غير واضح في الأصل، وما أثبت من السلوك، ج1، ق 989/3.

² "السياح" في الأصل، وما أثبت من المصدر نفسه، ج1، ق 989/3.

³ "مارلباس" في الأصل، وما أثبت من المصدر نفسه، ج1، ق 989/3.

⁴ القلقشندي، صبح الأعشى، 54/14 - 55.

⁵ المصدر نفسه، 55/14 - 56.

والقائنين بها، والمترددين إليها، على اختلاف أجناسهم وأديانهم، والمترددين إليها من جميع بلاد الفرنجة والسفار، والمترددين منها وإليها في برّ و بحر، في ليل أو نهار، سهل وجبل، آمنين على النفوس والأموال، والأولاد، والمراكب، والدواب، وجميع ما يتعلّق بهم، وكلّ ما تحويه أيديهم من الأشياء على اختلافها، من السلطان وولده، وجميع من هو تحت طاعتها، ولا ينالهم ولا ينال هذه البلاد المذكورة التي انعقدت عليها الهدنة سوء ولا ضرر ولا إغارة⁽¹⁾.

وعلى الطرفين الالتزام بهذا الشرط: "ولا ينال إحدى الجهتين المذكورتين: الإسلامية والفرنجية من الأخرى ضرر، ولا أذية"⁽²⁾.

ولا يخفى ما لهذا من تشجيع للناس كافة على زيارة أراضي بلاد الطرفين المتهادنين، التي تمتاز بالأمن، ولعلّ الخطاب موجّه في المرتبة الأولى إلى فئة التجار خاصّة، الذين يتعرّضون في معظم الأحيان إلى عمليّات السطو والنهب، فما دام الأمن مستقرّاً في تلك البلاد، فلا مبرر لتخوّفهم من القدوم إليها.

ولا بدّ من التركيز على التزام الطرفين المتهادنين بما عيّن لهما من بلاد في هذه الهدنة: "ويكون ما تقرّر أنّه يكون خاصّاً للفرنج حسب ما بيّن أعلاه لهم، وما تقرّر أن يكون للسلطان ولولده خاصّاً لهما، والمناصفات تكون كما شرح، ولا يكون للفرنج من البلاد والمناصفات إلا ما شرح في هذه الهدنة، وعين فيها من البلاد"⁽³⁾.

ولا بدّ من تحذير الفرنج بمنعهم من التوسّع خارج نطاق ما عيّن لهم: "وعلى أنّ الفرنج لا يُجَدّدون في غير عكاّ وعتليت وصيدا، ممّا هو خارج عن أسوار هذه الجهات الثلاث المذكورات، لا قلعة، ولا برجاً، ولا حصناً، ولا مستجداً"⁽⁴⁾.

كما أنّ الهدنة ترسم سياسة مشتركة للطرفين، أثناء تعرّضهما لبعض الأمور الطارئة، فإذا ما هرب أحد الأفراد من بلاده إلى بلاد الطرف الآخر، قاصداً الدخول في دين أهلها فلا بدّ من تكفّل المسؤول عن تلك البلاد بإعادة كلّ ما يحمله معه من متاع، أو مال، وغير ذلك، دون إعادة الفرد نفسه، وإذا لم يكن قاصداً الدخول في

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 56/14.

² المصدر نفسه، 56/14.

³ المصدر نفسه، 56/14.

⁴ المصدر نفسه، 56/14.

دينهم، فلا بدّ من إعادته إلى بلاده بكلّ ما يحمل، بعد التّشّفع له، وإعطائه الأمان: "وعلى أنّه متى هرب أحد -كائنا من كان- من بلاد السلطان وولده إلى عكا والبلاد السّاحليّة المعيّنة في هذه الهدنة، وقصد الدّخول في دين النصرانيّة وتتصرّر بإرادته، يردّ جميع ما يروح معه ويبقى عريانا، وإن كان ما يقصد الدّخول في دين النصرانيّة ولا يتتصرّر، ردّ إلى أبوابهما العالية بجميع ما يروح معه، بشفاعة ثقة بعد أن يعطى الأمان، وكذلك إذا حضر أحد من عكا والبلاد السّاحليّة الدّاخلّة في هذه الهدنة، وقصد الدّخول في دين الإسلام وأسلم بإرادته، يردّ جميع ما معه ويبقى عريانا، وإن كان ما يقصد الدّخول في دين الإسلام ولا يسلم، يردّ إلى الحكّام بعكا والمقدّمين بجميع ما يروح معه بشفاعة بعد أن يعطى له الأمان"⁽¹⁾.

وعلى الجانبين العمل على ضبط الممنوعات، وإعادتها إلى التّجار الحاملين لها، مع قبض ثمنها، دون التعرّض لهم بالأذى، وذلك لأنّ المسؤول عنهم وحده من يحقّ له النّظر في أمرهم ومحاسبتهم: "وعلى أنّ الممنوعات المعروف منعها قديما، تستقرّ على قاعدة المنع من الجهتين، ومتى وجد مع أحد من تجّار بلاد السلطان وولده من المسلمين وغيرهم، على اختلاف أديانهم وأجناسهم شيء من الممنوعات بعكا والبلاد السّاحليّة الدّاخلّة في هذه الهدنة، مثل عدّة السّلاح وغيره، يعاد إلى صاحبه الذي اشتراه منه، ويعاد إليه ثمنه ولا يؤخذ ماله استهلاكاً، ولا يؤذى وللسلطان وولده أن يفتصلا في من يخرج من بلادهما من رعيتهما، على اختلاف أديانهم وأجناسهم بشيء من الممنوعات، وكذلك كفيل المملكة بعكا والمقدّمون لهم أن يفتصلوا في رعيّتهم الذين يخرجون بالممنوعات من بلادهم الدّاخلّة في هذه الهدنة"⁽²⁾.

وفوق ذلك يجب على مسؤولي كلّ طرف ضبط ما أخذ بغير الحقّ من الطّرف الآخر، وإعادته إلى أصحابه، فإن لم يتسنّ لهم ذلك، وجب عليهم تقدير قيمة الشّيء المأخوذ وإرساله إليهم، وفي حال تعرّض أحد الأفراد للقتل من قبل فرد من أفراد الطرف الآخر، لا بدّ من أخذ ثأره بقتل نظيره، من حيث طبيعة العمل، فالفارسي

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 56/14-57.

² المصدر نفسه، 57/14.

يكون عوضه فارساً مثله، والتاجر بالتاجر، والفلاح بالفلاح، إلى غير ذلك: "ومتى أخذت أخيدة من الجانبين، أو قُتِل قَتِيل من الجانبين، على أيّ وجه كان -والعياذ بالله- رَدّت الأخيدة بعينها إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة، والقَتِيل يكون العوض عنه بنظيره من جنسه: فارس بفارس، وبركيل⁽¹⁾ ببركيل، وتاجر بتاجر، وراجل براجل، وفلاح بفلاح"⁽²⁾.

ولكن، ماذا يحدث إذا لم يستطع المسؤول الكشف عن أمر الأخيدة أو أمر القَتِيل؟: "فإن خفي أمر القَتِيل والأخيدة، كانت المهلة في الكشف أربعين يوماً، فإن ظهرت الأخيدة، أو تعيّن أمر المقتول، رَدّت الأخيدة بعينها، ويكون العوض عن القَتِيل بنظيره، وإن لم تظهر كانت اليمين على والي المكان المدّعي عليه، وثلاثة نفر يقع اختيار المدّعي عليهم من تلك الولاية، وإن امتنع الوالي عن اليمين، حلف من الجهة المدّعية ثلاثة نفر تختارهم الجهة الأخرى، وأخذ قيمتها، وإن لم ينصف الوالي، ولا ردّ المال، أنهى المدّعي أمره إلى الحكّام من الجهتين، وتكون المهلة بعد الإنهاء أربعين يوماً، ويلزم الولاية من الجهتين بالوفاء بهذا الشرط، ومتى أخفوا قَتِيلاً، أو أخيدة، أو قدروا على أخذ حقّ ولم يأخذه كلّ واحد في ولايته، يتعيّن على الذي يولّيه من ملوك الجهتين إقامة السّياسة فيه: من أخذ الرّوح والمال والشّنع، والإنكار التّام على من يتعيّن عليه الإنكار إذا فعل ذلك في ولايته وأرضه"⁽³⁾.

أما الإجراءات التي تتخذ في حال هروب أحد أفراد الطّرفين بمال ليس من حقّه، فتتلخّص بالفصل التّالي من الهدنة: "وإن هرب أحد بمال واعترف ببعضه، وأنكر بعض ما يدّعي به عليه، لزمه أن يحلف أنّه لم يأخذ سوى ما ردّه، فإن لم يقنع المدّعي بيمين الهارب، حلف والي تلك الولاية أنّه لم يطّلع على أنّه وصل معه غير ما ردّه، وإن أنكر أنّه لم يصل معه شيء أصلاً، استحلف الهارب أنّه لم يصل معه للمدّعي شيء"⁽⁴⁾.

¹ البركيل: هو مرتاد البحار من التجار والمغامرين، والبراكية ضرب من السفن، والبركوس، والبراكوس، والبريق، والبريك، أنواع من السفن، البقل، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص 64.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 57/14.

³ المصدر نفسه، 58-57/14.

⁴ المصدر نفسه، 58/14.

ويبدو أنَّ الاستحلاف يُستلزم في الأمور السابقة؛ لضمان عدم وقوف الوالي إلى جانب السارق أو المعتدي بداعي تعصّبه لأبناء ولايته.

ويهتمّ كتاب الهدن -عادة- في أثناء طرحهم لشروطها بتخصيص شيء منها للتّجار ومتعلّقاتهم، ولا غُرو في ذلك؛ إذ إنهم يُعدّون -كما مرّ سابقا- مصدر الرّزق الرئيس للسلّاطين وقت احتياجهم، لذلك، فعلى الجانبين تأمين من في المراكب التّجاريّة على أنفسهم، وأموالهم، وأتباعهم، وبضائعهم، إذا ما تحطّمت في بلاد أحدهما، فإن تمّ العثور على أصحابها أعيدت إليهم المراكب بما تحويه، وإن فقدوا لأيّ سبب كان، أو توفّوا، تحفظ ممتلكاتهم وتسلم لنواب السلطان وابنه، إن كان التّجار من بلادهما، ولكفيل المملكة بعكّا، أو المقدّمين، إن كان التّجار من بلادهم: "وعلى أنّه إذا انكسر مركب من مراكب تجار السلطان وولده التي انعقدت عليها الهدنة، ورعيتهما من المسلمين وغيرهم، على اختلاف أجناسهم وأديانهم، في ميناء عكّا وسواحلها، والبلاد السّاحليّة التي انعقدت عليها الهدنة، كان كلّ من فيها آمنا على الأنفس، والأموال، والأتباع، والمتاجر، فإن وُجد أصحاب هذه المراكب التي تنكسر، تسلم مراكبهم وأموالهم إليهم، وإن عدموا بموت، أو غرق، أو غيبة، فيحتفظ بموجودهم ويسلم لنواب السلطان وولده، وكذلك المراكب المتوجّهة من هذه البلاد السّاحليّة المنعقد عليها الهدنة للفرنج، يجرى لها مثل ذلك في بلاد السلطان وولده، ويحتفظ بموجودها إن لم يكن صاحبها حاضرا إلى أن يسلم لكفيل المملكة بعكّا أو المقدّمين⁽¹⁾، ومتى توفّي أحد من التّجار الصّادرين والواردين، على اختلاف أجناسهم وأديانهم، من بلاد السلطان وولده، في عكّا وصيدا وعثليث، والبلاد السّاحليّة الدّاخلية في هذه الهدنة، على اختلاف أجناسهم وأديانهم، فيحتفظ على ماله حتى يسلم لنواب السلطان وولده، وإذا توفّي أحد في البلاد الإسلاميّة الدّاخلية في هذه الهدنة، يحتفظ على ماله إلى حين يسلم إلى كفيل المملكة بعكّا والمقدّمين⁽²⁾.

ويتعهّد الكاتب عن السلطان وابنه بعدم تعرّض سفنهما الحربيّة متى خرجت -لأدّيّة البلاد السّاحليّة التّابعة للفرنج المهادنين له: "وعلى أن شواني السلطان وولده

¹ "المقدّم" في الأصل، وما أثبت هو الصحيح.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 58/14-59.

إذا عمرت وخرجت، لا تتعرض بأذية إلى البلاد الساحلية، التي انعقدت عليها هذه الهدنة⁽¹⁾.

ولكنّ غدر المهادنين يبقى الشغل الشاغل لفكر السلطان وابنه، ولذلك، يشير الكاتب إلى عدم دخول سفنهما المذكورة إلى بلادهم والتزوّد منها، في حال قصدها جهة يرتبط صاحبها بعهد معهم، ولا يخفى ما لهذا من دلالة على خشية السلطان من اندفاعهم إلى أذية السفن وتخريبها، أمّا في حال عدم ارتباط الجهة التي تقصدها بعهد معهم، فلا ريب من دخولها إلى تلك البلاد والتزوّد منها؛ لانعدام العلاقة بينهم وبين صاحب الجهة المقصودة: "ومتى قصدت الشواني المذكورة جهة غير هذه الجهات، وكان صاحب تلك الجهة معاهدا للحكام بمملكة عكا، فلا تدخل إلى البلاد التي انعقدت عليها هذه الهدنة، ولا تتزوّد منها، وإن لم يكن صاحب تلك الجهة التي تقصدها الشواني المنصورة معاهدا للحكام بمملكة عكا والبلاد التي انعقدت عليها الهدنة، فلها أن تدخل إلى بلادها وتتزوّد منها"⁽²⁾.

وفي حال تعرض تلك السفن للتخطم، أثناء وقوفها في أحد موانئ البلاد التابعة للمهادنين، أو أحد سواحلها، يلتزم كفيل المملكة بعكا ومن معه بحفظها، وتمكين رجالها من التزوّد وإصلاحها، إلى أن تعود إلى بلادها، وذلك كلّه يعمل به في حال قصد السفن جهة معاهدة للصليبيين المهادنين، أمّا إذا لم ترتبط الجهة التي تقصدها بعهد معهم، وتعرضت للتخطم، فيتزوّد رجالها من تلك البلاد، ويقومون بإصلاحها، ومن ثمّ يتابعون المسير نحو الجهة المقصودة، ويشير الكاتب أخيراً إلى أنّ هذا الفصل المتعلّق بالسفن الحربية مطلوب من الجهتين المتهادنتين معاً: "وإن انكسر شيء من هذه الشواني والعياذ بالله- في مينا من مواني البلاد التي انعقدت عليها الهدنة وسواحلها، فإن كانت قاصدة من له مع مملكة عكا ومقدمي بيوتها عهد، فيلزم كفيل⁽³⁾ المملكة بعكا ومقدمو⁽⁴⁾ البيوت بحفظها، وتمكين رجالها من الزوادة وإصلاح ما انكسر منها، والعود إلى البلاد الإسلامية، ولا يبطل حركة ما تنكّر منها والعياذ

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 59/14.

² المصدر نفسه، 59/14.

³ "كفيل" في الأصل، وإن كان المقصود أن السلطان يلزم الكفيل، فالأصل صحيح.

⁴ "مقدمي" في الأصل، وإن كان المقصود أن السلطان يلزم الكفيل ومقدمي البيوت، فالأصل صحيح.

بالله- أو يرميه البحر، هذا إذا كانت قاصدة من له مع مملكة عكا ومقدميها عهد، فإن قصدت من لم يكن له⁽¹⁾ معهم عهد، فلها أن تتزوّد و تعمر رجالها من البلاد المنعقد عليها هذه الهدنة، وتتوجّه إلى البلاد المرسوم لها بقصدها، ويعتمد هذا الفصل من الجهتين⁽²⁾.

وينبّه الكاتب إلى ضرورة التزام الجانبين بحفظ الأمن الخارجي لبلادهما، وذلك عن طريق إبلاغ المسؤول من الطرف الأول للمسؤول من الطرف الثاني بأيّ تحرّك عسكريّ يقصد الإضرار به أو ببلاده: "وعلى أنّه متى تحرّك أحد من ملوك الفرنجة وغيرهم من جوا البحر، لقصد الحضور لمضرة السلطان وولده في بلادهما المتّفقة عليها هذه الهدنة، فليلزم نائب⁽³⁾ المملكة والمقدّمون⁽⁴⁾ بعكا أن يعرفوا السلطان وولده بحركتهم، قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة بمدة شهرين، وإن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين، فيكون كفيل المملكة بعكا والمقدّمون بريئين من عهدة اليمين في هذا الفصل. ومتى تحرّك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم، فأيّ من سبق الخبر إليه من الجهتين يعرف الجهة الأخرى بما سبق الخبر إليه من أمرهم⁽⁵⁾.

ويحلّ السلطان لكفيل المملكة بعكا، ومن معه من المهادنين، الدفاع عن أنفسهم، ورعاياهم، وبلادهم، بشتّى الوسائل إذا ما تعرّضوا لأيّ خطر خارجيّ من قبل التتار وغيرهم: "وعلى أنّه إن قصد البلاد الشاميّة والعياذ بالله- عدو من التتار وغيرهم في البر، وانحازت العساكر الإسلامية من قدام العدو، ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحليّة الداخلة في هذه الهدنة، وقصدها بمضرة، فيكتب إلى كفيل المملكة بعكا والمقدّمين بها، أن يدرأوا⁽⁶⁾ عن بيوتهم، ورعيّتهم، وبلادهم، بما تصل قدرتهم إليه⁽⁷⁾.

¹ "لها" في الأصل، وما أثبت هو الصحيح، بدليل العبارة التي سبقتها "إذا كانت قاصدة من له مع مملكة عكا ومقدميها عهد".

² القلقشندي، صبح الأعشى، 59/14.

³ "نائب" في الأصل، وما أثبت هو الصحيح.

⁴ "المقدمين" في الأصل، وما أثبت هو الصحيح.

⁵ القلقشندي، صبح الأعشى، 60/14.

⁶ "يدرأوا" في الأصل، وما أثبت هو الصحيح.

⁷ القلقشندي، صبح الأعشى، 60/14.

ويشترط عليهم الدّفاع عن المسلمين وحمايتهم، إذا ما انتقلوا مكرهين إلى البلاد السّاحليّة التّابعة لهم؛ بسبب خوفهم من عدوّ يهدّدهم، ويهدّد بلادهم: "وإن حصل - والعياذ بالله - جَفَلٌ من البلاد الإسلاميّة إلى البلاد السّاحليّة الدّاخلية في هذه الهدنة، فيلزم كفيل⁽¹⁾ المملكة بعكّا والمقدّمون⁽²⁾ بها حفظهم والدّفع عنهم، ومنع من يقصدهم بضرر، ويكونون آمنين مطمئنّين بما معهم"⁽³⁾.

والمتّمعن لشروط هذه الهدنة، يلاحظ أنّ للتّجار الحصة الأكبر منها، ويبدو أنّ توفير الأمن لهم هاجس يشغل بال السّلطان، لذلك، فهو يشترط تعاون الجهة المهادنة له، بالقبض على لصوص البحر، الذين يعتزّضون طريق المراكب التّجاريّة، ويسلبون ما فيها، فإن كانوا يبيعون البضائع المسلوبة في أسواق تلك الجهة، تضبط وتحفظ إلى أن يظهر صاحبها، فتسلّم إليه، وليس ذلك فحسب، بل يشترط -أيضاً- عدم السّماح لهم بالتزوّد أو الاستسقاء منها: "وعلى أنّ النّائب بمملكة عكا والمقدّمين بها يوصون في سائر البلاد السّاحليّة التي وقعت الهدنة عليها، أنّهم لا يميّنون حراميّة البحر من الزّوادة من عندهم، ولا من حمل ماء، وإن ظفروا بأحد منهم، يمسكونه، وإن كانوا يبيعون عندهم بضائع فيمسكها كفيل المملكة بعكّا والمقدّمون، حتّى يظهر صاحبها وتسلّم إليه، وكذلك يعتمد السّلطان وولده"⁽⁴⁾.

وتتعرّض الهدنة كذلك لموضوع الرّهائن المنتسبين لبلاد السّلطان وابنه، فعلى المهادنين لهما إطلاق الرّهينة في حال حلفان أفراد معيّنين أمام نائبيهما على أنّه أخذ شيئاً معيّناً كمال، أو غلّة، أو دابة، أو غير ذلك، فإن تمّ هذا الأمر، تكفل أهل الرّهينة بقضاء ما للفرنج عليه، أمّا في حال امتناع الأفراد عن الحلفان في أمر الرّهائن، الذين يؤخذون في أثناء هروبهم من بلادهم، فيتمّ إطلاقهم مباشرة، دون شروط: "وعلى أنّ الرّهائن بعكّا والبلاد السّاحليّة الدّاخلية في هذه الهدنة، كلّ من عليه منهم مبلغ أو غلّة، فيحلف والي المكان الذي منه الرّهينة، ويحلف المباشر والكااتب في وقت أخذ هذا الشّخص رهينة أنّه عليه كذا وكذا: من دراهم، أو غلّة، أو بقر، أو

¹ "كفيل" في الأصل، وإن كان المقصود أن السّلطان يلزم كفيل المملكة، فالأصل صحيح.

² "المقدمين" في الأصل، وإن كان المقصود أن السّلطان يلزم كفيل المملكة، والمقدمين، فالأصل صحيح.

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 60/14.

⁴ المصدر نفسه، 60/14.

غيره، فإذا حلف الوالي والمباشر والكاتب قدام نائب السلطان وولده على ذلك، يقوم أهل الرهينة عنه بما للفرنج عليه ويطلقونه، وأمّا الرهائن الذين أخذوا منسوبين إلى الجبل، والاختشاء أنهم لا يهربون إلى بلاد الإسلام، ويمتنع الولاة والمباشر من اليمين عليهم، فأولئك يُطلقون⁽¹⁾.

ويبقى السلطان مشغولاً بكيفية جذب التجار إلى بلاده، لذلك نراه يقدم لهم مزيداً من الشروط التي تضمن لهم الاطمئنان، إذ يشترط إبقاء أمرهم على ما هو عليه، دون زيادة أو نقصان، فيما يخصّ الرسوم وغيرها، وفي الوقت ذاته، يشترط حمايتهم وتأمينهم على أنفسهم، وأموالهم وبضائعهم: "وعلى أن لا يجدد على التجار المسافرين: الصّادرين والواردين من الجهتين حقّ لم تجر به عادة، ويجروا على عوائدهم المستمرة إلى آخر وقت، وتؤخذ منهم الحقوق على العادة المستمرة، ولا يُجدد عليهم رسم، ولا حقّ لم تجر به عادة، وكلّ مكان عُرف باستخراج الحقّ فيه يستخرج بذلك المكان من غير زيادة من الجهتين، في حالتي سفرهم وإقامتهم، ويكون التجار والسفّار والمترددون آمنين مطمئنين مخفّرين من الجهتين، في حالتي سفرهم وإقامتهم، وصدورهم وورودهم، بما صحبتهم من الأصناف والبضائع التي هي غير ممنوعة"⁽²⁾.

وتتعدّى شروط الهدنة لتطال الفلاحين، فتلزمهم العودة إلى بلادهم، سواء أكانت إسلاميّة أم فرنجيّة، فإن لم يعودوا، يتمّ طردهم من الجهتين، وإن أذعنوا للأمر وعادوا فيُحفظ لهم الأمان في أثناء انتقالهم: "وعلى أنّه ينادى في البلاد الإسلاميّة، والبلاد الفرنجيّة الدّاخلية في هذه الهدنة: أنّه من كان من فلاحي بلاد المسلمين يعود إلى بلاد المسلمين مسلماً كان أو نصرانيّاً، وكذلك من كان من فلاحي بلاد الفرنج مسلماً كان أو نصرانيّاً، معروفاً قرارياً من الجهتين، ومن لم يعد بعد المناداة يطرد من الجهتين، ولا يُمكن فلاّحو بلاد المسلمين من المقام في بلاد الفرنج المنعقد عليها هذه الهدنة، ولا فلاّحو بلاد الفرنج من المقام في بلاد المسلمين، التي انعقدت عليها هذه الهدنة، ويكون عود الفلاح من الجهة إلى الجهة الأخرى بأمان"⁽³⁾.

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 61/14-60.

² المصدر نفسه، 61/14.

³ المصدر نفسه، 61/14.

ولعلّ المراد من ذلك استفادة البلاد من فلاحها، بدلا من عملهم في أرض الغرباء وتحسينها.

وتتطرق الهدنة لبعض الأمور الدينية، التي تخصّ حجاج النصارى وزوّارهم، فتضمن لهم تسهيل طريقهم إلى الكنائس وتأمينها؛ كي يشعروا بالاطمئنان في أثناء ورودهم إلى البلاد الدّاخلية في الهدنة، أو صدورهم منها، وتشتط -أيضا- عدم التعرّض لرجال الدين المسيحيّ بأيّ أذى: "وعلى أن تكون كنيسة النّاصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت إليها لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصّليب: كبيرهم وصغيرهم، على اختلاف أجناسهم وأنفارهم، من عكا والبلاد السّاحليّة الدّاخلية في هذه الهدنة، ويصليّ بالكنيسة القسّيسون⁽¹⁾، والرّهبان، وتكون البيوت المذكورة لزوّار كنيسة النّاصرة خاصّة، ويكونون آمنين مطمئنّين في توجّههم وحضورهم إلى حدود البلاد الدّاخلية في هذه الهدنة، وإذا نقبت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة، تُرمى برأ، ولا يُحطّ حجرٌ منها على حجر لأجل بنائه، ولا يُتعرّض إلى القسّيسون⁽²⁾ والرّهبان، وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دين الصّليب بغير حقّ"⁽³⁾.

وبما أنّ نصّ الهدنة يقاربُ على الانتهاء، يعودُ الكاتبُ مرةً أخرى ليذكرُ بضرورة التزام الطرفين بحفظ البلاد الدّاخلية فيها، وعدم التعرّض لها بالأذية، إضافة إلى حمايتها من المُجرمين واللصوص والمُفسدين: "ويُلزَم السّلطانُ وولدهُ حفظُ هذه البلاد المشروحة، التي انعقدت عليها الهدنة من نفسيهما، وعساكرهما، وجنودهما، ومن جميع المتجرّمة والمتلصّصين والمُفسدين، ممّن هو داخل تحت حكمهما وطاعتهما، ويُلزَمُ كفيل⁽⁴⁾ المملكة بعكا والمقدّمون⁽⁵⁾ بها، حفظ هذه البلاد الإسلاميّة المشروحة، التي انعقدت عليها الهدنة، من أنفسهم، وعساكرهم، وجنودهم، وجميع

¹ "الأقساء" في الأصل، وجمعها الصحيح قساوسة، وقسّيسون، وقسّس، والقسيس هو القارئ الذي يقرأ على النصارى الإنجيل والمزامير وغيرها، البقلى، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص 273.

² "الأقساء" في الأصل.

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 61/14-62.

⁴ "كفيل" في الأصل، وإن كان المقصود أنّ السلطان يلزم كفيل المملكة، فالأصل صحيح.

⁵ "المقدّمين" في الأصل، وإن كان المقصود أنّ السلطان يلزم كفيل المملكة، والمقدمين، فالأصل صحيح.

المتجرمة والمتلصّصين والمفسدين، ممّن هو داخل تحت حكمهم وطاعتهم بالمملكة السّاحليّة الدّاخلية في هذه الهدنة"⁽¹⁾.

وينوّه إلى ضرورة التزام الفرنج المهادنين بما ورد في الهدنة، والعمل على تطبيق شروطها، حتى انقضاء مدّتها، كي لا يُعدّون حانثين باليمين التي حلفوا بها، في حال عدم التزامهم: "وَيَلْزَمُ كَفِيلُ"⁽²⁾ المملكة بعكّا ومقدّمو⁽³⁾ البيوت بها الحكّام بعكّا، والبلاد السّاحليّة الدّاخلية في هذه الهدنة، القيام بأحكامها، والوقوف مع شروطها إلى انقضاء مدّتها، وفي كلّ منهم بما حلف به من الأيمان المؤكّدة، من أنّه يفي بجميع ما في هذه الهدنة على ما حلفوا به"⁽⁴⁾.

ويؤكد على استمرار الهدنة حتى نهاية المدّة المقرّرة لها، وهي لا تنتهي بموت أحد طرفيها، أو تولية غيره، بل تبقى سارية المفعول: "تستمرّ هذه الهدنة المباركة بين الحكّام بمملكة عكّا وصيدا وعثليث، وهم: السّنجال أود⁽⁵⁾ [و] ⁽⁶⁾ المقدّمون المذكورون فلان وفلان إلى آخرها، لا تتغيّر بموت ملوك أحد الجهتين، ولا بتغيّر مقدّم وتولية غيره، بل أن تستمرّ على حالها إلى آخرها وانقضائها، بشروطها المحدودة، وقواعدها المقرّرة كاملة تامّة"⁽⁷⁾.

وفي حال انقضاء مدّة الهدنة أو فسخها، يُعطى كلّ طرفٍ مدّة زمنيّة مقدارها أربعين يوماً؛ كي يتسنى لأفراد الجهتين العودة إلى بلادهم الأصليّة، دون منعهم من ذلك، أو التعرّض لهم بالأذى، إذ يرتحلون آمنين، مطمئنّين، على أنفسهم وتبعاتهم: "ومتى انقضت هذه الهدنة المباركة، أو وقع -والعياذ بالله- فسخ، كانت المهلة في ذلك أربعين يوماً من الجهتين، وينادى برجوع كلّ أحد إلى وطنه بعد الإشهاد، ليعود النّاس إلى مواطنهم آمنين مطمئنّين، ولا يُمنعون من السّفر من الجهتين"⁽⁸⁾.

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 62/14.

² "كفيل" في الأصل.

³ "مقدمي" في الأصل.

⁴ القلقشندي، صبح الأعشى، 62/14.

⁵ "الشيخان أودرا" في الأصل.

⁶ السياق يقتضي إضافتها.

⁷ القلقشندي، صبح الأعشى، 62/14-63.

⁸ المصدر نفسه، 63/14.

وَنَظَرًا لِأَهْمِيَّةِ الْهُدْنَةِ فِي تَنْظِيمِ أُمُورِ الطَّرْفَيْنِ الْمُتَهَادِنَيْنِ، مِنْ النَّاحِيَةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ، وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالْدِينِيَّةِ، يَكْرُرُ الْكَاتِبُ حَدِيثَهُ عَنْ عَدَمِ بُطْلَانِهَا لِأَيِّ سَبَبٍ كَانَ، إِذْ إِنَّهَا -كَمَا ذُكِرَ سَابِقًا- لَا تَنْتَهِي إِلَّا بِانْقِضَاءِ مَدَّتِهَا أَوْ فُسْخِهَا، وَيُؤَكِّدُ ثَانِيَةً عَلَى اسْتِمْرَارِهَا عَلَى مَدَى الْأَيَّامِ، وَالشُّهُورِ، وَالسَّنِينَ الْمَقْرَّرَةِ لَهَا، كَمَا أَنَّهُ يُعِيدُ التَّرْكِيزَ عَلَى ضَرُورَةِ التَّزَامِ الطَّرْفَيْنِ بِمَا فِيهَا مِنْ شُرُوطٍ وَفُصُولٍ: "وَلَا تَبْطُلُ بِعَزْلِ أَحَدٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ، وَتُشَيَّدُ أَحْكَامُهَا مُتَتَابِعَةً مُتَوَالِيَةً، بِالسَّنِينَ وَالشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ، إِلَى انْقِضَائِهَا، وَيُلْزَمُ الْمُتَوَلَّى حِفْظُهَا وَالْعَمَلُ بِشُرُوطِهَا وَفُصُولِهَا، وَفُرُوعِهَا وَأَصُولِهَا، وَيَجْرِي الْحَالُ فِيهَا عَلَى أَجْمَلِ الْحَالَاتِ إِلَى آخِرِهَا"⁽¹⁾.

وَيَنْوِّهُ -أَخِيرًا- إِلَى اتِّفَاقِ الطَّرْفَيْنِ الْمُتَهَادِنَيْنِ، وَرِضَاهُمَا بِمَا وَرَدَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ، وَحِفَاظِهَا عَلَى حِفْظِهَا وَالتَّزَامِهَا: "وَعَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ وَقَعَ الرِّضَا، وَالصَّفْحُ، وَالْإِتِّفَاقُ، وَخُلِفَ عَلَيْهَا مِنَ الْجِهَتَيْنِ، وَانْهَى الْمُؤَقَّقُ"⁽²⁾.

وَمَعَ مَرُورِ الْوَقْتِ، أَزْدَادَ عِدْدُ الْمَطَالِبِينَ بِالصَّلَاحِ مَعَ السَّلْطَانِ الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ، فَقَدْ لَجَأَتْ مَلَكَةُ صُورَ إِلَى ذَلِكَ، فَعَقِدَتْ الْهُدْنَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّلْطَانِ وَابْنَيْهِ: عَلَاءِ الدِّينِ عَلِيٍّ، وَالْأَشْرَفِ خَلِيلٍ، سَنَةَ (684هـ)، وَقَدْ أَنْشَأَ مُحْيِي الدِّينِ نَصَّهَا عَلَى نَمَطِ الْهُدْنَةِ السَّابِقَةِ، إِذْ بَدَأَهَا بِقَوْلِهِ: "اسْتَقَرَّتْ الْهُدْنَةُ الْمُبَارَكَةُ بَيْنَ مَوْلَانَا السَّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ، سَيْفِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، قَسِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَدِهِ وَوَلِيِّ عَهْدِهِ، الْمَوْلَى السَّلْطَانِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ، عَلَاءِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ عَلِيٍّ، خَلِيلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَدِهِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ، صَاحِبِ الدِّينِ خَلِيلِ -خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُمَا، وَأَدَامَ دَوْلَتَهُمَا- وَبَيْنَ الْمَلِكَةِ الْجَلِيلَةِ دَامَ مَرْجَرِيَّتْ بِنْتُ سِيرِ هَنْرِي⁽³⁾ بْنِ الْإِبْرَنْسِ بِيْمَنْدَ، مَالِكَةِ صُورَ، حَالِ اسْتِقْرَارِ هَذِهِ الْهُدْنَةِ، وَنَائِبِهَا بِمَمْلَكَةِ صُورَ، وَهُوَ الْقَوْمُ مِنَ الْجَلِيلِ سِيرِ رِيْمُونِ يَسْكَندَ"⁽⁴⁾.

وَيَبَيِّنُ مَدَّةَ الْهُدْنَةِ بِالسَّنَوَاتِ، وَيُحَدِّدُ بَدَايَتَهَا وَنَهَايَتَهَا بِالتَّارِيخَيْنِ: الْقَمَرِيِّ وَالشَّمْسِيِّ: "الْمَدَّةُ عَشْرَ سَنِينَ كَوَامِلٍ مُتَوَالِيَاتٍ، مُتَتَابِعَاتٍ، أَوَّلُهَا يَوْمُ الْخَمِيسِ، الرَّابِعُ

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 63/14.

² المصدر نفسه، 63/14.

³ "دام مراريت بنت سير هري" في الأصل، وما أثبت عن محقق كتاب تشریف الأيام والعصور، لابن عبد الظاهر، ص 103.

⁴ المصدر نفسه، ص 103-104.

عشر من جمادى الأولى⁽¹⁾، سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية -صلوات الله على صاحبها وسلامه- الموافق لثامن عشر تمّوز، سنة ألف وخمسمائة وست⁽²⁾ وتسعين للإسكندر بن فيليبس اليوناني، وآخرها الرابع عشر من جمادى الأولى⁽³⁾ من سنة أربع وتسعين وستمائة، الموافق لثامن عشر من تمّوز، سنة ألف وستمائة وخمسة للإسكندر، يتبع بعضها بعضاً، على حكم ما استقرّ عليه الحال إلى آخر أيام الملك الظاهر -رحمة الله- متتاليات الساعات والأيام والشهور والسنين، إلى آخرها⁽⁴⁾.

ولا بدّ من تحديد البلاد الداخلة في الهدنة، التابعة للطرفين المتهادنين، والبداية -كما ذكر سابقاً- للمسلم: "على جميع البلاد الإسلامية الداخلة في ممالك بلاد مولانا السلطان الملك المنصور، سيف الدنيا والدين قلاوون⁽⁵⁾ الصالح، قسيم أمير المؤمنين، وبلاده، وقلاعه، ومدنه، وحصونه، وما اشتملت عليه مملكة الديار المصرية، وما فيها من الثغور، والسواحل، والقلاع، والمدن، والمملكة الشامية، وما اشتملت عليه من الثغور، والقلاع، والحصون، والمدن والثغور الساحلية، وما اشتملت عليه من الحصون ومن برور، ومن مواني، ومن بلاد، والبلاد البعلبكية، والحمصية، والحموية، والفتوحات الشريفة بحصن الأكراد، وحصن عكار، وما يضاف إليها، ودخل في جملتها من ثغور وبلاد معاهديه، وحصون وبرور وسواحل، والمملكة الحلبية، والفتوحات الأنطاكية، وما هو مجاور لصور من المملكة الصغدية والشقيفية⁽⁶⁾ وغيرها من القلاع والحصون والبلاد، على كلّ ما هو داخل في مملكة مولانا السلطان الملك المنصور، سيف الدنيا والدين، من ممالك وحصون، وقلاع، وثغور، ومدن وقرى، وسواحل، ومواني، وبرور، قريبتها وبعيدها، سهلها وجبلها، عامرها ودائرها، غورها ونجدها، شرقها وغربها، يمنها وحجازها، شاميها

¹ "الأول" في الأصل، وما أثبت هو الصحيح.

² "ستة" في الأصل، وما أثبت هو الصحيح.

³ "الأول" في الأصل، وما أثبت هو الصحيح.

⁴ ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 104.

⁵ "قلاوون" في الأصل.

⁶ يشرح محقق كتاب تشریف الأيام المقصود بالمملكة الشقيفية، فيقول: يقصد بها الشقيف المعروف بشقيف أرنون، وشقيف تيرون، وشقيف ديركوش، ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 104.

ومصرييها، وما تشتمل عليه من قرى، ومزارع، وأنهار، وطواحين، وأبراج، وبساتين، وعلى من حوته هذه الممالك وتحويه من عساكر، وجند، ورعايا، وعرب، وتركمان، وأكراد، وفلاحين، وسائر أجناس الناس أجمعين، على اختلاف أجناسهم، وتغاير أشكالهم وأديانهم، وعلى أموالهم ومواشيهم، على تغاير أصوافها وأوبارها، والأموال على تغاير أجناسها⁽¹⁾.

وعلى الملكة ومن يتبعها عدم التعرض لبلاد السلطان بالأذى، وتأمين سكانها والمترددين إليها من الزوار والتجار، على أنفسهم وتبعاتهم: "تكون هذه الممالك المذكورة وما اشتملت عليه، ومن فيها من سائر الناس أجمعين، الساكنين بها والقاطنين، والمترددين إليها ومنها وفيها من التجار والسقار، آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم ومواشيهم، في حالتهم صدورهم وورودهم، وسفرهم وإقامتهم"⁽²⁾.

وليس ذلك فحسب، بل يشرك بلاد معاهديه في هذا الشرط من الهدنة، إضافة إلى ما سيفتح على يده ويد أبنائه وعساكرهم من بلاد: "وما لمعاهديه من البلاد والجهات، وما سيفتحه الله على يد مولانا السلطان الملك المنصور، وعلى يد أولاده، ويد عساكرهم وجنودهم وجيوشهم، من الحصون والبلاد والقلاع، يجري عليها وعلى من فيها، وما فيها حكم هذه الهدنة المباركة إلى آخر مدتها"⁽³⁾.

ويحدّد -بعد ذلك- بلاد الملكة الداخلة في الهدنة: "وعلى بلاد الملكة دام مرجريت بنت سير هنري⁽⁴⁾ بن الإبرنس بيمند، المعينة لها خاصًا ومناصفة في هذه الهدنة، وهي: مدينة صور وما دارت عليه أسوارها وضواحيها خاصة، وما فيها من الأراضي التي تزرع فيها البقول والأقصاب والمعاصر التي لا دمنة لها، وهي: المعوقة ورشمون -أراضي الزيتون- من الضواحي التي لا دمنة لها، وبستان العوجا، الذي لا دمنة له، والحكورات، والطواحين التي حول مدينة صور، تكون هذه الضواحي المذكورة بما فيها من أراضي الأقصاب، ومزارع البقول والمعاصر

¹ ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 104-105.

² المصدر نفسه، ص 105.

³ المصدر نفسه، ص 105.

⁴ "دام مراريت بنت سير هنري" في الأصل.

التي من جملة الضواحي خاصة لصور، وذلك بشرط أن تكون رشمون، والمعوقة، وبستان العوجا أراضي من ضواحي صور بغير دمن ولا قرى⁽¹⁾.

ويقطع الكاتب حديثه عن أملاك صاحبة صور؛ لي طرح شرطاً آخر عليها، يتلخص بضمّ خمس ضياع مغلّة من ضياع صور لأملاك السلطان وإبنيه، وقد وقع الاختيار على الضياع التي استقرت للظاهر ببيرس، في الهدنة التي عقدت في أيامه: "وعلى أن يكون لمولانا السلطان الملك المنصور، ولأولاده: السلطان الملك الصالح، والملك الأشرف -نصرهم الله- خاصاً لهم الخمس الضياع من ضياع صور، من أجودها وأكثرها متحصلاً من عين وغلة، التي استقرت في الخاص الشريف السلطاني من الأيام الظاهرية، وهي: قانا ومزرعتها القروية، اصريفيا ومزرعتها، حانا يخن وما بكمالها، المجادل بكمالها، كفر دبّين بكمالها، على ما استقرّ عليه الحال إلى آخر الأيام الظاهرية، تكون هذه الخمس قرى خاصاً جميعها بأراضيها، وحدودها، وحقوقها، وكلّ ما هو داخل فيها ومنسوب إليها، لمولانا السلطان، الملك المنصور ولأولاده، من غير مشاركة لهم في ذلك"⁽²⁾.

ويعود ثانية ليستكمل حديثه عن أملاك صاحبة صور، مع إيضاح لحدود دولتها، إذ يقول: "وتكون للملكة مرجريت، مالكة صور، من ضياع صور عشر ضياع من قرايا مرج صور خاصاً لها، على ما هو مستقرّ في الهدنة الظاهرية، إنّ هذه العشر ضياع، تكون خاصاً لملكة صور جسما، عيّنت بأسمائها فيها، وهي: عين أبي عبد الله، القاسمية، سدس، قحلب، المرفوق، الجارودية، الجمادية، مرفلة، رأس العين، برج الاسبتار، تكون هذه العشر ضياع المذكورة بحقوقها وحدودها وأراضيها، وما هو داخل فيها، خاصاً لملكة صور دام مرجريت⁽³⁾ مالكة صور، وعلى أن تكون بقية بلاد صور جميعها، بما فيها من مزارع وعدتها بما فيها من المزارع ثمانى وسبعون ضيعة ومزرعة، وهي: الطالية، درتية الدهرية، الغنوية، العثية، وادي الحجاج، العرثية، البحتية، المالكية، دير عمران، التعتبية، الكبيية، بابلويه، الحمية، دير فالون، غرا يغال، الزيادات، وحيوية، ربعين، بني دفتح،

¹ ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 105.

² المصدر نفسه، ص 105.

³ "مراريت" في الأصل.

مارنين، عيا، صديقي، رسكيانية، رفيلة، عثيث ومزرعتها، الملاحات، السحنونية، الفراخية، طرغان الدّير، المعلية، الخميرا، روتية، بابوح، فقعة، البارورية، كفر دهال، حوبا ومزرعتها، سرفيه، مجدل، بيت روح، طرسا، فسون، التفاحية، أمد، ركنا، مارون، طرسنحات، كفر ناي، بني باقتلة، معولة، طفلسة، أشحور، الرّمر، الفهرون، دوردغيا، أبروخية، هرين، الصّوافي، حلوسية، معروب، بعليث، درفانون، طرديا، بدياس، النّعمانية، بدوث، الحمرانية، طوراء، السرفيات، بردسيل، الجديدة، العباسة، الحنيثة، السّفلسة، اشحور، الفاه، شادسة، العجلية، المصرية، وذلك خلا المعوقة، ورشمون، وبستان العوجا التي ذكرناها ليست بقراه، وأنّ المعوقة اسم المعصرة وبستان العوجا غير قرية، ورشمون غير قرية، وإن كانت قرى كانت من جملة قرى المناصفت، وإن لم تكن قرى كانت من جملة ضواحي المختصة بها، وحدود هذه البلاد جميعها من جهة القبلة مرفلة، وقرية دير عمران، وبرج وادي الحجاج، والعربية، وريف، وبارين، ومن الشّرق عنافة، سكاكة، ومجدل شرقية، والسّحنونية الداخل ذلك المناصفت، وقانا، ومحروما، والمجادل، وكفر دبّين الدّاخل في الخاصّ الشّريف، ومن الشّمال اصريفا الدّاخل في الخاصّ الشّريف، ونهر القاسمية، ومن الغرب البحر، تكون هذه القرايا المذكورة في هذه الهدنة جميعها بمزارعها، وحقوقها، وأراضيها، وطواحينها، وأنهارها، وبساتينها، ودمنها، ومتحصّلات مغلاتها من وجوه العين والغلة مناصفة بين مولانا السّلطان الملك المنصور، وبين الملكة دام مرجريت⁽¹⁾ مالكة صور، يقسم جميع المتحصّل بها من وجوه العين، والغلة، وحقوق، وزكاوات، وعداد، وحكورات، وأجر، وضمانات، وخراجات، وجبايات، ومواريث، وغير ذلك من سائر الحقوق قليلها وكثيرها نصفين بين الجهتين بالسّوية، ويستقرّ الحال في جميع الأشياء كما كانت إلى آخر الأيّام الظاهرية، وعلى أن يكون المباشر لهذه الضّياع، والمناصفت المذكورة، والمستخرج لأموالها وغلالتها، نوّاب مولانا السّلطان الملك المنصور -عزّ نصره- باتّفاق مع نوّاب الملكة دام مرجريت⁽²⁾، مالكة صور، بحيث لا تتفرد جهة عن جهة

¹ "مراريت" في الأصل.

² "مراريت" في الأصل.

باستخراج درهم ولا غيره، وعلى أن يستمر، الشخص بأرض الزهرية في المكان الذي جرت به عادته في الأيام الظاهرية⁽¹⁾.

والنص السابق يكشف عن مدى استغلال طرف الهدنة الأقوى المتمثل بالسultan، لطرفها الأضعف المتمثل بالملكة دام مرجريت، ذلك أنها دفعت نصف دخل مملكتها تقريبا مقابل موافقة السلطان على الصلح.

ويتعهد الكاتب عن السلطان بعدم التعرض لأذية بلاد الملكة المذكورة سابقا، ولا لأهلها بمختلف أعمالهم، إذ إنه يؤمنهم على أنفسهم وتبعاتهم حتى انقضاء مدة الهدنة المقررة: "وعلى أن تكون هذه البلاد المختصة بمالكة صور، آمنة مطمئنة هي ومن فيها من عسكرها، وخیاليتها، ورجالتها، ورعيّتها، وتجارها، على أنفسهم، وأموالهم، وأولادهم، ومواشيهم، في حالتي صدورهم وورودهم، وسفرهم وإقامتهم، إلى آخر هذه الهدنة"⁽²⁾.

ويؤكد على ضرورة عمل الجهتين على حماية المسافرين والتجار، الذين يترددون إلى بلادهما، وذلك بتأمينهم على أنفسهم ومتعلقاتهم، وحفظهم في أثناء عملية دخولهم إلى البلاد التي يقصدونها، أو خروجهم منها: "وعلى أن التجار، والسفّار والمترددين من الجهتين يترددون، ويبيعون، ويشترون، ويوردون ويصدرون، آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم"⁽³⁾.

ويضمن للتجار -أيضا- بقاء أمورهم على ما هي عليه، من حيث الضرائب والرسوم الجمركية، إلى غير ذلك، دون تجديد أي شيء منها: "وعلى أنهم لا يحدث عليهم شيء غير ما جرت العوائد به من الجهتين"⁽⁴⁾.

أمّا الممنوعات وبيعها، فيجري الأمر فيها على ما ورد في الهدنة السابقة: "وأنّ الممنوعات مستقرّ حالها في البيع على حالتها"⁽⁵⁾.

ويتعيّن على الجهتين حفظ مراكب بعضهما بعضاً، وفي حال تحطّم أحدها، يسلم لصاحبه إن كان تابعا للسلطان المملوكي، وذلك في حال العثور عليه، فإن لم

¹ ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 106.

² المصدر نفسه، ص 106.

³ المصدر نفسه، ص 106.

⁴ المصدر نفسه، ص 106.

⁵ المصدر نفسه، ص 106.

يحدث ذلك، يُسَلَّم لنواب السلطان، أمّا مَنْ كان تابعا لملكة صور، فيُعَادُ ماله إليه في حال العثور عليه، ويُسَلَّم لديوان الملكة، إن لم يحدث ذلك، وهذا الأمر يجري على من يُتَوَقَّى من أصحاب المراكب في الجهة الأخرى، في حال عدم وجود وريث له: "وعلى أنّ المراكب من الجهتين، المترددة في البحر تكون كلّ فرقة من الفرقتين آمنة من الفرقة الأخرى، مطمئنة في البحور والمراسي، والدخول والخروج، وتلتزم كلّ طائفة من الجهتين كفّ الأذى عن الجهة الأخرى، وعلى أنّه متى انكسر مركب من الجهتين، إن كان لمسلم تسلمه له، إن كان موجودا، ولنواب مولانا السلطان، إن كان مفقودا، وإن كان لنصرانيّ من بلاد مولانا السلطان -عزّ نصره- فالحكم فيه كحكم المسلم، وإن كان من أهل صور، ومن رعيّة الملكة مالكة صور، يُسَلَّم له المال إن كان موجودا، ولديوانها إن كان مفقودا، وإن مات أحد من الجهتين في الجهة الأخرى، ولم يكن له وارث، يجري عليه هذا الحكم من الجهتين، ولا يخفى ما له"⁽¹⁾.

والمتمعّن في النصّ السابق، يلاحظ أنّ الكاتب يركّز على قضية مساواة السلطان بين أفراد دولته، سواء أكانوا مسلمين أم نصارى، مع أنّ الحديث ورد -سابقا- عن سوء معاملة الممالك للنصارى، ويبدو أنّ التجار منهم، كانوا يحظون بمعاملة خاصّة من قبلهم؛ نظراً للثروة الطائلة التي تتركّز في أيديهم، ولعلّ الكاتب عمد إلى ذكر ذلك كي يقدّم لملكة صور النصرانية صورة حسنة لدولة الممالك، بإظهار جزء بسيط من كيفة معاملة سلاطينها للنصارى القاطنين فيها، فلا فرق لديهم بين مسلم ونصرانيّ.

وفي حال قيام فردٍ من أفراد الجهة الأولى بقتل فرد من أفراد الجهة الثانية، لا يحقّ للجهة التي ينتمي إليها القتل الحكم على القاتل، بل يُسَلَّم أمره إلى المسؤولين في الجهة التي ينتمي إليها، فيحكمون عليه بما تقتضيه قوانين دولتهم: "وعلى أنّه متى قُتِلَ أحد من الجهتين، ووُجِدَ القاتل، فإن كان القاتل مسلما يحكم فيه نواب مولانا السلطان الملك المنصور -نصره الله- بما تقتضيه سياسة السلطنة الشريفة المطهرة،

¹ ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 106-107.

وإن كان نصرانياً من أهل صور، تحكم فيه الملكة دام مرجريت⁽¹⁾ مالكة صور، كل جهة بحضور نائب من الجهة الأخرى يباشر الحكم فيه، بما تقتضيه أحكام الجهتين، وذلك يكون الحكم في كل من تعدى وأسرف واغتال، يتولى ذلك نواب مولانا السلطان تأديب المسلم، وتأديب النصراني يتولاه نواب الملكة مالكة صور⁽²⁾.
والآن فليقرأ النص التالي:

"وإن خفي أمر القتل، كانت دية الفارس من الجهتين ألفاً ومائة درهم صورية، والتركلي مائتي درهم، والفلاح مائة دينار، والتاجر تكون ديته على قدر جنسه، وأصله، ومقدرته، يؤخذ ذلك من أهل القرى التي يُقتل فيها ذلك الشخص، جناية لهم وتأديباً جملة واحدة، يعتمد ذلك من الجهتين"⁽³⁾.

ويلمس بعد قراءة النص السابق - الاختلاف في أمر القتل بين هذه الهدنة وسابقتها ففي الهدنة السابقة كان الحكم في حال عدم العثور على القاتل، قتل نظير القتل من حيث طبيعة العمل، فالفارس يكون نظيره فارساً مثله، والفلاح فلاحاً، والتاجر تاجراً، إلى غير ذلك، أما هنا فيلاحظ حلول الدية مكان القتل، وقد تمّ تحديد مقدارها وفقاً لطبيعة عمل القتل، فإن كان فارساً، تكون ديته ألفاً ومائة درهم صورية، وإن كان تركلياً، تكون ديته مائتي درهم، وإن كان فلاحاً تكون ديته مائة دينار، أما التاجر فتقدر ديته وفقاً لجنسه، وأصله، ومقدرته، على أن تؤخذ الدية من أهل القرى التي تمّ فيها القتل؛ تأديباً لهم.

وتقسم الدية بالتساوي، إن كان القتل منتمياً للقرى التي قُسمت مناصفةً بين السلطان والملكة: "وإن كان المقتول من المناصفات، كان متحصلاً الجناية مناصفة"⁽⁴⁾.

وتتبع الإجراءات نفسها، التي وردت في الهدنة السابقة فيما يخص الكشف عن أمر الأخيذة والقتل: "وعلى أنه متى أخذت أخيذة، ترد بعينها إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة، وإن خفي أمر القتل أو أمر الأخيذة، كانت المهلة في

¹ "مراريت" من الأصل.

² ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 107.

³ المصدر نفسه، ص 107.

⁴ المصدر نفسه، ص 107.

الكشف عن أمره أربعين يوماً، وإن لم يظهر له خبر حُلف والي تلك الجهة وثلاثة أنفار ممّن تختارهم الجهة الأخرى، وإن امتنعوا عن اليمين لزمت الجناية المذكورة وقيمة الأخيذة⁽¹⁾.

ويُعَادُ الهارب إلى بلاده بما معه: "وعلى أنه متى هرب أحد من الجانبين، يُردّ بما معه، ومتى هرب مملوك من أيّ جنس كان، يُردّ بجميع ما معه ذكراً كان أو أنثى، عبداً كان أو حرّاً، ويعتمد ذلك من الجانبين"⁽²⁾.

وللمرّة الأولى يذكرُ الكاتبُ الأنثى في هُده، ويبينُ بأنّها تُعامل معاملة الذكّر فيما يخصّ الفصل السابق، ولا يُعلم فيما إذا كان لهذا علاقة بالملكة مرجريت الأنثى، التي استطاعت تسيير شؤون دولتها فعاذلت الملوك بذلك، فالخوف من الأنثى يعادل الخوف من الذكر، نظراً لقدرتها على القيام بمختلف الأعمال، حتى وإن كانت تمتاز بالصّعوبة، لذلك فلا مانع من تطبيق الشرط عليها كالذكر تماماً.

ولا يحق للملكة التوسّع والتّجديد في حدود بلادها، إذ يجب عليها الالتزام فيما عيّن لها وحسب: "وعلى أنّ الملكة مرجريت مالكة صور، لا تستجدّ بناء قلعة، ولا تجديد سور، ولا حفر خندق، ولا ما يتحصّن به ممّا يمنع أو يدفع"⁽³⁾.

ويُعِيدُ الكاتبُ التأكيد على تعهّد السلطان بحفظ بلاد الملكة، وعدم السّماح لرعاياه ومعاهديه بالتعرّض لأذيتها وأذية بلادها وأتباعها: "وعلى أنّ مولانا السلطان لا يفسح لأحد من عساكره، ولا من جنوده، ولا من أهل بلاده من التّطرق لبلاد صور المعينة في هذه الهدنة بأذية، ولا ضرر، ولا سرقة، ولا عدوان، ولا غدر لا في برّ ولا بحر، ولا يتعرّض أحد من عساكر مولانا السلطان، وجنوده، ومعاهديه للملكة دام مرجريت مالكة صور، لا في نفسها، ولا في خيالتها، وأصحابها، خلا الإسماعيلية الذين تحت حكم مولانا السلطان"⁽⁴⁾.

¹ ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 107.

² المصدر نفسه، ص 107-108.

³ المصدر نفسه، ص 108.

⁴ المصدر نفسه، ص 108.

فإن قصد أحدهم أذية الملكة بعد ذلك التعهد، يتكفل السلطان بالقضاء عليه:
"ولمولانا السلطان أن يجهز من شاء منهم إلى مالكة صور بالسوء والضرر متى
أراد"⁽¹⁾.

ومقابل ذلك، يجب على الملكة التعهد بحفظ أمن بلاد السلطان، وعدم التعرض
لها ولرعاياها بالأذية، أو تمكين الأعداء ومساعدتهم على ذلك: "وعلى أن الملكة دام
مرجريت⁽²⁾ مالكة صور، تلتزم حفظ بلاد مولانا السلطان من جهتها من متجرّم، أو
مفسد أو رجل غريبة، وسائر الإفرنجية، يتطرق من بلادها إلى بلاد مولانا السلطان
بأذية، أو إغارة، أو فساد، أو عدوان، وعلى أن الملكة دام مرجريت⁽³⁾ مالكة صور
لا توافق أحداً من سائر الفرنجية على أمر فيه أذية لبلاد مولانا السلطان، أو ضرر
على ممالكه أو رعاياه، وسائر من فيها وما فيها، ولا تساعد أحداً على ذلك برمز،
ولا كتابة، ولا إشارة، ولا رسالة إلى حين انقضاء الهدنة، ولها من مولانا السلطان
مثل ذلك"⁽⁴⁾.

وتكون المدة المطروحة في حال انقضاء الهدنة أو فسخها أربعين يوماً؛ كي
يتسنى للأفراد من الجانبين -كما مرّ سابقاً- العودة إلى بلادهم آمنين مطمئنين:
"وعلى أنه متى انقضت الهدنة، أو وقع -والعياذ بالله- فسخ من أحد الجهتين، كانت
المهلة للتجار، والسفّار، والمتردّدين أربعين يوماً؛ حتى يعود كلّ أحد بماله إلى مأمّنه
وطنه آمنين، مطمئنين، مخفرين من الجهتين"⁽⁵⁾.

ولا بدّ من التأكيد على استمرار هذه الهدنة بأحكامها، وشروطها التي وردت
سابقاً، إلى حين انقضاء مدّتها، فهي لا تبطل بموت أحد الطّرفين المتهادنين، أو
عزله، أو تولية غيره: "تستقرّ هذه الهدنة بشروطها المحرّرة، وقواعدها المقرّرة، لا
تنقض أحكامها، ولا ينفكّ نظامها بموت أحد من الجهتين، ولا بعزل والٍ ولا تولية
غيره، ولا برجل غريبة، ولا بيدٍ غالبية، بل تستمرّ مدّتها، وتوفّى عدّتها وهي: عشر

¹ ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 108.

² "مراريت" من الأصل.

³ "مراريت" من الأصل.

⁴ ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 108.

⁵ المصدر نفسه، ص 108.

سنين كوامل متتاليات، أولها الرابع عشر من جمادى الأولى⁽¹⁾، سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية، الموافق لليوم الثامن عشر من شهر تموز من سنة ألف وخمسمائة، وآخرها الرابع عشر من جمادى الأولى، من سنة أربع وتسعين وستمائة، الموافق الثامن عشر من تموز من ألف وستمائة وخمسة للإسكندر بن فيليبس اليوناني⁽²⁾.

ويجبُ على الطرفين، ومن يأتي بعدهما حفظ الهدنة والعمل بها إلى انتهاء مدتها: "يلتزم كل من الجهتين حفظها إلى آخرها، ومن تولى بعد الآخر حفظها إلى آخرها، والخطّ الشريف أعلاه، حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى"⁽³⁾.

ومن دون شك أن تتابع انتصارات السلطان الظاهر ببيرس، وكثرة فتوحاته، ساهما في زيادة قوّته، وارتفاع منزلته بين الملوك، سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك، وبالتالي اندفع إلى السخرية والتهكم بمن يشاء منهم، ففي سنة (666 هـ) بعث برسالة ساخرة إلى البرنس بيمند⁽⁴⁾، حاكم أنطاكية وطرابلس، يبشّره فيها بفتح أنطاكية، على يده ويد جنوده، وهي من إنشاء محيي الدين بن عبد الظاهر، وبدأها بإصدار أمر السلطان بإنزال رتبة بيمند من البرنسية إلى القومصية؛ بسبب فتح أنطاكية وانتزاعها من بين يديه: "قد علم القومص الجليل، المبجل، المعزّز، الهمام، الأسد، الضرغام، فخر الأمة المسيحية، رئيس الطائفة الصليبية، كبير الأمة العيسوية، بيمند المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية منه- من البرنسية إلى القومصية - ألهمه الله رشده، وقرن بالخير قصده، وجعل النصيحة محفوظة عنده"⁽⁵⁾.

ولا تخفى السخرية اللاذعة التي تتم عنها عبارة الكاتب الأولى، التي تحوي مدحاً للبرنس من خلال نعتة بالجليل، والمبجل، والمعزّز، والهمام، والأسد، والضرغام، ولعل كل نعت من هذه النعوت، يراد به معنى مخالفا لمعناه الحقيقي، فهو ذم في صورة مدح.

¹ "الأول" في الأصل.

² ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 108-109.

³ المصدر نفسه، ص 109.

⁴ يذكر حمادة، محمد ماهر، اسمه "بوهيموند السادس"، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982م، ص 60.

⁵ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 309.

وقبيل فتح أنطاكية، كان السلطان بيبرس قد هاجم طرابلس، وأعمل يد الخراب فيها، وخرج منها، فظنّ بيمند أنّ غايته تقتصر على فتح طرابلس فحسب، لذلك قرّر البقاء فيها إلى حين؛ كي يصدّ هجوم السلطان إن عاد إليها مرة ثانية، لكنّه لم يدرك بأنّ السلطان تعمد ذلك كي يلهيه عن وجهته الأصليّة، إذ كان قاصدا منذ البداية غزو أنطاكية وفتحها، وبذلك يصحّ القول بأنّ غزو طرابلس لم يكن إلا جزءاً من خطة عسكريّة هدفها الرئيس أنطاكية.

ويتعمّد الكاتب تصوير مظاهر الخراب التي عمّت طرابلس، على أثر غزو السلطان لها، وفي الوقت ذاته، يصوّر مظاهر النعمة التي حلّت برعايا السلطان نتيجة لذلك: "قد علم القومص... ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمار وهدم الأعمار، وكيف كُنست تلك الكنائس من على بساط الأرض، ودارت الدوائر على كلّ دار، وكيف جُعِلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر، وكيف قُتلت الرّجال، واستُخدمت الأولاد، وتُمَلّكت الحرائر، وكيف قُطعت الأشجار، ولم يُترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق -إن شاء الله- والسّائر، وكيف نُهبَت لك ولرعيّتك الأموال، والحريم، والأولاد، والمواشي، وكيف استغنى الفقير وتأهّل العازب، واستخدم الخديم، وركب الماشي، هذا وأنت تنظر نظراً المغشيّ عليه من الموت، وإذا سمعت صوتاً قلتَ فزعاً: "عليّ هذا الصوت"، وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود، وأخرناك وما كان تأخيرك إلا إلى أجلٍ معدود، وكيف فارقنا بلادك، وما بقيت فيها ماشية إلا وهي لدينا ماشية، ولا جارية إلا وهي في مَلْكنا جارية، ولا سارية إلا وهي بين أيدي المعاول سارية، ولا زرع إلا وهو محصود، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود، وما منعت تلك المغائر التي في رؤوس الجبال الشاهقة، ولا تلك الأودية التي هي في التّخوم مختركة، وللعقول خارقة، وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدّق أنّنا نبعد عنك، وإنّ بعدنا فسنعود على الأثر، وما نحن نُعلمك بما تمّ، ونُفهمك بالبلاء الذي عمّ"⁽¹⁾.

¹ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 309-310.

ويبدو أنّ الكاتب لا يرمي إلى السّخرية من البرنس فحسب، بل يتعمّد -أيضاً- إثارة غيظه ويتّضح هذا في قوله: "وغزونا له في عقر الدّار"، "هذا وأنّك تنظر نظر المغشيّ عليه من الموت، وإذا سمعت صوتاً، قلت فزعا: "عليّ هذا الصّوت"، فيما أنّ البرنس كان حاضراً في طرابلس، ولم يستطع صدّ الهجوم عنها، فهو لا يستحقّ أن يكون حاكماً؛ إذ إنّ الحاكم الحقيقيّ يضحّي بروحه من أجل سلامة بلاده ورعيّته، وفي الوقت نفسه يتعمّد إثارة مشاعر الحسرة في نفس البرنس، إزاء الدّمار الذي لحق ببلاده نتيجة الهجوم المملوكي الساحق.

ويحدّد للبرنس وقت دخول السّلطان وجيشه أنطاكية، إذ كان الفارق الزمنيّ بين خروجهم من طرابلس ودخولهم إلى أنطاكية عشرة أيّام تقريباً، ويعلمه -أيضاً- بالأحداث التي جرت هنالك إذ عمد السّلطان قبل هجومه إلى إنذار أهلها؛ كي يسلموا المدينة له -إن أرادوا- دون قتال، فيضمنوا بذلك سلامة أرواحهم ومتعلّقاتهم، وبما أنّه أحسّ بتردّدهم وخوفهم من البرنس، بادر إلى الهجوم: "كان رحيلنا عنك من طرابلس في يوم الأربعاء، الرّابع والعشرين من شعبان، ونزولنا أنطاكية في مستهلّ شهر رمضان، وفي حالة النزول، خرجت عساكرك للمبارزة، فكسروا وتناصروا فما نصروا، وأسر من بينهم كندا اصطبل⁽¹⁾ فسأل في مراجعة أصحابك، فدخل إلى المدينة، فخرج هو وجماعة من رهبانك، وأعيان أعيانك، فتحدّثوا معنا، فرأيناهم على رأيك من إتلاف النفوس بالغرض الفاسد، وأنّهم رأيهم في الخير مختلف، وقولهم في الشرّ واحد، فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت، وأنّهم قد قدّر الله عليهم الموت، رددناهم وقلنا: "نحن السّاعة لكم نحاصر، وهذا هو الأوّل في الإنذار والآخر" فرجعوا متشبّهين بفعلك، ومعتقدين أنّك تدركهم بخيلك ورجلك، ففي بعض

¹ كندا اصطبل: لفظ لاتيني، معناه حاكم القلعة، حمادة، وثائق الحروب الصليبية، هامش ص 280، ويذكر محيي الدين أنّ كندا اصطبل هذا أسر في أثناء دخول جيش السّلطان أنطاكية، فعندما أحضر إلى السّلطان، رآه رجلاً عاقلاً، فطلب إليه أن يدخل أنطاكية وينذر أهلها قبل الهجوم، فدخلها بعد أن خلف ابنه رهينة لدى السّلطان، وبعدها خرج من المدينة بصحبة جماعة من القسيسين والرّهبان؛ ليتباحثوا الأمر مع السّلطان، فعندما أحسّ بقوة نفوسهم وخوفهم من البرنس، قرّر الهجوم عليها، انظر: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 307-308.

ساعة مرَّ شان المرشان⁽¹⁾، وداخل الرّهب الرّهبان⁽²⁾، ولان للبلاء القسطلان⁽³⁾، وجاءهم الموت من كلّ مكان⁽⁴⁾.

ويُحدّد الوقت الذي تمّ فيه فتح المدينة بالسّاعة، واليوم، والشّهر: "وفتحناها بالسّيف، في السّاعة الرّابعة من يوم السّبت من رابع شهر رمضان"⁽⁵⁾. ويعرّضُ للبرنس شيئاً من الفواجع التي حلّت بأهل مدينته، وشيئاً من مظاهر النّعمة التي حلّت بجيش السّلطان، ففي الوقت الذي يُقتل فيه رجال البرنس وفرسانه، وتُسبى نساؤه ونساؤهم، يجمع رعايا السّلطان الغنائم المختلفة، ويشترون السّبايا بثمن بخس، يدفعونه من ماله، ومال رعاياه: "وقتلنا كلّ من اخترته لحفظها، والمحاماة عنها، وما كان أحد منهم إلّا وعنده شيء من الدّنيا، فما بقي أحد منّا إلّا وعنده شيء منهم ومنها، فلو رأيت خيالك وهم صرعى تحت أرجل الخيل، وديارك والنّهابة فيها تصول، والكسّابة فيها تجول، وأموالك وهي توزن بالقنطار، وداماتك⁽⁶⁾ فكلّ أربع منهنّ تُباع فتشتري من مالك بدينار"⁽⁷⁾.

ويشيرُ الكاتب في النصّ السّابق إلى إحدى الفرق العسكريّة، تعرف بالكسّابة، وهي ترافق الجيش في غزواته، وفي حال انتصاره، تدخل بلاد العدوّ وتجمع الغنائم المختلفة، كالأموال، والجواري، والدّواب إلى غير ذلك⁽⁸⁾.

ويتمدّد الكاتب بعد ذلك استحضار الصّور التي تثير غضب البرنس، عن طريق تركيزه على مظاهر الدّمار التي حلّت بالكنائس، إذ هُدّمت، وحطّمت صلبانها، ومزّقت أناجيلها وبُعثرت، وقُتل رجال الدين في أرجائها، إضافة إلى دوس المسلمين مكان القدّاس فيها، ولا عجب من لجوء الكاتب إلى ذلك؛ فمن المعلوم أنّ

1 المرشان: لفظ لاتيني معناه منظّم الحفلات والمجالس، حمادة، وثائق الحروب الصليبيّة، ص 281.

2 الراهب: المتعبّد في صومعة من النصارى، وينصرف عن أشغال الدنيا وملادّها؛ زاهدا فيها معتزلا أهلها، والجمع رهبان، البقلّ، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص 156.

3 القسطلان: لفظ لاتيني معناه حارس القصر، حمادة، وثائق الحروب الصليبيّة، ص 281.

4 ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 310-311.

5 المصدر نفسه، ص 311.

⁶ يقول سليم، محمود رزق، داماتك: يبدو أنّ معناها سيّداتك أو نساؤك وزوجاتك ولفظها فرنسي، عصر سلاطين المماليك، هامش ص 118، ويبدو أنّ معناها سيّداتك فقد لوحظ سابقا عند ذكر ملكة صور سُبِق اسمها بلفظة "دام" أي السيّدّة مرجريت، ويورد القلقشندي في كتابه صبح الأعشى "إماءك" بدلا من داماتك، 301/8.

⁷ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 311-312.

⁸ انظر: أمين، أدب العصر المملوكي الأوّل، ص 131.

الحرب بين المماليك المسلمين، والصليبيين النصارى، حرب دينية في الدرجة الأولى، فكان ذلك ردّاً وانتقاماً على المذابح البشعة، التي ارتكبتها الفرنج بحق المسلمين، طوال حربهم المسعورة، وغزوهم الاستعماري الوحشي، الذي دام ما يقرب من مائتي عام.

ويدمج الكاتب حديثه السابق بحديث عن قصور البرنس، واصفاً ما حلّ بها من خراب، إذ أضرمت النار في أرجائها، ومات من فيها نتيجة ذلك: "ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كُسرت ونُثرت، وصحفها من الأناجيل المزورة وقد نُشرت، وقبور البطارقة وقد بُعثرت، ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس، والمذبح وقد ذُبِح فيه الرّاهب والقسيس والشمّاس، والبطارقة وقد دُهموا بطارقة، وأبناء المملكة وقد دخلوا في المملكة، ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخرق، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق، وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان وقد زلت كلّ منهما وزالت، لكنت تقول: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ ثَرَاباً﴾⁽¹⁾ ويا ليتني لم أوت بهذا الخبر كتاباً، ولكانت نفسك تذهب من حسرتك، ولكنت تطفئ تلك النيران بماء عبرتك"⁽²⁾.

ويسترسل ابن عبد الظاهر في حديثه المشوّق عن مظاهر الدمار التي حلّت بالمدينة قائلاً: "ولو رأيت مغانيك وقد أفقرت من مغانيك، ومراكبك وقد أخذت في السويديّة بمراكبك، فصارت شوانيك⁽³⁾ من شوانيك، لتيقّنت أنّ الإله الذي أنطاك أنطاكية منك استرجعها، والرّبّ الذي أعطاك قلعتها منك قلعتها، ومن الأرض اقتلعها، ولتعلم أنّا قد أخذنا - بحمد الله - منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام، وهو ديركوش، وشقيف تلميس، وشقيف كفر دبين، وجميع ما كان لك في بلاد أنطاكية، واستزلنا أصحابك من الصّياصي، وأخذناهم بالنّواصي، وفرّقناهم في الدّاني والقاصي، ولم يبق شيء يُطلق عليه اسم العصيان إلا النهر، فلو استطاع لما

¹ سورة النبأ، آية 40.

² ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 311-312.

³ الشواني: جمع شيني أو شينية، وهي سفن حربية كبيرة، وتجمع أيضاً شون، البقل، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص 207.

تسمّى بالعاصي، وقد أجرى دموعه ندما، وكان يذرفها عبرة صافية، فما هو أجراها بما سفكناه فيه دماً⁽¹⁾.

وتزداد سخرية الكاتب بالبرنس في نهاية الرسالة، عندما يخبره بأن الهدف من كتابتها زفّ البشرى إليه بفتح أنطاكية أولاً، وتهنئته بسلامته ثانياً؛ لأنه لو كان حاضراً وقتها لعرف مصيره: إمّا القتل، أو الأسر، أو الجرح، أو الكسر: "وكتابتنا هذا يتضمّن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر، لكونك لم تكن لك في أنطاكية في هذه المدّة إقامة، وكونك ما كنت بها فتكون إمّا قتيلاً، وإمّا أسيراً، وإمّا جريحاً، وإمّا كسيراً، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحيّ إذا شاهد الأموات، ولعلّ الله ما أخرّك إلا لأن تستدرك من الطّاعة والخدمة ما فات، ولمّا لم يسلم أحدٌ يخبرك بما جرى، خبرناك، ولمّا لم يقدر أحد يياشرك بالبشرى بسلامة نفسك، وهلاك ما سواها، باشرناك بهذه المفاوضة وبشرناك، لتحقّق الأمر على ما جرى، وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً، كما أنّ بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها مُخبراً"⁽²⁾.

وبعد انتهاء نصّ الرسالة يقول محيي الدين بن عبد الظاهر: "ولمّا وصل إليه هذا الكتاب، اشتدّ غضبه ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب"⁽³⁾.

وفي سنة (669 هـ) حطّمت الرّيح الشّديدة إحدى عشرة سفينة حربيّة تابعة للسلطان الظاهر بيبرس⁽⁴⁾، في مرسى النّمسون من قبرس، وقد استغلّ صاحب المدينة هذا الأمر، فعمد إلى الاستيلاء على السفن وأسر من فيها، وبعد ذلك بعث برسالة إلى السلطان المملوكيّ يخبره فيها بما حدث، إلا أنّ السلطان كان منشغلاً وقتها بأمر فتح حصن القرين، الخاضع لسيطرة اسبتار الأرمن، وما أن تمّ ذلك حتى

¹ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 312.

² المصدر نفسه، ص 312-313.

³ المصدر نفسه، ص 313.

⁴ عدّ محيي الدين تحطّم السفن غضباً من الله تعالى؛ وذلك لأنّ شخصاً يسمّى ابن حسّون اقترح بأن تُدهن السفن باللون الأسود تشبّها بسفن الفرنج، وأن تعمل بها أعلام بصلبان؛ حتى إذا دخلت موانئ الفرنج يعتقدونها لهم يقول: "وليت ما كان هذا الرأى إمّا ترتب عليه من غضب الله"، انظر: المصدر نفسه، ص 386-387.

أمر محيي الدين بن عبد الظاهر بالردّ على الرّسالة السّابقة برسالة تتضمّن زفّ البشرى لصاحبها بنبأ فتح ذلك الحصن.

وقد وجد ابن عبد الظاهر بهذا الفتح، وغيره من الفتوحات السّابقة سبيلاً إلى السّخرية من صاحب قبرس، ولا غرو في ذلك؛ فشّتّان بين من يفخر باستيلائه على بعض السّفن المحطّمة وبين من يفخر باستيلائه على أحد الحصون المنيعة، ويتّضح هذا في قوله: "هذه المكاتبة إلى حضرة الملك أوك دلزنيال⁽¹⁾ -جعله الله ممّن يوفي الحق إلى أهله، ولا يفتخر بنصرٍ إلا إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله- تعلمه أنّ الله إذا أسعد إنساناً دفع عنه الكثير من قضائه باليسير، وأحسن له التّدبير فيما جرت به المقادير، وقد كُنْتَ عرّقتنا أنّ الهواء كسر عدّة من شوانينا وصار بذلك يتّجّح، وبه يفرح، ونحن الآن نبشّره بفتح القرين، وأين البشارة بتمليك القرين من البشارة بما كفى الله به ملكنا من العين! وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب"⁽²⁾.

ويلاحظ من خلال النصّ السّابق تركيز كاتبه على إظهار عدم اكتراث السلطان بما حدث من قبل صاحب قبرس، إذ عدّ ذلك نوعاً من ردّ العين عنه، وقد اعترف السلطان نفسه بهذا، عندما وصله خبر السّفن، حيث قال: "الحمد لله مذ ملكني الله الملك ما خذلت لي راية، وكنتُ أخاف من إصابة عين، فبهذا ولا بغيره"⁽³⁾.

ويعمّد الكاتب بعد ذلك إلى عقد مقارنة بين الطّرفين، الهدف منها إعلاء شأن الطّرف الأوّل المتمثّل بالسلطان الظاهر وأتباعه، والسّخرية من الطّرف الثّاني المتمثّل بصاحب قبرص وأتباعه، يقول: "وقد قال وقلنا، وعلم الله أنّ قولنا هو الصّحيح، واتّكل واتّكلنا، وأين من اتّكل على الله وسيفه كمن اتّكل على الرّيح، وما النّصر بالهوى مليح، إنّما النّصر بالسّيف هو المليح"⁽⁴⁾.

فما قام به السلطان يُعدّ نصراً حقيقياً؛ وذلك لأنّه اتّكل على الله سبحانه وتعالى، وعلى سلاحه في الاستيلاء على حصن القرين، الذي يمتاز بمناعته، إلا أنّ الطّرف

¹ يذكر المحقق في هامش (1) من كتاب الروض الزاهر أنّه "هيو دولزنيان"، ص 387.

² المصدر نفسه، ص 387-388.

³ المصدر نفسه، ص 388.

⁴ المصدر نفسه، ص 388.

الآخر لم يبذل جهدا في عملية استيلائه على سفن السلطان، فقد سهّلت له الرّيح القيام بتلك العمليّة من خلال تحطيمها لتك السفن.

ويعتمد السلطان المملوكي في غزوه للممالك والحصون المنيعّة على جيشه المكوّن من فرقتين: فرقة بريّة تمتطي الخيول العربيّة الأصيلة، وتعتمد في قتالها على السيّوف بالدرجة الأولى وغيرها من أدوات القتال، كالرمّاح، والسّهام، وفرقة بحريّة تتركب السفن المجهّزة بمختلف الأدوات الحربيّة، التي تساعدّها على القيام بالمهمّة الموكلة إليها على أكمل وجه، وقد كان للفرقتين دور كبير في اتّساع نطاق دولة المماليك، عن طريق إخضاع المناطق المفتوحة لسيطرة سلطانها وحكمه، وفي المقابل يعتمد صاحب قبرس على الفرقة البحريّة فقط، وذلك لأنّ مملكته عبارة عن جزيرة عائمة وسط البحر، لا يجيد جيشها سوى القتال بالسّفن، وهذا الأمر زاد من سخرية الكاتب به، ففي الوقت الذي كانت تتّسع فيه دولة المماليك، بقيت مملكة قبرس على حالها: "وفي يوم ننشئ عدّة قطائع ولا تُنشأ لكم من حصن قطعة، ونجهّز مئة قلع ولا يتجهّز لكم في مئة سنة قلعة، وكلّ من أعطي مقذافا قذف، وما كلّ من أعطي سيفاً أحسن الضّرب به أو عرف، وإنّ عدمت من بحريّة المراكب آحاد، فعندنا من بحريّة المراكب ألوف، وأين الذين يطعنون بالمقاذيف في صدور البحر من الذين يطعنون بالرمّاح في صدور الصّقوف، وخيولكم المراكب، ومراكبنا الخيول، وفرق بين من يُجريها كالبهار، ومن تقف به في الوحول، وفرق بين من يتصيّد على الصّقور من الخيل العراب، وبين من إذا افتخر قال: تصيّدت بغراب"،⁽¹⁾.

وبعد كلّ ما سبق، يؤكّد الكاتب في نهاية حديثه على أنّ الكسب الحقيقيّ كان من نصيب السلطان المملوكي، الذي أرضخ حصنا جديدا لسيطرته، فزاد بذلك من رقعة دولته: "وقد كسب وكسبنا، فترى أيّنا أغنم؟ ولو أنّ في الملك سكوتا كان الواجب عليه أن سكت وما تكلم"⁽²⁾.

¹ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 388.

² المصدر نفسه، ص 388.

وقد حرص ملوك الحبشة على إبقاء العلاقات ودية بينهم وبين سلاطين المماليك؛ حفاظاً على الروابط الدينية، والثقافية، والتجارية، وإذا ما تعرضت تلك العلاقات للتوتر، كانت الخسارة من نصيب الحبشان من الناحية الدينية خاصة؛ إذ إنهم يحرصون على جلب مطران مصري يرسله بطريرك⁽¹⁾ الإسكندرية إليهم⁽²⁾، ليسير أمور كنيستهم، فإذا ما تغيرت جنسية المطران، ثار الشعب وأعمل الخراب في كل مكان.

وقد اعتاد ملوك الحبشة على إرسال وفدٍ مُحمّلٍ بالهدايا إلى مصر عند طلب المطران، ويحمل في الوقت نفسه رسالتين: إحداها موجهة إلى السلطان، والأخرى إلى بطريرك الإسكندرية، وقد يصل الخطاب فيهما إلى حدّ التصرّع وإظهار التبعية، فمثلاً، ورد في كتاب كُتب بالحبشية، وترجم إلى العربية إلى بطريرك الإسكندرية: "أتوسّل للبطرك -بطرك الإسكندرية-.. اسمع كلامي، واقض حاجتي، وابعث لي مطرانا.."⁽³⁾، أمّا الكتاب الموجه إلى السلطان الظاهر بيبرس من ملكهم "محرا ملك" سنة (673 هـ)، فقد ورد فيه: "أقلّ المماليك يقبل الأرض... فنحن ما جاعنا مطران مولانا السلطان، ونحن عبيده، فيرسم مولانا السلطان للبطرك، يجهّز مطرانا يكون رجلاً جيّداً عالماً، لا يجبي ذهباً ولا فضّة، ويرسله إلى مدينة عوان"⁽⁴⁾.

ويظهر من الفقرة السابقة أنّ مقتضى مراد الملك، الحصول على مطران زاهد في الدنيا "وهذه إشارة خطيرة، فيها طعن لمن سبقه من المطارنة، حيث لا يفهم إلا معنى واحد مفاده تكالب مطارنة مصر على (جمع) المال عند وصولهم إلى الحبشة"⁽⁵⁾.

¹ البطريرك: لقب يكتب به عن الأبواب السلطانية للملوك المسيحيين والتمتدينين منهم خاصة، وكان يكتب بهذا اللقب إلى رئيس الروم، وقد اصطلح على أن يُطلق هذا اللقب على رئيس النصارى في مصر والشام، البقلى، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص 65.

² يذكر القلقشندي أنّ البطارقة عند النصارى خلفاء الحواريين أصحاب المسيح عليه السلام، وأنه كان لهم في القديم أربعة كراس: كرسي برومية وقد صار لطائفة الملكانية، وكرسي بالإسكندرية صار آخراً لبطرك اليعاقبة تحت ذمة المسلمين بمصر منذ الفتح الإسلامي، أمّا كرسي بيت المقدس وكرسي أنطاكية فقد بطلاً باستيلاء الإسلام عليهما، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 308/5.

³ ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 172.

⁴ المصدر نفسه، ص 267، ويورد الكتاب كاملاً في ص 267-268.

⁵ الغريب، سلامة هليل، الرسائل الفنية في العصر المملوكي الأول، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة مؤتة، الأردن، 2003م، ص 103.

ويبدو أنَّ الظاهر ببيرس أحسَّ ببعض الانتقاص لقدره؛ بسبب وصول الكتاب السابق بوساطة رسول مبعوث من قبل الملك المظفر، صاحب اليمن، فلا بدَّ أنه كان ينتظر وفداً يصل إليه من جهة الحبشة، لذلك، لم يرسل مطرانا إليهم، بل ردَّ على كتاب ملك الحبشة برسالة مقتضبة، لا تخلو من القسوة، أنشأها محيي الدين عنه، ويقول فيها: "ورد كتاب الملك، الجليل، الهمام، العادل في مملكته حطّي ملك امحرا⁽¹⁾، أكبر ملوك الحبشان، الحاكم على ما لهم من البلدان، نجاشي عصره، صديق الملوك والسلاطين، سلطان الأمهرة -حرس الله نفسه، وبنى على الخير أسه- فوقفنا عليه، وفهمنا ما فيه"⁽²⁾.

وفي السطور السابقة، يحافظ الكاتب على عدم إظهار غضب السلطان ممّا حدث، فهي سطور استفتاحية تتضمن المدح والدعاء، ويمكن اتّخاذ السطور التالية لها دليلاً على السبب الذي ذكر سابقاً، فيما يخصّ عدم إرسال الظاهر المطران: "فأمّا طلب المطران، فلم يحضر من جهة الملك أحدٌ حتى نعرف الغرض المطلوب، وإنّما كتاب مولانا السلطان الملك المظفر ورد، ومضمونه أنّه وصل من جهته كتاب وقاصد، وأنّه أقام عنده حتى يسير إليه الجواب"⁽³⁾.

وكان ملك الحبشة قد ذكر في كتابه، بأنّ عسكره يحوي مائة ألف فارس مسلم، منوهاً في الوقت ذاته برعايته للمسلمين الواردين إلى مملكته، ولعلّه لجأ إلى ذلك من أجل كسب رضا السلطان، وبالتالي موافقته على إرسال المطران إليهم، ولكنّ ببيرس أجابه بقوله: "وأما ما ذكره من كثرة عساكره، وأنّ من جملتها مائة ألف فارس مسلمين، فالله تعالى يكثر في عساكر الإسلام"⁽⁴⁾، وهذا قول جاف للغاية؛ إذ إنّهُ لا يحوي كلمة شكر واحدة، أو إظهاراً للامتنان.

كما أنّه يردُّ على إشارة ملك الحبشة إلى تلوّث هواء مملكته، وكثرة انتشار الأمراض فيها، بقوله: "وأما وخم بلاده فالآجال مقدّرة، وما يموت أحدٌ إلا بأجله،

¹ امحرا: أحد أقاليم الحبشة، وهو الإقليم الأكبر، وصاحبه يسمّى حطي يعني الخليفة، وكلّ من ملكها يسمّى بهذا الاسم، ابن عبد الظاهر، الرّوض الزاهر، ص 431.

² ابن عبد الظاهر، تشرّيف الأيام والعصور، ص 268.

³ المصدر نفسه، ص 268.

⁴ المصدر نفسه، ص 268.

ومن فرغ أجله مات، والله أعلم⁽¹⁾، بهذه العبارات ينهي ابن عبد الظاهر رسالة سلطانه لملك الحبشة.

2.2 الرسائل الإدارية

اهتمّ سلاطين الممالك بتنظيم شؤون دولتهم الداخلية، فعمدوا إلى البحث عن خيرة الأشخاص؛ لأجل تكليفهم بإدارة بعض المناصب آنذاك، سواء أكانت جليلة أم حقيرة، حتى إذا ما تمّ ذلك، أمر الكتاب بإنشاء رسائل توليتهم، وفقاً لطبيعة المناصب التي يشغلونها، فقسّمت تلك الرسائل إلى تقاليد، ومراسيم، وتواقيع.

1.2.2 التقاليد

مفردها تقليد، "يقال: قلّدتَه أمر كذا إذا وليته إياه"⁽²⁾، والتّقاليد رسائل تصدر عن ديوان الإنشاء، تتضمّن أمر السلطان بتولية أحد الأفراد منصبا معيّنا، ولا تكون إلا لكبار الموظفين، "لكفلاء الملك كأكابر النواب والوزراء، ومن كان في معناهما، وقد (تكون) لأكابر القضاة"⁽³⁾.

ويتّبع الكتاب -عادة- قواعد وخطوات محدّدة عند إنشاء التّقاليد، إذ يبدأونها بخطبة يستفتحونها بحمد الله، ويتبعونها -لاحقاً- بلفظة (بعد)، أو (أمّا بعد)، ومن ثمّ يعمدون إلى ذكر صفات المقلّد ومدحه، دون الإفصاح عن اسمه، حتى إذا ما أنهوا ذلك، أفصحوا عن اسمه، وبيّنوا بأنّه المقصود فيما سبق، وبعد ذلك يوردون أمر السلطان بصيغته الرّسميّة، مع تحديد سلطات المقلّد أحياناً، إضافة إلى اختتام التّقليد بالدّعاء⁽⁴⁾.

ويستفتح محيي الدين بن عبد الظاهر تقليد السّعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس الوزارة للصّاحب بهاء الدين بن حنا بخطبة تتضمّن حمد الله وشكره على نعمه التي منّ بها على الدّولة، إذ وهب لها سلطاناً شدّ أزرها، ورفع قدرها بين الدّول، وأوكل

¹ ابن عبد الظاهر، تشریف الأيّام والعصور، ص 268.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 103/11.

³ العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص 112.

⁴ انظر: المصدر نفسه، ص 115-116.

تدبير أمورها إلى رجال يضعون تقوى الله نصب أعينهم، ويُتبع ذلك بالتوحيد، والصلاة على النبي وآل بيته، وصحابته الكرام، يقول: "الحمد لله الذي وهب لهذه الدولة القاهرة من لدنه ولياً، وجعل مكان سرّها وشدّ أزرها علياً، ورضي لها من لم يزل عند ربّه مرضياً، نحمده على لطفه الذي أمسى بنا حفيّاً، وشكره على أن جعل دولتنا جنةً أورث تدبيرها من عباده من كان تقياً، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نُسبّح بها بكرةً وعشيّاً، ونصلّي على سيّدنا محمد الذي آتاه الله الكتاب وجعله نبياً، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة نتّبع بها صراطاً سوياً"⁽¹⁾.

ويعمدُ بعد ذلك إلى ذكر صفات المقلّد، دون الإفصاح عن اسمه، فيشير إلى بلاغته، وجودة شعره، ولا غرو في ذلك؛ إذ إنّ أحد أرباب الأقلام آنذاك، ويركّز فيما بعد على الناحية الدينيّة، فيشير إلى تقواه وتهجّده ليلاً، والتزامه بأوامر الله عزّ وجلّ، عن طريق اندفاعه لعمل الخير، المتمثّل بإنفاقه على بيوت العبادات وأصحاب الحاجة -أيضاً- ومشاركته الناس في أحزانهم عن طريق حضور الجنائز، إضافة إلى زيارة القبور، إلى غير ذلك من الأعمال، وبما أنّ الشّخص المقصود في هذا التقليد كان وزيراً سابقاً، فلا غرابة من إشارة الكاتب إلى حسن تدبيره لأمر الدولة: "وبعد، فإنّ أولى ما تتغمّت السنة الأقلام بتلاوة سورة، وتتعمّت أفواه المحابر بالاستمداد لتسطير سيره، وتناجت الكرام الكاتبون بشكر مجمله ومُفصلّه، وتناشدت الرواة بحسن لسنّه، وترنّمت الحداة بطيب غزله، وتهادت الأقاليم تحف معجّله ومؤجّله، وعنت وجوه المهارق لصعود كلمة الطّيب ورفع صالح عمله، ما كان فيه شكر لنعمة تمنّها على الدولة سعادة جدودها وحظوظها، وإفادة مضمونها ومحفوظها، وإدارة مرموقها بحسن الاستيداع وملحوظها، وحمد لمنحة أفاعتها بركات أحسنت للمملكة الشّريفة مآلاً، وقربّت لها منالاً، وأصلحت لها أحوالاً، وكاثرت مدد البحر فكّلاً أجرى ذاك ماء أجرت هي مالاً، وإن ضنّت السّحب، أنشأت هي سحباً، وإن قيل -بشّح سيجناً-: رونق الأرض ذهب، عوّضت عنه ذهباً، كم لها في الوجود من كرم وكرامة، وفي الوجوه من وسوم ووسامة، وكم أحييت

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 271-270/11.

مُهَجًّا، وكم جعلت للدَّولة من أمرها مخرجاً، وكم وسَّعت أملاً، وكم تركت صدر الحزن سهلاً، وكم تركت صدر الخزان ضيقاً حَرَجاً، كم استخدمت من جيش تهجد في بطن الليل، وجيش جهاد على ظهور الخيل، وكم أنفقت في واقف في قلب بين صفوف الحروب، وفي واقف في صفوف المساجد من أصحاب القلوب، كم سبيل يسَّرت، وسعود كثَّرت، وكم مخاوف أدبرت حين درَّت، وكم آثار في البلاد والعباد أثَّرت وأثَّرت، وكم وافت ووفَّت، وكم كفت وكفَّت، وكم أعفت وعفت، وكم بها موازين للأولياء ثقلت، وموازين للأعداء خفَّت، وكم أجرت من وقوف، وكم عرفت بمعروف، وكم بيوت عبادة صاحب هذه البركات هو محرابها، وسماء جود هو سحابها، ومدينة علم هو بابها، تنثي الليالي على تغليسه إلى المساجد في الحنادس، والأيام على تهجيرهِ لعيادة الفقراء، وحضور الجنائز، وزيارة القبور الدَّوارس، يكتنَّ تحت جناح عدله الطَّاعنُ والمُقيم، وتشكر مبارَّة يثرب وزمزم ومكة والحطيم، كم عمَّت سنن تفقَّذاته ونوافله، وكم مرَّت صدقاته بالوادي فسَّح الله في مدَّته - فأثنت عليه رماله، وبالنَّادي فأثنت عليه أرامله، وما زار الشَّام إلا أغناه عن منَّة المطر، ولا سحب سلطانه في سفر إلا قال: نِعَم الصَّاحِب في السَّقر والحَضَر⁽¹⁾.

ولا بُدَّ من الإفصاح عن اسم المقدِّد، لكنَّ الكاتب ينوّه -قبل ذلك- إلى أنَّ ما ذكره سابقاً ما هو إلا جزءٌ من صفات المقدِّد وأعماله، إذ لا يستطيع أحد حصرها، ومهما تحدَّث الأفراد عن ذلك لا يوفِّونه حقَّه أبداً. وبعد الإفصاح عن اسمه وذكر ألقابه، يتبعهما بعبارات المدح والثناء، يقول: "ولمَّا كان المنفرد بهذه البركات هو واحد الوجود، مَنْ لا يشاركه في المزايا شريك، وإنَّ الليالي بإيجاد مثله غير ولود، وهو الذي لو لم نسَمِّه قال سامع هذه المناقب: هذا الموصوف عند الله وعند خلقه معروف، وهذا الممدوح بأكثر من هذه الممادح والمحامد من ربِّه وممنوح، وهذا المنعوت بذلك قد نعتته بأكثر من هذه النِّعوت الملائك، وإنَّما نذكر نعوته التذاذاً، فلا يعتقد خاطب ولا كاتب أنَّه وفَّى جلالته بعض حقِّها، فإنَّه أشرف من هذا، وإذا كان لا بد للممادح أن تجول، وللقلم أن يقول، فتلك بركات المجلس العالي، الصَّاحبيّ، السيديّ، الورعيّ، الزاهديّ، العابديّ، الوالديّ، الذَّخريّ، الكفيليّ، الممهديّ،

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 271/11-272.

المشيدي، العوني، القوامي، النظامي، الأفضلي، الأشرفي، العالمي، العادلي، البهائي، سيد الوزراء في العالمين، كهف العابدين، ملجأ الصالحين، شرف الأولياء المتقين، مدبر الدول، سداد الثغور، صلاح الممالك، قدوة الملوك والسلاطين، يمين أمير المؤمنين، علي بن محمد -أدام الله جلاله-، من تشرف الأقاليم بحياطة قلمه المبارك، والتقاليد بتجديد تنفيذه الذي لا يساهم فيه ولا يُشارك، فما جدّ منها إنما هو بمثابة آيات فتردد، أو بمنزلة سجلات في كل حين بها يُحكم وفيها يُشهد، حتى تتناقل ثبوته الأيام والليالي، ولا يخلو جيد دولة من أنه يكون الحالي بما له من فاخر اللّالي⁽¹⁾.

ويورد أمر التقليد بصيغته الرسميّة، ويؤكد على ضرورة إعلانه للناس كافّة، سواء أكانوا يعيشون داخل حدود الدولة، أو في الممالك التابعة لها، ويوكل إلى المقلّد بعض الصّلاحيّات، إذ يبسط نفوذه على تلك الممالك، فيجعل تدبير أمورها منوطاً به، من حيث النّظر في أحوالها، وأموالها، وقوانينها، إضافة إلى التّحكّم بتولية أفرادها وعزلهم، إلى غير ذلك من المهام: "فلذلك خرج الأمر العالي -لا برح يكسب بهاء الدين المحمّدي أتمّ الأنوار، ولا برحت مراسمه تزهو من قلم منفذه بذى الفقر وذى الفقار- أن يضمن هذا التقليد الشّريف بالوزارة التّامة، العامّة، الشّاملة، الكاملة: من المآثر الشّريفة السّاحبيّة البهائيّة، أحسن التّضمين، وأن ينشر منها ما يتلقّى رايّة كلّ ربّ سيف وقلم باليمين، وأن يعلم كافّة النّاس ومن تضمّه طاعة هذه الدولة وملوكها وسلوكها من ملك وأمير، وكلّ مدينة ذات منبر وسرير، وكلّ من جمعته الأقاليم من نواب سلطنة، وذو طاعة مذعنة، وأصحاب عقد وحلّ، وطمع وحلّ، وذو جنود وحشود، ورافعي أعلام وبنود، وكلّ راع ورعيّة، وكلّ من ينظر في الأمور الشرعيّة، وكلّ صاحب علم وتدرّيس، وتهليل وتقديس، وكلّ من يدخل في حكم هذه الدولة الغالبة من شمسها المضيئة، وبدورها المنيرة، وشهبها الثّاقبة، في الممالك المصريّة، والنّوبيّة، والسّاحليّة، والكركيّة، والشّوبكيّة والشّاميّة، والحليّة، وما يتداخل بين ذلك من ثغور وحصون وممالك، أنّ القلم المبارك السّاحبيّ البهائيّ في جميع هذه الممالك مبسوط، وأمر تدبيرها به منوط، ورعاية شفقتة لها تحوط،

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 273-272/11.

وله النظر في أحوالها وأموالها، وإليه أمرُ قوانينها، ودواوينها، وكتّابها، وحسابها، ومراتبها، ورواتبها، وتصريفها، ومصروفها، وإليه التولية والصرف، وإلى تقدّمه البذل، والنّعت، والتوكيد، والعطف، فهو صاحب الرتبة التي لا يحلّها سواه وسوى مَنْ هو مُرتضيه، من السّادة الوزراء بنيه، وما سمّينا غيره وغيرهم بالصّحوبية⁽¹⁾، فليحذر مَنْ يُخاطب غيره وغيرهم بها، أو يسمّيه، فكما كان والدنا الشهيد رحمه الله - يخاطبه بالوالد قد خاطبناه بذلك وخطبناه، وما عدلنا عن ذلك بل عدلنا؛ لأنّه ما ظلم مَنْ أشبه أباه، فمنزله لا تُسامى ولا تسام، ومكانته لا تُرامى ولا ترام، فمن قدح في سيادته من حسّاده زناد قدح أحرق بشرر شرّه، ومَنْ ركب إلى جلالته ثبج سوء أغرق في بحرّه، ومَنْ قتل لسعادته حبل كيدٍ فإنّما قتله مبرّمه لنحره، فلتلزم الألسنة والأقلام والأقدام في خدمته أحسن الآداب، وليقل المتردّدون: حطّة إذا دخلوا الباب، ولا يغرتهم فرط تواضعه لدينه وتقواه، فمن تأدّب معه، تأدّب معنا، ومن تأدّب معنا تأدّب مع الله⁽²⁾.

ويتّضح ممّا سبق ارتفاع منزلة الوزير لدى السلطان ووالده من قبله، إذ خاطباه بالوالد، ويعزّز ذلك قول الكاتب: "فمنزله لا تسامى ولا تسام، ومكانته لا ترامى ولا ترام"، إضافة إلى توعد السلطان بمعاقبة مَنْ يُقدم على الإساءة إليه أو الحطّ من قدره، وإلزامه القائمين على خدمته بالتأدّب معه والإحسان إليه، وقول الكاتب: "وكلّ مَنْ يدخل في حكم هذه الدّولة الغالبة.. في الممالك المصريّة، والنّوبية، والسّاحليّة والكركيّة..."، يدلّ على مباهاة الممالك وافتخارهم باتّساع دولتهم، عن طريق ضمّ كثير من الممالك إليها.

وعند كتابة التقليد، لا بدّ من قراءته على مسامع الشّهود، ومن ثمّ إرسال نسخته إلى الممالك التابعة للدّولة، وإلزام حكامها ورعاياها بالالتزام به: "وليتلّ هذا التقليد على رؤوس⁽³⁾ الأشهاد، وتنسخ نسخته حتى تتناقلها الأمصار والبلاد، فهو حجّتنا

¹ يلقب الوزير بالدولة المملوكية بالصاحب، ويأتي هذا اللقب في التقاليد بعد لقب "المجلس العالي" أو "الجناب العالي"، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 78، 80/11.

² المصدر نفسه، 274-273/11.

³ "رؤوس" في الأصل، وما أثبت هو الصحيح.

على مَنْ سَمَّيناهُ خصوصاً، وَمَنْ يدخل في ذلك بطريق العموم، فليعملوا فيه بالنصِّ والقياس والاستتباط والمفهوم⁽¹⁾.

ويختتم التقليد عادةً بالدعاء للمقلِّد: "والله يزيد المجلس، الصحابي، الوزير، البهائي، سيّد الوزراء من فضله، ويبقيه لغاب هذه الدّولة يصونه لشبله كما صانه لأسده من قبله، ويُمَتّع بنيته الصّالحة التي يحسن بها -إن شاء الله- نماء الفرع كما حسن نماء أصله، بمنّه وكرمه"⁽²⁾.

ومع أنّ معظم التقاليد لا تخلو من الوصايا إلا أنّ مكانة المقلِّد في هذا التقليد وخبرته دفعتا الكاتب إلى عدم ذكرها.

وقد كان أمر القضاء في بدايات عهد الدّولة المملوكيّة منوطاً بقاض واحد، يمثّل المذهب الشافعيّ، إلا أنّ السلطان الظاهر بيبرس، عمّد في سنة (665 هـ) إلى توزيع سلطة القضاء على قضاة يمثّلون المذاهب السنيّة الأربعة: الشافعيّ، المالكيّ، الحنفيّ، والحنبليّ⁽³⁾، وأمر الكتاب وقتها بإنشاء تقاليد توليتهم، فخصّ محيي الدين ابن عبد الظاهر بإنشاء تقليد قاضي قضاة الشافعيّة، تاج الدين بن بنت الأعز، وقد استهلّه بالخطبة التالية:

"الحمد لله مجرّد سيف الحقّ على مَنْ اعتدى، وموسّع مجاله لمن راح إليه واغتنى، وموضّح طريقه لمن اقتاد واقتدى، ومزيّن سمائه بنجوم تستمدّ الأنوار من شمس الهدى، الذي أعذب لشرعة الشريعة المحمديّة ينبوعاً، وأقامها أصلاً مدّاً بثمار الرشد منه فروعاً، نحمده على نعمه التي ألزمتنا لتشييد مبانيها شروعا، ونشهد أنّ لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، شهادةً نعمر بها القلوب والأفواه ربوعاً، ونصليّ على سيّدنا محمد الذي أرسله الله إلى الخلائق جميعاً، وقام بعبء الأمر يصنع حسناً ويحسن صنيعاً، صلى الله عليه وعلى آله صلاة لا يبرح برقها ملموعاً، ولا ينفك وترها بالتسليم مشفوعاً"⁽⁴⁾.

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 274/11.

² المصدر نفسه، 274/11.

³ وليّ تاج الدين بن بنت الأعز قضاة الشافعية، وشهاب الدين أبو حفص عمر بن عبد الله بن صالح السبكي قضاة المالكية، والقاضي بدر الدين بن سلمان قضاة الحنفيّة، والقاضي شمس الدين محمد ابن الشيخ عماد الدين إبراهيم القيسي قضاة الحنابلة، المصدر نفسه، 36-35/4.

⁴ المصدر نفسه، 176/11.

والخطبة السابقة تتضمن شيئاً يدلُّ على موضوعها الرئيس، ويتّضح ذلك من خلال تصوير الكاتب للقضاة الأربعة بالنجوم اللامعة، التي تستمدُّ نورها من الشريعة الإسلامية، التي نعتها بشمس الهدى، إضافة إلى تصويره إيّاها بالأصل الذي تفرّعت عنه المذاهب السنية المذكورة سابقاً.

ويعدُّ هذا التقليدُ تجديدًا لتولية ابن بنت الأعز، إذ كان وحده المتحكّم بسلطة القضاء في بدايات سلطنة الظاهر بيبرس⁽¹⁾، ومع أنّ السلطان عمد إلى تعيين قضاة ثلاثة يشاركونه سلطته، إلا أنّ مكانته ظلّت مرموقة لديه، وظلّ مذهبهُ -وهو المذهب الشافعي- مرتفعاً على المذاهب كلّها، ولا غرو في ذلك، فهو رجل تقّي، واسع العلم، عادل، حيّ، لا يخشى في إظهار الحقّ لومة لائم: "وبعد، فإنّ أحقّ مَنْ جُدّد له شرف التّقريض، وخُدّد له إرضاء الأحكام وإمضاء التّفويض، وریش جناحه وإن لم يكن المهيب، وفسّح مجاله وإن كان الطويل العريض، ورفع قدره على الأقدار، وتقسّمت من سحائبه الأنواءُ ومن أشعته الأنوار، من غزّر مدّه فجرت منه في رياض الحقّ الأنهار، وغدا تخشع لتقواه القلوب، وتُصت لقوله الأسماع، وترنو لمحياه الأبصار، وقد أوفد من إرشاده للأمة أطفا فلففا، وأوقد من علمه جذوة لا تخبو وقبسا بالهوى لا يُطفئ، وفات النظراء والنظار فلا يُرسل أحدٌ معه طرفاً ولا يمدّ إليه من حياته طرفاً، واحتوى من علوم الشريعة على ما تفرّق في غيره، وغدا خير دليل إلى الحقّ، فلا يُقتدى في المشكلات إلا برأي اجتهاده، ولا يُهتدى في المذاهب إلا بسيره، وكان لفلک الشريعة المحمدية قطبا، ولجئمانها قلبا، ولِسوارها قلبا، ولدليلها برهاناً، ولإنسانها عيناً، ولعينها إنساناً، فكم أَرْضَى بني الأنعام عن الأيّام، وكم أغضى حياءً مع قدرته على الانتقام، وكم أمضى لله حكماً لا انفصال لعروته ولا انفصام، وكم قضى بالجور في ماله وبالعدل في الأيّام، فلو استعداه الليل على النهار لأنصفه من تعدّيه، ولم يداجه لما ستره عليه من تعدّيه في دياجيهِ، فهو الصّادع بما أمر الله به ولو على نفسه، والمستردّ الحقوق الذّاهبة من غير محاباة، حتّى لغده من يومه وليومه من أمسه"⁽²⁾.

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 35/4.

² المصدر نفسه، 177-176/11.

وبعد ذكر صفات المقلد السابقة، التي ساهمت في إقدام السلطان على تجديد توليته، يعمد الكاتب إلى إصدار أمر السلطان بصيغته الرسمية، مازجا إيّاه بعبارات المدح والثناء للمقلد: "ولمّا كان قاضي القضاة، تاج الدين عبد الوهاب ممّن هو في أحسن هذه السمّات قد تصوّر، وكادت نجوم السماء بأنواره تتكثّر، وتجوهر بالعلوم فأصبح حقيقةً هو التاج المُجوهر، وله مزايا السّودد التي لا يُشكّ فيها ولا يرتاب، وسجايا الفضل التي إذا دخل إليه غيره من باب واحد، دخل هو من عدّة أبواب، وهو شجرة الأحكام، ومصعد كلم الحكّام، ومطلع أنجم شرائع الإسلام، ومهبط وحي المقدّمات والارتسام، ومجتمع رفاق القضايا في الحلال والحرام، خرج الأمر الشريف بتجديد هذا التقليد الشريف له بقضاء القضاة بالديار المصريّة"⁽¹⁾.

ويختتم الكاتب تقليده ببعض الوصايا، إلا أنّه لا يسهب في ذكرها؛ وذلك لأنّ أخلاق المقلد وصفاته تغني عن طرحها، وتتركز الوصايا التي أوردّها على المداومة على إظهار الحقّ، وتحقيق العدل، ومواصلة خدمة النّاس عن طريق اجتهاده لاستخراج الأحكام الشرعيّة فيما يستجدّ من قضايا: "فليستصحب من الحقّ ما هو مليّ باستصحابه، وليستمرّ على إقامة منار الحقّ الذي هو موثّق عُراه ومؤكّد أسبابه، وليحتلب من أخلاف الإنصاف ما حفّله اجتهاده ليد احتلابه، عالماً بأنّ كلّ إضاءة إنارتها من قبسه، وإن استضاء بها في دياجي المنى، وكلّ ثمرة من مغترسة، وإن مدّ إليها يد الاجتناء"⁽²⁾، وكلّ جدول هو من بحرّه وإن بسط إليه راحة الاغتراف، وكلّ منهج هو من جادّته وإن ثنى إلى سلوكه عنان الانصراف لا الانحراف، وهو -بحمد الله- المجتهد المصيب، والمادّة للعناصر وإن كان نصيبه منها أوفر نصيب، وسجاياه يتعلّم منها، كيف يوصّى ويعلم ومزاياه تقوّم الأود كيف يقوّم، والله الموفّق بمنة وكرمه"⁽³⁾.

وتتضمّن الخطبة التي استفتح بها الكاتب تقليد السلطان قلاوون إمرة العربان في بلاد الشام لفخر الدين عثمان سنة (679 هـ) حمد الله على تمكينه السلاطين من قهر الخارجين عليهم، وإخضاعهم لسيطرتهم، ولعلّه يقصد بذلك محاولتهم إخماد

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 177/11.

² "الاجتناء" في الأصل.

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 177/11.

ثورات العربان -التي مرَّ الحديث عنها سابقاً- وبالتالي دخول بعض أفرادها في طاعتهم، أمّا بقيّة العبارات فيصوغها الكاتب على نمط الخطب السابقة، فيذكر الشّهادتين، ويُصَلّي على النّبي وآل بيته وصحابته الكرام، يقول: "الحمد لله الذي خصَّ مَنْ والى هذه الدّولة بالتّقمة والفخر، ورمى مَنْ عاداها بالمذلّة والقهر، ومدَّ في عمر أيّامها حتى يستنفذ الدّهر، وحتى توصف أيّامها - وإن قصّرت بالمسار- بأنَّ كلَّ شهر يمرُّ منها كالعام، واليوم كالشّهر، ونحمّده على ما منحها به من تأييد وظفر ونصر، ونشر دعوة مَنْ ظافرها بعد الطّي، وطوى دعوة مَنْ عاندها بعد النّشر، ونشهدُ أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، شهادة إن دخلت شواهدا تحت الإحصاء فلا تدخل فوائدها تحت الحصر، وأنَّ محمّدا عبده ورسوله، الذي جعل به الهداية في المبدأ والشفاعة في المعاد يوم الحشر، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تسعد بعد الشّقاء، وتجبر بعد الكسر"⁽¹⁾.

والمتمعّن في الخطبة السابقة والسّطور التي ستليها، يلاحظ اتّسام نبذة الخطاب بالفوقيّة؛ وذلك لأنّها تتضمّن فخرا عارما بالسلطان الذي تمكّن من قهر أعدائه داخل بلاده وخارجها، وسيطرته على كثير من الممالك والحصون وغيرها، وفرض هيمنته على حكامها وساكنيها، وبالتالي تكليفه عدداً من الأمراء بتدبير شؤونها، ونظراً للصّقات التي يتّسم بها المقصود في هذا التقليد، استحقَّ إيكال أمر العربان في بلاد الشّام إليه، فهو أهل لتولي زمام أمرهم، وتدبير شؤونهم، وحفظهم.

وعند إصدار أمر السلطان بصيغته الرّسميّة، يُحدّد الكاتب المنطقة الخاضعة لإمرة المقلّد، ويذكر القبائل الدّاخلية في طاعته، وبما أنّ طابع العربان التّقلّ وعدم الاستقرار في مكان محدّد، يتيح لهم السلطان النزول في أيّ مكان يقع اختيارهم عليه، ضمن المنطقة المحدّدة: "وبعد: فإنَّ الله سبحانه وتعالى لمّا مكن لنا في الأرض، وجعل بيدنا البسط والقبض، وأرانا كيف نصنعُ الجميل ونُجمل الصّنع، وكيف نجبر قلب مَنْ جعل في أيّامنا جبره بعد الصّدع، وكيف تصبح أنجم ذوي الأقدار في سماء مملكتنا نيرة المطالع، وكيف يلقي الخير في عراضها من رامة إذا

¹ حمادة، الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983م، ص 231.

كانَ على الخير في غير أَيْامنا مانع، وكيف نُحلّ التَّقدِّمة في مَنْ إذا رفل في حُلَّها قيل هذا هو أحقَّ بها ممَّن كان، وهذا الذي ما برحت التَّقدِّمة في بيته في صدر الزَّمان، وهذا الذي إذا ذكر آل فضل وآل علي، كانت له مرتبة الشَّرف، ولا غرو أن تكون مرتبة الشَّرف لعثمان، رأينا أن لا يمتطي صهوة العزِّ إلا أهلها، ولا ينسخ الآية لمن تقدَّم في التَّقدِّمة إلا خير منها أو مثُلها، ولا يتسلَّم رايتها إلا من تعقد عليه الخناصر، ولا يتسنَّم ذروتها إلا مَنْ هو أحقَّ بها وأهلها في الأوَّل والآخر، ولمَّا كان المجلس السَّامي، الأمير فخرالدين عثمان ابن الأمير مانع بن هبة، هو المراد بهذا القول الحَسَن، والروح لجسد هذه المِدح التي تسرَّ السرَّ والعلن، والحقيق من الإحسان بكلِّ ما، والجدير بأن، والخصيص من سوائف الخدم بما، والمفضل على سائر النظراء ولو قيسَ بمن، اقتضى حسن الرَّأي الشَّريف، أن خرج الأمر العالي - لا زال ذو القدر في أَيْامه يرتفع، وذو الفضل في دولته لا يعزُّ عليه مطلب عزٍّ ولا يمتنع، وذو الأصالة يجتمع له فيها من النِّعماء ما لا يلتئم له في غيرها ولا يجتمع - أن يفوض له التَّقدِّمة على العربان بالشَّام المحروس، وهم مَنْ يأتي ذكره على ما يستقرُّ عليه الحال في ترتيبهم، وأن يكون منازلهم اللازم له حفظها بُعداً وقرباً، وحضراً وبدواً، عامراً وغامراً، رائحاً وغادياً، من الرِّستن إلى الملوحة، والعرب آل فضل وآل علي حيث شأؤوا نزلوا بمنزلة المذكور، أو بمنزلة الأمير شمس الدين محمَّد بن أبي بكر والخدمة واحدة، والكلمة على اتِّفاق المصالح متعاضدة⁽¹⁾.

ويحدِّد التَّقْلِيدُ سياسةَ المقلِّد، عن طريق طرح التوجيهات والوصايا عليه من قبل المقلِّد، فيحظُّه على التزام تقوى الله في أعماله جميعها، ويحثُّه على جمع العربان على طاعته، وينبِّهه إلى ضرورة الحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم الموروثة عن الآباء والأجداد، ويلزمه بحفظ ديارهم، وتأمينهم في حلِّهم وترحالهم إلى غير ذلك من الوصايا، يقول: "فليكن للتَّقوى جسد روحها، لا بل روح جسدها، ولجموع القبائل أوجد عددها إذ أصبح الأوَّل من عددها، وقُطِبَ فلُكها الذي على تدبيره مدارها وعلى تقريره اقتصادها واقتصادها، وعلى تقديمته تعويلها، وإلى نسبة إمارته جمليتها وتفصيلها، وليجمعهم على الطَّاعة فإنَّ الطَّاعة ملاك الأمر للأمر، رأس

¹ حمادة، الوثائق السياسيَّة والإداريَّة للعصر المملوكي، ص 232.

الخير للبادي والحاضر، وليعلم أنَّ لكلٍّ منهم بيتاً يُعرف، أو عَلمِيَّة أصالة بها يُعرَف، ومنزلة يرثها الولد عن الوالد، ومشِيخة ترجع من ذلك البيت إلى ذلك الواحد، فليحفظ لهم الأنساب، وليرعَ لهم الأسباب، وإذا أمروا بأمر من مهامِّ الدولة، يتلو عليهم: ادخلوا الباب، واللازم له ولهم مخايض تُحفظ ومفاوز تُلحظ، ومطارح لا تُلغظ، ومشاتي ومصايف، ومقانص ومصارف، ومرابع ومراقع، ودنوّ واقتراب، وتوطّن واغتراب، وإغارة ونهيض، وبرق ووميض، فليرتّب ذلك أجمل ترتيب، وليسلك فيه خير مهذب وتهذيب، وليردع الصّادي، ويلاحظ الرّائح والغادي، وليؤمّن ذلك تأمينا تطرب أنبائه المحدر والحادي، وعليهم عداد مقرّر، وقانون محرّر، فليكن على يد شادّه شادّاً، ولسبب تأييدهم مادّاً، ويعلم أنّه وإن كان قد أغمض عن حقوقه فيما مضى، وأعرض عنه في الزّمن الأوّل من انقضى، وقدّم عليه من كان دونه، وقد ردّ الله له إيكار الأمر وعونه، فلا يجعل لقائل عليه طريقاً، ولا يدخل في أمرٍ يقال عنه فيه كان غيره به حقيقاً، بل يفوق من تقدّم في الخدمة والهمة والصّرامة والعزّة، والله تعالى يوزعه شكر النّعمة⁽¹⁾.

2.2.2 المراسيم

مفردها مرسوم، وقد أخذ من قولهم: "رسمتُ له كذا فارتسمه، إذا امتثلته، أو من قولهم: رُسم عليّ كذا، إذا كُتب، ويُحتمل أن يكون منهما جميعها"⁽²⁾. وهي تشبه التّقاليد إلى حدٍّ كبير، إلا أنّ بعض العلماء فرّقوا بينها، فهذا القلقشنديّ مثلاً- يرى أنّ الفرق يتلخّص بأربعة وجوه، أولها: اقتصار الكاتب عند كتابة طرّة المراسيم على لقب "الأميريّ" دون "الكبرييّ"، بخلاف التّقاليد التي يقال فيها: "الأميريّ الكبرييّ"، ولا يخفى ما لهذا من دلالة على ارتفاع قدر أصحاب التّقاليد، أمّا ثانيها: فيتمثّل بقول الكاتب عند إصدار أمر السلطان في المراسيم: "أن يستقرّ"، بينما يقول في التّقاليد: "أن يقلّد"، أو "أن يفوّض"، وثالثها: إنّ لا يقول فيها:

¹ حمادة، الوثائق السياسيّة والإداريّة للعصر المملوكي، ص 232-233.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 107/11

"على أجمل العوائد وأتم القواعد"، بل يقول: "على عادة من تقدّمة وقاعدته"، ورابعها: إنه يقول في صدرها: "وبعد"، ولا يقول: "أمّا بعد"⁽³⁾.

ولعلّ ما ذكره القلقشندي لا ينطبق على التقاليد أو المراسيم جميعها؛ وذلك لأنّ الكتاب -آنذاك- عمدوا إلى التجديد في أساليبهم، فلم يلتزموا قواعد محدّدة في كتاباتهم، ودليل ذلك التقاليد السابقة، التي لم يورد فيها كاتبها لقب "الأميري" أو "الكبيري"، إضافة إلى ابتدائه إيّاها مرّةً بلفظة "بعد" ومرّةً أخرى بلفظة "أمّا بعد"، وفوق ذلك لم يذكر العبارة التي يفترض ورودها في التقاليد، وهي: "على أجمل العوائد وأتم القواعد".

وتنقسم المراسيم -عادةً- إلى قسمين: مراسيم مكبّرة تختصّ بنوَاب القلاع في الممالك التابعة للدولة، وبعض أمراء العربان، وشادّي مراكز البريد، ومراسيم مصغّرة، تختصّ بأرباب السيوف بالولايات الصّغيرة، مثل نظر الأوقاف ونحوه⁽¹⁾. وتكتب المراسيم المكبّرة لنوَاب القلاع من مقدّمي الألفوف والطبلخانات، ولنوَاب القلاع من أمراء العشرات، وتفتتح خطب مراسيم الأخيرين بـ "أمّا بعد حمد الله"⁽²⁾، ومنها مرسوم أصدره الملك المنصور قلاوون بتقليد الأمير علم الدين سنجر نيابة السلطنة ببلاطنس سنة (678 هـ) من إنشاء محيي الدين بن عبد الظاهر، وافتتحه بخطبة مقتضبة، تتضمّن شكر الله وحمده على نعمه، والصلاة على النبي وآل بيته وصحابته الكرام، يقول: "أمّا بعد حمد الله على نعم توالى رّفدها، ووجب شكرها وحمدها، وعذب لذوي الآمال وردها، والصلاة على سيّدنا محمد الذي رفع الله به لقريش مجدها، وعلا جدّها، وعلى آله وصحبه صلاة لا يحصى عدّها، ولا يحصر حدّها"⁽³⁾.

ويورد بعد ذلك بعض صفات الشخص المقصود في هذا المرسوم دون الإفصاح عن اسمه، فيشير إلى طاعته لأوامر السلطان وولائه له، ويبدو أنّ الكاتب لم يذكر تلك الصفات إلا بعد ملاحظتها؛ إذ يتّضح من حديثه أنّ السلطان أوكل إليه

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 108/11.

¹ المصدر نفسه، 108/11-111.

² المصدر نفسه، 110/11.

³ حمادة، الوثائق السياسيّة والإداريّة للعصر المملوكي، ص 233.

القيام ببعض الخدم سابقاً، فأحسن فيها، وبناءً على ذلك استحق أن يكون نائباً له في قلعة بلاطنس.

ويتطلب إصدار أمر السلطان بصيغته الرسمية ذكر اسم المكلف فيه، والإشارة إلى أنه المقصود في الصفات السابقة: "فإنه لما كان فلان ممن تقادم خدمه، وتعالى به إلى العلياء تسامي هممه، وترفع به حسن ولائه، حتى أعلت الدولة من شأنه، ورفعت من علمه، واستكفته على مصون الحصون، وجادت عليه بصوب إحسان روى الأمانى، فأضحت نضرة للغصون، واستأنمه في أخلف الظن، وقلدته فحسن في جيده ما قلد من من، وكانت مملكة أبلاتنس المحروسة، المملكة التي شمخت بأنفها على الممالك علواً، وسمت علواً، وسامت الجوزاء سمواً، لا يستحفظ عليها وفيها إلا من يوفي الأغراض في المحافظة ويوفيهما، وكان مجلس الأمير علم الدين هو عين هذه الأوصاف، والوارد من حسن الطاعة المورد الصاف، قد ربى في الخدمة مربى أربى بقدره، وأحلّه من محفل التبجيل بصدرة، اقتضى حسن الرأى الشريف، أن خرج الأمر العالى بأن تفوض إليه النيابة الشريفة بهذه القلعة المحروسة، وأن تكون بأوانس صفاته الجميلة مأنوسة، فلذلك فوضت إليه النيابة بها على عادة من تقدمه في النيابة، وحسن الطاعة والإنابة، وبذل الخدمة، وصرف الهمة إلى كل مصلحة تجنيه ثمرات النعمة"⁽¹⁾.

والمراسيم كالتقاليد، تطرح فيها وصايا عديدة، الهدف منها تحديد سياسة صاحبها في المنصب الموكل إليه، أو هي بمعنى آخر، أوامر السلطان التي تطرح ويجب التزامها.

ويركز الكاتب في وصاياه على ضرورة إظهار صاحب المرسوم كفاءته للمنصب الموكل إليه، وإحسان معاملة الرعايا، والعدل بينهم، والعفو عنهم قدر الاستطاعة، ويوصيه بحفظ القلعة وما تحويه من رجال وذخيرة وأموال وغير ذلك، وينبّه إلى ضرورة الالتزام بالشريعة الإسلامية، والعمل بأحكامها: "فليكن فيما استحفظ كفواً، وليورد الرعية من حسن السيرة صفواً، وإذا تعارض حكما الانتقام والعفو وكانت الذنب دون الحد فليقدم عفواً، وعليه بالعدل فإنه زمام الفضل، ومادة

¹ حمادة، الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، ص 233-234.

للمدة المحكمة، وجادة للتوفيق في نتيجة كل خير ومقدمة، والقلعة ورجالها، وذخائرها وأموالها، وعمّالها وأعمالها، وجندها وأبطالها، فليمنع النظر في ذلك بكرة وأصيلاً، وإجمالاً وتفصيلاً، وتحصيناً وتحصيلاً، وتقريباً للخيرات وتوصيلاً، وعليه بالتمسك بأذيال الشريعة المطهرة، وأحكامها المحررة تمسكاً يطيب ثناؤه، وينعم بالعرف إناءه، ويوفر من الحسنات والإحسان عناؤه، والقلعة فهي الوديعة عند أمانته، والدرّة المستحفظ عليها حسن صيانتها، فعليه بحفظها نهاراً وليلاً، ورجلاً وخيلاً، وأنواباً ونواباً، وفتحا وغلقاً، ومنايح وطرقاً، وحفظةً وحرساً، ومقيلاً ومعرساً، وخرجا ودخلاً، وخراجاً ومغلاً، وإنفاقاً وصرفاً، وردعاً وكفاً، وقهراً لمن سلك طريق الفساد، ومقابلة لمن أظهر العناد بما يسوس الأمر، ويقيم حدّ الزجر، ويؤمن المناهج، ويجدد المباحج، والوصايا كثيرة، فليكن ممّا ذكر من ذلك على بصيرة. أعانه الله على ما ولّاه، ورعاه فيما استرعاه، والخطّ الكريم أعلاه، حجةً بمضمونه ومقتضاه⁽¹⁾.

3.2.2 التوقيّع:

مفردتها توقيع، ويقصد بها لغة "الإصابة وخفة الأثر"⁽²⁾، وقد كان يُطلق قديماً على خطّ الخليفة، أو الوزير، أو كاتب السرّ المُدرج في آخر الرسائل المرفوعة إليهم في أمرٍ ما، فيكون ذلك الخطّ علامة على العمل بمقتضى تلك الرسائل⁽³⁾، ومع تقدّم الزّمن أصبح التوقيع نوعاً من الرسائل التي تصدر عن ديوان الإنشاء، وتتضمّن تعيين أحد الأفراد في أحد مناصب الدولة الإداريّة، ومع أنّه كُتب "لعمّة أرباب الوظائف: جليلها وحقيرها، كبيرها وصغيرها، حتى النواب اللاحقين بشأو

1 حمادة، الوثائق السياسيّة والإداريّة للعصر المملوكي، ص 234.

2 ابن منظور، لسان العرب، مادة "وَقَعَ".

3 انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 114/11، والدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنيّة في العصر العباسي حتّى نهاية القرن الثالث الهجري، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، 1999م، ص 69.

الكبار فمن دونهم⁽¹⁾ إلا أنه أصبح -لاحقاً- يخصُّ أرباب الوظائف الدينيّة والديوانيّة⁽²⁾.

ويذكرُ العمريُّ بعضَ مُستلزمات كتابة التوقييع في المقدّمة والخاتمة، قائلاً: "قد يُقال فيها: أن يُفوّض، وقد يُقال: أن يُرتّب وأن يُقرّ، وعنوانها (توقيع شريف فلان بكذا)، وقد تُستفتح.. بالحمد لله.. وقد تُستفتح بقول: أمّا بعد حمد الله، وقد تُستفتح بقول: أمّا بعد فإنّ، وقد تُستفتح بقول: إنّ أولى ما كان كذا، أو ما هذا معناه، وقد تُستفتح بقول: من حسّنت طرائفه وحُمِدت خلائفه، أو ما هذا معناه، وقد تُستفتح بقول: رُسِمَ بالأمر الشريف، بالألقاب السلطانيّة الكاملة والحمد لله أكبرها، ورُسِمَ بالأمر الشريف أصغرها.. ومن استصغِرَ من المولّين لا يُدعى له في آخر توقيعه، ولا يُقال في أواخر التوقييع على اختلافها: (وسبيل كلّ واقف عليه)، بل يُقال: (فليعتمد ما رُسِمَ به فيه بعد الخطّ الشريف أعلاه)⁽³⁾، وقد تنتهي بغير ذلك كما سيرد لاحقاً.

ومنها نسخة توقيع بتدريس المدرسة الصّلاحية المجاورة لتربة الإمام الشّافعيّ، كُتِبَ بها لقاضي القضاة تقيّ الدين ابن قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعزّ، من إنشاء ابن عبد الظاهر، وقد بدأها بقوله: "الحمْدُ لله شافي عيّ البحث بخير إمام شافعيّ، والآتي منه في الزّمن الأخير بمن لو كان في الصّدر الأوّل لأثنى على ورعه ودينه كلّ صحابيٍّ وتابعيٍّ، ومفيد الأسماع من وجيز قوله المُحرّر ما لولا السّبق لما عدلَ إلى شرح وجيز سواه الرّافعيّ"⁽⁴⁾.

فالكاتب يحمّد الله ويشكره على نِعَمه التي منّ بها على عباده، إذ بعث لهم إماماً ورِعاً دِيناً عالِماً، كرّس نفسه لخدمتهم، عن طريق اجتهاده لاستخراج الأحكام الشرعيّة في القضايا التي لم تُبيّن أحكامها، ولا يخلو حديثه من مدح ذلك الإمام والثّناء عليه، وهو يشير بذلك إلى الإمام محمّد بن إدريس الشّافعيّ.

¹ العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص 112.

² انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 114/11.

³ العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص 116.

⁴ القلقشندي، صبح الأعشى، 231/11.

وَيَتَابِعُ حَمْدَهُ اللَّهُ، إِذْ إِنَّهُ أَلْهَمَ السُّلْطَانَ اخْتِيَارَ الرَّجُلِ الْمُنَاسِبِ فِي الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى مَوْضُوعِ الرِّسَالَةِ الرَّئِيسِ، وَذَلِكَ أَنَّ السُّلْطَانَ لَمْ يَعْمَدْ إِلَى تَعْيِينِ تَقِيٍّ الدِّينِ مَدْرَسًا فِي الْمَدْرَسَةِ الصَّلَاحِيَّةِ، إِلَّا بَعْدَ تَحَقُّقِهِ مِنْ أَهْلِيَّتِهِ لَذَلِكَ الْمَنْصِبِ: "تَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِ أَلْهَمَتْ وَضَعَ الْأَشْيَاءَ فِي مَحَلِّهَا، وَاسْتِدَاعَهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَتَأْتِيهَا بِمَا يُزِيلُ الْإِشْكَالَ بَانْجَذَابٍ مِنْ شَكْلِهِ مُنَاسِبٌ لِشَكْلِهَا"⁽¹⁾.

وَيَسْتَكْمِلُ خُطْبَتَهُ عَلَى نَمَطِ الْخُطْبِ السَّابِقَةِ قَائِلًا: "وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةٌ يَتَزَيَّنُ بِهَا الْمَقَالُ، وَيَتَبَيَّنُ بِهَا الْحَقُّ مِنَ الضَّلَالِ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ وَنَبِيَّهُ، مُوضِّحُ الطَّرِيقِ إِلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَنَاهِجُهَا إِلَى حَيْثُ مَجْتَمَعَ الْهُدَى وَمُرْتَبَعُ الدِّينِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً تَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الَّذِينَ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ مِنْهُمْ مَنْ جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ فَقَوِيَ سَبَبُ الدِّينِ الْمُتَيْنِ"⁽²⁾، وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَكَانَ إِمَامَ الْمُتَّقِينَ وَسُمِّيَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ"⁽³⁾ وَمِنْهُمْ مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَثَبَّتَ جَأَشَ الْمُسْلِمِينَ"⁽⁴⁾، وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْطَاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرِّايَةَ فَأَخَذَهَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ"⁽⁵⁾، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ بَقِيَّةِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ"⁽⁶⁾.

وَيَعْمَدُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَدْحِ الشَّافِعِيِّ وَمَذْهَبِهِ، فَيُشِيرُ إِلَى سَعَةِ عِلْمِهِ، وَكَثْرَةِ مَوْلَّاتِهِ، وَيُشِيرُ فِي الْوَقْتِ ذَاتَهُ إِلَى وَفُودِ الْأَفْرَادِ مِنْ شَتَّى الْأَمَاكِنِ إِلَى وَطَنِهِ؛ لِأَجْلِ الْإِسْتِقَاءِ مِنْ عِلْمِهِ فِي أَثْنَاءِ حَيَاتِهِ، وَزِيَارَةِ قَبْرِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ: "وَبَعْدَ، فَلَمَّا كَانَ مَذْهَبُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ "مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسٍ" -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- هُوَ شَهَادَةُ الْمُتَلَفِّظِ، وَكِفَايَةُ الْمُتَحَفِّظِ، وَبُهْجَةُ الْمُتَلَحِّظِ، وَطِرَازُ مَلْبَسِ الْهُدَى، وَمِيدَانُ الْاجْتِهَادِ الَّذِي لَا تَقِفُ أَعْنَةُ جِيَادِهِ عَنْ إِدْرَاكِ الْمَدَى، وَقَدْ تَجَمَّلَتْ دِيَارُ مِصْرَ مِنْ بَرَكَةِ صَاحِبِهِ بِمَنْ تُشَدُّ إِلَيْهِ الرِّحَالُ، وَتَفْخَرُ جَبَانَةً هُوَ فِيهَا حَالٌ، وَجَيِّدٌ هُوَ بِجَوَاهِرِ عُلُومِهِ حَالٌ، وَمَنْ يَحْسُنْ إِلَى

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 231/11.

² يشير إلى الخليفة الراشدي أبي بكر الصديق .

³ يشير إلى الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب.

⁴ يشير إلى الخليفة عثمان بن عفان.

⁵ يشير إلى الخليفة علي بن أبي طالب.

⁶ القلقشندي، صبح الأعشى، 232-231/11.

ضريحه المُنيف الاستناد، وإذا قُرئت كتبه لديه قيل: ما أبعدَ هذا المرمى الأسنى! وما أقربَ هذا الإسناد!"(1).

وكي تطمئنَّ قلوب طلبة العلم، يلجأ الكاتب إلى ذكر صفات المولى وخصاله الحسنة، التي تتمثل بسعة علمه، وحسن سيرته، وبلاغة خطبه، وحسن صياغته لها، وغذوبة ألفاظه، وتقواه، إلى غير ذلك من الصفات: "وما أسعدَ حلقةً تجمع بين يدي جدّه، يتصدّر فيها أجلّ حبر، ويتصدّى لنشر العلوم بها من عُرف بحسن السيرة عند السّبر، ومن لولا خرق العوائد لأجاب بالشكر والثناء عليه صاحب ذلك القبر، كلّما قال: "قال صاحب هذا القبر"، حسنُ بهذه المناسبة أن لا ينتصب في هذا المنصب إلا من يَحمد هذا السيّد جواره، ومن يرضيه منه رضي الله عنه - حسن العبارة، ومن يستحق أن يتصدّر بين نجوم العلماء بدارة تلك الخطة فيقال: قد جمّل الله به دارة هذا البدر، وعمرّ به من هذا المدرّس داره، الذي يفتقر إلى تنوّل نعمه، وتنويه قلمه من الأئمة كلّ غنيّ، ويعجب ببلاغة خطبه، وصياغة كتبه من يجتلي ومن يجتني، ومن يهنا المستفيدون من غذوبة ألفاظه وصفاء معانيه بالموارد الهني، ومن إذا سخّ سحابه الهطال، اعترف له بالهموم والهمول المزنيّ، والذي لسعد جدّه من أبيه ليث أكرم به من ليث، وأكرم ببنيه من أشبال، وأعزّز به من فاتح أبواب إشكالات عجزَ عن فتحها القفال، ومن إذا قال، ومن إذا قام قعد كلّ ذي شماس، وإذا أخذ بالنصّ ذهب الاقتياس، وإذا قاس قيل: هذا بحرُ المذهب المشار إليه بالأصابع في مصره جلاله ولا ينكر لبحر المصر الإشارة بالأصابع ولا القياس، ومن يزهو بتقى قلبه ورقّيّ جوابه لسان التعويل ولسان التعويد، كما يميمس بإحاطته قلم الفتوى وقلم التنفيذ"(2).

ويبيّن ارتفاعه بين العلماء، إذ يعترفون بأنهم تلاميذ بين يديه، نظراً لسعة علمه، ويشير إلى بعض المناصب التي تولاها كالوزارة، والخطابة، والمشیخة، والتدريس، والقضاء، ويمزج ذلك كلّه بعبارات المدح والثناء له: "ومن يفخر به كلّ عالم مفيد، إذا قال: أنا بين يديه طالبٌ وأنا له تلميذ، ومن حيثُما التفت وجدت له سوّداً جمّاً، وكيفما نظرت رأيت له من هنا حكماً، فهو الأصل ومن سواه فروع،

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 232/11.

² المصدر نفسه، 233-232/11.

وهم الأئمة وهو الينبوع، وهو مجموع السيادة، المختار منه الإفادة، فما أحسنه من اختيار، وما أتمّه من مجموع⁽¹⁾.

ويذكر اسم المولى بعد ذلك، ويشير إلى أنه المقصود فيما سبق من صفات، ويبدو أنّ السلطان لم يولّ تقيّ الدين ذلك المنصب إلا بعد الأخذ بآراء بعض الأفراد، الذين أجمعوا على أهليّته لتسلّمه، واستحقاقه له: "وكان قاضي القضاة، سيّد العلماء، رئيس الأصحاب، مقتدى الفرق، قدوة الطوائف، الصّاحب تقيّ الدين "عبد الرحمن" ولد الصّاحب قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز -أدام الله شرفه، ورحم سلفه- هو منتهى رغبة الرّاغب، ومُستهى مُنية الطّالب، ومَن إذا أضاعت ليالي النّفوس بأقمار فتاويه، قيل: "بباض العطايا في سواد المطالب" ومَن تتفق الآراء على أنّه لسنّ الكهولة شيخ المذاهب، ومَن عليه يحسن الاتّفاق، وبه يجمل الوفاق، وإذا ولّي هذا المنصب، ابتهج بولايته إيّاه مالك في المدينة، وأبو حنيفة وأحمد رضي الله عنهم- في العراق، واهتزّت به وبمجاورة فوائده من ضريح إمامه جوانب ذلك القبر طرباً، وقالت الأمّ: لقد أبهجت رحم الله سلفك- بجذك وإيائك جَدّاً وأباً، ولقد استحقّيت أن يقول لك منصبُ سلفك رضي الله عنهم: أهلاً وسهلاً ومرحباً، وهذه نسمات صبا، كانت الإفادة هنالك تعرّفها منك من الصّبا"⁽²⁾.

ويعمد إلى مدح المولى، وبيان صحّة اختيار السلطان له، فهو الشّخص الوحيد المناسب لتولّي ذلك المنصب، وحمل أعبائه، ويبين في الوقت نفسه نوع الرّسالة المتناولة، فيُصرّح بأنّها تتدرج تحت باب التّواقيع: "الحمد لله على أن أعطى قوسَ ذلك المحراب باريها، وخصّ بشقّ سهامها من لا يزال سعدة مُباريها، وجملّ مطلع تلك السّماء ببدر، كم باتت عليه الدُّرر تحسد دراريها، وألهم حسن الاختيار أن يجري القلم بما يحسن بالتّوقيع الشّريف موقعه، ويجمل في أثناء الطّروس وضعه وموضيعه"⁽³⁾.

ويُصدر أمر السلطان بصيغته الرّسميّة، ويحدّد موقع المدرسة المقصودة بدقّة، ولا يخلو ذلك من الدّعاء للسلطان، الذي يعمد -دائماً- إلى اختيار الأشخاص

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 233/11.

² المصدر نفسه، 233/11.

³ المصدر نفسه، 233/11.

المناسبين لتولّي مناصب الدّولة المختلفة: "فرُسّم بالأمر الشّريف العالي، المولويّ، السّلطانيّ -أجراه الله بالصّواب، وكشفَ بارتياحه كلّ ارتياب، ولازال يختارُ وينتقي للمناصب الدينيّة كلّ عالم بأحكام السنّة والكتاب- أن يفوّض إليه تدريس المدرسة الصّلاحيّة النّاصريّة، المجاورة لضريح الإمام الشّافعيّ بالقرافة رضي الله عنه"⁽¹⁾.

ولا تخلو رسالة التّوقيع من الوصايا، التي يرسم بها السّلطان خطّ سير المولّي في منصبه، فيفسح له المجال لتعيين مَنْ يشاء في تلك المدرسة، على أن يكون مناسباً للعمل فيها، ويوصيه بإلقاء الدّروس المفيدة على طلبته، والتّتويج فيها؛ ذلك أنّهم يأتون إليه من شتّى البقاع، فإذا ما عادوا إلى أوطانهم، رَوّوا ما أخذوه عن شيخهم، فتعمُّ بذلك فائدة دروسه النّاس كافّة، أمّا في حال حدوث خلاف بين العلماء في بعض المسائل الدينيّة، فعليه إقامة الصّحيح منها وتدعيمه، وإبطال البِدع وإلغائها، ويدعوه -أيضاً- إلى التّعصّب لمذهبه، عن طريق الالتزام بأراء إمامه: "فليخوّل ولينوّل كلّ ذي استفادة، وليُجملّ منه بذلك العقد الثّمين من علماء الدين بأفخم واسطة، تفخر بها تلك القِلادة، وليذكر من الدّروس ما يُبهج الأسماع، ويرضي الانتجاع، ويُجاد به الانتفاع، ويحتلبه من أخلاف الفوائد ارتضاء الارتضاع، ويتناقل الرّواة فوائده إلى علماء كلّ أفق من البقاع، وليقلّ فإنّ الأسماع لفوائده مُنصّته، والأصوات لمباحثه خاشعة، والقلوب لمهابته مُخبّته، ولينهض قويّ المسائل بما يحصل لها أعظم انتعاش، وليُمت ما أماته إمامه من البِدع، فيقال به له: هذا محمّد ابن إدريس مذ قمت أنت عاش، وليسمع بعلومه مَنْ به من الجَهل صَمم، وليستنطق مَنْ به من الفَهاهة بكم، وليُحقّق عند النّاس بتعصّبه لهذا الإمام أنّه قد قام بالتّتويه به الآن الحاكم ابن الحاكم أخو الحاكم، كما قام به فيما سلف بنو عبد الحكم"⁽²⁾.

ويكتفي الكاتب بطرح الوصايا السّابقة؛ ذلك لأنّ خصال المولّي، وصفاته، تدفعانه إلى عدم الاستمرار في طرحها، والسّؤال الذي يُطرح هنا: بما أنّ السّلطان يعتمد إلى اختيار الأشخاص المناسبين، الذين يمتازون بصفات نادرة، فلمَ يلجأ الكاتب إلى طرح الوصايا عليهم؟ ولعلّ الإجابة هي: التزام الكتاب عامّة -في ذلك الوقت-

¹ الفلّتشندي، صبح الأعشى، 234/11.

² المصدر نفسه، 234/11.

بالشروط الأساسية لكتابة الرسائل الديوانية، التي تقتضي البدء بالخطبة، ومن ثمّ الدّخول في الموضوع الرئيس، مع إصدار أمر السلطان، وطرح الوصايا على المولى، والاختتام بالدّعاء في بعض الأحيان، إذًا، فالكاتب يلجأ إلى ذلك من باب الالتزام والتقليد في آن واحد: "وأما غير ذلك من الوصايا، فهو -بحمد الله- صاحب إلهامها، وجالب أقسامها، وجُهينة أخبارها، ومطلع أنوارها، فلا يُعاد عليه ما منه يُستفاد، ولا يُنشر عليه درٌّ هو منظّمه في الأجياد"⁽¹⁾.

ويختتم رسالته بالدّعاء قائلا: "والله تعالى يعمرّ بسيادته معالم الدين وأكنافه، ويُزيّن بفضله المتين أوساط كلّ مصر وأطرافه، ويُضيف إليه من المستفيدين مَنْ بإرفاقه وإشفاقه يكون عيشه خفصا بتلك الإضافة، ويجعله لا يُخصّص خنوّه بمعهدٍ دون معهد، ولا بمسافةٍ دون مسافة، ويبقيه ومنفعته إلى سارية سارية الإطافة واللّطافة، وألطافه بهذه الولاية تقول لكلّ طالب في القرافة: الق رافه"⁽²⁾.

ومنها -أيضاً- نسخة توقيع برئاسة اليهود، يبدوها محيي الدين بن عبد الظاهر بقوله: "أما بعد حمد الله، الذي جعل أطاف هذه الدّولة القاهرة تصطفي لذمتها من اليهود رئيساً فرئيساً، وتختار لقومها كما اختار من قومه موسى، وتُبهِج لهم نفوساً كلّما قدّمت عليهم نفيساً، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد النبيّ الأميّ، والرّسول الذي أجمل الوصيّة بالمليّ والذميّ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما هطل وبليّ وما نزل وسمي"⁽³⁾.

ولا يخفى فخر الكاتب بدولته، التي قهرت أعداءها، وأرضختهم لحكم سلاطينها، والإشارة هنا إلى اليهود، الذين كانوا -فيما سلف- يبادرون إلى الإساءة للمسلمين، كلّما سنحت لهم الفرصة، وإخراب ديارهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وبما أنّهم رضخوا لحكم السّلاطين، فلا بدّ من تولية رئيس عليهم؛ ليسوس أمورهم جميعها.

ويشير الكاتب إلى اهتمام السّلاطين بأفراد دولته جميعاً، مع اختلاف أجناسهم وأديانهم، والإنصاف بينهم، وإيواء الوافدين إليها منهم، والمساواة بينهم وبين

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 234/11.

² المصدر نفسه، 234/11.

³ المصدر نفسه، 386-385/11.

المسلمين من حيث المعاملة، والسّماح لهم بممارسة طقوسهم الدينيّة، وفقاً للعهد الذي بينهم، ويذكر بعد ذلك صفات المولّى، إذ يمتاز بدينه، ونباهته، وحسن تفسيره، وهو معدوم النّظير كما يقول؛ لذلك استحقّ أن يولّى رئاسة اليهود، فيكون رأس كهنتهم: "فإنّ معدلة هذه الدّولة تكتنف الملل والنّحل بالاحتياط، وتعمّم من إنصافها وإسعافها بأوفر الأنصباء وأوفى الأقساط، وتلمّم من حادث الزّمن إذا اشتطّ، ومن صرفه إذا شاط، وتضمّمهم كما ضمتّ النبوة إلى جناح النبوة الأسباط، لا تزال ترقب الإلّ والذّمة في المسلمين وأهل الذّمة، وتقضي لهم بحسن الخيرة ورعاية الحرّمة، وتبيحهم من أمر دينهم ما عليه غُهودوا، وتمنحهم من ذلك ما عليه عوقبوا، وتحفظ نواميسهم بأحبار تُحمد موادّهم إذا شُفّوها، وتحسن مرآهم إذا شُوهّدوا: من كلّ اسرائيليّ أجمل للتّوراة الدّراسة، وأحسن لأسفار أنبيائه اقتباسه، وأجمل التماسه، ومن نبّهته نباهته للتّقدمة، فما طعم اجتهداه يوما حتى صار وجه الوجاهة في قومه، ورأس الرّئاسة، فأصبح معدوم النّظير، معدودا منهم بكثير، وموصوفا بأنّه في شرح أسفار عبرانيّة حسن التّفسير، واستحقّ من بين شيعته أن يكون رأس الكهنة، وأن تصبح القلوب في مجامعهم بحسن منطقة مُرتهنة، وبأنّ للجهالة بتثقيفه لشيعته تحجّب عقائدهم عن أن تغدو ممتنه"⁽¹⁾.

وينوّه إلى أنّ المولّى هو المقصود بالصّفات السّابقة، لذلك استحقّ أن يكون رئيسا على قومه، ويمزج الكاتب ذلك بعبارات المدح والثّناء، ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذا التّوقيع كُتب سنة (684هـ)، ومنه نسختان، نسخة كتبها القاضي ابن المكرم كاتب الدّرج الشّريف، وذكر فيها اسم المولّى، وهو الشّيخ المهذب أبو الحسن ابن الموفق بن النّجم بن المهذب أبي الحسن بن سمويل المتطبّب⁽²⁾، والنّسخة الأخرى كتبها محيي الدين بن عبد الظاهر، ولم يذكر اسمه فيها، بل استعاض عنه بلفظة (فلان): "ولمّا كان فلان هو لمحاسن هذا التّقريض بهجة، ولجسد هذا التّفويض مُهجة، ولمّادح هذا الثّناء العريض لهجة، ولعين هذا التّعيين غمضا، وليد هذه الأيادي بسطها وقبضها، ولأبكار أفكار هذه الأوصاف متقاضيا ومقتضّها، ومن

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 386/11.

² انظر: ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 218.

أُدنيت قِطاف النِّعماء ليد تقدّمته على غيظ من غُصّ منها واجتنتى غَضّها، اقتضى حسنُ الرّأي الشّريف أن يُميّز على أبناء جنسه حقّ التّمييز، وأن يُجاز له من التّنويه والتّتويل أجلّ ما جيز⁽¹⁾.

ويُصدر أمرَ السّلطان قائلاً: "ورُسم بالأمر الشّريف -لازال يختار فيُجمل الاختيار، ويغدو كالغيث الذي يعمُّ الرُّبّا والوهاد، والأثمار والأشجار- أن تفوِّض إليه رئاسة اليهود على اختلافهم: من الرّبّانيين، والقرّائين، والسّامرة بالديار المصريّة، حماها الله وكلاهما"⁽²⁾.

ويُلاحظ أنّ الكاتب يشير في النصّ السابق إلى طوائف اليهود الثلاث: طائفة الرّبّانيين، وهي أكبر الطّوائف على الإطلاق، ولا يُعيّن الرّئيس إلا منها، وطائفة القرّائين، وطائفة السّامرة⁽³⁾.

ويوصيه بتقوى الله، وحُسن تدبير أمور منصبه، والإحسان لرعاياه، وجمع قلوبهم على طاعته، ويحذّره من التّكبر عليهم، ويوصيه -أيضاً- بالطّوائف الثلاث، مع ذكر صفات كلّ منها، ويطلب إليه إحسان اختيار عمّاله، وجمع الجزية من رعاياه، ويبدو من حديث الكاتب، أنّ الهدف الأوّل لمعاهدة اليهود، ما هو إلا الحصول على الجزية، وهي مبلغٌ من المال يدفعونه لهم مقابل الحفاظ على أنفسهم ومتعلّقاتهم، وأجرة لسكنهم في ديار المسلمين كما يقول ابن عبد الظاهر، ويوصيه كذلك بمعاينة العاصيين منهم، والغاشين أيضاً، إلى غير ذلك من الوصايا: "فليجعل أسبابهم بالتّقوى تقوى، وغروسهم بالتّدبير لا تذوى، ومقاصدهم لا يمازجها شكٌ ولا شكوى، وليُنزل عليهم مِنّا مِنّا يسليهم صنعا؛ حتى لا يفارقوا المنّ والسّلوى، وليتّق الله فيما يذره ويأتيه، ويحسن في اجتلاب القلوب واختلابها تأتيه، وإياه والتّيّه، حتى لا يُقال: كأنّه بعد لم يخرج من التّيّه، وجماعة الرّبّانيين، فهم الشّعب الأكبر، والحزب الأكثر، فعاملهم بالرفق الأجدى والسّرّ الأجدر، ولكونك منهم لا تملّ معهم على غيرهم، فيما به من النّفس الأمّارة تؤمر، وجماعة القرّائين، فهم المعروفون في هذه المِلّة بملازمة الأدلّة، والاحتراز في أمر الأهلة، فانصب لأمرهم من لم يتولّه

¹ القلقسندى، صبح الأعشى، 386/11.

² المصدر نفسه، 386/11-387.

³ المصدر نفسه، 385/11.

حين يتولّه، ومَنْ كان منهم له معتقّد فلا يخرج عن ذلك ولا يُخرج، ولا يلجم منهم بلجام من نار إنكار من في ليلة سبته بيته عليه لا يُسرج، والسّامرة فهم الشّعب الذين أذن التّنظيف أهله بحروبه، ولم يك أحدهم لمطعم لكم ولا مشرب بأكوله ولا شروبه، فمن قدّرت على ردّه دليل من مذهبك في شروق كلّ بحثٍ وغروبه، فارده من منهج تحيّد عن ذلك وهروبه، وإلاّ فقل له: ياسامريّ بصرت بما لم تبصروا به، ولتكن تستكمل فيهم بالبتّ، وارفق بهم فإنّ "المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى"، فإيّاك أن تكون ذلك المنبتّ، ومُرهم بملازمة قوانينهم كيلا يعدّوا أحد منهم في السّبّ، واجعل أمور عقودهم مستتبّة، وأحسن التّحرّي والتّحرير لهم في إتقان كلّ كتبه، ولا تختار إلاّ الأعيان، من كلّ خزان وديان، ومَنْ كان له من داود -عليه السّلام- لحمة نسب، وله به حرمة نسب، فارغ له حقّه، واصحبه من الرّق أكرم رفقة. والجزية فهي لدمائكم وأولادكم عصمة، وعلى دفعها وصمة، ولأجلها ورد: "مَنْ آذَى ذمّيّاً كنتُ خصمه"⁽¹⁾، وهي ألم من السيّف إجاره، وهي أجرة سُكنى دار الإسلام كما هي لاستحقاق المنفعة بها إجاره، فأدّوها، وبها نفوسكم فادّوها، ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾⁽²⁾، فعّدوا ألطاف الله بها ولا تعدّوها، وداوم على مَه زجراً لتارك علامة، ومن قصد منها خلاصة، فقل له في الملام: ماذا خلاصه، ومن ركن في أمرها إلى الإخلاد والإخلال، وسكن إلى الإهمال، ولم يرض بأن راية الذلّة الصّقراء على رأسه تُشال فأوسعته إنكاراً، وألزمة منها شعاراً، وإن قام بنصره منهم معشرٌ خشن، فأرهم بعد العلامة خشكاراً، وخذهم بتجنّب الغشّ الذي هو للعهد مغيرٌ ومغيّب، واكف مَنْ هو بما ينافيه معيرٌ ومعيبٌ، وأمّا مَنْ هو مجيب لذلك فهو لقصده محبّب، وانقل طباعهم عن ذلك، وإن أبت عن التّناقل فأنت ما تتلو: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾⁽³⁾ وقد علم أنّ الذي تتعاطونه من نفخ في البوق، إنّما هو كما قلتم للتذكّار، فاجتهدوا أن لا يكون لتذكّار العجل الحنيذ الذي له خوار، هذه وصايانا لك ولهم⁽⁴⁾.

¹ انظر: العجلوني، إسماعيل بن محمد (ت 1162هـ)، كشف الخفاء، حقّه أحمد القلاش، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ، 342/2.

² سورة النحل، آية 18.

³ سورة المائدة، آية 100.

⁴ القلقشندي، صبح الأعشى، 387-388.

ويشيرُ أخيراً إلى أنَّ توليتهَ ما هي إلا إحسانٌ من الدولة له ولبني جنسه، لذلك فعليهم معاملة الإحسان بالإحسان: "فقل لهم: هذه موهبة الدولة وإحسانها إليكم، ولطفها بكم وعاطفتها عليكم، وبصرهم بذلك كلما تلا إحساننا إليهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾⁽¹⁾»⁽²⁾.

3.2 الرسائلُ الحربيَّةُ

هي ضربٌ من ضروب الرسائل السياسيَّة، التي تصدر عن ديوان الإنشاء، وتُكتب عند تحقيق بعض الانتصارات والفتوحات، ويتناول الكتاب فيها -عادةً- الحديث عن رحلات الجيش في أثناء سيرهم لتحقيق الغاية المنشودة، من انتصار أو فتح، أو زفَّ البشرى وتقديم التهاني للمعنيَّين، إضافة إلى تنظيم شؤون المعقل المفتوحة بعد الاستيلاء عليها.

1.3.2 وصفُ رحلاتِ الجيش

عزم سلاطين المماليك منذ استيلائهم على السلطنة في الديار المصريَّة على تحرير البلاد الإسلاميَّة من سيطرة الأعداء الغاصبين وظلمهم، فعمدوا إلى شنِّ الحملات العسكرية المختلفة لكبح جماحهم، فقاتلوا الفرنج والتتار وغيرهم، وقد جرت العادة -آنذاك- أن يرافق بعض كتّاب الإنشاء الجيش المقاتل في مسيره، فلجأ أولئك إلى وصف المسير منذ لحظة الانطلاق إلى حين العودة، فتضمَّنت كتاباتهم تصويراً للموكب السلطانيِّ وهيئة الجيش عند الخروج، وذكراً لبعض الصعوبات التي اعترضتهم، إضافة إلى وصفٍ لمعالم الطريق والحالة الجويَّة السائدة حينذاك، ولا تخلو كذلك من التركيز على الحالة النفسيَّة لأفراد الجيش، إلى جانب الحديث عن المواجهة بين الفريقين المتقاتلين، ووصفٍ لبعض مظاهر المعقل المفتوحة، وذكرٍ لبعض الإجراءات التي اتُّخذت فيها، وتصوير الفرحة العارمة التي ملأت نفوس المنتصرين، ومن ثمَّ الاتجاه إلى وصف رحلة العودة إلى الديار.

¹ سورة البقرة، آية 47.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 388/11.

ومن أبرز رسائل وصف رحلات الجيش وأطولها، رسالة أنشأها محيي الدين ابن عبد الظاهر، للصاحب بهاء الدين بن حنا، وزير الظاهر بيبرس، بسبب فتح السلطان المذكور لقيسارية من بلاد الروم، واقتلاعها من أيدي التتار، واستيلائه على ملكها، وجلسه على تخت بني سلجوق، ثم العود منها إلى الديار المصرية. وقد كان الوزير في بدايات عهد المماليك أقرب رجال الدولة إلى السلطان، إلا أن ظهور منصب كاتب السر فيما بعد، زعزع مكانته، ولاغرو في ذلك؛ فهو المستأمن على سر السلطان وسر دولته.

والدليل على ارتفاع منزلة الوزير في ذلك الوقت يتمثل بأسلوب مخاطبة الكاتب له في مستهل رسالته، إذ يتعمد إظهار التبعية والرضوخ له، فهو أحد مماليكه المطيعين، الذين يقبلون الأرض بساحات أبوابه، يقول: "يقبل الأرض بساحات الأبواب الشريفة السيديّة، صاحبيّة البهائيّة -لا زالت ركائب السير تحت إلى أرجائها السير، وصروف الزمن تسالم خدامها وتحلّ الغير بالغير، ولا برحت موطن البر، ومعدن الجود، وبحر الكرم، وعكاظ الخير- ويُنهي بعد رفع أذعيتة التي لا تزال من الإجابة محوطة، ولا تبرح يداها بها مبسوطة، أن العبيد من شأنهم إتحاف مواليتهم بما يشاهدونه في سفراتهم من عجائب، وإطلاعهم على ما يرونه في غزواتهم من غرائب؛ ليقضوا بذلك حقوق الاسترقاق، وتكون نعم ساداتهم قد أحسنت لأفواههم الاستنطاق، ويتعرضوا لما عساه يعنّ من مراحمهم التي ما عندهم غيرها ينفد وما عندها باق" (1).

وما يلاحظ في هذه الرسالة خلوها من الخطبة أولاً، ولجوء الكاتب إلى ذكر ألقاب المرسل إليه في بدايتها ثانياً، حتى إذا ما أنهى ذلك عمد إلى الدعاء له والثناء عليه، مع الإشارة إلى فحوى الرسالة المتمثل بإتحاف الوزير بوصف رحلة الجيش في أثناء مسيره لفتح قيسارية، من بدايتها إلى نهايتها.

ويبدو من حديث الكاتب أنه يحصل شيئاً من نعم الوزير لقاء إرساله هذه الرسالة وشببها، وهذا يتضح من قوله: "وتكون نعم ساداتهم قد أحسنت لأفواههم الاستنطاق".

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 139/14.

ويكرّر مرة أخرى نعت نفسه بالمملوك، الذي انضمّ إلى مجموعة خدم الوزير وعبيده، ولا يكتفي بذلك فحسب، بل يصل الحدّ به إلى تأليه الوزير، وتشريف الله له (أي الكاتب) بعبوديته، ولا تخلو عباراته من المدح والثناء، ويُصرّح في الوقت نفسه بمراده من كتابة الرسالة، الذي يتطلّب منه التوسّع فيها وإطالتها، ولاغرابه في ذلك؛ إذ إنّهُ أحدُ أفراد الجيش الفاتح، فقد كان الكتاب آنذاك -كما ذكر سابقاً- يرافقون السلاطين في حملاتهم، يُسَطّرون أحداثها ويزفّون بشرى نصرهم إلى حكام الممالك الأخرى، فهم شهود عيان، لا يُكَلّفون بالقتال -عادةً- بل يكتفون بالمراقبة: "ولمّا كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد، وأصبح كم له قصيد في مدح هذا البيت الشريف كلّ بيتٍ منها بقصيد بيت القصيد، وأنّ في مآثره الرسائل التي قد شاعت وضاعت نفحاتها في الوجود، وكم رسالة غيرها في غيره ضاعت، رأى أن يُتحف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة بلُحّ يختار منها من يؤلّف، ويُسند إليها من يُورّخ أو يُصنّف، وإنّما قصد أن يُتحف بها أبواب مولانا مع بسط القول واتّساع كلماته؛ لأنّ الله قد شرف المملوك بعبودية مولانا: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾⁽¹⁾، فإن كان المملوك قد طوّل في المطارحة، فمولانا يتطوّل في المسامحة، وإن قال أحد: هذا هذى، فما زال شرح الوقائع مطوّلاً كذا، وتالله ما ورّخ مثلها في التواريخ الأول، ولعمري إنّ خيراً من سيرة ذلك البطال سيرة هذا البطل، والأمر أعلى في قراءتها واستماعها، والتمثّل في جعلها حتى يُسفر حسن نقابها، وترفع مسدول قناعها...⁽²⁾»⁽³⁾، ولا يخفى فخر الكاتب بنفسه في هذه السطور.

ويصوّر حركة الجيش في أثناء سيره -قبل البدء بتفاصيل الأحداث- إذ تمتاز بالسرعة، حتى إنّ أفرادَه لا يتوقّفون في المدن التي يمرّون بها إلا لأجل التزوّد، ويصف في الوقت ذاته حالة الجو آنذاك، فيبدو من حديثه أنّ المسير كان في فصل الشتاء، حيث الرياح الشديدة، ولمعان البرق، وهطول المطر، ويعمد إلى استحضار عدد من أشعار المتنبي؛ وذلك لأنّ الأماكن التي مرّ بها السلطان بصحبة جيشه، كانت مسرحاً لحروب سيف الدولة الحمداني ضد البيزنطيين سابقاً، تلك الحروب

¹ سورة الأنعام، آية 124.

² بياض في الأصل.

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 140/14.

التي أثارت حفيظة المتنبي، ودفعته إلى الاقتصار على مدح ذلك القائد في معظم أشعاره⁽¹⁾: "قد أحاطت العلوم الشريفة بالعزّات الشريفة السلطانية، وإنها استصحبّت ذلك، حتى تصفّحت المهالك، وسرنا لا يستقرّ بنا في شيءٍ منها قرار، ولا يُقَدِّح من غير سنابك الخيل نار، ولا نمرٌ على مدينة إلا مُرور الرياح على الخمائل في الأصائل والأبكار، ولا نُقيم إلا بمقدار ما يتزايد الزائر من الأهبة، أو يتزوّد الطائر من النّغبة، نسبق وفد الرياح من حيث ننتحي، وتكاد مواطئُ خيلنا بما تسحبه من أذيال الصّوافن تمتحي، تحمل همنا الخيل العتاق، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللّحاق، وكلُّ يقول لسلطاننا نصره الله:

أَيْنَ أَرَمَعْتَ أَيُّهَذَا الْهُمَامُ؟ نَحْنُ نَبَتْ الرُّبَا وَأَنْتَ الْغَمَامُ!⁽²⁾
ومرّاً لا يفعلُ السيفُ أفعاله، ولا يسير في مهمةٍ إلا عمّه، ولا جبلٍ إلا طاله،
تسايره السّواري والغواذي، ولا ينفكّ الغيث من انسكاب في كلّ نادٍ ووادي:
فَبَاشَرَ وَجْهًا طَالَمَا بَاشَرَ الْقَنَا وَبَلَّ ثِيَابًا طَالَمَا بَلَّهَا الدَّمُ!⁽³⁾⁽⁴⁾.

وبعد الإمعان في النصّ السابق، يُمكن تفسير قول الكاتب في النصّ الذي سبقه:
"ولعمري إنّ خيراً من سيرة ذلك البطّال سيرة هذا البطّال"، فلعلّ المراد بالبطّال سيف الدولة الحمداني، فالكاتب يفضّل سلطانه عليه، دليل ذلك قوله: "ومرّاً لا يفعل السيف أفعاله".

وكانت مدينة حلب مكان تجمّع الجيش الفاتح قبل انطلاقه، وقد أمرهم السلطان هناك بادّراع أسلحتهم المختلفة، ومن ثمّ الانطلاق، ويحدّد الكاتب وقت انطلاقهم باليوم والشهر، ويشير إلى معالم الطبيعة التي مرّوا بها، حيث الجبال الوعرة، والأودية: "وكان مولانا السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بادّراع لامات حربهم، وحمل آلات طعنهم وضربهم:

¹ انظر: حمادة، الوثائق السياسيّة والإداريّة، ص 66.
² البيت للمتنبيّ وهو من قصيدة قالها يمدح بها سيف الدولة الحمداني، وقد عزم على الرحيل عن أنطاكية وهو مطلع القصيدة، وقد جاءت فيه كلمت "الربا" مكتوبة على هذا النحو: "الربى"، المتنبيّ، ديوان أبي الطيّب المتنبيّ، ص 249.
³ هذا البيت للمتنبيّ أيضاً من قصيدة قالها عندما قصد سيف الدولة الحمداني ميفارقين في خمسة آلاف من الجند والقيّن من غلمانه ليزور قبر والدته سنة (338 هـ)، المصدر نفسه، ص 292.
⁴ القلقشندي، صبح الأعشى، 140/14-141.

فجازَ لَهُ حتَّى عَلَى الشَّمْسِ حُكْمُهُ وبَانَ لَهُ حتَّى عَلَى البَدْرِ مَيْسَمُ
يَمْدُ يَدَيْهِ فِي المَفَاضَةِ ضَايَغَمٌ وعَيْنِيهِ مِنْ تَحْتِ التَّرِيكَةِ أَرْقَمُ⁽¹⁾
ورحلوا من حلب في يوم الخميس ثاني ذي القعدة جرائد على الأمر المعهود،
قد خفضوا كل شيء حتى البنود والعمود، فسرنا في جبال نشتهي فيها سلوك
الأرض، وأودية تهلك الأشواط فيها إذا ملئت الفروج من الركض، نزور دياراً ما
نحبُّ مغناها، ولا نعرف أقصاها من أديانها، واستقبلنا الدرب، فكان كما قال المتنبي:
رَمَى الدَّرْبَ بالخَيْلِ⁽²⁾ العِتَاقُ⁽³⁾ إِلَى العِدَا⁽⁴⁾ وَمَا عَلِمُوا أَنَّ السَّهَامَ خِيُولُ
شَوَائِلَ تَشْوَالِ العُقَارِبِ بالقَنَا لَهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِ وَصَهِيلُ
وما هي إِلَّا خَطَرَةٌ عَرَضَتْ لَهَا بَحْرَانِ لَبَّتَهَا قَنَاءٌ وَنُصُولُ
هُمَامٌ إِذَا مَا هَمٌّ أَمْضَى هُمُومَهُ بَارِعَنْ وَطْءُ المَوْتِ فِيهِ تَقِيلُ
وخيلَ بَرَاها الرِّكْضُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ إِذَا عَرَّسَتْ فِيهَا فَلَيْسَ تَقِيلُ
فَلَمَّا تَجَلَّى مِنْ دَلُوكَ وَصَنْجَةٌ عَلَتْ كُلُّ طَوْدٍ رَايَةً وَرَعِيلُ
على طُرُقٍ فِيهَا عَلَى الطُّرُقِ رِفْعَةٌ وَفِي ذِكْرِهَا عِنْدَ الْأُنَيْسِ خُمُولُ⁽⁵⁾«⁽⁶⁾.
ويبدأ بعد ذلك بتعداد المدن التي مرّوا بها، واصفا طبيعتها، ومشيرا في الوقت
ذاته إلى الصعوبات التي واجهتهم فيها؛ نظراً لاختلاف طبيعة الأرض والمناخ بينها،
ويبدأ -أولاً- بمدينة دلوک، التي تمتاز بخضرتها، وببروجها الشامخة، وبكنائسها
المزيّنة، ويُتبعها بمرج الديباج، تلك المدينة التي قضوا فيها أصعب لياليهم؛ بسبب
برودة طقسها وظلمة ليلها، حتى إنهم استحقروا ليلة الملسوع بالنسبة إليها: "ومررنا
على مدينة دلوک، وهي رسومُ سكّانها، ضاحكةٌ عن تبسم أزهارها، وقهقهةٌ غدرانها،
ذات بروج مشيّدة، وأركان موطّدة، ونيران تزاويق موقّدة، في عمد من كنائسها
ممدّدة، وسرنا منها إلى مرج الديباج نتعادي، وذلك في ليلة ذات أنديّة، وإن لم تكن
من جمادى، ظلماتها مدلهمة، وطرقاتها قد أصبح أمرها علينا غمة، لا يثبت تربها

¹ البيتان للمتنبي من القصيدة السابقة، المتنبي، ديوان أبي الطيّب المتنبي، ص 290، 294.

² "بالجرد" في الديوان، ص 348.

³ "الجياد" في الديوان، ص 348.

⁴ "العدى" في الديوان، ص 348.

⁵ هذه الأبيات للمتنبي من قصيدة قالها مادحاً سيف الدولة الحمداني، المصدر نفسه، ص 348-349.

⁶ القلقشندي، صبح الأعشى، 142-141/14.

تحت قدم المارّ، وكأنّما سالِكُها يمشي على جرف هار، فبتنا هناك ليلة نستحقر بالنسبة إلى شدّتها ليلة الملسوع، وتتمنى العينُ بها هجعةً هُجوع⁽¹⁾.

ويبدو أنّ الجيش دخل -بعد خروجه من مرج الديباج- غابة تمتاز بكثافة الأشجار، وتشابكها، حتى إذا ما مرَّ أحد أفرادها بينها، انبرت أغصانها منطلقة كالسهم إلى من يليه، ويواصل الكاتب حديثه عن الصعوبات التي واجهتهم، مشيراً إلى وعورة الطريق التي سلكوها، حيث تنثر الحجارة، والجبال المغطاة بالثلوج التي أخفت معالمها، والمحاطة في الوقت ذاته بالجداول، إضافة إلى الأودية: "وأخذنا في اختراق غابات أشجار، تُخفي الرفيق عن رفيقه، وتُشغله عن اقتفاء طريقه، ينبري منها كلّ غصن يُرسله المتقدّم إلى وجه رفيقه، كما يخرج السهم بقوة من منجنيقه، حولها معائر أحجار كأنّها قبور بُعْثرت، أو جبال تفتّرت، بينها مخائض، لا بل مغائض، كأنّها بحار فُجّرت، وما خرجنا منها إلا إلى جبال قد تمنطقت بالجداول، وتعمّمت بالثلوج، وعميت مسالكها، فلا أحد إلا وهو قائل: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾⁽²⁾، أو إلى سبيلٍ من خروج، تضيقُ مناهجُها بمشي الواحد، وتلتفُّ شُجيراتُها التفافَ الأكمام على الساعد، ذات أوعارٍ زلقة، وصدور شرقة، وأودية بالمزدحمين مُختنقة، بينما يقول مُنتحياً: قد نلتُ السماءَ بسلمٍ من هذه الشواهد، إذا هو متضائل قد هبط في مازق متضائق، ولم تزل هذه الجبال تأخذنا وترميننا، وتلك المسارب تضمّنا، وتلك المشارب تُظميننا:

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مَنْأَ بَيْضَ أَوْجِهِنَا وَلَا تَسْوَدُّ بَيْضَ الْعُذْرِ وَاللِّمَمِ
وَكَانَ حَالُهُمَا فِي الْحُكْمِ وَاحِدَةً لَوْ احْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكَمِ
وَنَتْرَكُ الْمَاءَ لَا يَنْفَكُ مِنْ سَفَرٍ مَا سَارَ فِي الْغَيْمِ مِنْهُ سَارَ فِي الْأَدَمِ⁽³⁾»⁽⁴⁾.
ويعمدُ الكاتب إلى إيراد بعض المعلومات التي تتعلّق ببعض المدن التي مرّوا بها، كالحدث الحمراء مثلاً، إذ يذكر اسمها الحديث، موضحاً معناه، وسبب تسميتها به، ويشير كذلك إلى سنة فتحها، واصفاً مظاهر الدمار التي عمّتها آنذاك، كما أنّه

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 142/14.

² سورة غافر، آية 11.

³ الأبيات للمنتبي، ديوان أبي الطيّب المتنبي، ص 511.

⁴ القلقشندي، صبح الأعشى، 142/14-143.

ينوّه إلى مشاهدتهم آثار سيف الدولة الحمداني فيها، ممّا استدعاه إلى إيراد شيء من أشعار المتنبي، التي قالها في تلك المدينة: "حتى وصلنا إلى الحدث الحمراء، المسمّاة الآن بكينوك، ومعناها المحرقة، كان الملك قسطنطين، والد صاحب سيس، قد أخذها من أصحاب الروم وأحرقها، وتملكها وعمّرها بقصد الضرر لبلاد الإسلام والتجار، فلمّا كان في سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة، سيّر مولانا السلطان إليها عسكر حلب، فافتحها بالسيف، وقتل من كان بها من الرجال، وسبى الحريم والذرية، وخرّبت من ذلك الحين، وما بقي بها من يكاد يُبين، فشاهدنا ما بنى سيف الدولة بن حمدان منها، والقنا تفرع القنا، وموج المنايا حولها متلاطم، وقيل حقيقة هناك: على قدر أهل العزم تأتي العزائم⁽¹⁾، وهي التي عناها أبو الطيب بقوله:

غَضَبَ الدَّهْرُ والملوكُ عليها فبناها في وجنة الدهر خالاً
فهِيَ تمشي مشي العروسِ اختيلاً وتثنّى على الزمانِ دلالاً⁽²⁾

فبتنا بها وابتئنا وخيلنا مبنوثة فوق الأحيدب، كما نُثرت الدراهم فوق العروس⁽³⁾، وجيادنا على الركوب في أعلى العين تدوس، إذا زلّقت مشّت كالأرقام على البطون، وإن تكاسلت جرّ بعضها بعضاً بالصهيل: "والحديث شجون"⁽⁴⁾، وخضنا في أثناء ذلك مخاض سوافح، كأنّها لأجل عوم الخيل بها سُمّي كلّ منها لأجل ذلك سابح، كلّما قلنا: هذا بحرٌ قد قطعناه، اعترض لنا جبل، وكلّما قلنا: هذا جبل طلّعناه، بان لنا وادٍ يُستهانُ دون الهويّ فيه نفاذُ الأجل⁽⁵⁾.

ويستشهد ببعض الحوادث التاريخية المتعلقة ببعض الأماكن، فعند اجتياز الجيش النهر الأزرق، يُبين بأنّه النهر ذاته الذي عجز الملك الكامل الأيوبيّ عن اجتيازه، سنة الدّربندات، عندما قصد التوجّه إلى الروم، ولا يخلو حديثه من وصف

¹ صدر بيت قاله المتنبي وعجزه: "وتأتي على قدر الكرام المكارم"، المتنبي، ديوان أبي الطيب المتنبي، ص 374.

² البيتان للمتنبي من قصيدة يمدح بها سيف الدولة، ويذكر نهوضه إلى ثغر الحدث، لمّا بلغه أنّ الروم أحاطت به، وذلك في سنة (344هـ)، المصدر نفسه، ص 406.

³ إشارة إلى قول المتنبي: نثرهم فوق الأحيدب نثره كما نُثرت فوق العروس الدراهم المصدر نفسه، ص 378.

⁴ مثل قاله شخص يدعى ضبّه، الميداني، أبو الفضل أحمد النيسابوري (ت 518هـ)، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (د.ط)، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، 197/1.

⁵ القلقشندي، صبح الأعشى، 143/14.

ذلك النهر، وكيفية خوض الجيش له: "ولم نزل كذلك حتى وصلنا كوكصوا، وهو النهر الأزرق، وهو الذي ردّ الملك الكامل منه سنة الدّربندات لما قصد التوجّه إلى الروم، وهذا النهر بين الجبال مهوى رجامها، ومثوى غمامها، وملوى زمامها، ومأوى قَتامها، فللوقت عبرناه ركضا، وأعجلت الخيل فما درت هل خاضت لُجّة أم قطعت أرضا، وبات الناس من برّ النهر الآخر، وأصبحوا متسلّين في تلك الشّم، ووقع السّنابك يُسمّع من تلك الجبال الصّم"⁽¹⁾.

ولا ينسى الكاتب وصف حال الخيل في تلك الرحلة، فيشير إلى تأقلمها مع الظروف التي واجهتها، إذ سهّل عليها اجتياز معالم الطريق المختلفة، كالجبال، والسهول، والوديان، وغيرها: "حتى وصلوا إلى أقجادر بند، فما ثبتت يد فرس لمصافحة صفاها، ولا نعل لمكافحة رحاها، ولا رجل لمطارحة قواها، وتمرّنت الخيل على الاقتحام والازدحام في التطرّق، وتعودت ما تعودته الأوعال من التسرّب والتسلّق، فصارت تتحطّ انحطاط الهيدب، وترتفع ارتفاع الكوكب، وتسري سريان الخيال، وتمكّن حوافرها الجياد فتزول منها الجبال"⁽²⁾.

ويحدّد وقت خروجهم من بعض المدن باليوم والشهر: "حتى حصل الخروج من منتهى أقجادر بند، وهو خناق ذلك المأزق الذي كم أمسك على طارق، وفم ذلك الدّرب الذي كم عضّت أنيابه على مُساوق ومسابق، وذلك في يوم الأربعاء ثامن ذي القعدة"⁽³⁾.

إلا أنّ الصّعوبات التي كانت تعترض السلطان وجيشه، لم تنتههم عن عزمهم في تحقيق هدفهم الرئيس، بل ضلّوا يتابعون مسيرهم، يبيتون في سهول تلك الأماكن، ويقاومون القرّ والمطر، إضافة إلى قيامهم ببعض المهمّات العسكريّة، كالانتشار، والاستيلاء على بعض الطرق، حتى إذا ما التقوا بجماعة من التتار، هبّوا إليهم وقاتلوهم إلى أن كسروهم: "وبات السلطان والناس في وطأة هناك، وسمحت السّحب بما شاعت من بردٍ وبرّد، وجادت الرّياح بما آلمت الجلد واستنفدت الجلد، وانتشرت العساكر في وطأة هناك، حتى ملأت المفاوز، ومَلكت الطرق على المارّ

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 144-143/14.

² المصدر نفسه، 144/14.

³ المصدر نفسه، 144/14.

وأخذتها على الجائز، وقدم مولانا السلطان الأمير شمس الدين سنقر الأشقر في الجاليش⁽¹⁾، في جماعة من العساكر، فوقع على ثلاثة آلاف فارس من التتار، مقدمهم كراي، فانهزموا من بين يديه، وأخذ منهم من قدم للسيف السلطاني، فأكل نهمة وأسار، واستمرت تلك سنة فيمن يؤخذ من التتار ويؤسر، وذلك في يوم الخميس تاسع ذي القعدة، وبات التتار على أجمل ترتيب لأنفسهم وأجمل منظر، وبات المسلمون على أتم تيقظ وأعظم حذر، ولم يتحققوا قدوم مولانا السلطان في جيوش الإسلام، ولا أنه حضر بنفسه النفيسة؛ ليقوم في نصره دين الله هذا المقام، فلما كان يوم الجمعة عاشر ذي القعدة، تتابع الخبر بأن القوم قد قربوا، وأنهم ثابوا ووثبوا: وقد تمنوا غداة الدرب في لجب أن ييصروه فلما أبصروه عموا⁽²⁾»⁽³⁾.

ويركز الكاتب على إبراز صورة السلطان في تلك المواجهة، فيبين كيفية تعامل القائد المسلم مع أفراد جيشه، إذ يبت الشجاعة في نفوسهم، ويدعوهم إلى الثبات أمام أعدائهم، والاجتماع على مواجهتهم، ويلقي على مسامعهم بعض آرائه وتعليماته، التي تفيدهم في قتالهم: "وشرع مولانا السلطان فوصى جنوده بالتثبت عند المصدة، والاجتماع عند المصادمة، ورتب جيش الإسلام اللجب على ما يجب، وأراهم من نور رأيه ما لا على بصر ولا بصيرة يحتجب"⁽⁴⁾.

وتفتح الرسالة المجال أمام الكاتب لاستعراض شيء من ثقافته الواسعة، فهو لا يتردد في كل مرة من إفادة قارئها ببعض المعلومات، سواء أكانت تاريخية، أم جغرافية، أم اجتماعية، أم ثقافية، إلى غير ذلك: "فطلعت العساكر مشرفة على صخرات هونى من بلد أبلستين، وكان العدو ليلته تلك بائنا على نهر زمان، وهو أصل نهر جهان، وهو نهر جحان المذكور في الحديث النبوي، وإنما الأرمن لا تنطق بالهاء"⁽⁵⁾، والجملة الأخيرة تدل على ما ذكر.

¹ الجاليش: راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر، البقل، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص 81.

² البيت للمتنبى، ديوان أبي الطيب المتنبى، وفيه بدلا من "ييصروه"، "ييصروك"، وبدلا من "أبصروه"، "أبصروك"، ص 420.

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 144/14.

⁴ المصدر نفسه، 145/14.

⁵ المصدر نفسه، 145/14.

ويبدأ -بعد ذلك- بوصف اللقاء بين الطرفين، قبل البدء بالحديث عن القتال، مع التركيز على ذكر بعض الأمور، كعدد أفراد كل طرف وأجناسهم: "فلَمَّا أَقْبَلَ الناس من علو الجبل، شاهدوا المَغل قد ترتّبوا أحدَ عشر طَلَباً، كلّ طلب يزيد على ألف فارس حقيقة، وعزلوا عسكر الروم عنهم، خيفةً منهم، وجعلوا عسكر الكُرج طَلَباً واحداً بمفرده، ولمّا شاهدوا سناجقَ مولانا السلطان المنصورة، ومَن حولها من المماليك الظاهريّة وعليهم الخود الصفرة المقترحة، وكأنها في شعاع الشمس نيران مقتدحة، رجعوا إلى ما كانوا عقدوا من العزائم فحلّوا، وسقط في أيديهم، ورأوا أنّهم قد ضلّوا، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾⁽¹⁾ وعلى الموت يتراسلون"⁽²⁾.

وعلى الرّغم من العداوة بين الطرفين، إلا أنّ الكاتب يبيّن -في أثناء حديثه عن بدء القتال- إعجابه بالجيش التّتري؛ نظراً لقوّة أفرادهِ وشجاعتهم وتآزرهم، ولا يخلو حديثه من ذكر أسماء بعض قادتهم: "فانصبّت الخيلُ إليهم من أعلى الجبل انصبابَ السيل، وبطلت الخيلة منهم ونفيَ الحيل، فشمّروا عن السواعد ووقفوا وقفة رجل واحد، وهؤلاء المغل كان طاغية التتار أبغا -أهلكه الله- قد اختارهم من كلّ ألف مائة ومن كلّ مائة عشرة، ومن كلّ عشرة واحداً لأجل هذا اليوم، وعرفهم بسيما الشجاعة وعرضهم لهذا السّوم، وكان فيهم من المقدّمين الكبار تدلون، ومعنى هذا الاسم النفاذ، يعني أنّه ما كان في عسكر قط إلا نفذه، والمقدّم الآخر نقوا واليه أمر بلاد الروم وعساكر المغل بها، وأرختوا أخو تدلون، وبهادر بخشى، ومِن مقدّمي الألو فدنرك، وصهر أبغا، وقرالق وخواصّه:

ببيضُ العوارض طعانونَ مَنْ لَحِقُوا	مِنَ الفوارسِ شلالونَ لِلنَّعَمِ ⁽³⁾ !
قَدْ بَلَّغُوا بَفَنَاهُمْ ⁽⁴⁾ فَوْقَ طاقته	وليسَ يَبْلُغُ صافِيهم مِنَ الهمم
ففي الجاهليّةِ إلا أنّ أنفُسَهُم	مِنَ طيبهنَّ بهِ في الأشهرِ الحُرُمِ ⁽⁵⁾ » ⁽⁶⁾ .

¹ سورة الصّافات، آية 27، سورة الطور، آية 25.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 145/14.

³ "للنّعم" في ديوان أبي الطيّب المتنبّي، ص 511.

⁴ "بلغوا بقتاهم" في المصدر نفسه، ص 511.

⁵ المصدر نفسه، ص 511.

⁶ القلقشندي، صبح الأعشى، 145/14-146.

وَيَصِفُ هَزِيمَةَ التَّتَارِ مَرَكِّزًا فِي الْوَقْتِ ذَاتَهُ عَلَى إِظْهَارِ إِعْجَابِهِ بِشَجَاعَتِهِمْ:
 "فَعِنْدَمَا شَاهَدُوا نَجْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَتَحَقَّقُوا أَنَّ نَفُوسَهُمْ هَالِكَةٌ، أَخْلَدَتْ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ إِلَى
 الْأَرْضِ فَقَاتَلَتْ، وَعَاجَتِ الْمَنَائِي عَلَى نَفُوسِهِمْ وَعَاجَلَتْ، وَبَاعَتْ نَفُوسُ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ
 وَتَاجَرَتْ، وَكَسَرَتْ وَمَا كَاسَرَتْ، وَجَاءَ الْمَوْتُ لِلْعَدُوِّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَأَصْبَحَ مَا هُنَاكَ
 مِنْهُمْ وَقَدْ هَانُوا، وَلِلْوَقْتِ خُذِلُوا وَجُدُّلُوا، وَلِبَطُونِ السَّبَاعِ وَحَوَاصِلِ الطِّيُورِ خُصِّلُوا،
 وَصَارُوا مَعَ عَدَمِ ذِكْرِ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ يَقَاتِلُونَ ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى
 جُنُوبِهِمْ﴾⁽¹⁾، فَكَمْ مِنْ شَجَاعٍ أَلْصَقَ ظَهْرَهُ إِلَى ظَهْرِ صَاحِبِهِ وَحَامَى، وَنَاضَلَ وَرَامَى،
 وَكَمْ فِيهِمْ مِنْ شَهْمٍ مَا سَلَّمَ قَوْسَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي كِنَانَتِهِ سَهْمٌ، وَذِي سَنْ طَارَحَ بِهِ فَمَا
 طَرَحَهُ حَتَّى تَتَلَّمَ، وَذِي سَيْفٍ حَادَّتْهُ بِالصِّقَالِ فَمَا جَلَى مُحَادَّتُهُ حَتَّى تَكَلَّمَ، وَأَبَانُوا عَنْ
 نَفُوسٍ فِي الْحَرْبِ أَبْيَّةٍ، وَقُلُوبٍ كَافِرَةٍ وَنَخْوَةٍ عَرَبِيَّةٍ"⁽²⁾.

وَيَسْهَبُ فِي الْحَدِيثِ عَنْ مُجْرِيَاتِ الْقِتَالِ؛ شَارِحًا الْأَحْدَاثَ الَّتِي وَاجَهَتْ كُلَّ
 فِرْقَةٍ مِنْ فِرَقِ الْجَيْشِ الْمُسْلِمِ، وَيُنَوِّهُ فِي الْوَقْتِ ذَاتَهُ بِشَجَاعَةِ السُّلْطَانِ الْمَمْلُوكِيِّ،
 الَّذِي شَارَكَ جَيْشَهُ فِي قِتَالِهِ: "وَاشْتَدَّتْ فِرْقَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ مِنْ جِهَةِ الْمَيْسَرَةِ مَعْرِجِينَ
 عَلَى السَّنَاقِقِ الشَّرِيفَةِ مِنْ خَلْفِهَا، مُنْقَلِبِينَ بِصُفُوفِهِمْ عَلَى صَفِّهَا:

فَلَزَّهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالٍ أَحَدُ سِلَاحِهِمْ فِيهِ الْفَرَارُ⁽³⁾!

فَنَابَ مَوْلَانَا إِلَيْهِمْ، وَوَثَبَ عَلَيْهِمْ، فَضَحَّى كُلُّ مِنْهُمْ بِكُلِّ أَشْمَطٍ، وَأَفْرَى الْأَجْسَادِ
 فَأَفْرَطَ، وَلَحَقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ مِنْهُمْ مَنْ قَصَدَ التَّحْصِينَ بِالْجِبَالِ فَأَخَذَهُمُ الْأَخْذَةَ
 الرَّابِيَةَ، وَقَتْلَهُمْ ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾⁽⁴⁾:

وَمَا الْفَرَارُ إِلَى الْأَجْبَالِ مِنْ أَسَدٍ تَمْشِي النَّعَامُ بِهِ فِي مَعْقِلِ الْوَعْلِ⁽⁵⁾!
 وَانْهَزَمَتْ جَمَاعَةٌ طَمِعَ فِيهَا مِنَ الْعَوَامِ مَنْ كَانَ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ، وَأَخَذَتْهُمْ
 الْمَهَاوِي فَمَا نَجَا مِنْهُمْ إِلَّا آيِسٌ مِنْ حَيَاةٍ غَدَهُ فِي أَمْسِهِ:

مَضَوْا مُتَسَابِقِي الْأَعْضَاءِ فِيهِ لَأَرْؤِسُهُمْ بِأَرْجُلِهِمْ عِثَارُ

¹ سورة آل عمران، آية 191.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 146/14.

³ المتنبي، ديوان أبي الطيب المتنبي، ص 393.

⁴ سورة الحاقة، آية 8.

⁵ المتنبي، ديوان أبي الطيب المتنبي، ص 330.

إذا فأتوا الرِّمَاحَ تناولَتْهُم
بِأَرْمَاحٍ مِنَ الْعَطَشِ الْقِفَارُ!⁽¹⁾
وقصدت ميمنة عسكرينا جماعة من المغل ذوو بأسٍ شديد، فقاتلهم المسلمون
حتى ضَجَرَ الحديد من الحديد⁽²⁾.

ولا يخلو حديثه من مدح بعض قادة المسلمين، الذين لم يدَّخروا جهداً في مقاتلة
أعدائهم، مُركِّزاً في ذلك على استحضار بعض الصور التي تمثل شجاعتهم النادرة،
واستبسالهم في القتال: "وكان مولانا صاحب زين الدين -حرص الله جلاله- لمَّا
دعيت نزال أول مسابق، وأسرع راشق، وأقرب مطاعن، وأعظم معاون، فذكر من
شاهده أنه أحسنَ في معركته، وأجملَ في كرتيه، وأجادَ في طعناته، وزأَرَ زئيرَ الليث،
وسابقَ حتى لم يبقَ حيث، ووقفَ دريئةً للرماح عن يمينه وشماله، وخضَّبَ بما
تحدَّرَ من دمِ عدوِّه أكنافَ سرجه وعنانَ لِجامه، وكانت عليه من الله باقيةً واقيةً في
تقدُّمه وإقدامه، وشاهدناه وقد خرجَ من وسط المعركة وهو شاكي السلاح، وقد أخذَ
نصيبه ونصيبَ فرسه من سالم الجراح، وأرادَ الله أن لا يُخليه من إسالة دم يُعظِّم الله
الأجر بسائله، فجعله -والمنةُ الله- من بعض أطراف أنامله، وقد ذكر الأمير عز
الدين أيدمر الدوادار الظاهري، قال: لقيني وقد تكسَّرَ رُمحي، وعاد -لولا لطف الله-
إلى الخسارة ربحي، فأعطاني المولى صاحب زين الدين رُمحه، فإذا فيه نُصول،
وبسِنَّه من قِراع الدَّراعين فلول، ورأيت دبوس⁽³⁾ المولى صاحب زين الدين وقد
تنلَّم، وكان الخوف عليه في ذلك اليوم شديد ولكن الله سلَّم، ولقد بلغ مولانا السلطان
خبره، فسأله فما أجابه بغير أن قال: سيف مولانا السلطان هو الذي سفك وعزمه هو
الذي فتك:

وَمَنْ يَكُ مَحْظُوظاً مِنَ اللَّهِ فَلْتَكُنْ
سَلَامَتُهُ مِمَّنْ يُحَازِرُ هَكَذَا
ويخرجُ من بين الصَّقُوفِ مُسَلِّماً
ولا مَنْ يُبَدِّيه ولا نَالُهُ أذى!!⁽⁴⁾.

وبعد نهاية أيِّ قتال، يلجأ المنتصر إلى جمع الغنائم المختلفة، كالخيول ومعدّات
القتال، من سلاحٍ وألبسة، إضافة إلى أنواع الصروف، ويتنعم الشهداء في جنّات

¹ المتنبي، ديوان أبي الطيّب المتنبي، ص 393، 395.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 146/14-147.

³ الدبوس: آلة حربية وفي محيط المحيط الدبوس هراوة مملكة الرأس، في طرفها كتلة صغيرة، البقلى،

التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص 133.

⁴ القلقشندي، صبح الأعشى، 147/14.

عدن، أما الكفار فما لهم سوى جهنم مأوى: "وأما العدو فتقاسمت الأيدي ما يمتطونه من الصواهل والصوافن، وما يصلون به من سيوف وقسي وكنائن، وما يلبسونه من خوذ وذروع وجواشن، وما يتمولونه من جميع أصناف المعادن، فغنم ما هنالك، وتسلم من استشهد من المسلمين رضوان، وتسلم من قتل من الكفار مالك"⁽¹⁾.

ويذكر أسماء القادة الذين استشهدوا في تلك المعركة: "وكان الذين استشهدوا في هذه الموقعة من المقدمين: شرف الدين قيران العلاني، وعز الدين أخو الأمير جمال الدين المحمدي، ومن المماليك السلطانية: شرف الدين فلنحق الجاشنكير الظاهري، وأبيك الشقيفي الذي كان وزير الشقيف، وكان المجروحون عدة لطيفة لم يعلم عددها لقلتها، بل لخفتها، وأورث الله المسلمين منازلهم فنزلوها، ووطاقتهم وخركاواتهم فتمولوها، وكان مولانا السلطان وكان أعداؤه كما قيل:

فَمَسَّاهُمْ وَبَسَطَهُمْ حَرِيرٌ وَصَبَّحَهُمْ وَبَسَطَهُمْ تُرَابُ!!"⁽²⁾⁽³⁾.

ويقدم صورة لموتى الأعداء تقشعروا لها الأبدان، حيث الجثث المتناثرة كالجزائر تطفو على سطح الدماء التي تجري كالسيول، ومشهد الجماجم المجموعة كالكرات التي تستخدم للعب، تدفعها الأيدي تارة وأرجل الخيول تارة أخرى: "وأصبح الأعداء لا ترى إلا أشلاؤهم، ولا تبصر إلا أعيائهم، كأنما جُزر أجسادهم جزائر يتخللها من الدماء السيل، وكأنما رؤوسهم المجموعة لدى الدهليز المنصور أكر تلعب بها صوالجة من الأيدي والأرجل من الخيل:

أَلَقْتُ إِلَيْنَا دِمَاءَ الْمُغْلِ طَاعَتَهَا فَلَوْ دَعَوْنَا بِلا حَرْبٍ أَجَابَ دَمٌ!⁽⁴⁾

فكم شاهد مولانا السلطان منهم مهيب الهامة، حسن الوسامة، تنفرس في جهامة وجهه الفخامة، قد فضّ الرمح فاه، فقرع السنّ على الحقيقة ندامة:

وَوَجُوهَا أَخَافَهَا مِنْكَ وَجَةً تَرَكَتْ حُسْنَهَا لَهُ وَالْجَمَالَ!⁽⁵⁾

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 147/14-148.

² المتنبّي، ديوان أبي الطيّب المتنبّي، ص 373.

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 148/14.

⁴ المتنبّي، ديوان أبي الطيّب المتنبّي، وفيه بدلا من "إلينا"، "إليك"، وبدلاً من "دعونا"، "دعوت"، وبدلاً من "حرب"، "ضرب"، ص 421.

⁵ المصدر نفسه، ص 405.

أو كما قيل:

لَا رَحِمَ اللَّهُ أُرُوساً لَهُمْ أَطْرَنَ عَنْ هَامِهِنَّ أَقْحَافاً! (1) (2).

ويعمدُ الكاتب إلى السخرية من الأعداء، عن طريق تصوير أسراهم وهم يطوفون ساحة القتال؛ يتعرفون القتلى، ويتحسرون على الشجعان منهم: "وأقبل بعضُ الأحياء من الأسارى على الأموات يتعارفون، ولأخبار شجاعتهم يتواصفون، فكم من قائل: هذا فلان وهذا فلان، وهذا كان وهذا كان، وهذا كان يُحدث نفسه بأنه يهزم الألو، وهذا يُقرر في ذهنه أنه لا تقف بين يديه الصفوف" (3).

ولا يقطع الحديث عن الأسرى بل يستكمله؛ ليبين مصيرهم، فيذكر بأن السلطان لجأ إلى قتل من كان تترياً منهم، أما من كان رومياً فقد فاز بعفوه: "وكثرَت الأسارى من المغل، فاختر السلطان من كبرائهم البعض، وعمل فيهم بقول الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ (4)، فجعلهم للسيوف طعمة، وأحضرت الأسارى من الروم فترقبَ مولانا السلطان فيهم الإلّ والذمة: وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا! (5) (6).

ويذكرُ أكابر الأمراء الروميين الأسرى لديهم، ومن بينهم ابن البرواناه، فقد فرّ والده هارباً مخلفاً إياه أسيراً في قبضة المسلمين، وفتح هذا الأمر المجال أمام الكاتب للسخرية منه: "وكان من جملة الأسارى الروميين مهذب الدين بكلارنكي، يعني أمير الأمراء ولد البرواناه (7)، ونور الدين جاجا أكبر الأمراء، وجماعة كثيرة من أمراء الروم ومقدمي عساكره، فكان البرواناه أحقّ بقول أبي الطيب:

نَجَوْتُ بِإِحْدَى مُقْلَتَيْكَ (8) جَرِيحَةً وَخَلَفْتَ إِحْدَى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلُ!
أَتَسْلِمُ لِلْخَطِيئَةِ ابْنِكَ هَارِباً وَيَسْكُنُ (9) فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلُ؟ (10)

¹ المتنبي، ديوان أبي الطيب المتنبي، وفيه بدلا من "رحم"، "يرحم"، ص 494.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 148/14.

³ المصدر نفسه، 148-149.

⁴ سورة الأنفال، آية 67.

⁵ المتنبي، ديوان أبي الطيب المتنبي، ص 361.

⁶ القلقشندي، صبح الأعشى، 149/14.

⁷ البرواناه: لفظ فارسي، معناه في الأصل الحاجب، وقد أطلق في دولة السلاجقة بأسيا الصغرى على الوزير،

البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص 64.

⁸ "مهجتيك" في ديوان أبي الطيب المتنبي، ص 351.

⁹ "ويسكن" في ديوان أبي الطيب المتنبي، ص 351.

¹⁰ المصدر نفسه، ص 351.

لأنَّه شَمَّرَ الذَّيْلَ، وَامْتَطَى -هَرَبًا- أَشْهَبَ الصَّبْحِ، وَأَحْمَرَ الشَّفَقِ، وَأَصْفَرَ
الْأَصِيلَ، وَأَدْهَمَ اللَّيْلَ، وَثُمَّ يُخْبِرُ مَنْ خَلْفَهُ بِمَا تَمَّ، وَهَمَّ قَلْبُهُ رَفِيقَهُ حِينَ هَمَّ:
فَنَحْنُ فِي جَذَلٍ، وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ وَالْبَرْ فِي شُغْلٍ، وَالْبَحْرُ فِي خَجَلٍ!!⁽¹⁾⁽²⁾.

وَيَتَابَعُ حَدِيثَهُ عَنِ الْبُرْوَانَاهُ، مَبِينًا خَطَّ سِيرِهِ بَعْدَ هُرُوبِهِ، فَيَذْكُرُ بِأَنَّهُ قَدْ اتَّجَهَ إِلَى
مَدِينَةِ قَيْصَرِيَّةَ، مُحَدِّدًا وَقْتَ دَخُولِهِ إِلَيْهَا، وَأَنَّهُ اجْتَمَعَ بِقَادَتِهَا، لِيَحْذَرَهُمْ مِنَ الْخَطَرِ
الَّذِي سَيَدَاهُمُهُمْ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَخْبِرْهُمْ بِحَقِيقَةِ مَا حَدَثَ مَعَهُ بِدَقَّةٍ، وَعَلَى أَثَرِ ذَلِكَ، اتَّجَهَ
بَصَحْبَتِهِمْ وَصَحْبَةِ زَوْجِهِ إِلَى مَكَانٍ حَصِينٍ، تَارِكِينَ الْمَدِينَةَ لِلسُّلْطَانِ الْغَازِي وَجَيْشِهِ:
"وَدَخَلَ الْبُرْوَانَاهُ مَدِينَةَ قَيْصَرِيَّةَ فِي تَارِيخِ يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ،
فَأَفْهَمَ غِيَاثَ الدِّينِ سُلْطَانَهَا، وَالصَّاحِبَ فَخْرَ الدِّينِ بْنِ عَلِيَا، وَالْأَتَاكَ مَجْدَ الدِّينِ،
وَالْأَمِيرَ جَلَالَ الدِّينِ الْمُسْتَوْفِي، وَالْأَمِيرَ بَدْرَ الدِّينِ مِيكَائِيلَ النَّائِبَ، وَالْأَمِيرَ فَلَانَ
الدِّينِ الطُّغْرَاثِي، وَهُوَ وَلَدُ عَزِّ الدِّينِ أَخِي الْبُرْوَانَاهُ، وَهُوَ الَّذِي يَكْتُبُ طُرُقَ الْمَنَاشِيرِ،
أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَسَرُوا بَعْضَ الْمُغْلِ وَبَقِيَّتَهُمْ مِنْهَزَمُونَ، وَيَخْشَى مِنْهُمْ دَخُولَ قَيْصَرِيَّةَ
وَإِتْلَافَ مَا يَكُونُ بِهَا فِي طَرَائِفِهِمْ حَنْقًا عَلَى الْإِسْلَامِ، فَأَخَذَهُمْ جَرَاءً، وَأَخَذَ زَوْجَتَهُ
كُرْجِي خَاتُونَ بِنْتَ غِيَاثِ الدِّينِ صَاحِبِ أَرْزَنِ الرُّومِ، فَاسْتَصْحَبَتْ مَعَهَا أَرْبَعَمَائَةً
جَارِيَةً لَهَا، وَكَانَ لَهَا مَا لَا كَانَ لِصَاحِبِ الرُّومِ مِنَ الْبَخَاتِي وَالْخِيَامِ وَالْآلَاتِ، وَتَوَجَّهُوا
كُلُّهُمْ إِلَى جَرِيهِ تَوَقَّاتٍ، وَهُوَ مَكَانٌ حَصِينٌ مَسِيرَةُ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ مِنْ قَيْصَرِيَّةَ، وَلَمَّا
خَرَجُوا مِنْ قَيْصَرِيَّةَ حَمَلَهُمْ عَلَى سُرْعَةِ الْهَرَبِ، وَأَنْذَرَهُمْ عَذَابًا قَدْ اقْتَرَبَ، وَهَوَّلَ
عَلَى بَقِيَّةِ أَمْرَاءِ الرُّومِ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ، وَأَخْفَى الْبُرْوَانَاهُ أَمْرَهُ وَأَمَرَ مَنْ مَعَهُ
حَتَّى وَلَا مُخْبِرَ يَخْبِرُ عَنْهُمْ"⁽³⁾.

وَلَمْ يَنْجُ الْهَارِبُونَ مِنَ الْأَعْدَاءِ بِأَنْفُسِهِمْ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ السُّلْطَانَ كَلَّفَ الْأَمِيرَ شَمْسَ
الدِّينِ سَنْقَرَ وَعَدَدًا مِنْ جُنُودِهِ بِمُطَارَدَتِهِمْ وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ: "وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ قَدْ
جَرَّدَ الْأَمِيرَ شَمْسَ الدِّينِ سَنْقَرَ الْأَشْقَرَ فِي عَدَدٍ مُسْتَظْهِرًا بِهِ لِإِدْرَاكِ مَنْ فَاتَ مِنْ

¹ المتنبّي، ديوان أبي الطيّب المتنبّي، ص 330.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 149/14.

³ المصدر نفسه، 150-149/14.

المُغل، فمرّوا في طريقهم بفرقةٍ معها بيوتهم، فأخذَ منها جانباً، ودخلَ عليهم الليلُ فمرَّ كُلُّ في سربِه ذاهلاً ذاهباً⁽¹⁾.

ويسترسلُ الكاتبُ بعد ذلك في الحديث عن رحلة السلطان وجيشه من مكان المعركة إلى مدينة قيسارية، ذاكراً أسماء القرى التي مرّوا بها، محدّداً موقعها بدقة، وواصفاً معالم بعضها وصفاً يخالُ المرءُ من خلاله أنّه واقفٌ أمام تلك المعالم يشاهدها، ومصوراً الصعوبات التي واجهتهم فيها، ولا يخلو حديثه من الإشارة إلى التاريخ، وحالة الجو وقتذاك، ويبدأ أولاً بقرية بريّان، يقول: "ورحل مولانا السلطان في بكرة السبت حادي عشر ذي القعدة من مكان المعركة، فنزل قريب القرية المعروفة بريّان، وهذه القرية قريب الكهف والرقيم حقيقة، لا ما يُقال: إنّهُ قريب حُسبان من بلاد البلقاء، وقريباً من صلدٍ مِنَ الصفا عليه كتابة بالرومية أو غيرها من الخط القديم، أمّا القرية المذكورة المسماة بريّان فإنّ بيوتها بُنيت حولَ سنٍّ جبلٍ قائم كالهرم إلا أنّه ملموم، وعُمّرت البيوت في سَفحه حوله بيتاً فوق بيت، فبدت كأنّها مجرّة النجوم، وما من بيتٍ منها إلا وبه مقاعد ذوات درابزينات منجورة، ورواشن قد بدت في أكمل صورة، يختِمُها من أعلاها أحسن بُنيان، ويعلوها من رأسها منزل مسنّم الرأس كما يعلو الصّعدة السنان، وتطوفُ بهذه القرية جبالٌ كأنّها أسوار بل سوار، وكأنّها في وسطها إناء فيه جذوة نار، ويتفرّغُ منها أنهار، هي في تلك الأودية كأنّها بهبوطها كثيب قد انهار، ذواتُ قناطر لا تسعُ غيرَ راكب، ومضايق لا يُلقي عبرها لناكب، قدّر الله أنّ العساكرَ خلّصت منها ولكن بعد مقاساة الجهد، وخرجت وقد رقّ لها قلبُ كُلِّ وَهد، ونزلنا قريباً منها حتى تخلصَ مَنْ تخلص، وحضرَ مَنْ كان في المضايق وقد تربّص، وقال: كُلّ الأرض حصص"⁽²⁾.

ويتّضحُ ممّا سبق أنّ محيي الدين يهتمُ بإفادة القارئ؛ ذلك أنّه يعمد إلى تصحيح بعض المعلومات التي تتعلق بمواقع بعض القرى.

ويحدّد وقت خروجهم من القرية المذكورة، واصفاً الحالة الجوية، حيث يقول: "ورحلنا في يوم الأحد ثاني عشر شهر ذي القعدة، وكانت السماء قد حيّت الأرض

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 150/14.

² المصدر نفسه، 150/14-151.

بتيجان أمطارها، وأغرقت الهوام في أحجارها، والفتخ في أوكارها، وأصبحت الأرض لا تتماسك حتى ولا لمرور الأراقم، والجبال لا تتماسك أن تكون للعصم عواصم، تضع بها من الدواب كل ذات حمل، وتزلق في صقيلاها أرجل النمل، وسرنا على هذه الحالة نهارنا كله إلى قريب الغروب، وقطعناه بتسلّمنا أيدي الدروب من أيدي الدروب، ونزلنا عشاء في منتقع أرض تطوف بها جبال شاهقة، ومياه دافقة، تُعرف قاعة تلك الأرض بوطاة قشل وسار⁽¹⁾ من أعمال أصاروس العتيق، ويقرب من تلك الجهة معدن الفضة⁽²⁾.

وقد أعاق المطر السلطان وجيشه من الوصول إلى الأعداء الذين كانوا يتربصون بهم: "وبينما نحن قد شرعنا في أهبة المبيت، ولم نقض الشمل الشتيت، وإذا بالصادح قد صدح، والنذير قد سنح، رافعا عقيرته بأن فوجا من التتار في فجوة هنالك قد استتروا، وفي نجوة لغرة قد انتظروا، فركب مولانا السلطان وركب الناس في السلاح، وعزموا على المطار فعاقهم تتابع الغيث، وكيف يطير مبلول الجناح؟ ثم لطف الله وعاد مولانا السلطان وهو يقول للناس: لا باس، فمنا نومة السليم، وصدرت أفكارنا شاغرة في كل وادٍ تهيم⁽³⁾"⁽⁴⁾.

ولا يرمي الكاتب من وراء وصفه مظاهر الطبيعة المختلفة إلى مشاركة القارئ فحسب، بل يرمي كذلك إلى إشعاره بقدرة الخالق عز وجل، التي تستوجب شكره وطاعته: "وأصبحنا فسلطنا جبالا لا يحيط بها الوصف، وتبسط عذراء الطرف فيها حين يكبو فيها الطرف، ننحط منها إلى جنادل يضعف عن الهوي إليها قوي الأجادل، بينا نقول: قد أحسن الله لها نفادا ومنها نفاذاً، وإذا بعد الأودية أودية وبعد الجبال جبال، نشكر عند ذاك هذه، وذاك عند هذا"⁽⁵⁾.

¹ هكذا في الأصل.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 150/14.

³ مأخوذة من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، سورة الشعراء، ص 225.

⁴ القلقشندي، صبح الأعشى، 151/14.

⁵ المصدر نفسه، 151/14.

ويواصل حديثه عن القرى ووصفها قائلاً: "ومررنا على قرية أوتراك، وتحتها قناطر وخان من حجر منحوت، ثمَّ خان آخر للسَّيل على رأس رابيةٍ هناك تُعرف باشيبيدي، قريباً من حصن سمندو، التي عرّض بها أبو الطَّيب في قوله:
فإنَّ يُقدِّم فقد زُرنا سَمَدُو وإنَّ يُحجم فموعِدُهُ الخليجُ!"(1) (2).

وكعادة أيَّ قائد مسلم لا يُحبُّ سفك الدِّماء، يلجأ السلطان المملوكي إلى إرسال كتّيبةٍ إلى نواب بعض المدن والقرى والقلاع، تتضمَّن طلبه إليهم إعلان ولائهم له، قبل لجوئه إلى قتالهم، وبهذا العمل دخل كثير منهم في طاعته: "وكان مولانا السلطان قد سيَّر إليها خواصَّهُ بكتابٍ إلى نائبها فقبله وقبله، وأذن لتسليم حصنها المنيع وللنزول لأمر السلطان عنها إن استنزله، فشكر مولانا السلطان له تلك الإجابة، ووفاه من الشُّكر حسابَه، وكذلك إلى قلعة دوندا والى دوالوا، فكلهم أجابوا وأطاعوا ولكلمة الإذعان قالوا"(3).

ولم يُعانِ الجنود وحدهم في تلك الرِّحلة فحسب، بل عانت الخيول أيضاً، فقد قلَّت أعلافها فباتت ليالي دونَ غِذاء، وشارفت على الهلاك لولا لطف الله بها: "ونزلنا في وطأةٍ قريب قريةٍ تُعرف بِحُمريها، وكان النَّاس قد فرغت علوفات خيلهم أو كادت، والخيْلُ قد باتت ليالي بلا عَليق فما استفادت، وشاركتها خيولُ الكُسوب في عليقها وما ساعدتها في طروقها ولا في طريقها، فَضَعُفَتْ عن حَمْلِ نفوسها، فما ظنُّكَ براكبيها، وكاد الفارطُ -لولا لطف الله عزَّ وجل- أن يفرط فيها، فصادفنا في هذه اللَّيلة بعضَ أَتبان أمسكت أرماقها، وأحسنَت إرفادها وإرفاقها"(4).

كما أنَّ العداوة الدينيَّة بين المماليك وغيرهم من الشعوب، لم تمنع الكاتب من إبداء إعجابه بمظاهر العمارة في بعض القرى التي مرَّ فيها، فها هو يصف خان قرطاي، ويثني على بانيه الذي أبدع بناءه وأحسنه: "وأصبحنا في يوم الثلاثاء رابع عشر ذي القعدة راحلين في جبال كأنها تلك الأول، وهابطين في أودية يتمنى سالكها من شدة مضايقتها أن لو عاد إلى ترقِّي أعلى جبل، وما زلنا كذلك حتى أشرفنا على

¹ المتنبي، ديوان أبي الطَّيب المتنبي، ص 299.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 152-151/14.

³ المصدر نفسه، 151/14.

⁴ المصدر نفسه، 152/14.

خانُ هناك، يُعرف بقرطاي، يدلُّ على شرف همّة بانيه، وطلبِ ثوابِ الله فيه، وذلك أنه من أكبر الأبنية سعةً وارتفاعاً، وأحسنها شكلاً وأوضاعاً، كلّهُ مبنيٌّ بالحجر المنحوت المصقول الأحمر، الذي كأنه رُخام، ومن ظاهر أسواره وأركانهِ نقوش لا يتمكّن أن يُرسم مثلها بالأقلام، وله خارجُ بابهِ مثلُ الرّبضِ ببابين بأسوار حصينة، مبلّط الأرض، فيه حوانيت، وأبواب الخان حديد من أحسن ما يُمكن استعماله، وداخله أوابين صيفيّة، وأمكنة شتويّة، وإصطبلات على هذه الصور لا يحسن الإنسان أن يعبرَ عنها بكيف، وما منها إلا ما يجده الإنسان رحلةً للشتاء والصيف، وفيه الحَمّامُ والبيمارستان والأدوية والفرش والأواني والضيافة لكلِّ طارق على قدره، حُمِلَ لمولانا السلطان من ضيافته لَمّا مرَّ عليه، وكثر الناسُ فما وصلَ أحدٌ إليها ولا إليه، وعليه أوقافٌ عظيمة، وضياعٌ كثيرة حوله وفي غيره من البلاد، وله دواوين وكتّاب ومباشرون يتولّون استخراجَ أمواله والإنفاق عليه، ولم يتعرّض للتّار إلى إبطال شيء من رُسوميّه، وأبقوه على عوائد تكريمه، وأهلُ الروم يبالغون في تبجيل بانيه رحمه الله - وتعظيمه⁽¹⁾.

ويُتابع حديثه عن مسير الجيش قائلاً: "ونزلنا تلك الليلة قريبَ قريةٍ تقربُ من قيسريّة من حقوق وادي صلعومة شرقيّ الجبل المعروف بعسيب، وفيه قبرُ امرئ القيس الشّاعر:

أجارتنا إنّ الخطوبَ تنوبُ، وإني مُقيمٌ ما أقامَ عسيبُ
أجارتنا إنا غريبانِ هاهنا وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ!!⁽²⁾

وهذا الجبل يعلوه جبلُ أرجاس، وهو الذي يضرب الروم الأمثال بتساميه، وتتضاءلُ الجبالُ في جميع الدّنيا لتعالیه، لا تُسحبُ ذيول السحائب إلا دونَ سفحه، ولا يُعرف من ثلوجه شتاءٌ وصيفاً، ومن مثال الأبخرة منه عشاؤه من صُبْحه⁽³⁾.

ويصفُ بعد ذلك دخول السلطان وجيشه مدينة قيسارية، وكيفية استقبال أهلها لهم، حيثُ الترحيب والاحتفاء، ولاغروَ في ذلك؛ إذ إنَّهم سلّموا السلطان مدينتهم بعد

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 152/14 - 153.

² امرؤ القيس (ت 565م)، ديوان امرئ القيس وملحقاته، شرح أبي سعيد السكري، دراسة وتحقيق أنور عليان أبو سويلم ومحمّد علي الشوابكة، ط1، إصدار مركز زايد للتراث والتاريخ، دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، 2000م، مج2/733، وفيه "إنّ المزارَ قريبٌ" بدلاً من "إنّ الخطوبَ تنوبُ".

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 153/14.

تأمينه على أنفسهم وإحسانه إليهم: "ولمّا كان يوم الأربعاء منتصف ذي القعدة، وهو يوم شرف الزّهرة، ركبت العساكر المنصورة مترتبة، ومألت الفضاء متسرّبة، وركب مولانا السلطان في زمرته، وذوي أمره وإمرته، يختالُ جواده في أفسح ميدان، ويصيخُ به فرحاً ومرحاً كأنه نشوان درى أنّه سلطان:

تَظَلُّ مُلُوكُ الْأَرْضِ خَاشِعَةً لَهُ تُفَارِقُهُ هَلَكِي وَتَلْقَاهُ سُجْدًا!!⁽¹⁾

وخرج أهل قيصريّة وأكابرهم، وعلماءها وزهادها وتجارها، ورعاياها ونسائها وصغارها، فأكرم مولانا السلطان مشاهم، وشكر مسعاهم، وتلقّى قضاتهم وعلماءهم رُكبانا، وحادثهم إنسانا فإنسانا، وحصلت لجماعةٍ من الفقراء حالات وجِدٍ مُطربة، وصدحاتُ ذِكْرِ مُعجبة، وكان دهليزُ السلطان غيّاث الدين، صاحب الروم وخيامه وشعارُ سلطنة الروم قد بنى جميع ذلك في وطأة قَريب الجوسق والبُستان المعروف بكِخُسرو، وترجّل النَّاس على اختلاف طبقاتهم في الرّكاب الشّريف من ملكٍ وأمةٍ ومأمورٍ وأمير، وارتفعت الأصوات بالتّهليل والتّكبير:

رَجَا الرُّومُ مَنْ تُرْجَى النِّوَافِلُ كُلُّهَا لَدِيهِ وَلَا تُرْجَى لَدِيهِ الطَّوَائِلُ⁽²⁾»⁽³⁾.

ويركّز الكاتبُ على إظهار كيفية تعامل القائد المسلم مع سكّان المناطق المفتوحة؛ ليبين أنّ هدفه من فتحها لا يتمثّل بالسيطرة عليها فحسب، بل يتمثّل أيضاً برغبته في كسب ودّ أهلها، عن طريق إحسان معاملتهم؛ لأنّه يعلم بأنّ سيطرته على تلك المناطق لا تستقرّ إلا بهم، فها هو السلطان المملوكي يأذنُ للناس كافة بالدخول عليه، ينظر في أحوالهم، ويسمع شكاويهم، ويصلح أمورهم، وعند انتهائه من ذلك يوجّه اهتمامه إلى الأمور الإدارية، فيكلّف عدداً من عمّاله بإدارة بعض المناصب في المدينة التي افتتحها: "ونزل مولانا السلطان في تلك المضارب المُعدّة لكرم الوفادة، وضربت نوبة سلجوق على باب دهليزه على العادة، وأذن السلطان للناس في التقرّب إلى شريف فسطاطه، وشملهم بنظره واحتياطه، وحضر أصحاب الملاهي، فما ظفروا بغير النواهي وقيل لهم: ارجعوا وراكم فالتمسوا، واذهبوا إلى وادٍ غير هذا الوادي فاقتبسوا، فهذه الهنأة لا تُنفق هنا، وما هذا موضعُ الغناء بل هذا

¹ المتنبي، ديوان أبي الطيّب المتنبي، ص 370.

² المصدر نفسه، ص 375.

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 154-153/14.

موضع الغنى، وشرع مولانا السلطان في إنفاق اللهى، وعيّن لكل جهة شخصاً وقال: أنت لها، وحكم وحكم، وعلم وعلم، واعتمد على الأمير سيف الدين جاليش في النيابة، وأعطى كلاً بيمينه كتابه، وأقام الحجة على ما انتزح بالاستعطاف، وتأمين من خاف⁽¹⁾.

ويبدو أن السلطان عدل عن بعض القرارات التي اتخذها، فيما يخص بعض الأشخاص في إدارة بعض المناصب الإدارية؛ وذلك لأنه يخشى غدرهم. ويُستشف من حديث الكاتب أن السلطان لم يشأ دخول المدينة أولاً، إلا أنه سرعان ما غير رأيه، فشدّ رحاله إليها، وقد فتح وصوله المدينة المجال أمام الكاتب لوصف مظاهر احتفال السلاجقة في استقباله، ولا يخلو حديثه من مدح السلطان ووصف مظاهر العمارة في تلك المدينة: "فما خرج كبيرهم عن المخاتلة ولا زعيمهم عن المطاولة، فلما علم السلطان أنهم لا يفلحون، ولغير التتار لا يصلحون، وأنهم إن أصبحوا على الطاعة لا يُمسون، وإن أمسوا لا يُصبحون، عاد عن تلك الوعود، واختار أن ما بدأ إليه يعود، وأن يبعث نفسه إلى ما بعثه الله إليه من المقام المحمود، فركب يوم الجمعة سابع عشر ذي القعدة مستقبلاً من الله كل الخير، ونصب جتر بني سلجوق على رأسه، فشهد الناس منه صاحب القبة والطير، ودخل قيصريّة في بكرة هذا اليوم، وكانت دار السلطنة قد فرشت لنزوله، وتخت بني سلجوق وقد هُيئَ لحلوله، وهي دار تزهو، ومنازل من يتعبد، أو منازله من يلهو، أنيقة المبتى، تحف بها بساتين عذبة الجنى، جدرانها بأحسن أصناف القاشاني مصفحة، وبأجمل نقوشه مصرحة، فجلس مولانا السلطان في مرتبة الملك في أسعد وقت، ونال التخت بحلوله أسعد البخت:

وَمَا كَانَ هَذَا التَّخْتُ مِنْ حِينَ نَصَبِهِ	لِغَيْرِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ النَّدْبِ يَصْلُحُ
مَلِكٌ عَلَى اسْمِ اللَّهِ مَا فَتَحَتْ لَهُ	صَوَارِمُهُ الْبَيْضُ الْمَوَاضِي وَتَفَتْحُ
أَتَتْهُ وَفُودُ الرُّومِ وَالْكَلُّ قَائِلٌ	رَأَيْنَاكَ تَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَتَصْفَحُ
فَأَوْسَعَهُمْ جِلْمًا وَجَادَ لَهُمْ نَدَى	وَأَمْسُوا عَلَى مَنْ وَأَمِنْ وَأَصْبَحُوا
وَلَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَجْنَحُوا لَمَنْكَب	عَنِ الْحَقِّ وَالنَّهْجِ الْقَوِيمِ لَأَفْلَحُوا

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 154/14.

ولكنهم أعطوا يداً فوقها يداً تُصافحُ كفاً زندها النارَ يقدحُ!!!"(1) .
ويصور مظاهر استقبال سكان المدينة للقائد الفاتح واحتفائهم به، إذ يتقدمون جميعاً بمختلف طبقاتهم إلى مقامه، يهنئونه، ويقبلون يده، ويبدأ بعد ذلك الاحتفال الذي يتضمن قراءة القرآن الكريم، وإلقاء الأناشيد والخطب بالفارسية وعند انتهاء ذلك، مدّ سماًط من الأطعمة تقديراً للسلطان، غير أنه لم يُعجب الكاتب؛ لعدم مناسبته لمقام مولاه، ولا يخلو حديثه من وصف لبعض ملابس العمّال وقتذاك: "وأقبل الناس على مولانا السلطان يهنئونه وعلى كفه الشريف يقبلونه، وبعد ذلك حضرت القضاة والفقهاء والعلماء والصوفيّة، وذوو المراتب من أصحاب العمام على عادة بني سلجوق في كلّ جمعة، ووقف أمير المحفل وهو كبير المقدار عندهم، له وسامة وفخامة، وله أكبر كمّ وأوسع عمامة، وأخذ في ترتيب المحفل على قدر الأقدار، وانتصب قائماً بين يدي السلطان منتظراً ما إليه به يُشار، وشرع القراء يقرؤون جميعاً وفرادى بأحسن تلحين، وأجمل تحسين، فأنت أصواتهم بكلّ عجب، وعدلوا على الترتيل إلى الترتيب، ولما فرغوا شرع أمير المحفل صارخاً، وبكور فمه نافخاً، فأنشد وأورد بالفارسية ما يعجب مدلوله، ويهول مقوله، وأطال وما أطاب، واستصوب من يعرف مقال قوله، والله أعلم بالصواب، ولما انقضى ذلك مدّ سماًط ليس يُناسب هم الملوك، فأكل الناس منه للشرف لا للسرف، ثم عاد كلّ منهم إلى مقامه فوقف"(2).

وفي كلّ مرّة يضرب السلطان المملوكي للسلاجة مثلاً حياً على كيفية تعامل القائد المسلم مع سكان المناطق المفتوحة، فهو لا يتعرض لهم أو لنسائهم وخدمهم بالأذية، بل يجبرهم ويواسيهم ويحسن إليهم: "وقام مولانا السلطان إلى مكان الاستراحة، فأقام ساعة أو ساعتين، ثم خرج إلى مخيمه قرير العين، وكان بدار الملك حرم السلجوقيّة قد أصبحوا لا ترى إلا مسكنتهم ومسكنهم، قد نبت بهم مواطنهم ومواطنهم، وعلى أبوابهم أسمال ستور من حرير، ومشايخ خدام يستحق

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 155-154/14.

² المصدر نفسه، 156-155/14.

كُلُّ مِنْهُمْ -كَبِيرٌ سِنَةً- أَنْ يُدْعَى بِالْكَبِيرِ، عَلَيْهِمْ ذِلَّةُ الْإِنْكَسَارِ، وَأَمِيرُ الْإِفْتِقَارِ، فَجَبَرَهُمْ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَأَنْسَهُمْ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ⁽¹⁾.

وَيَصِفُ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ فِي الْمَدِينَةِ الْمَفْتُوحَةِ وَصَفًا دَقِيقًا مُبْدِيًا اسْتِثْنَاءَهُ مِنْ خُطْبَائِهَا إِلَى دَرَجَةٍ تَشْبِيهِهُمْ بِالْأَنْعَامِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُخْفِي إِعْجَابَهُ بِعِمَارَةِ مَسَاجِدِهَا، الَّتِي تَدُلُّ عَلَى مَدَى اهْتِمَامِ مُلُوكِهَا بِهَا، وَيَعْمَدُ إِلَى إِظْهَارِ بَعْضِ الْفُرُوقَاتِ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ بَيْنَ مَمْلَكَتِهِ وَتِلْكَ الْمَدِينَةِ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ يُصْرِّحُ بِعَدَمِ إِعْجَابِهِ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِيهَا، مُظْهِرًا كَيْفِيَّةَ نُطْقِهِمْ لِلْحُرُوفِ فِي أَثْنَاءِ الْقِرَاءَةِ، وَيُوَاصِلُ حَدِيثَهُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ مُجْرِيَاتِ الصَّلَاةِ، مِنْ أَذَانٍ وَخُطْبَةٍ وَدُعَاءٍ، مُبَيِّنًا عَدَمَ اسْتِيعَابِهِمْ لِحَدِيثِ الْخُطْبَاءِ: "وَتَوَجَّهْ مَنْ تَوَجَّهَ إِلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ فِي قَيْصَرِيَّةٍ، وَبِهَا سَبْعُ جَمْعٍ تُقَامُ، وَبِهَا خُطْبَاءٌ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾"⁽²⁾، فَصَلَّيْنَا فِي جَامِعِ السُّلْطَانِ، وَهُوَ جَامِعٌ عَلَيَّ يَدُلُّ عَلَى احْتِفَالِ مُلُوكِهَا بِبَيُوتِ عِبَادَتِهِمْ، وَرَأَيْنَا فِيهِ دَلَائِلَ الْخَيْرِ مَا يَقْضِي بِحُسْنِ إِرَادَتِهِمْ، فَحَضَرَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَأَكَابِرُهَا، وَجَلَسُوا حِلَقًا لَا صَفُوفًا، وَأَجْرُوا مِنَ الْبَحْثِ بِالْعَجْمِيَّةِ صُنُوفًا، وَاجْتَمَعَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ حَفْظَةِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، فَتَخَارَجُوا الْقِرَاءَةَ آيَةً آيَةً، وَهِيَ قِرَاءَةٌ بَعِيدَةٌ عَنِ الدَّرَايَةِ، بَلْ إِنَّهَا تُبْرِزُهَا أَصْوَاتٌ مُتَرَنِّمَةٌ، وَأَلْحَانٌ لَتَفْرِيقِ الْكَلِمَاتِ مُقَسَّمَةٌ، يَنْطِقُونَ بِالْحُرُوفِ كَيْفَ اتَّفَقَتْ، وَلَا يَتَوَقَّفُونَ عَلَى مَخَارِجِ الْحُرُوفِ أَنَّهَا بِهَا نَطَقَتْ أَوْ لَا نَطَقَتْ، فَلَمَّا آتَى وَقْتُ الْأَذَانِ، قَامَ صَبِيٌّ عَلَيْهِ قَبَاءٌ مِنْ وَسْطِ جَمَاعَةٍ عَلَيْهِمْ أَقْبِيَّةٌ قَعُودٌ عَلَى دَكَّةِ الْمُؤَذِّنِينَ، فَابْتَدَأَ بِالتَّكْبِيرِ أَوَّلًا وَثَانِيًا بِمُفْرَدِهِ مِنْ غَيْرِ إِعَانَةٍ وَلَا إِيَانَةٍ، وَلَمَّا تَشَهَّدَ سَاعَدَهُ جَمِيعُهُمْ بِأَصْوَاتٍ مُحَمَّمةٍ مُلْعَلَةٍ، وَنَغْمَاتٍ مُتَوَّعَةٍ، يُمَسْكُونَ لَهُ النَّغْمَ بِأَحْسَنِ تَلْحِينٍ، وَيَتَرَنَّمُونَ بِالأَصْوَاتِ إِلَى آخِرِ التَّأْذِينِ، وَفَرَّغَ الْأَذَانَ وَكَلَّمَهُمْ قَعُودٌ مِنْهُمْ أَحَدٌ غَيْرَ الصَّبِيِّ وَقَفَ، وَمَا مِنْهُ أَحَدٌ لِكَلِمَةٍ مِنَ الْأَذَانِ عَرَفَ، وَلَمَّا فَرَّغَ الْأَذَانَ طَلَعَ شَيْخٌ كَبِيرٌ السِّنِّ يُعْرِفُ بِأَمِيرِ مَحْفَلِ الْمَنْبَرِ، فَصَعَدَ إِلَى ذُرْوَةِ الْمَنْبَرِ، وَشَرَعَ فِي دُعَاءٍ لَا نَعْرِفُهُ، وَادَّعَاءٍ لَا نَأْلَفُهُ، كَأَنَّهُ مُخَاصِمٌ، أَوْ وَكِيلٌ شَرَعَ أَحْضَرَهُ لِمَشَادَّةِ خَصْمِهِ مُحَاكِمٌ بَيْنَ يَدَيْ حَاكِمٍ، وَطَلَعَ الْخَطِيبُ بَعْدَ

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 156/14.

² سورة الفرقان، آية 44.

ذلك فخطب ودعا لمولانا السلطان بغير مشاركة، ودعا الناس بما تلقته من الأفواه الملائكة، وانقضت الجمعة على هذه الصورة المسطورة⁽¹⁾.

وينوه إلى أن السكة ضربت في تلك المدينة باسم مالکها الجديد: "وضربت السكة باسم مولانا السلطان، وأحضرت الدراهم إليه في هذا اليوم، فشاهدها فرأى أوجهها باسمه باسمه الميمون، وأقرت الألسنة بهذه النعمة وأقرت العيون"⁽²⁾.

ويعمد مرة أخرى إلى إيداء إعجابه بالعمائر في المدينة المذكورة مادحا ملوكها وحكامها؛ نظراً لاهتمامهم بتشيد الأماكن التي تهتم بتدريس العلوم الشرعية والدينية، كالمدارس والخوانق والربط، ويصور في الوقت نفسه مظاهر اهتمامه بعمارة تلك الأماكن وتزيينها، من حيث تشييدها بالحجارة الحمر المصقولة المنقوشة، وفرش أراضيها بالبسط الفاخرة وغير ذلك: "وشاهدت بقيسارية مدارس وخوانق وربطاً تدل على اهتمام بانيها، ورغبتهم في العلوم الشرعية والدينية، مشيدة بأحسن الحجار الحمر المصقولة المنقوشة، وأراضيها بأجمل تلك مفروشة، وأواوينها وصُفّفا مؤزرة بالقاشاني الأجل صورة، وجميعها مفروشة بالبسط الكرّجية والعالية، وفيها المياه الجارية، ولها الشبابيك على البساتين الحسنة، وسوق قيصريّة طائف بها من حولها، وليس داخل المدينة دكان ولا سوق"⁽³⁾.

وعند حديثه عن الوزير السلجوقي، يُصرّح باسمه أولاً، ويُشير إلى عدم أهليّته لتوليّ ذلك المنصب، فهو لا يُحسن الكتابة أو الخط، ويُركّز على إظهار غناه وثروته الطائلة، ولا يقف عند ذلك فحسب بل يبرز للقارئ الصورة الحسنة لذلك الوزير، فهو لا يحتكر الثروة لنفسه، بل يراعي الناس ويجود عليهم ببرّه وخيره: "والوزير في بلاد الروم جميعها يُعرف بالصاحب "قخر الدين خواجا علي" ولا يُحسن الكتابة ولا الخط، وخلعته من مماليكه خاصّة مائتا مملوك، ودخله في كلّ يوم -غير دخل أولاده وغير الإقطاعات التي له ولأولاده وخواصّه- سبعة آلاف درهم سلطانيّة،

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 157-156/14.

² المصدر نفسه، 157/14.

³ المصدر نفسه، 157/14.

ولقد شاهدتُ في مدرسته من خيامه وخركاواته⁽¹⁾ شيئاً لا يكون لأكبر الملوك، وله برٌّ معروف وهو بالخير موصوف:

والمُسَمَّونَ بالوزيرِ كثيرٌ	والوزيرُ الذي لنا المأمولُ
وعليُّ هذا وذلكَ عليُّ	وعليُّ هذا له التَّفضيلُ
الذي زلتُ عنه شرقاً وغرباً	ونداهُ مقابلي لا يزولُ
ومعي أينما سلكتُ كأنِّي	كلُّ وجهٍ له بوجهي كفيْلُ ⁽²⁾ .

ويتَّضحُ ممَّا سبق أنَّ الكاتب يُفضِّل وزيرَه المقصود في هذه الرسالة على وزير السلاجقة، ولاغرو في ذلك فقد غمره بمنه وكرمه، ويبدو أنَّه لم يورد هذه الأبيات عبثاً بل أراد من خلالها الحصول على مزيدٍ من عطايا وزيره.

وقد استولى السلطان ومماليكه على ثروة ملك السلاجقة -البرواناه المارّ ذكره سابقاً- وثروة زوجه: "وأما معين الدين سليمان البرواناه وزوجته كرجي خاتون، فظهر لها من الموجود البادي للعيون كلُّ نفيس، وبحمد الله استولى مولانا السلطان ومماليكه من موجوده ودار زوجته المذكورة على مُلك سليمان وصرح بلقيس"⁽³⁾.

وعندما لاحظَ السلطان طول فترة مكوثه في مدينته المفتوحة، وسوء حال جيشه بسبب قلةِ الأقوات، ومللهم من القتال، إضافةً إلى انضواء السلاجقة تحت رايته، وعدم مقدرتهم على التحالف مع المغول مرةً أخرى، قرّر العودة إلى بلاده: "ولمّا أقام مولانا السلطان بقيصريّة هذه المدة، فكّر في أمر عساكره ومصالحه بما لا يعرفه سواه، ونظر في حالهم بما أراه الله، وذلك لأنَّ الأقوات قلّت، والسيوف من المصارعة ملّت، والسّواعد من المصادمة كلّت، وأنّه ما بقي في الروم من الكفار من يُعزى، ولا بجزاء السّوء يُجزى، ولا بقي في البلاد غير رعايا كالسوائم الهاملة، ولا دية -للكفر منهم- على عاقل وعاقلة، وأنّه إن أقام فالبلاد لا تحمله، وموادّ بلاده لا تصله، وأعشاب الروم بالدّوس قد اضمحلّت، وعلوفاتها قد قلّت، وزروعها لا ترتجى لكفاية، ولا ترضى خيول العساكر المنصورة بما ترضى به خيول الروم من

¹ الخركاة: الجمع خركاوات، وهي كالبيت، تصنع من الخشب، على هيئة مخصوصة، تغشى بالجوخ ونحوه، وتحمل في السّفَر؛ لتكون في الخيمة لتقي المعسكر من البرد، البقلى، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص 117.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 158-157/14.

³ المصدر نفسه، 158/14.

الرّعي والرّعاية، وأنّ الحُسامَ الصّقيل الذي قُتِل التّار به في يد القاتل، وأنّهم إن كان أعجبهم عامهم فيعودون إلى الروم في قابل⁽¹⁾.

ويصفُ بعد ذلك رحلة عودة السلطان وجيشه إلى موطنهم، مُحدّدا تاريخ خروجهم من المدينة، وعند نزولهم بمنزلة عتزلوا، وافى السلطان رسول السلاجقة، حاملا اعتذار سادته على ما بدرَ منهم، فردّه خائبا بعد توبيخه، فبيّن له فضله عليهم، وذلك لأنّه لبّى نداءهم غير مرّة، ولكنّهم خذلوه وساندوا أعداءه، فما كان منه سوى المسير إليهم وأخذ مدينتهم، وعلى الرّغم من ذلك كلّه، لم يتعرّض لسكانها وتبعاتهم بالأذى، فهو يبتغي رضا الله وأجره في تصرّقاته كافّة، وبيّن له أخيراً أنّ الهدف الرئيس من المسير إليهم كان لإثبات عدم مقدرة أحد على وجه البسيطة الوقوف في وجههم، ومن دون شكّ لا يخلو حديث الكاتب من الفخر بالسلطان وجيشه: "ورحل في يوم الإثنين عشرين من ذي القعدة، بعد أن أعطى أمراءه وخواصّه كلّ ما أحضر إليه من الأعنة والأزمة، وكلّ ما يُطلق على تولّيه اسم النّعمة، فنزل بمنزلة تُعرف بعتزلوا، وفي هذه المنزلة ورد إلى السلطان رسول من جهة غياث الدين، سلطان الروم، ومن جهة البرواناه والكبراء الذين معه، يُسمّى ظهير الدين التّرجمان، وفي الحقيقة هو من عند البرواناه، يستوقفُ مولانا السلطان عن الحركة وما علموا إلى أين، بل كان الأمرُ شائعا بين الناس أنّ الحركة إلى جهة سيواس، فعَدّد مولانا السلطان عليه حسن وفائه بعهدِهِ، وأنّه أجاب دعاءهم مرّة بعد مرّة من أقصى ملكه مع بعده، وأنّهم ما وقفوا عند الشروط المقرّرة، ولا وقّوا بمضمون الرسائل المسيرة، وأنّهم لمّا ﴿جاء الحقُّ وزهقَ الباطل﴾⁽²⁾ طلبوا نظيرةً إلى ميسرة⁽³⁾، وأنّ أعنتهم للكفر مُسلّمة، وأنّهم منذُ استيلاء التّار ﴿هُم أصحابُ المشأمة﴾⁽⁴⁾، وعلم مولانا السلطان أنّ بلاد الروم ما بها عسكر يستخلصه لنفسه، ولا من يُقابل المُغل في غده خوفا ممّا شاهدّه كلّ منهم في أمسه، وأنّهم أهلُ التّذاذ، لا أهلُ نفاذ، وأهل طرب، لا

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 158/14.

² سورة الإسراء، آية 81.

³ مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ دُوْ عُسْرَةٌ فَنظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، سورة البقرة،

آية 280.

⁴ سورة البلد، آية 19.

أهل حرب وغلب، وأهل طيبة عيش، لا قوادّ جيش، فردّ السلطان إلى سليمان البرواناه مدّ يده، وقال: قلّ له: إنني قد عرفت الروم وطرقاتها، وأخذت أمّة أسيرة وابن بنته وولده، ويكفي ما جرى من النصر الوجيز، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾⁽¹⁾، وما كلُّ من قضى فريضة الحجّ تجب عليه المجاورة، ولا بعد هذه المناصرة مُنصرة، ولا بعد هذه المُحاورَة مُحاورَة، ونحنُ فقد ابتغيّا فيما آتانا الله: من حقن دماء أهل الروم وعدم نهب أموالهم الدار الآخرة، وتترّكنا عن أموال كُنتم للتّار تستحبّونها، ومغارم كثيرة هي لهم من الجنان مغانم يأخذونها حين يأخذونها، وما كان جلوسنا في تخت سلطنتكم لزيادة بتخت آل سلجوق، إلا لنعلمكم أنّه لا عائق لنا عن أمرٍ من الأمور يعوق، وأنّ أحدا لا ينبغي له أن يأمن لنا سطوة، وليتحقّق كلّ أن كلّ مسافة جمعة لنا خطوة، وسروجا -بحمد الله- أعظم من ذلك التّخت جلالا، وأرفع منالا، وكم في ممالكنا كراسي مُلك نحنُ آية ذلك الكرسيّ، وكم لنا فتح كلّ -والحمد لله- في الإنافة الفتح القدسي:

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُهُ⁽²⁾»⁽³⁾.

وقد فضل بعضُ أكابر السلاجقة أن يهجروا مدينتهم ويرافقوا السلطان إلى موطنه، وقد كان قرارهم هذا نابعا من أنفسهم، دون أن يتعرّضوا لأيّ ضغطٍ خارجيّ، ويعمدُ الكاتب إلى ذكر أسمائهم وصفاتهم والمناصب التي شغلوها: "واستصحبَ السلطان معه تحت الرّضا والعفو من أكابر الروميين: الأمير سيف الدين جاليش النائب بالروم، وهو رجل شيخ نبيه، له اشتغال بعلم، وكان له في الروم صورة، وهو أمير دار، يعني أمير المظالم، واستصحب ظهير الدين ملوح مشرف الممالك، ومرتبته دون الوزارة وفيه فضل، ونسخ كثيرا من العلوم بخطّه، مثل الصّحاح في مجلّد واحد، وغير ذلك، واستصحب الأمير نظام الدين أُوحد بن شرف الدين بن الخطير، وإخوته وجماعته وجماعة والده، وأولاد عمّه ضياء الدين بن الخطير المُستشهد رحمه الله، واستصحب من الأمراء: الأمير مظفر الدين محاف والأمير سيف الدين كجكيا الجاشنكير، والأمير نور الدين المنجنيقي، وأصحاب

¹ سورة الحج، آية 40.

² المتنبي، ديوان أبي الطيّب المتنبي، ص 306.

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 158/14 - 159.

ملطية أولاد رشيد الدين أمير عارض، وهم: كمال الدين وإخوته، وأمير علي صاحب كركر، واستصحب قاضي القضاة بملطية، وهو القاضي حسام الدين ابن قاضي العسكر، ووالده الذي كان يترسل عن السلطان علاء الدين إلى الملوك، وهو رجل عالم فاضل، وأكثر هؤلاء حضروا ببيوتهم ونسائهم وغلماهم وحفدتهم⁽¹⁾.

وقد سار بعضهم مع السلطان وجيشه مكرهين، وعلى رأسهم ابن البرواناه: "والذين حضروا تحت الغضب: ولد البرواناه المذكور، وولد خواجا يونس، وهو ابن بنت البرواناه، ووالدة البرواناه، والأمير نور الدين جاجا، وهو أكبر أمراء الروم أصحاب النعمة والنعم، والأمير قطب الدين أحمد أخو الأتابك، والأمير سيف الدين سنقر حاه الروناسي، والأمير سراج الدين إسماعيل بن جاجا، والأمير نصرة الدين صاحب سيواس، والأمير كمال الدين عارض الجيش، والأمير حسام الدين ركاوك قريب البرواناه، والأمير سيف الدين الجاويش، والأمير سراج الدين أخو حسام الدين، والأمير شهاب الدين غازي بن علي شير التركماني"⁽²⁾.

ويذكر الأسرى من المغل، حيث يقول: "وَمِنَ الْمُغْلِ: مَقْدَمِي الْأُكُوفِ وَالْمَاتِ"⁽³⁾: زيزك، وسرطلق، وحنوكه، وسركده، وتماديه"⁽⁴⁾.

ويبدو أنَّ السلطان في أثناء عودته سلك طريقاً مغايراً للذي سلكه عند مسيره إلى قيسارية ممّا فتح المجال أمام الكاتب لوصف الطريق الجديدة ومظاهرها، وما يُلاحظ في أثناء حديثه عن رحلة العودة أنَّ السرد لم يكن طويلاً كما في بداية المسير، ولعلَّ ذلك عائد إلى قلة الأحداث التي جرت في أثناء العودة، إضافة إلى انتهاء الكاتب من وصف الحدث الهام، المتمثل بمحاربة التتار وفتح مدينة قيسارية: "ثمَّ رحل السلطان في اليوم الثاني ونزل بمنزلةٍ قريب خان السلطان علاء الدين كيقباز، ويعرف بكرواني صراي، وهذا الخان بُنيةٌ عظيمة من نسبة خان قرطاي، وله أوقاف عظيمة ومن جملة ما وُجد قريباً منه أدوات كثيرة من الأغنام عبثت فيها العساكر المنصورة، سألتُ عنها فقل: إنَّها وقَفٌ على هذا الخان يُذبح نتاجها

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 160-159/14.

² المصدر نفسه، 160/14.

³ "والمات" في الأصل.

⁴ القلقشندي، صبح الأعشى، 160/14.

للواردین علی هذا الخان، وهذه الأغنام له من جملة الوقوف، قدّر الله استفادها جملة لما كُثرت علی هذا الخان من الجيوش المنصورة الضيوف، ورحلنا في اليوم الثالث وهو يوم الأربعاء ثاني عشرين من الشهر، ونزلنا في وطأة عادة التتار ينزلون بها تُسمّى روران كودلوا، وكودلوا اسم جبال تلك الوطأة⁽¹⁾.

ومن أبرز الصعوبات التي اعترضتهم في أثناء عودتهم، عبورهم منزلق خطير، أدّى إلى اضطرابهم، فتدخل السلطان لحلّ ذلك المأزق، فأعاد النظام إلى جيشه وجعلهم يسيرون واحدا فواحدا حتى مرّوا جميعا بسلام، وكان هو آخر الماريّن، وهذا يدلّ على أنّ القائد المسلم يمتاز عن غيره من القادة بتفضيله المصلحة العامة على مصلحته الخاصة: "ورحلنا في يوم الخميس ثالث عشرين من ذي القعدة، فعارضا بها -في وطأة خلف حصن سمندو من طريق غير الطريق التي كنا توجّهنا منها- نهرٌ يُعرف بنهر قزل صو، قريب كودلوا الصغير، ومعنى قزل صو النهر الأحمر، وهذا النهر صعب المخاض، واسع الاعتراض، عالي المهبط، زلق المسقط، مرتفع المرتقى، بعيد المستقى، لا يجد السالك من أحوال حافتيه إلا صعيدا زلقا، فوقف مولانا السلطان بنفسه، وجرد سيفه بيده، وبأشّر العمل بنفسه هو وجميع خواصّه، حتى تهيأ المكان جميعه، ووقف راجلا يعبر الناس أولا: من كبير وصغير وغلام وهو في أثناء ذلك يكرّ على من يزدحم، ويكرّر التأديب لمن يطلب بأذية رفيقه ويقتحم، وما زال من رابعة هذا النهار إلى الساعة الثامنة حتى عبرت الناس سالمين، ولما خفت البرور ولم يبق إلا المرور، ركب فرسه وعبر الماء والألسنة له داعية، وعليه من الله واقية باقية، فنزل في وادٍ به مرعى ولا كالسعدان⁽²⁾ ومرأى ولا كشعب بوان⁽³⁾.

ويتابع حديثه قائلا: "ثمّ رحل في يوم الجمعة فنزل عند صحرات قراجار حصار، وهي قرية كانت عامرة فيما مضى، قريبة من هدر رجال قبالة بازار بلكو،

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 161/14.

² مثل يضرب للشيء الحسن، الميداني، مجمع الأمثال، 276/2-277.

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 161/14.

وهذا البازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويُبَاع فيه كُلُّ شيء يُجلب من الأقاليم، ويقرب من كودلوا الكبير⁽¹⁾.

ويُقدِّم الكاتب للقارئ مشهداً مروّعاً لأرض المعركة عند مرورهم به في أثناء عودتهم، إذ أصبح مرتعاً للطيور الجارحة والحيوانات المتوحشة التي وجدت طعامها هنالك، حيث الأشلاء المتناثرة، والدماء المنتشرة، ونظراً لكثرة القتلى في تلك المعركة لم يستطع أحد تحديد عددهم بدقة: "وسرنا في يوم السبت سَوْقا طوال النَّهار، حتى نزلنا في وطأة الأبلستين، وفي هذا النهار عبر مولانا السلطان-نصره الله- على مكان المعركة لمشاهدة أمم التتار، وكيف تعاقبت عليهم من العقبان كواسرها، وكف بأسهم من النسور مناسرها، وكيف أصبحوا لا يندبهم إلا البوم، وتحققوا أن التي أهلكتهم زُرُق الأسنة لا زُرُق الروم، فرآهم لمن بقي عيرة، وعرضوا على ربهم صفًا وجأؤوه كما خلُقوا أول مرة، وأبصرَ الرياحَ لاشلائهم مُتخطفة، والهوامُ في أجسادهم متصرفة، وشاهدَهم وقد هذأهم كُلُّ شيء حتى الوحوش والرياح: فهذه من صديدهم متكرّعة، وهذه عليهم متقصّفة:

قد سوّدت شجرَ الجبالِ شعورهم فكأنَّ فيه مُسفةَ الغربان!⁽²⁾

ولمّا عاينهم مولانا السلطان وعاينهم الناس، أكثرُوا شكر الله على هذه النعم، التي أمست لكافة الكفر كافة، وشالّة ودارزة، وأثنوا على مننه التي سنّت إليهم خيار العساكر المنصورة حتى أصبحت تلك الأرض بهم بارزة، وحضرت من أهل الأبلستين هنالك جماعة من أهل التقى والدين، واستخبرهم مولانا السلطان عن عدّة قتلى المُغل فقالوا: ﴿فاسألِ العاديين﴾⁽³⁾، فاستفهم من كبيرهم عن عدّة المُغل كم من قتل، فقال: قُل الله أعلم بعدّتهم ما يعلمهم إلا قليل⁽⁴⁾، وقال بعضهم ممّن عدّهم وممّن عنده علم من الكتاب⁽⁵⁾: أنا عددتُ ستة آلاف وسبعمائة وسبعين نفراً، وضاع

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 162/14.

² المتنبي، ديوان أبي الطيّب المتنبي، ص 416.

³ سورة المؤمنين، آية 113.

⁴ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، سورة الكهف، آية 22.

⁵ العبارة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾، سورة النمل، آية 40.

الحساب، هذا غير من آوى إلى جبلٍ يعصمه من ماء السيوف فما عصمه، وغير من اعتقد أن فرسه تسلمه فأسلمه، فتركهم مولانا السلطان ومضى والفلوات مزرعةً لجسومهم، والدود -لأنها مؤمنة وهم كفّار- قد أثرت كالنّواسر في لحومهم⁽¹⁾.

ويواصل حديثه عن رحلة العودة حتى الوصول إلى مشارف الشام، ولا يخلو حديثه من ذكرٍ لأهمّ الصعوبات التي واجهتهم، وعندما يصل إلى نهاية رسالته يُظهر ابن عبد الظاهر تشوّقه إلى بلده مصر، إذ إنّه يُفضّل مُدنها وحاراتها ومناظرها المختلفة على الأماكن الأخرى جميعها: "فرسم مولانا السلطان تقدّم الأثقال والحراس والدھليز المنصور صُحبة الأمير بدر الدين الخازندار، والدخول في أقجة دربند، وأقام مولانا السلطان في ساقّة العسكر المنصور بقيّة يوم السبت ويوم الأحد:

فَهُوَ يَوْمَ الطَّرَادِ أَوَّلُ سَابِقٍ وَهُوَ يَوْمَ الْقِفُولِ آخِرُ سَائِقٍ!

وانتظرَ في هذين اليومين صيدا من العدوِّ يَعرَن، وما من دمائمهم⁽²⁾ إلى السيف يحنّ، فلمّا لم يجد أحداً رحل في يوم الإثنين فنزل قريبا من الخان الذي في الدّرْبند وركب يوم الإثنين من طريق غير التي حضر منها، فسلك طريقاً من الأوعار ييسا، والأنجم قيسا، فقاسى العالم في هذا اليوم من الشدّة ما لا يدخل في قياس، وكادوا يهلكون لولا أن الله عزّ وجلّ تدارك الناس، فتسابقوا ولكن على مثل حدّ السيف، وتسألوا ولكن سلّ حوافر الخيل كيف؟ وهبطوا من جبال يستصعبها كلّ شيء حتّى طارق الطيف، يستصعب الحجر المُحلّق من شاهق وقوعه في عقابها، ويستتهول النّجم الثاقب ترفع شعابها، وبالقرب منها جبلٌ شاهق يُعرف بسقر، وما أدراك ما سقر، لا يُبقي على شيء من الدّواب ولا يذر، وله عَقَبَةٌ لَوَاحَةٌ للبشر⁽³⁾، أعان الله على الهبوط منها، وفاز بمشيئة الله وبسعادة مولانا السلطان هناك، وكان قضيّم البغال تلك الليلة ورق البلوط، إلا من أمست عناية الله أن تُيسر في شعيرٍ بخمسة عشر درهما كلّ مُدٍّ يحوط. ورحل مولانا السلطان في يوم الأربعاء تاسع عشرين من ذي القعدة فنزل قريب كسول المقدّم ذكرها، وعدل إلى طريق مَرعش فزال -

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 162/14 - 163.

² "دمائمهم" في الأصل.

³ العبارة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ * لَا يُبْقِي وَلَا يُدْرِكُ * لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾، سورة المدثر، آية 27، 28، 29.

بحمد الله - الداعي، وقالوا للشّعير: ما فينا لك مخاطب ولا منّا فيك بمالهٍ مخاطر، وللخيول: قد حصل لك في مصرَ الربيع الأول في شعبان، وفي الشام في ذي الحجة الربيع الآخر، فارتعت لا يروعا أصحاب الموازين في تلك المساجد، واستمرت في مروج يتأسف عليها ابن المساجد، وقسم مولانا السلطان تلك الأعشاب كما تقسمت في آفاق السماء النجوم، وأوقف كلَّ أحدٍ في مقام حتى قال: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾⁽¹⁾، فكَم هُنالك من مروج أعشبت فأعجبت، وانجابت السماء عنها فأنجبت، وأربت على زهر النجوم واهتزّت وربت⁽²⁾:

يَصُدُّ الشَّمْسَ أَنِّي وَاجَهَتُنَا فَيَحْجُبُهَا وَيَأْذَنُ لِلنَّسِيمِ!

يتخلّلها هُناك أترعُ الحياض، ويلهو بها كلُّ شيءٍ فكَم قصف العاصي بها في تلك الرياض، هذا كلّهُ: وخيرٌ من أرزنجان حارة برجوان، وخيرٌ من أراضِي توزير قطعة من ايليز، وكومٌ من كيماَن سقط ميدوم، خيرٌ من قصر في قيصريّة الروم، ونظرةٌ إلى المقاس خيرٌ من سيواس، ومناظر اللّوق خيرٌ من كيقباز آل سلجوق، وتربةٌ من تَرَب القَرافة خيرٌ من مروج العرافة، وشبرٌ من شبرا خيرٌ من سطا ومرا:

وجلوسٌ في بابِ دارِكَ خيرٌ	من جلوسٍ في بابِ إيوانِ كسرى
والتماحي لنورِ وجهِكَ خيرٌ	لي مِن أَنّني أشاهدُ بدرًا!
يَا وَلِيًّا يُولي الأيادي سِرًّا	ووزيراً فليسَ يَكسِبُ وزراً
مَا رَأَيْنَا والله فيمَن رَأَيْنَا	لَكَ مِثْلًا مِنَ البريّة طُـرّاً
كَمْ خَبَرْنَا الرِّجَالَ فِي كُلِّ أَرْضٍ	فَإِذَا أَنْتَ أَعْظَمُ الْخَلْقِ قَدْرًا!
كَمْ فُلَانٌ قَالُوا وَقَالُوا فُلَانًا	فَإِذَا النَّاسُ دُونَ عَلِيَاكَ حَسْرَى
لَكَ مَدْحٌ قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ سُبْحَا	نَ إِلَهٍ بِهِ إِلَى النَّاسِ أُسْرَى!

وَمَا رَأَيْنَا مِصرًا كَمِصرَ وَلَا مِثْلَكَ فينَا، والحمدُ لله شكراً⁽³⁾.

¹ سورة الصافات، آية 164.

² العبارة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تُرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ

وَرَبَّتْ﴾، سورة فصلت، آية 39.

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 165-163/14.

2.3.2 البشاراتُ والتهاني

اعتادَ سلاطينُ المماليك على إشراك المسلمين جميعاً بالفرحة التي تغمرهم، جرّاء انتصارهم على الأعداء وفتح المعازل المسلوّبة وانتزاعها من بين أيديهم، فراحوا يأمرّون كتابهم في كلّ مرّة بتسطير رسائل البشرى وإرسالها إلى شتّى البقاع الإسلاميّة، ليصل نبأ الانتصار أو الفتح إلى مسامع المسلمين فيها، فيشعرون بالسرور والنشوة نظراً لقوّة الجيوش الإسلاميّة التي تعمل جاهدة من أجل كبح جماح الشرّ وأهله ورفع راية الإسلام، وفي الوقت نفسه تقبّل أولئك السلاطين رسائل التهنئة الواردة إلى ديوان الإنشاء آنذاك، وردّوا عليها شاكرين لأصحابها حسن مبادرتهم بالتهنئة.

ويتناولُ الكتّابُ -عادةً- في أثناء إنشائهم رسائل البشرى موضوعات محدّدة، تتمثّل بالتّويه إلى أهميّة الانتصار أو الفتح أولاً، ووصف حصانة المعقل المراد فتحه ومناعته ثانياً، وذكر أهم الإجراءات التي اتّخذت من أجل تسهيل عمليّة الفتح ثالثاً، إضافة إلى استحضار مقتطفات من مجريات المواجهة بين الفريقين المتقاتلين رابعاً، والاتّجاه إلى مدح القائد الفاتح والافتخار بجيشه الباسل خامساً، وغيرها من الموضوعات التي ستتضح في أثناء عرض الرّسائل المعنيّة بذلك.

ومنها رسالة أنشأها محيي الدين عن المظفر قطز إلى الملك المنصور صاحب اليمن، بعد انتصاره على التتار في موقعة عين جالوت ، ويبدوها بأسلوب مختلف عن الرسائل المتناولة سابقاً، فيستهلّها بالدعاء للمرسل إليه، مازجاً إيّاه ببعض الألقاب التي تخصّه، ويتمثّل الاختلاف في أسلوبه بجعل الدعاء مقدّمة لهذه الرّسالة، مع أنّه جاء متوسّطاً لبعض الرّسائل السابقة، وخاتمةً لبعضها الآخر، يقول: "أعزّ الله تعالى أنصار المقرّ الشريف العالي، المولويّ، السلطانيّ، الملكيّ، المنصوريّ، وأعلى مناره، وضاعف اقتداره"⁽¹⁾.

ويعمدُ بعد ذلك إلى الإفصاح عن موضوع الرسالة الرّئيس المتمثّل بزفّ بشرى الانتصار للملك المقصود، ولا يخفى ما لهذا من دلالة على أهميّة، ولا شكّ في ذلك إذ إنّ المماليك تمكّنوا حينها من التغلّب على التتار وكسروهم لأوّل مرّة في

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 360/7.

تاريخهم الحربيّ الطويل، وقد عجزت الجيوش الإسلاميّة في العصور السابقة عن تحقيق ذلك، ولهذا فلا يُستغرب لجوء الكاتب إلى الإطناب في تمجيد ذلك النّصر: "تُعلمه أنّه لما كان النّصف من شهر رجب الفرد، فتح الله تعالى بنصر المسلمين على أعداء الدين:

مِنْ كُلِّ مَنْ لَوْ لَا تَسَعَّرَ بِأَسِيهِ لاخْضَرَّ جُوداً فِي يَدِيهِ الْأَسْمَرُ⁽¹⁾

فصدرت هذه التهنئة إليه رواية للصدق عن اليوم المحجّل الأغرّ:

يَوْمٌ غَدَا بِالنَّقْعِ فِيهِ يَهْتَدِي مَنْ ضَلَّ فِيهِ بِأَنْجُمِ الْمُرَّانِ

ففي أذن الدهر من وقعه صمم، وفي عرنين البدر من نقه شمم، ترفعه رواة الأسل عن الأسنة، ويُسنده مَجَرُّ العوالي عن مَجَرِّ الأعنة⁽²⁾.

ويلجأ إلى تفصيل جزئيات الحدث منذ قدوم العدو إلى بلاد الشام حتى هزيمته على أيدي المماليك، مُظهراً خطأ التتار في إقدامهم على تلك الخطوة، التي عادت عليهم بالندامة والحسرة، ومبيّناً في الوقت ذاته قوّة الجيش المملوكي التي دفعته إلى استحضار كثيرٍ من عبارات المدح والثناء التي ينهال بها على أفرادهِ: "أما النّصرُ الذي شهد الضرب بصحّته، والطعن بنصيحتته، فهو أنّ التتار -خذلهم الله تعالى- استطالوا على الأيّام، وخاضوا بلاد الشام، واستجدوا بقبائلهم على الإسلام:

سَعَى الطَّمْعُ الْمُرْدِي بِهِمْ لَحُتُوفِهِمْ وَمَنْ يُمَسِكُنْ ذِيْلَ الْمَطَامِعِ يَعْطَبْ

فاعتاضوا عن الصّحة بالمرض، وعن الجوهر بالعرّض، وقد أرخت الغفلة زمامهم، وقادَ الشيطان خطامهم، وعاد كيدهم في نحورهم: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾⁽³⁾:

رَامُوا الْأُمُورَ فَمَذْ لَاحَتْ عَوَاقِبُهَا بِضِدِّ مَا أَمَلُوا فِي الْوَرْدِ وَالصَّدْرِ

ظَلُّوا حَيَارَى وَكَأْسُ الْمَوْتِ دَائِرَةٌ عَلَيْهِمْ شَرَعَا فِي الْوَرْدِ وَالصَّدْرِ!

وَأَضْعَفَ الرُّعْبُ أَيْدِيَهُمْ فَطَعْنَهُمْ بِالسَّمَرِيَّةِ مِثْلُ الْوُخْزِ بِالْإِبْرِ!

لا جرم أنّهم لسنّ الندم قارعون، وعلى مقابلة إحساننا بالإساءة نادمون:

¹ المعري، أبو العلاء (ت 494هـ)، سقط الزند، شرحه، أحمد شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 228، وفيه بدلا من "جودا في يديه"، "في يمين يديه".

² القلقشندي، صبح الأعشى، 360/7.

³ سورة الأحزاب، آية 25.

تَدْرَعُوا بدروع البغي سابغة والمرء يحصد من دُنياه ما زَرَعَا!
فأفلعت بهم طرائف الضلال، وسارت مراكب أمانهم في بحار الآمال، فتلك
آمال خائبة ومراكب للظنون عاطبة، وأقلعوا في البحر بمراكبه، والبر بمواكبه،
وساروا وللشيطان فيهم وساوس، تغرهم أمنيّة الظنون الحوادم، فما وسوس
الشيطان كُفراً إلا وأحرقه الإيمان بكوكب،⁽¹⁾ هذا وعساكر المسلمين
مستوطنة في مواطنها، جاذبة عقبانها في وكر ظيائها، رابضة آسادها في غيل أقنأها
وما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة، ولا ثبتت لأحد حجة إلا وكانت
الجمعة لها ناسخة، ولا عقدت برجمة ناقوس إلا وحلها الأذان، ولا نطق كتاب إلا
وأخرسه القرآن، ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار، وأخبار الكفار تنتقل إلى
المسلمين إلى أن خلط الصبح فضته بذهب الأصيل، وصار اليوم كأمس، ونسخت
آية الليل بسورة الشمس، واكتحلت الأعين بمرود السبات، وخاف كل من المسلمين
إصدار البيات:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى الأعداء، فهو يقظان نائم!⁽²⁾
ويلاحظ مما سبق تركيز الكاتب على الألفاظ التي تظهر التباين العقائدي بين
الطرفين المتقاتلين مثل: "الشيطان"، "الذين كفروا"، "وللشيطان فيهم وساوس"، "فما
وسوس الشيطان كُفراً إلا وأحرقه الإيمان"، "ولا عقدت برجمة ناقوس إلا وحلها
الأذان، ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن"، "المسلمون"، "الكفار"، ولا غرو في
ذلك، فالحرب بين المسلمين بشكل عام وبين أعدائهم من معتقي الملل الأخرى،
حرب عقائدية بالدرجة الأولى، الهدف منها نشر الإسلام وإعلاء رايته.

ويصور لحظة الالتقاء والاصتدام حيث الطعن والرمي، وانتشار الدماء،
وانعقاد النقع فوق الرؤوس ولمعان السيوف والرماح، وصهيل الخيول، إلى أن يصل
إلى نهاية الحدث المتمثلة بقتل معظم أفراد الجيش التتري وإحاق الهزيمة بهم: "إلى
أن تراءت العين بالعين، وأضطرم نار الحرب بين الفريقين، فلم تر إلا ضرباً يجعل
البرق نضواً، ويترك في بطن كل من المشركين شلوا حتى صارت المفاوز دلاصاً،

¹ بياض في الأصل.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 360/7-362.

ومراتع الظُّبَا للظُّبَا عراضاً، واقتنصت آساد المسلمين المشركين اقتناصاً، فلا روضةً إلاّ درع، ولا جدول إلاّ حسام، ولا غمامة إلاّ نفع، ولا وبل إلاّ سهام، ولا مُدام إلاّ دماء، ولا نغم إلاّ صهيل، ولا مُعربد إلاّ قاتل، ولا سكران إلاّ قَتِيل، حتى صار كافور الدين شقيقاً، وتلوّن الحصباء من الدّماء عقيقاً، وضرب النّقيع في السّماء طريقاً، وازدحمت الجنائب في الفضاء فجعلته مَضيقاً، وقُتِلَ من المشركين كلّ جَبّار عنيد، وذلك ما قدمت أيديهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾⁽¹⁾»⁽²⁾.

وقد قال القلقشنديّ عند عرضه للرسالة السابقة: "وهذه النّسخة تُلَفِّقُهَا من أفواه بعض النّاس، ذكرَ أنّه وجدها في بعض المجاميع فحفظها منه، وهي في غاية من البلاغة، إلاّ أنّها لا تخلو من تغييرٍ وقع في بعض أماكنها، ولعلّه من النّاقِل لها، من حيث إنّهُ ليس من أهل هذه الصّناعة، ولم يسعني ترك إيرادها لما فيها من المحاسن، ولانفرادها بأسلوب من الأساليب التي كتب بها إلى ملوك اليمن، فأوردتها على ما هي عليه، وجزى الله خيراً مَنْ ظَفَرَ لها بنسخةٍ صحيحةٍ فقابلها عليها وصحّحها وأصلح ما فيها"⁽³⁾.

وقد مرّ الحديث سابقاً عن كيفيّة فتح الظاهر ببيرس لمدينة أنطاكية سنة (666هـ)، عند تناول رسالة البشريّ الساخرة التي بعثها لحاكمها البرنس بيمند، فقد كان لخبر فتحها وقعٌ كبير في نفوس المسلمين؛ نظراً لمنعتها التي حالت بين كثيرٍ من الحكّام ومرادهم في فتحها، إلى أن تمّ الأمر على يد السلطان الظاهر.

ومن رسائل البشريّ التي بعثها السلطان إلى بعض الأعيان على أثر الفتح المذكور، رسالة أنشأها محيي الدين بن عبد الظاهر للقاضي ابن خلّكان مستفتحاً إيّاها بنعت القاضي بالمجلس السّامي، دلالة على رفعة مكانته لدى السلطان، ومزج ذلك بعدد من العبارات الدّعائيّة المليئة بالمفردات الدّالة على موضوع الرسالة الرئّيس: "أدامَ الله سعادة المجلس السّامي القضائي، ولا برح يؤثر البشائر حشايا

¹ سورة فُصِّلَتْ، آية 46.

² القلقشنديّ، صبح الأعشى، 362/7.

³ المصدر نفسه، 362/7.

المنابر، ويجري من السرور الهاجم عيون المحابر، ويسجد لها قلم الناظم والناثر، ويتلقاها ببشر إذا تأمل قادمه قال: كم ترك الأول للآخر⁽¹⁾.

ويصرّح الكاتب بأن فتح أنطاكية ما هو إلا نعمة من نعم الله الكثيرة، التي من بها على السلطان ومماليكه، حيث إنه سهل لهم طريق فتحها بعد أن كانت عسيّة على من سبقهم، ولا يخلو الحديث السابق من الفخر الناتج عن ذلك الفتح: "هذه المكاتبه تتحدثُ بنعمة الله التي تهلّل لها وجه الإيمان، وهلّل بها من أهله كلّ لسان، وجاءت بحمد الله- حلوة المُجتنى حافّة بالنصر من هنا ومن هنا، وذلك بفتح أنطاكية التي لم تتطرق إليها الحوادث والخطوب، ولا خرق حديث فتحها الأسماع، ولا هجس في القلوب، وادّخرها الله لنا، ليخصّنا بفتحها الوجيز، ويجعلها باباً لما يليها من بلاد الكفر نلج منه بمشيئة الله، وما ذاك على الله بعزيز"⁽²⁾.

ويسترسل بعد ذلك في الحديث عن كيفية فتح تلك المدينة مبتدئاً بذكر خروج السلطان بصحبة جيشه الجرّار من طرابلس وقصده أنطاكية، ومنوّهاً إلى حصانتها ومنعتها، إضافة إلى قوّة أهلها وشجاعتهم، ولا ينسى كذلك تحديد وقت دخول الجيش الفاتح للمدينة: "وهو أنا لما فرغنا من فتوحاتنا التي سبق بها الإسلام، وإشاراتنا التي خصت وحصت طرابلس الشام، ثنينا العنان إلى هذه الجهة، فشاهدنا منها ما يروق النّواظر، ورأينا مدينة يجتمع داخل سورها الإنسان والوحش الطائر للاستيطان والبادي والحاضر، تحفّ بها أسوار لا يقطعها الطائف في يوم سيرا، ولا يدرك النّاظر من أولّها لها أخيراً، وبها رجال غدوا إليها ﴿من كلّ حدبٍ يسئلون﴾"⁽³⁾ ومن كلّ هضبة ينزلون، وفي ظلال كلّ مطهم يتقيّلون، وكان نزولنا عليها في يوم الأربعاء غرة شهر رمضان المعظم"⁽⁴⁾.

ومع أن السلطان أنذر أهل المدينة قبيل مهاجمتها -كما مرّ سابقاً- إلاّ أنّه أحسّ بخوف أعيانها من البرنس بيمند، عندما قدموا إليه بصحبة كندا إصطبل طالبين الصلح والأمان، لذلك قرّر المبادرة إلى الهجوم، وما هي إلاّ هنيهة حتى عمّ الدمار

¹ اليونيني، قطب الدين موسى (ت 726هـ)، ذيل مرآة الزمان، ط1، مطبعة مجلس المعارف العثمانية، الهند، 1955م، مج 382/2.

² المصدر نفسه، مج 383/2.

³ سورة الأنبياء، آية 96.

⁴ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مج 383/2.

أرجاء المدينة، حيث النار المضرمة، والدِّماء المُرّاقاة، وسبي النساء، ونهب الأموال، إلى غير ذلك: "فلم يكن إلاّ بقدر ما نزلنا إلاّ ورسلمهم قد حضروا ليمسحوا أطراف الرّضا، ويتقاضوا من العفو أحسن ما يُقتضى، فما أُلوى عليهم حلمنا ولا عرج، ولا نفس عنهم كربة ولا فرج، فزحفنا إليها في يوم السبت بُكرة وهو رابع الشّهر، فلم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار، وقد دخلت عليهم من أقطارها، وتسوّر العسكر المنصور من أسوارها، وامتدّت السّنة الصّوارم وأسنة الرّماح، وشُهرت البيض الصّقاح، وأريقّت الدّماء، واستُحيّت النّساء، وغنمت الأموال وجُدلت الأبطال، ووجدَ العالم من التّحف والنّعم ما لا كان يمرّ في خلد ولا يخطر في بال"⁽¹⁾.

وينوّه إلى أنّ هذه الرّسالة سَطّرت بعد تحقيق ذلك الفتح، وهي تتضمّن زفّ البشرى لمن وُجّهت إليه، ويطلب إليه فيها العمل على نشرها وإعلامها للجميع: "وكتابتنا هذا واليد الإسلاميّة لها متسلّمة وفيها متحكّمة، فالمجلس يأخذ حظّه من هذه البشرى ويرى فيها هذه الآية الكبرى، وما نريهم من آية إلاّ وهي أكبر من الأخرى،⁽²⁾ ويتلقّاها ببشر فقد بعثنا بها الله في أحسن رونق من النّصرة، وأقبلت - بحمد الله - كما بدأت أوّل مرّة، فليُشعها المجلس في كلّ بادٍ وحاضر، وليُنشر خبرها على أكبادِ المنابر، والله يُكرمه بجعل سعادته من أتمّ الذّخائر، إن شاء الله تعالى"⁽³⁾. ويختتم الرّسالة بتحديد وقت كتابتها باليوم والشّهر والسّنة قائلا: "كتب رابع شهر رمضان المعظّم سنة ستّ وستين وستمائة"⁽⁴⁾.

وفي السّنة ذاتها، قرّر السلطان الظاهر فتح مدينة يافا بعد أن كان الصّلح قائما بينه وبين صاحبها المتوفّى جوان دبّلين، فعلى الرّغم من طلب حاكمها الجديد، جاك ابن جوان دبّلين عقد الهدنة بينهما، إلاّ أنّ السلطان لم يجبه إلى ذلك، نظراً لإخلال أهل المدينة المذكورة ببعض شروط الهدنة السابقة، من مثل حملهم الميرة إلى أهل عكا رغم منعها عنهم، وإقامتهم حانة في مدينتهم وإيقافهم فيها عدداً من المسلمات، وعلى أثر ذلك ساق السلطان جيشه إليها في العشرين من جمادى الأولى بغية

¹ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مج 383/2.

² العبارة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَهِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾، سورة الزخرف، آية 48.

³ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مج 383/2-384.

⁴ المصدر نفسه، مج 384/2.

فتحها⁽¹⁾ وما أن تحقّق مراده حتى أمر كتّاب الإنشاء بتسطير البشارات وزفّها إلى حكام البلدان الإسلاميّة المجاورة وأبرز أعيانها، فخصّ ابن عبد الظاهر بإنشاء رسالته إلى ابن خلّكان، وقد بدأها بالدّعاء قائلاً: "هذه المكاتبَةُ إلى المجلس السّامي - أسمعهُ الله من البشائر أجملها، ومن التّهاني أشملها، ومن تحيّات النّصر أفضّلها، ومن سور الإتحاف بالظّفر منزلها"⁽²⁾.

وما يُلاحظ في رسائل البشري دخول الكتّاب -عادةً- إلى موضوع الرسالة الرئّيس، دون اللّجوء إلى التّطويل الذي يسبق موضوعات رسائل العهود والتّقاليد والمراسيم والتّواقيع، ولعلّ ذلك عائد إلى أهميّة الحَدَث: "تعلنُ بشري بفتح حَسُن استفتاحه، وتساوي في الجلالة غرره وأوضاحه، وأتى بسملة لهذه الغزاة المباركة التي بها تتبرّك المهارق، ومفتاحاً لمُغلق الحصون التي إن فتحها الله فلا مُغلق، وإن سهّلها فلا عائق"⁽³⁾.

ويذكرُ للقاضي سبب لجوء السلطان إلى فتح يافا، مشيراً إلى تعدي أهلها على ما هو مشروط عليهم، إضافة إلى سوء شمائلهم كما ذكر سابقاً: "وذاك لأنّ يافا قد كثر عدوانُ مَنْ فيها وحصلَ من إضرارهم ما لا يقدر أحد على تدراك تحقيقاتها ولا تلافيتها، وصارت لعكاً -يسرّ الله فتحها- طليعة مكر ومادّة كفر، منها يمتارون من كلّ ممنوع وربّما يأمنون من خوف ويشبعون من جوع"⁽⁴⁾، ويتطلّعون إلى دار الإسلام منها من وراء زجاجة، ويجعلونها لهم باباً يتوصلون منه عند الاجابة إلى ما في نفوسهم من حاجة"⁽⁵⁾.

ويبدأ بعد ذلك بتفصيل الأحداث مشيراً إلى توجّه السلطان إلى تلك المدينة، ومحدّداً وقت دخوله إليها، ومنوّهاً إلى سرعة فتحه لها، فقد كانت بمثابة محطة يستريح فيها لدقائق معدودة ومن ثمّ يواصل مسيره بعدها، يقول: "فلما توجّهنا هذه الوجهة المباركة، وتعوّضنا منها من إنجاز الملوك بالملائكة، صرفنا إليها العنان

¹ انظر: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 292-293.

² اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مج 375/2.

³ المصدر نفسه، مج 375/2.

⁴ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾، سورة قريش، آية 4.

⁵ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مج 375/2.

يسيراً، وعرجنا عليها تعريج مُستروح تُمَّ يستأنف سيرا، وطرقناها بُكرةَ يوم
الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة، فما مضى إلا بقدر ما جُرِّدت السيوف من
الأغماد، أخذت المعاول في العويل على أهل الإلحاد، ونطقت ألسُنُ الأعلام بالنصر
المبين، وتلقَى النصر رايتنا باليمين⁽¹⁾.

ويستخدمُ عدداً من التشبيهات الحسنة في تصوير حصار الجيش الفاتح لتلك
المدينة، ويبين مدى إرهاقه لها، فقد فتح أفرادها النُقب فيها، وأراقوا الدماء على
أرضها، ودخلوها عنوة، فاضطراً أهلها إلى تسليمها وطلب الأمان على أنفسهم،
فحقَّق لهم السلطان ما طلبوا، وتسلم المدينة بفرحة عارمة، أراد أن يشاركه فيها بقيَّة
الحكام والأعيان من خلال زف البشرى إليهم بهذا الفتح، الذي يعدّه خطوة أولى على
طريق الفتوحات التي يطمح إلى تحقيقها في المستقبل: "وطُفنا بها طوافَ المناطق
بالخُصور والشفاء بالثغور، وإذا بأهلها يطلبون الأمان على النفوس خاصّة، وأنهم
يبدلون لنا كلّ ما لهم من مالٍ وغلّالٍ وسلاحٍ وغير ذلك، فأجبناهم إلى ذلك، وما
فتحوا الأبواب إلا والرجال قد فتحت النُقب، ولا جيبوا الأطواق إلا والسيوف قد
فتّقت الجيوب، ولا خرجوا من قلعتها إلا والأبطال عليها قد علت، ولا طلعوا منها
إلا والأولياء إليها قد دخلت، وما حصلوا خارجها إلا والمقاتلة بها قد حصلت،
وتسلمناها وقلعتها فتحاً قريباً، وتسلمناها مرتعاً مُربعا، ومربعاً خصيباً، وسطرناها
في الساعة التي قام لسانُ العلم قبل لسان القلم على منبرها خطيباً. فيأخذ حظّه من
بشرى جاءت طليعة لما بعدها من البشائر، وأقبلت مُفهمّة بأن لا بُدَّ من بعدها من
فتوحات تتبع الأوائل منها الأواخر، والله تعالى يوفّقه في الموارد والمصادر، إن شاء
الله تعالى"⁽²⁾.

وقد ذكر ابن عبد الظاهر في كتابه (الروض الزاهر) أنّ السلطان الظاهر أمر
بهدم قلعتها وجمع أخشابها وألواح الرّخام التي وُجدت فيها، ونقلها إلى القاهرة، وما
أن تمَّ ذلك حتى رسم بعمل الخشب مقصورة في الجامع الظاهري بالحسينيّة،

¹ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مج 375/2-376.

² المصدر نفسه، مج 376/2.

والرخام لمحرابه، فعُمل ذلك، كما أنه أمر ببناء الجوامع والمساجد بتلك المدينة، وإظهار شعائر الإسلام وإزالة المنكرات فيها⁽¹⁾.

وعلى نمط الرسائل السابقة سطرَ الكاتب رسالةً عن الظاهر بيبرس لابن خلكان أيضاً، يُعلمه فيها بفتح حصن الأكراد سنة (669 هـ)، قائلاً: "هذه البشري إلى المجلس القضائي، لازالت التهاني عنده وثيقة الأواخي، حسنة التواخي، عجلة لإرضاء أهل الإيمان فلا يُرعى له أعنة التراخي، تُعلمه بفتوحات شملت بشائرها وتعرفت بالنصر أمائرهما، واستطعم الإيمان حلاوتها من أطراف المران، واستتطق الإسلام عباراتها من السنة الخرصان، وذلك بفتح حصن الأكراد"⁽²⁾.

وينوّه إلى أنّ الحصن المذكور كان غصةً في حلق المسلمين جميعاً، فقد كان الأمل يُحدوهم دائماً بفتحه واستخلاصه من أيدي الصليبيين الذين جعلوا منه قاعدة للكفر ومتعلقاته، في أرض عربية مُسلمة، وعلى الرغم من الحصانة التي يمتاز بها، قرّر السلطان شدّ الرّحال إليه لتحقيق الأمل المرجو: "الذي كان في حلق البلاد الشاميّة غصةً لم تسغ بمياه السيوف المجردة، وشجاً في صدورهما لم تقاومه أدوية العزائم المفردة، طالما أكسب البلاد رعباً ورهباً، وطالما استمرى من أخلاق الاسبتار حلباً، وكم صان كُفراً في بلاد الإسلام وحمّاه، وكم ابتنى منها بُبكر أساء صحبتها فما خشي معرّة ولا خاف حماة، وقد سما في السماء فلا أمل إليه يمتد، وعلا في الهواء فلا بصر يلّمحه إلا وينقلب خاسئاً ويرتد"⁽³⁾، ما كان بأكثر مما قدّمنا الاستخارة وشننا على البلاد الإغارة، وعلّنا بالمكاسرة عنه نفسه الأمّارة، وأبجنا العساكر من الغنائم كلّ ما أربح لهم من التجارة، فكم أحضروا من بادٍ وأبادوا من حاضر، وتخولوا ما يعقد على حسابه أصابع اليدين التي تدخل في جملتها عقود الخناصر، وإساعة نزولنا بساحته ومصافحتنا بالصّقاح مبسوط راحته، إذا صافيتا

¹ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 293.

² حمادة، وثائق الحروب الصليبية، ص 291-292.

³ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾، سورة الملوك، آية 4.

بذلت نفسها في فدائه، وتعلّقت بذبول العسكر المنصور بأخذ الحَسْب من أمرائه، فقبل فداؤها ولكن بشرط فتوحه وتملكه، وتكفل الله على مَنْ فيه⁽¹⁾.

وبما أنَّ السلطان الظاهر -في تلك الفترة- عزم على شنِّ حملةٍ كبيرة لفتح المعازل الإسلاميَّة المسلوبة، من مدن وحصون وقلاع، فلا غرابة من ذكر الكاتب لقلعة صافيتا في النصِّ السَّابق، لاسيَّما وأنَّ الظاهر تسلَّمها وهو على حصن الأكراد، بعدما نكث أهلها (الإخوة الديويَّة) الأمان الذي منحه لهم، فكان التسليم ثمناً لإطلاق سراحهم بعدما شفع لهم كبيرهم كمنذور أنطراطوس⁽²⁾.

ويعمّد الكاتب بعد ذلك إلى تصوير قوَّة المسلمين التي مكنتهم من بثِّ الرّهبة في قلوب أعدائهم، وبالتالي فتح الحصن المذكور من دون مقاومة تُذكر، فقد ذكر ابن عبد الظاهر في كتابه (الروض الزاهر) أنَّ الفرنج وقتها سعدوا إلى تلّة هنالك، فلجأ السلطان إلى كتابة رسالة على لسان مقدّمهم بطرابلس يأمرهم فيها بالتسليم، فرفضوا لأمره وطلبوا الأمان، وأجيبوا إلى ذلك شرط أن يتوجّهوا إلى بلادهم⁽³⁾: "فوجدت أرباضه جميعها من الذعر ﴿خاويةً على عُروشها﴾⁽⁴⁾ صائلة سيخالها على وحوشها، مرخصة للمساوم، مرخصة في اغتنام الغنائم، فملكيت العساكر محمي تلك الأموال وحمي تلك القلل العوائل، وتغيّأوا من هذه ما يُصلح الأحوال وتبوّأوا من هذه ما يغدو مقاعد للقتال"⁽⁵⁾.

ولا يخلو حديثه من الإشارة إلى بعض العمليات التي قام بها الجيش الفاتح لتسهيل مهمّته، كنقب الأسوار، ونصب المجانيق التي أعملت الخراب في أركان ذلك الحصن جرّاء اشتعال النار فيها: "وأخذنا عليها من النُّقوب كلّ ساري الجراحة في ذلك الجثمان، سارب في ضمائرهما كما يسرب الميل بين الأجفان، ونصبنا عليه من المجانيق كلّ مثبّته في مُستنقع الموت رجليها، حاملة في الهواء رَحَلها، جاثمة جثوم الهرم، هادية هداية العَلم، تُحلّق تحليق الصُّقور، وتحني الصّخور بالصخور، وما زالت بها حتى هدمت منها الأركان، وما برح النقابون حتى سروا في ضمائرهما

¹ حمادة، وثائق الحروب الصليبية، ص 292.

² ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر. ص 375.

³ المصدر نفسه، ص 376.

⁴ سورة البقرة، آية 259.

⁵ حمادة، وثائق الحروب الصليبية، ص 292.

سريان الدم في مفاصل الإنسان، وفصدوا بمباضع قطاعاتهم عروق تلك الأبدان، واستكنوا بها داءً مُعضلاً، لا يجدُ العدوُّ إليه من فتكاته دواءً موصلاً، تنمو بتنقيص المواد أخلاطه، ولا يُرجى ببحارٍ من الإمطار المُرسلة انحطاطه، حتى تحلّت من الحصن المذكور قواه، واحترقت حماة من النيران الموقدة بأحشاء حماه، فحينئذ بلغت روحه التراقي⁽¹⁾، وعجلت عليه المجانيق المذكورة التي أصابته بعينٍ مالها من راقٍ، من كلّ ذات أعضاء وأعضاء، وأعصاب من السرياقات وعروق تتخلّل تلك الأجساد، وذات زمانة كم لها خطوة في الهواء بعيدة المنال، وأمانة كم ردت إلى الحبال ما عجزت عن حمّله الجبال، لها كفّ متسمّحة وأعطاف لا تبرح حتى تجود مترنّحة، وما زال: هذا بعويل معاوله وهذا بأنينٍ سيهامه ينبعان الكفر مساءً وصباحاً، ويترنّمان بما يظنه المسلم له غناءً وتحسبه للكفر عليه نواحا⁽²⁾.

ويختتم رسالته بتحديد تاريخ الفتح، ذاكرًا بأنّه التاريخ ذاته الذي أنشأها فيه: "حتى تسلّمناها في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شعبان المبارك، فيأخذ حظّه من هذه البشارة الحسنة، ويجعل الأصوات بها على الأدعية الصالحة مؤمنة. والله يمتّع الشريعة بمساعيه المستحسنة بمنّه وكرمه. كُتِبَ في التاريخ أعلاه"⁽³⁾.

ومنها -أيضاً- رسالة أنشأها ابن عبد الظاهر عن الظاهر ببيرس للقاضي المذكور يُبشّره فيها بفتح حصن عكّار في السنة ذاتها، فقد كان ذلك الحصن يشكّل مضرّة على المسلمين؛ نظراً لحصانته ووعورة أرضه، فقرّر السلطان التوجّه إليه وفتحه بعد انتهائه من أمر حصن الأكراد⁽⁴⁾، وتبدأ الرسالة بقوله: "هذه المكاتبة إلى المجلس السامي القضائي، لازالت البركات مخيمة بفنائها، والتوفيق منوطاً بجمع آرائه، وقلوب الناس متّفقة على محبّته وولائه، ولا زالت البشائرُ إليه تتهاذى وتَرِدُ على محلّه متّنى وفُرادى، تتظم ما منّ الله به علينا وعلى المسلمين من المواهب العظيمة الموقّعة، الجليلة المطّلع، وهو أنّه لما كان بتاريخ يوم الإثنين التاسع

¹ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِي * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾، سورة القيامة، آية 26، 27.

² حمادة، وثائق الحروب الصليبية، ص 292-293.

³ المصدر نفسه، ص 293.

⁴ انظر: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 380-397.

والعشرين من شهر رمضان المعظم، سنة تسع وستين وستمئة تسلمنا حصن عكار⁽¹⁾.

ويبين تفاصيل الحدث، مشيراً إلى الإجراءات التي اتخذوها لفتح ذلك الحصن، وإلى حال أهله الذين اندفعوا إلى طلب الأمان بعدما أصابهم الذل والهوان؛ جرّاء تلك الغارة: "بعد أن رتبنا عليهم المجانيق من كل جانب، وأدقنا من فيه العذاب الواصب⁽²⁾، ولم يزل الجاليش بسهامه يرشقهم، والمجانيق تشدّخهم، والمنايا تتخطّفهم، فعندما شاهدوا مصارع بعضهم، نزلوا من الحصن المذكور خاضعين، وعفروا جماجمهم بالذلّ متضرّعين، فعندما شاهدناهم على هذه الصورة رحمناهم وأمناهم على أنفسهم خاصة، وتسلمنا الحصن المذكور بحواصله وجميع ما فيه، وانتظم في سلك ممالكنا، ودخل في جملة حصوننا وقلاعنا⁽³⁾.

والملاحظ في هذه الرسالة ورسائل الفتوح السابقة، أنّ الأمان يُمنح لأهل المعقل المفتوحة على أنفسهم فحسب، ولا يشمل متعلقاتهم، ويبدو أنّ ذلك عائد إلى سياسة القائد الفاتح في تشجيع أفراد جيشه على القتال، فمتعلقات أهل البلاد المفتوحة تدخل في نطاق الغنائم التي يحظى بها الجيش الفاتح عادة.

ولا بُدّ للقاضي من العمل على إذاعة نبأ الفتح بين المسلمين جميعاً؛ كي يقوموا بواجبهم تجاه الله تعالى، فيشكروه على نعمه العديدة التي منّ بها عليهم: "فليأخذ المجلس بحظه من هذه البشري بأوفر نصيب، ويذيعها بين القضاة والعلماء والفضلاء، بين كل بعيد وقريب، فإنّها من النعم التي يجب على كلّ مسلم شكرها، ويتعيّن بثّها بين الأنام وذكرها، فيحيط علمه الكريم بذلك، والله يؤيّده ويعضّده ويحرسه في سائر التصرفات والمسالك إن شاء الله⁽⁴⁾.

ويشير أخيراً إلى تاريخ كتابة الرسالة قائلاً: "كُتب في التاريخ المذكور أعلاه⁽⁵⁾.

¹ حمادة، وثائق الحروب الصليبية، ص 293-294.

² إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ذُخْرًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾، سورة الصافات، آية 9.

³ حمادة، وثائق الحروب الصليبية، ص 294.

⁴ المصدر نفسه، ص 294.

⁵ المصدر نفسه، ص 294.

وقد قال محيي الدين في ذلك الفتح:

يا مليك الأرض بُشراكَ فقد نلتَ الإرادة
إنَّ عَكَارَ يَقِيناً هي عَكَا وزيادة⁽¹⁾

وقد واصلَ السلطان المنصور قلاوون منذ اعتلائه عرش السلطنة- قتال أعداء الإسلام وشنّ الحملات العسكرية التي تستهدف فتح المعازل المسلوبة، مُقتفياً أثر الظاهر بيبرس في ذلك، فكان النصر حليفه وحليف جيشه في الموقعة التي دارت بينهم وبين المغول سنة (680 هـ)، ووردَ على أثره أمر السلطان إلى الكتاب في قلعة الجبل بإرسال رسالة بشرى ذلك الانتصار إلى الملك المظفر صاحب اليمن، وما أن وصل أمره حتى عهد به الملك الصالح بن قلاوون وولي عهده لابن عبد الظاهر، فكتب الرسالة على عادته في الرسائل السابقة، مستفتحاً إيّاها بعبارات دعائية يطلب فيها المولى عزّ وجل بأن يُسعد صاحب اليمن بالأخبار السارة دائماً، التي تتمثل بالبشائر التي تُزفُ إليه عن انتصارات المسلمين المتكررة على أعدائهم، يقول: "أعزّ الله نصرة المقام العالي المظفريّ، الشمسيّ، ولا زالت البشائر تُورد على سمعه وتوفد على رُبعه، وتُهدى إلى ابتهاجه، وتُحذى إلى منهاجه، وتُجهّز إلى منابر ممالكه المحروسة، وتتجز لمحابر مؤرّخي السّير النفيسة. فلا برح يجدد منها صُحفاً مُكرّمة، ويُنضد عُقوداً مُنظمة، ويُخلد منها كلّ ذكرى تُنسي الملاحم المتقدّمة، ويشدّ بها أركان الهدى، التي لولا دعائم الرماح المقوّمة لكانت مُهدّمة"⁽²⁾.

ويشير إلى خدمته وولائه لسلطانه ناعثاً نفسه بالملوك: "الملوك يُخدم خدمةً بسنة أبيه فيها يستنّ، ويوالي محامد ما أخذ والده في فنّ منها إلا وأخذ الملوك في دراسة ذلك الفن، ويصفُ ولاءً قد أمسى كلُّ منهما بِسِمَتِهِ يكتني وبذروته يكتنّ"⁽³⁾.
ويبدأ زفّ البشرى، منوّهاً إلى أنّ الانتصار نعمة منّ الله بها على المسلمين في مختلف الأصقاع: "ويستفتحُ بذكرِ نِعْمَى أصبح لطف الله بها على كلِّ مؤمنٍ في أقاصي الأرض يمتنّ، وهي النعمة التي عاد بها عمر الإسلام فتياً، وكوكب ساعده

¹ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 281.

² ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 223/7.

³ المصدر نفسه، 223/7.

مضيًا، ويوم نصره بدريًا، وأصبح بها أهل التهائم والنجود في هناء، وملائكة السماء في شكرٍ لسلطان الإسلام ودُعاء⁽¹⁾.

ويصورُ حالَ الرّعب والهلع التي عمّت البلاد الإسلامية جرّاء الزّحف التّريّ إليها، حتى إنّ مظاهر الطبيعة المختلفة شاركت الأهل في مُصابهم، فكادت الجبال من الوجَل تتصدّع، والسحاب تدمع، والصحاري تنقطع، ولا يترك الكاتب ذلك دون مبرّر بل يُتبعه بحديثٍ عن قوّة الأعداء وشجاعتهم، ودقة اختيار قادتهم لهم، وهذا يدلُّ على أنّ التباين العقائدي بين الطرفين لم يمنع ابن عبد الظاهر من التصريح بالحقيقة، وهو خير مثال على تحلي الكاتب المسلم بالصدق والاعتراف بالحقائق مهما كانت، دون التعنصر إلى الملة: "وكادت قبلها قلوب الجبال أن تتصدّع، ودموع السحاب أن تتشرّع، وأكبأُ البيد أن تنقطع، وذلك بأنّ التّار المخدولين جمعوا كلّ مَنْ اعتقدوا في ظنّهم أنّه يهزم الجَمع بمُفرده، وانتخبوا كلّ شُجاعٍ لا يألُفُ غيرَ ظهور الجياد من يوم مولده، واحتفلوا احتفالاً استصحبوا فيه ما أدخروا وما صانوا، وسمحوا بأعزّة أكابرهم ومقدّمي التمانات⁽²⁾ الذي ما سمع قط أنّهم في معركة هابوا ولا هانوا"⁽³⁾.

ويواصل الحديث عن غطسة الأعداء واعتزازهم بأنفسهم، فقد آذوا أهل البلاد الإسلامية، فسلبوا وقتلوا، وظنّوا أن لا أحد يقف في وجوهم ويردعهم، إلا أنّ المنصور قلاوون كان لهم بالمرصاد، يتتبع أخبارهم من أجل التصدي لهم في الوقت المناسب، والمكان المناسب: "وبلغت مولانا السلطان أخبارهم ولمعت لاقتباسه نارهم، وغيروا عاداتهم في المهاجمة، وأتوا على تودةٍ نَوا بها المصادقة والمصادمة، فملأوا الأقطار رُعباً، والبلاد سكباً، وأتوا المنازل كما تأتي الزلازل، وطلعوا على بلاد الإسلام طلوع القضاء النازل، وامتدّوا معتقدين أنّهم مستحقّون للمسالك والأمصار، مستخفّون بالملوك والأنصار، واثقون بأنّهم لا ينجو منهم سكّان البراري ولا القفار، ولا المحتجبون بأسوار البحار، ومولانا السلطان وجنوده في

¹ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 223/7.

² التومان: الجمع التوامين والتمانات، وهي فرقة من الجند يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل، وكانت تطلق على جيش بلاد الفرس، البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص 79.

³ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 223/7.

غَيلَهُمْ رَابِضُونَ، وَعَلَى سِيُوفِهِمْ قَابِضُونَ، يَسْتَجِرُونَهُمْ لِيَقَعَ شِرْكُهُمْ مِنْ تَوْسَطِ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي شَرَكٍ، وَيَسْتَدْرِجُونَهُمْ لِيَقْعُوا مِنْ أَسْفَلِ نَارِ الْمَوْتِ فِي دَرَكٍ⁽¹⁾»(2).
وَيَصِفُ تَصَدِّي السُّلْطَانِ وَجَيْشِهِ لِلْأَعْدَاءِ مُحَدِّدًا مَوْقِعَ الْمَوَاجَهَةِ بَيْنَهُمْ، وَمُشِيرًا إِلَى شِدَّةِ الْغَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَيْهِمْ، ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَنْجَدَهُمْ بِمَلَائِكَةِ النَّصْرِ، وَأَسْعَفَتْهُمْ الْمُلُوكُ بِجِيُوشِهَا وَعُدْدِهَا: "فَلَمَّا قَرَّبُوا مِنْ حِمَاةِ الْمَحْرُوسَةِ، وَبَيَّنُّوا بَنِيَاتِهَا مِنْ قَرَاهَا وَاسْتَدْنَتْهُمْ حِمَصُ بَقَرَاهَا، وَثَبَّ لَهَا السُّلْطَانُ وَثْبَةً شَيَّبَتْ مِنْهُمْ الْوَلِيدَ، وَأَقْدَمَ عَلَيْهِمْ إِقْدَامًا كَانَ مَسَاوِقُهُ فِيهِ مَصْنَفُهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَأَرْدَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِنَجْدِهَا، وَكَانَتْ رَتَبَتُهُ الْمُلُوكُ بَعْدَهَا وَعُدْدُهَا"⁽³⁾.

وَلَا يُغْفَلُ الْكَاتِبُ وَصْفَ حَالِ الْمُسْلِمِينَ غَيْرِ الْمُقَاتِلِينَ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ، إِذْ إِنَّهُمْ أَضْحَوْا يُلْهَجُونَ بِالْدَّعَاءِ لِرَبِّهِمْ فِي الْأَضْرَحَةِ وَالْمَسَاجِدِ؛ مِنْ أَجْلِ نَصْرِ الْجَيْشِ الْمُقَاتِلِ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لِتِلْكَ الْقُلُوبِ الْمُؤْمِنَةِ الْخَاشِعَةِ، فَأَيَّدَ الْمُقَاتِلِينَ بِمَلَائِكَتِهِ، الَّتِي ضَمِنَتْ لَهُمُ النَّصْرَ الْمُنْشُودَ، كَمَا أَنْجَدَتْ صَحَابَةَ النَّبِيِّ مِنْ قَبْلِ فِي مَعْرَكَةِ بَدْرِ الْكِبَرِيِّ: "وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ قَدْ طَرَقُوا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَجَرَدُوا سِلَاحَ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الدَّعَاءِ، وَلَا مَشْهَدَ وَلَا مَسْجِدَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فِي الْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ وَدِمَشْقَ وَالْأَقَالِيمِ، إِلَّا وَصُفُوفُ الْمُتَهَجِّدِينَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ قَائِمَةٌ مُتَزَاكِمَةٌ بِالْمَنَاقِبِ، كَمَا صُفُوفُ الْمَجَاهِدِينَ ثَابِتَةٌ مُتَصَاقِبَةٌ فِي تِلْكَ الْمَوَاقِبِ، فَنَظَرَ اللَّهُ إِلَى خَلْقِهِ بِبَرَكَةِ تِلْكَ الْجَبَاهِ الرُّكَّعِ، وَبِمَنْ قَدَّمَ إِلَى اللَّهِ بِهِ التَّوَسُّلَ مِنَ الْأَطْفَالِ الرُّضْعِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ مَلَائِكَةَ النَّصْرِ تَرْمِي، وَجَرَّدَ سِيُوفَ الظُّفْرِ تَحْزُّ الرِّقَابِ وَتَدْمِي، وَثَبَّتَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ ثُبُوتًا مَا سَمِعَ أَنَّ سُلْطَانًا ثَبَّتَهُ، وَأَطْلَعَ اللَّهَ عَلَى مَا نَوَاهُ مِنْ نَصْرِ الدِّينِ، فَتَقَبَّلَهُ بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهُ"⁽⁴⁾.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ عَدَدِ الْجَيْشِ التَّتَرِيِّ، إِلَّا أَنَّ أَفْرَادَهُ لَمْ يَسْتَطِيعُوا الصُّمُودَ أَمَامَ شَجَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ فَضَّلُوا الْمَوْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى الْهَزِيمَةِ، فَالْحَقُّوا

¹ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾، سورة النساء، آية 145.

² ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 223/7.

³ المصدر نفسه، 224-223/7.

⁴ المصدر نفسه، 224/7.

الضّرر بأعدائهم، وتركوا جثثهم ممدّدة على أرض الموقعة، لتصبح غذاء للطّيور الجارحة، كما أنّهم لم يتركوا الهاربين من الأعداء، بل تعقبوهم فقتلوا بعضهم، وأسروا بعضهم الآخر بمساعدة العساكر الإسلامية في المعاقل المختلفة: "وكان العدو في مائة ألف مقابل مقاتل، مناضل مناضل، مصارم مصادم، مكالب مكالم، فصبروا على حرّ العلاقم، ورأوا أنّ الموت خيرٌ لهم من الهزائم، فلم يفلت منهم إلا مَنْ استمهل السيف ساعة من نهار، وفرّ بعضهم والموت يقول لهم: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ﴾⁽¹⁾، وكان ذلك في يوم الخميس، رابع عشر رجب، ولم يفلت منهم إلا مَنْ تخطّفته طيور الخيول في كلّ معبر ومضيق، ومَنْ هوت به الريح في مكان سحيق، وغزى فيهم كلّ شيء حتى الغربان والنّسور والعقبان، وتبعّتهم العساكر إلى شطّ الفرات، وإلى رايات الرّحبة وإلى دربندات سيس، وخرج عليهم أهل البيرة بعساكر مستريحة، وأهل الحصون كلّها بجنود مستبيحة، فوضعوا السيف على مَنْ كلّ، وعقدوا خلق الإِسار على مَنْ حلّ، وقتلت ملوكهم من أولاد هولاكو وغيرهم، فعجّل الله بأرواحهم إلى النار، وأبت الأرض أن توارى جسدا لهم، فقذفتهم في المهامة والقفار، وانجلت هذه الملحمة عن لطفٍ شامل، ونصرٍ كامل، وظفرٍ يُنشد أكابر المغل في بلاد ما وراء النهر:

فإن كان أعجبكم عاممكم فعودوا إلى حمص في قابل⁽²⁾.

ويصورُ موكبَ السلطان المنتصر، العائد من الحرب، حاملا معه الغنائم التي تتمثّل بعدد من ملوك الأعداء الأسارى، وعدد من رؤوسهم المثبّثة على أسنة الرّماح: "وثنى مولانا السلطان العنان، وملوك المغل الأسارى يُساقون بين يديه ﴿سُكّارى ومّا هُم بسُكّارى﴾⁽³⁾، وقد أثمرت رؤوس الرّماح بكلّ بطل كم كان يحسنُ رأسا، وجعل على اسم الله في قفول جنوده ما أجرى منهم، وما أرسى ممّا ردّ بأسا وكفى يأسا"⁽⁴⁾.

¹ سورة الأحزاب، آية 16.

² ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 224/7.

³ سورة الحج، آية 2.

⁴ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 225-224/7.

وَيَصِفُ مُعَالِمَ السَّعَادَةِ الَّتِي عَمَّتْ الْبِلَادَ الْإِسْلَامِيَّةَ جَرَاءَ ذَلِكَ الْإِنْتِصَارِ، وَكَمَا أَنَّ بَعْضَ مَظَاهِرِ الطَّبِيعَةِ كَانَتْ قَدْ شَارَكَتِ الْمُسْلِمِينَ فِي مُصَابِهِمْ فِي أَثْنَاءِ الْغَزْوِ النَّتْرِيِّ، شَارَكَتَهُمْ مَرَّةً أُخْرَى فِي سَعَادَتِهِمْ بِالنَّصْرِ، فَرَاخَتْ السَّمَاءُ تُثِيرُ بِالْبُرُوقِ وَتَشْدُو بِالرَّعْدِ: "وَوَصَلَتْ الْأَخْبَارُ السَّارَّةَ بِذَلِكَ، فَعَمَّتِ التَّهَانِي فِي الْوُجُودِ، وَضَرَبَتْ الْبَشَائِرُ فِي كُلِّ صَوْبٍ، وَحَلَقَتْ الْمَلَائِكَةُ، حَتَّى الْأَفَقَ خَلَقَ بِالْبُرُوقِ، وَالسَّمَاءَ ضَرَبَتْ فِيهَا الْبَشَائِرُ بِالرَّعْدِ"⁽¹⁾.

وَيَذْكُرُ -أَخِيرًا- مَا ذُكِرَ سَابِقًا مِنْ أَمْرِ السُّلْطَانِ بِتَسْيِيرِ بَشَرِيٍّ إِنْتِصَارِهِ إِلَى الْمَلِكِ الْمُظْفَرِّ، صَاحِبِ الْيَمَنِ، مَنْوًهًا إِلَى أَمْهِمَّةِ الْمَوْقِعَةِ وَعَظَمَتِهَا، وَمُفْتَخِرًا فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ بِسُلْطَانِهِ الْقَائِدِ الْمُنْتَصِرِ: "وَلَمَّا تَهَيَّأَ هَذَا النَّبَأُ الْعَظِيمُ، الَّذِي أَهْلُ الْمَمَالِكِ عَنْهُ غَافِلُونَ، لَمْ يَغْفَلْ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ عَنْ إِبْهَاجِ الْمَوْلَى بِهَذِهِ التَّهَانِي، الَّتِي لِمِثْلِهَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ⁽²⁾ وَسَيَّرَ بِهَا إِلَيْنَا وَعَلَى يَدِهِ مَبَشْرَةٌ كَرِيمَةٌ إِلَى الْمَوْلَى، فَأَصْدَرْنَا عَلَى حَالِهَا وَأَصْحَبْنَاهَا هَذِهِ الْخِدْمَةَ، يَتَنَاقَشَانِ فِي شَرْحِ هَذِهِ الْمَلَا حَمِ الْوَقْتِ الَّتِي وَلَدَ بِهَا الْإِسْلَامُ جَدِيدًا، وَلِتُقَرَّبَ لِلسَّمْعِ الشَّرِيفِ مِنْ هَذِهِ الْوَقَائِعِ بَعِيدًا، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ وَالْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْعَيَانَ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ لَيْسَ كَالْخَبَرِ، وَلَعَمْرُ اللَّهِ إِنَّ هَذِهِ النُّصْرَةَ ذَكَرَى لِلْبَشَرِ، لِأَنَّهَا كَفَتْ الْمَلَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ عَظِيمًا، وَأَخَذَ اللَّهُ بِهَا لِلْأَيِّمَةِ وَالْأُمَّةِ ثَأْرًا قَدِيمًا، وَمَوْلَانَا أَحَقُّ بِأَنْ يُسَرَّ بِهَا سَرَائِرَ كُلِّ مَنْبَرٍ، وَيَتَقَدَّمَ بِتَحْبِيرِهَا فَإِنَّهَا أَشْرَفُ مَا يُحْبَرُ، وَأَجَلُّ مَا بِهِ يَخْبَرُ، وَلَا بَرَحَ الْمَوْلَى يُفْرِحُ الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِ اللَّهِ، وَيَشْكُرُ مَوَاقِفَ سُلْطَانِ لَيْسَ عَنْ نَصْرِ دِينِ اللَّهِ بِغَافِلٍ وَلَا لَاهٍ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ"⁽³⁾.

وَقَدْ أُنْشِئَتْ رِسَالَةٌ أُخْرَى عَنْ الْأَشْرَفِ خَلِيلِ بْنِ قَلَاوُونَ، إِلَى الْمَلِكِ الْمَذْكُورِ سَابِقًا، بِسَبَبِ فَتْحِ وَالِدِهِ لِمَدِينَةِ طَرَابُلُسَ سَنَةِ (688 هـ)، فَبَدَأَهَا قَائِلًا: "أَعَزَّ اللَّهُ نُصْرَةَ الْمَقَامِ، وَأَوْفَدَ عَلَيْهِ كُلَّ بَشَرِيٍّ أَحْسَنَ مِنْ أَخْتِهَا، وَكُلَّ تَهْنِئَةٍ لَا يَجْلِيهَا إِلَّا هُوَ لَوْقَتِهَا، وَكُلَّ مَبْهَجَةٍ يَعْجُزُ الْبَيَانُ وَالْبَنَانُ عَنْ ثَبَّتِهَا وَنَعْتِهَا، وَتَتَبَلَّجُ فَتَوْدُ الدُّرَرُ وَالْذَّرَارِي لَوْ زُفَّتْ هَذِهِ إِلَى تَرَاقِيهِهَا، وَسَمَتْ هَذِهِ إِلَى سَمَتِهَا، وَصَبَّحَ مِنْهَا بِكُلِّ هَاتِفَةٍ

¹ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 225/7.

² إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لِيَمِثِلَ هَذَا فليَعملِ الْعَامِلُونَ﴾، سورة الصافات، آية 61.

³ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 225/7.

أسجع من هواتف الحمائم، وبكل عارفة أسرع من عوارف الزهر عند عزائم
النسائم، وبكل عاطفة أعنة الإتحاف بالايحاف الذي شكرت الصقاح منه أعظم قادر،
والصحائف أكرم قادم، والغزو الذي تُخصّ تهامة ببشراه بل جميع النجود والتهائم،
وذوو الصّوارم والصّرائم، وأولو القوى والقوائم، وكلّ ثغر عن ابتهاج أهل الإسلام
باسم، وكلّ برّ برّ بتوصيل ما ترتّب عليه من ملاحم، وكلّ بحر عذب يمون كلّ غاز
لا يحبس عن جهاد الكفار في عقر الدار الشكائم، وكلّ بحر ملح كم تغيط من
مجاورة أخيه لأهل الشرك ومشاركتهم فيه، فراح وموجه المتلاطم⁽¹⁾.

ويغتنم الكاتب الفرصة ليبين حسن خدمته للسلطان وابنه؛ وذلك لأنه يبذل
قصارى جهده في إنشاء الرسائل الصادرة عنهما، وإخراجها في أجمل حلة باستخدام
المحسنات اللفظية المختلفة، ويتبع ذلك بالتصريح بولائه وإخلاصه لهما قائلاً:
"المملوك يُجدّد خدمةً يقتفي فيها أثر والده، ويجري في تبليغها على أجمل عوائده،
ويستفتح فيها استفتاحاً تحف به من هنا ومن هنا تحف محامده، ويصف ولاءً قد
جعله أجمل عقود، وأكمل عقائده، ويشفعهما بإخلاص قد جعله ميله أحسن وسائله،
وقلبه أزين وسائله"⁽²⁾.

وينوّه إلى أهمية إذاعة بشرى الانتصارات الإسلامية وإيصالها إلى مسامع
المسلمين كافة، كي يؤدّوا جزءاً بسيطاً من حقّ الله عليهم، يتملّ بشكره على نعمه
العديدة التي يمنّ بها عليهم في كلّ مرّة: "ويطلع العلم الكريم أنّ من سجايا
المتعرّضين إلى الإعلان بشكر الله في كلّ ما يعرض للمسلمين من نصر، ويفرض
لهم من أجر غزوكم قعد عنه ملك فيما مضى من عصر، أن يُقدّروا تلك النعمة حقّ
قدرها من التحدّث بنعمتها، والتّنبية لسماع نغمتها، وإرسال أعنة الأعلام في ميادين
الطّروس، وإدارة حرباء وصف خير حرب إلى مواجهة خير الشّمس"⁽³⁾.

وقبل الولوج في الحديث عن طرابلس وكيفية فتحها، يعمد الكاتب إلى التّغني
بغزوات السلطان قلاوون السّابقة، التي أصبحت مادّة الأسمار وشدوّ السّقار، فقد
جعلت منه بطلاً أسطوريّاً خارقاً يمجّده أغلب الأفراد، ولا غرو في ذلك وهو الذي

¹ النويري، نهاية الأرب، 156/5.

² المصدر نفسه، 156/5-157.

³ المصدر نفسه، 157/5.

أذلّ التتار والأرمن، وزرع الخوف في نفوسهم، وكبح جماحهم عن البلاد الإسلامية: "ولمّا كانت غزوات مولانا السلطان ملك البسيطة الوالد -خلّد الله سلطانه- قد أصبحت ذكرى للبشر، وموافقة للنّصر، فكم جاءت هي والقدرُ على قدر، وقد صارت سيرُها وسيرُها هذه شدوّ الأسمار، وهذه جاذّة يستطيب منها حسن الحدو السفار، فكم قاتلت من يليها من الكفار، وكم جعلت من يواليها وهو منصورها منصوراً بالمهاجرين والأنصار، ولمّا أذلّ الله ببأسها طوائف التتار في أقاصي بلاد العجم، وجعل حظّ قلوبهم الوجد من الخوف، ونصيب وجوههم الوجم، وأخلى الله من نسورهم الأوكار ومن أسودهم الأجم، وقصرت بهم همهم حتى صاروا يخافون الصّبح إذا هجم، والظنّ إذا رجم، وصارت رؤية الدّماء تفرعهم، فلو احتاج أحدهم لتتقيص دمٍ لمرض لأحجم من خوفه وما احتجم، وأباد الله الأرمن فحلّ بالنبل منهم الويل، وما شمّر أحد من الجنود الإسلامية عن ساعد إلا وشمّر هو من الذلّ الذّيل، ولا أثارت الجياد من الخيل عثيراً منعقداً إلا وظنّوه مساءً قد أقبل أو ليل"⁽¹⁾.

ويواصل الحديث عن الأرمن بنغمةٍ لا تخلو من السّخرية، مركزاً فيه على قائدهم التّكفور ليفون، الذي انتهى الأمر به أسيراً بين أيدي المسلمين حينها، فجنى بذلك على نفسه لمعاداته لهم، وقد جاء الحديث عنه تمهيداً لذكر طرابلس فيما بعد؛ وذلك لأنّه خال إيرنسا أولاً، ومشيره وموجّهه ثانياً: "وانتهت نوبة القتل بهم والإسار إلى "التّكفور ليفون" ملك الأرمن الذي كان يحمي سرحهم ويمرّد صرحهم، ويستنطق هتف التتار، ويسترجع صدحهم، وتعتزّ طرابلس الشّام بأنّه خال إيرنسا الكافر، ولسان مشورته السّفير، ووجه تدبيره السّافر، وطالما غرّ وأغرى، وجرّ وأجرى، وضرّ وأضرى، فلمّا توكلّ مولانا السلطان وعزم، وعزم فتوكّل، وتحقّق أنّ البلاء به قد نزل، وما تشكّك أنّ ذلك في ذهن القدر قد تصوّر وتشكّل، وأنّ يومه في الفتك سيكون أعظم من أمسه، وأعظم منهما معاداة غده، وأنّ نصر الله لن يُخلفه صادق مواعده، أكل يده ندامة على ما فرط في جنب الله، وساق الحتف لنفسه بيده

¹ النويري، نهاية الأرب، 157/5.

فعمّر الله بروحه الخبيثة الدّرك الأسفل من النار، وسقاه الحنف كأساً بعد كأس لم يكن لها غير الهلك من خمار⁽¹⁾.

ويستخدم كثيراً من الصّور الفنيّة للإشارة إلى عظمة طرابلس وحصانتها، واستعصاء فتحها على القادة المسلمين قبل المنصور قلاوون، فقد حالت مجموعة من العوامل بين أولئك القادة وفتحها، من مثل وعورة أرضها وارتفاعها، وإحاطة الماء لمعظم جهاتها: "وكانت طرابلس هي ضالّة الإسلام الشريفة، وإحدى آبقاته من الأعوام العديدة، وكلّما مرّت شمخت بأنفها وتأنّقت في تحسين منارة منازلها، وتزيين ريحانها وعصفها، ومرّت وهي لا تغازل ملكاً بطرفها، وكلّما تقادم عهداها تكثرّت بالأفواج والأمواج من بين يدها ومن خلفها، إذ البحر لها جلاب والسحاب لها خمار، وليست بها من البرّ إلا بمقدار ساحة الباب من الدار، كأنّها في سيف ذلك البحر جبل وقد انحطّ، أو ميل استواء قد خرج من خطّ، ما قصد أحد شطّها بنكاية إلا شطّ واشتطّ"⁽²⁾.

ويصف فتح المدينة المذكورة مبتدئاً بذكر العوامل التي ساعدت على ذلك، وهي تتمثّل بوجود القائد المسلم الشجاع، الذي يثق بمقدرته على تحقيق آماله باستخدام الحنكة والحيلة، إضافة إلى وجود جيش باسل يقف إلى جانبه، يُسانده ويقوّي من عزيمته، جيشٌ تعود قطع المسافات الطويلة وتحمل كلّ المصاعب من أجل تحقيق النصر على أعداء الدولة، بعدما ضاقت صدور أفرادها على تحمل أذاهم، وتاقت نفوسهم المغتظة إلى التخلّص منهم وتحرير البلاد الإسلامية من شرّهم وسيطرتهم، ويتّبع الكاتب ذلك بالحديث عن الجيش الفاتح، الذي قطع الطريق على الرّغم من وعورتها وسوء أحوالها الجويّة، بعبارات لا تخلو من المدح، يقول: "قدّر الله أن صرف مولانا السلطان إليها العنان، وسبق جيشه إليها كلّ خبر، وليس الخبر كالعنان، وجاءها بنفسه النفيسة، والسعادة قد أحرسه عيونها وتلك المخاوف كلّهنّ أمان، وقد اتّخذ من إقدامه عليها خير حائل، ومن مفاجأته لها أمدّ عنان، وفي خدمته جنود لا تستبعد مفازة، وكم راحت وغدت وفي نفوسها للأعداء حَزازة، فامتطوا

¹ النويري، نهاية الأرب، 158/5.

² المصدر نفسه، 158/5.

بخيولهم من جبال لبنان تيجاناً لها صاغتھا الثلوج، ومعارج لا تُرافق بها غير الرّياح الهوج، وانحطّت تلك الجيوش من تلك الجنادل انحطاط الأجادل، واندفعوا في تلك الأوعار اندفاع الأوعال، ولم يحفل أحد منهم بسرّب لاصق، ولا بحبلٍ شاهق فقال: هذا مُنخفض أو عال⁽¹⁾.

أمّا الإجراءات التي قاموا بها لتسهيل عمليّة الفتح، فتتمثّل بنصب المجانيق في الأماكن المناسبة، ونَقَب الأسوار، وإضرار النيران، وقتل المُعتدين، والفتك بهم: "وشرّعوا في التّحصين لما يُوهي ذلك التّحصين، وابتناء كلّ سور أمام أسوارها من التّدبير الحسّن والرّأي الرّصين، فما لبثوا إلا مقدار ما قيل لهم: دونكم والاحتطاب، ونقل المجانيق على الخيل وعلى الرّقاب، حتى جرّوها بأسرع مَنْ جرّ النّفس، وأجروها على الأرض سفائن، وكم قالوا: السّقينة لا تجري على يّس، وفي الحال نُقلت إليها فرأوا من متوقّلتها مَنْ يمشي بها على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، ووجّهت سيّماها وجوهها إلى منافذها، فما شوهدت منها عين إلا وكان قدّامها منها إصبع، وألّقيت العداوة بين الحجارة والمجانيق، وبين الحجارة من الأسوار، فكم نقت ونقبت من فلذة كبدها عن أسرار، وأوقدت نيران المكاييد، ثمّ حولها من صافن ومن صافر، وكم رمّتهم بشرّر كالقصر⁽²⁾ فوق الحافر كما يُقال على الحافر، وما برحت سوق أهل الإيمان في نفاق على أهل النّفاق، وأكابرهم تُساقُ أرواحهم الخبيثة إلى السيّاق"⁽³⁾.

وعندما ساءت أوضاع أهل المدينة المذكورة؛ جرّاء اقتحام السلطان وجيشه لأرضها، هبّ الكفار من عكا لإنجادهم من جهة البحر، وصارعوا المسلمين، إلا أنّ الله كبح جماحهم وأفضل مسعاهم بقوة المسلمين، ويحدّد ابن عبد الظاهر في أثناء حديثه عن ذلك الفترة الزمّنيّة التي قضيت لأجل فتح المدينة، ويعمد كذلك إلى مدح السلطان، فيعدّه الفاتح الوحيد لها قائلاً: "وكان أهل عكا قد أنجدوهم من البحر بكُلّ برّ، ورموا الإسلام بكلّ شرّ وكلّ شرّ، فكان السّهم الذي يخرج منها لا يخرج إلا

¹ النويري، نهاية الأرب، 158/5.

² إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تُرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ﴾، سورة المُرسّلات، آية 32.

³ النويري، نهاية الأرب، 158/5-159.

مُقْتَرناً بِسَهَامٍ، وَشُرُفَاتِ ذَلِكَ الشَّجَرِ كَالثَّنَائِيَا وَلَكِنَّهَا لَكثْرَةٌ مِّنْ بَهَا لَا تَقْتَرُّ عَنْ ابْتِسَامٍ، وَمَا زَالَتْ جُنُودُ الْإِسْلَامِ كَذَلِكَ، وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ لَا تُرَى جَمَاعَةٌ مُّقَدِّمَةٌ وَلَا مُتَقَدِّمَةٌ إِلَّا وَهُوَ يُرَى بَيْنَ أَوْلَئِكَ، وَاسْتَمَرَ ذَلِكَ مِنْ مُسْتَهْلَ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ إِلَى يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ رَابِعِ شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ، فَزَحَفَ عَلَيْهَا فِي بُكْرَةِ ذَلِكَ النَّهَارِ زَحْفًا يَفْتَحُمُ كُلَّ هَضْبَةٍ وَوَهْدَةٍ، وَكُلَّ صَلْبَةٍ وَصَلْدَةٍ، حَتَّى أَنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَفَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ مَجَازًا، وَفِي الْحَقِيقَةِ فَتَحَهَا وَحْدَهُ⁽¹⁾.

وَيُشِيرُ إِلَى أَحْدَاثٍ مَا بَعْدَ الْفَتْحِ، فَقَدْ نَصَبَ الْمُسْلِمُونَ رَايَاتِهِمُ الصَّقَرَاءَ عَلَى أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ الَّتِي دَخَلَتْ فِي مُلْكِ السُّلْطَانِ، وَأَخَذَ أَفْرَادَ فِرْقَةِ الْكِسَابَةِ يَجُوسُونَ أَرْضَهَا لِيَجْمَعُوا الْغَنَائِمَ الْمُخْتَلِفَةَ، وَلَا يَفُوتَ الْكَاتِبُ أَنْ يُشِيرَ إِلَى الصُّدْفَةِ الَّتِي حَدَثَتْ عِنْدَ فَتْحِ الْمَدِينَةِ، إِذْ طَابَقَ يَوْمَ فَتْحِهَا يَوْمَ سَلَبِهَا مِنْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ، قَبْلَ مِائَةِ وَثَمَانِينَ سَنَةً: "وَطَلَعَتْ سَنَاقِقُ الْإِسْلَامِ الصَّقَرَ عَلَى أَسْوَارِهَا، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا، وَجَاسَتِ الْكِسَابَةُ خِلَالَ دِيَارِهَا، فَاخْتَارَهَا مَوْلَانَا السُّلْطَانُ لِنَفْسِهِ مِلْكًَا، وَمَا كَانَ يَكُونُ لَهُ فِي فَتْحِهَا شَرِيكَ، وَقَدْ نَفَى عَنْهَا شَرِكًا، وَكَلَّمَ قَيْلًا: هَذِهِ طَرَابِلُسُ فَتَحَتْ، قَالَ النَّصْرُ بِمَنْ قُتِلَ فِيهَا مِنَ النُّجْدِ الْوَاصِلَةِ: وَأَكْثَرَ عَكًَا وَأَهْلَ عَكًَا، وَأَعَادَ اللَّهُ قُوَّةَ الْكُفْرِ أَنْكَاثًا، وَكَانَ أَخَذَهَا مِنْ مِائَةِ وَثَمَانِينَ سَنَةً فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ، وَاسْتَرَدَّتْ فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ"⁽²⁾.

وَقَدْ تَضَمَّنَتْ الْخَاتِمَةُ حَدِيثًا عَنْ أَمْرِ السُّلْطَانِ بِإِبْلَاجِ بُشْرَى الْفَتْحِ لِلْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا، سِوَاءِ أَكَانُوا مِمَّنْ يَدْخُلُونَ فِي نِطَاقِ دَوْلَتِهِ الْوَاسِعَةِ، بِمَا تَحْوِيهِ مِنْ مَعَاقِلٍ مُفْتَوَحَةٍ، أَوْ مِمَّنْ يَعِيشُونَ فِي الْبُلْدَانِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَجَاوِرَةِ، وَهَدَفَهُ مِنْ ذَلِكَ بَثُّ السَّعَادَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَبِنَاءٌ عَلَى أَمْرِهِ أَنْشَأَ الْكَاتِبُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ: "وَلَمَّا عَمَّتِ الْبِشَائِرُ وَوَكَّلَ بِهَا مَوْلَانَا إِلَى كُلِّ مَنْ يَسْتَجْلِي حِسَانَ هَذِهِ الْعِرَائِسِ، وَيَسْتَحْلِي نَفِيسَ النَّفَائِسِ، سَيَّرَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ إِلَى مَوْلَانَا بُشْرَى فَقَعَقَعَ بِهَا الْبَرِيدَ، لِنُتْلِيَ بِأَمْرِ مَوْلَانَا عَلَى كُلِّ مَنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، وَكَمَا عَمَّ السَّرُورُ بِذَلِكَ كُلِّ قَرِيبٍ، قَصَدَ أَنْ يَعْمَ الْهَنَاءُ كُلَّ بَعِيدٍ، وَأَصْدَرَ الْمَمْلُوكُ هَذِهِ الْخِدْمَةَ يَتَحَجَّبُ بَيْنَ يَدَيْ نَجَوَاهَا، وَيَتَوَثَّبُ بَعْدَ هَذِهِ

¹ النويري، نهاية الأرب، 159/5.

² المصدر نفسه، 159/5 - 160.

المفاتيحة لكلّ سائحة، يحسن لدى المولى مستقرّها ومثواها، لا برح المقام يستبشرُ
لكّمة الإسلام بكلّ فضل وبكلّ نعمى، ويفرح لسرح الكفر إذا انتُهِك، ولسّفع المُلْك إذا
يُحمى، ولِسَمع الشُّرك إذا يُصمّ، ولقلبه إذا يُصمى⁽¹⁾.

وله رسالة أخرى أنشأها عن المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن، يُبشّره فيها
بفتح صافيتا، وقد استسهلها بقوله: "أعزّ الله تعالى نصرة المقام العالي المولويّ،
السلطانيّ، المظفريّ، الشمسيّ، وأشركه في كلّ بشرى تُشدّ الرّحال لاستماعها،
وتُحلّ الحُبى لاستطلاعها، وتتهافتُ التواريخُ والسِّير على استرفادها، وتتنافس الأقسام
والسيّوف على الأفهام بأجناسها وأنواعها، ولا خلا موقف جهاد من اسمه، ولا
مصرف أجر من قسّمه، ولا غرض هناء من سَهَمه، ولا أفق ابتهاج من بزوغ
شمسه، وطلوع نجمه"⁽²⁾.

ويشيرُ إلى نفسه منوّها إلى أهميّة الفتح المقصود في هذه الرسالة، حتّى إنّ
السِّيف والقلم يتنافسان في إعلان بُشراه، وإذاعته على مسامع النّاس كافّة: "سَطَر
المملوكُ هذه البشرى والسِّيفُ والقلمُ يستمدّان: هذا من دمٍ وهذا من نفس، ويمضيان:
هذا في رأسٍ وهذا في طرس، ويتجاوبان: هذا بالصّليل وهذا بالصّريّر، ويتناوبان:
هذا يستميل وهذا يستمير، وكلُّ منهما يُنافسُ الآخر على المشافهة بخبر هذا الفتح،
الذي ما سَمَت إليه همُّ الملوّك الأوائل، ولا وُسَمَت به سيرهم التي بدت أجيادها من
حلاه عواطل، ولا دارَ في خلدٍ أنّ مثله يتهيأ في المُدد الطويلة، ولا تشكّل في ذهنٍ
أنّه سيُدرك بحولٍ ولا حيلة"⁽³⁾.

ويستخدمُ صوراَ عديدة لتمثيل هيئة الجيش الفاتح، في أثناء سيره لفتح المدن
المسلوبة ودخوله إليها قائلا: "وهو النّصر المرتّب على حركتنا التي طوى الله
لركابنا فيها المراحل، وألقى بذُرر عساكرنا من بحر الحديد المالح إلى السّاحل،
وهجومنا على البلاد الفرنجيّة وهي: طرابلس، وصافيتا، وأنطرسوس، ومريقيّة،
والمرقب، كما يهجم الغيث، ومصادمتنا صدورها كما يصدم الليث، وسلوكنا منها

¹ النويري، نهاية الأرب، 160/5.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 354-353/7.

³ المصدر نفسه، 354/7.

حَيْثُ لَمْ يَبْقَ حَيْثُ، وَمَا جَرَى فِي هَذِهِ الْوَجْهَةِ مِنْ إِغَارَاتٍ أَحْسَنْتَ مُتَقَلِّبَ الْأَعْنَةِ، وَمُتَعَلِّقَ السَّيْفِ، وَمُخْتَرِقَ الْأَسْنَةِ⁽¹⁾.

ويشيرُ إلى أهميّة مدينة صافيتا وكيفية فتحها وتسليمها، وذلك لأنّ الجيش المملوكيّ الفاتح لم يُعانِ من أيّ مقاومةٍ في أثناء الفتح، إذ جاء أهلها طالبين العفو والأمان مقابل تسليم المدينة المقصودة، فحقّق لهم مُرادهم وأخلي سبيلهم: "وما تهيباً من فتوح صافيتا، التي هي أمّ البلاد، ومُنْتَجِع الحاضر والباد، وكونها قدّمت نفسها من جملة ما يُقرى به الضيف، وقالت: هذا فتوح حضرَ على هذا الفتوح لهذا السيف، وتلطّفت في مسح أطراف الأمان، وطلبت شُكراً ومِنّا شُكران، وأحضرت إلينا من أهلها الوقت، وهذّت السيوف في أعناقهم فتشبهت بها الأغلال، وأنفت أيمان أهل الإيمان من مصافحتهم؛ لأنّهم أصحاب الشّمال، فأطلقهم سيفنا وأملهُ يمتدُّ إلى مَنْ هو أعزُّ منهم مالا، وأكثر احتقالا، وأبزّ مالا، وأهزّ سيوفا قصارا ورمحا طوالا، واستطار منها شرار نار الحرب الموقدة إلى غيرها من القلاع، واستطال إلى سواها من الحصون منهم الباع، فلا حصن إلا وافترت ثنيته عن نصرٍ مُسهّل، وفتح مُعجّلٍ ومؤجّل⁽²⁾".

وينتقل مباشرةً إلى الحديث عن فتح حصن الأكراد، فيصفُ مناعته واستعصاء فتحه على المسلمين سابقا، ويشيرُ إلى الضّرر الذي ترتّب على المُدن والحصون الإسلامية المجاورة له، جرّاء إيوائه الكُفّر وأهله داخل أسواره: "فمن ذلك حصن الأكراد الذي تاه بعطفه على الممالك والحصون، وشمخ بأنفه على أن تمتدّ إلى مثله يدُ الحرب الزّبون، وغدا جاذبا بضبع الشّام، وأخذاً بمخائق بلاد الإسلام، وشللاً في يد البلاد، وشجّاً في صدر العباد، تنقضُّ من عُشه صقورُ الأعداء الكاسرة، وترتاعُ من سطوتها قلوبُ الجيوش الطّائرة، وتربضُ بأرباضه آسادٌ تحمي تلك الأجام، وتُفوقُ من قسيه سهامٌ تُصمى مفوّقات السّهام، تُعطيه الملوكُ الجزيةَ عن يدٍ وهُم صاغرون⁽³⁾، ويصطفي كرامَ أموالهم وهُم صابرون لا مُصابرون، كم شكّت منه

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 354/7.

² المصدر نفسه، 354-355.

³ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، سورة التّوبة، آية 29.

حماة تثني بنكرها قلة الإنصاف، وكم خافته معرة وما من معرة خاف، وما زالت أيدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه، تشكو من جور جواره تلك الحصون والصيافي، وتبكي بدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها، وناهيك بدمع العاصي⁽¹⁾.

ويصف كيفية فتح الحصن ذكراً للإجراءات التي اتخذت من أجل ذلك، كالإحاطة به، والاندفاع نحو أسواره، ونقيبها على الرغم من متانتها، ونصب المجانيق على المرتفعات، واللجوء إلى المقاتلة بالأسلحة المختلفة، إلى أن رضح الحصن ومن فيه من الكفار، بعدما أرهاقهم الجيش الفاتح، واستنفد قواهم وأسلحتهم، ويدمج ذلك كله بمدح أفراد الجيش الإسلامي؛ نظراً لشجاعتهم وصبرهم على المصاعب التي واجهتهم جرّاء القتال: "حتى نبّه الله الحافظ سيوف الإسلام من جفونها، ووفى النصر ما وجب من ديونها، وذاك بأننا قصدنا فسيح ربعه، ونزلنا ونازلنا محمي صقعه، وختمنا بنصالنا على قلبه وسمعه، وله مدن حوله خمس هو كالراحة وهي كالأنامل، وتكاد بروجته ترى كالمطايا المقطرة، وهي منها بمنزلة الزوامل، ما خيمنا به حتى استبحنا محمي تلك المدائن المكني عنها بالأرباض، وأسحنا بساحاتها بحراً من الحديد، ما اندفع حتى فاض، وأخذنا النقوب في أسوار لا تنقض ولا ينقض بنيانها المرصوص، ولا تقرأ المعاول ما لخواتم أبراجها من نقوش الفصوص، ونصبنا عليها عدة مجانيق حُملت في شواهد الجبال على رؤوس الأبطال، فتغيّظت السّمهرية أن الذي تقوم به هذه تلك به لا تقوم، وأن ما منها إلا له من الأيدي والرؤوس مقام معلوم، وصار يرمي بها كل كمي مختلس، وأروع مُنتهس، وكل ليث غابة يحميها وتحميه! فشكراً لأسود حتى غاباتها تفترس، إلى أن جثت أسوارها على الركب، وكانت سيهاً مجانيقها تميل من العجب، فصارت تميد من العجب، وكانت تطلب فصارت تهرب من الطلب، واشتد الأمر على الكفار فقاتلوا قتالاً أقض مضاجع الأسلحة، وأطال حجارة مجانيقهم بغير أجنحة، وأشجى بشجور النصول المترنمة على غصون السهام المترنحة، هذا وأهل الإيمان يتلقون ذلك كله بصبر يستطعمون منه شهداء، وإقدام بتلقى صدى الحديد بأكباد ما زالت إلى

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 355/7.

موارده قصداً، يقتحمون نارَ الحرب التي كلّمَا أوقدوها، أطفأها الله وقال: يا نار كوني برداً⁽¹⁾»(2).

ويبيّن حالَ المدن الصليبيّة الأخرى بعد فتح المسلمين للحصن المذكور، واستيلائهم عليه، فقد همدت قواها وخرّت خوفاً من قوّة المسلمين وعزمهم على فتح المدن المسلوبة جميعها، فودّت كلّ واحدة منها لو أنّها تختفي عن وجه البسيطة؛ كي لا يتسنّى لهم فتحها وأعمال الخراب فيها، وقتل أهلها وتشريدهم وإذلالهم، كما هو الحال في حصن الأكراد، ولا يخلو حديثه من التّعني بشجاعة الجيش المسلم، الذي أرقق البلاد في غزواته المتكرّرة وفتوحاته المتتالية: "والبلادُ الفرنجية قد غُضّت منها الأبصار، وخشعت القلوب، واعتقد كلّ منها في نفسه أنّه بعد هذا الحصن المطلوب، فهذه تودّ لو أكنّتها البحارُ تحت جناح أمواجها، وهذه لو أسبلت الرّياحُ العواصف عليها ذيولَ عجاجها، وهذه لو اجتنّت من فوق الأرض ما لها من قرارٍ"⁽³⁾ وهذه لو خُسف بها الثّرى وعفت منها الآثار، وذلك لما بلغهم وشاهدوه من ويلٍ حلّ بأهل هذا الحصن المنيع، ومن فتكٍ أمحل ربعه المريع، وضيق مجاله الواسع، وقراع أضجر الحديد من الحديد والأبطال لم تضجر، ونضالٍ أسهر كلّ جفن حتى جفون السيوف؛ لأنّا عودناها مثل جفوننا أن تسهر، فكم شكّت النّقوب من مناكبهم زحاما، والشرفات من ترقّبهم التزاما، والرقاب من سيوفهم اقتساما، وكم حمدت التّجارب من رأيهم شيخاً، وحمدت الإقدام من ثبوتهم غلاماً، قد دوّخوا البلاد فلا موطن إلا لهم به معركة، وأرملوا الحائل فلا مُشرك إلا وقد أرمل مُشركة، وأزعج الكُفر فلا قلب إلا به منهم خوف، ولا سَمع إلا لهم به حركة، وملأوا الأرض كثرة، وكيف لا يُكثّر الله جَمعاً للإسلام، جَعَلَ الله فيه بركة"⁽⁴⁾.

ويشيرُ أخيراً إلى أهميّة الفتح وأثر إذاعته بين المسلمين قائلاً: "وكتائبنا هذا والمولى بحمد الله - أحقّ من هنيء بهذا الفتح الذي تُنتهي على كتاب بشائره الحقائق، وتجري إلى سماع أخباره الرّكائب، وتتزاحم على المسير تحت البُرد الواصلة به

¹ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، سورة الأنبياء، آية 69.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 355/7-356.

³ سورة إبراهيم، آية 26.

⁴ القلقشندي، صبح الأعشى، 356/7.

متون الصبّا وظهور الجنائب، وإذا ذكرت ملاحمته قال كل: هذا كتاب أم كتيبة تلوح، وإذا شوهدت حمرة طرسه قيل: وهذا ما صبغته في اليد المعلمة عليه دم الكفر المسفوح، وينعم -أعزّ الله نصره- بالإعلان بهذا النبأ الحسن، الذي تستروح إليه الأسماع، وتسّر بالإفهام به أخوات هذا الحصن من مدنه ومن قلاع العظيمة الامتناع، فإنه ما برح الأخ يفرح بأخيه، وإذا كان الهناء عظيماً اشترك كل شيء فيه، إن شاء الله تعالى⁽¹⁾.

ومن بين الممالك التي كان لها أثرها في زعزعة أمن دولة المماليك في بعض الأحيان، مملكة النوبة، فقد عمد صاحبها المسمّى داود ابن اخت مرتشكر إلى إثارة القلاقل في جنوب الدولة، ممّا حدا بالظاهر بيبرس إلى إرسال حملة تأديبية إلى مملكته بقيادة الأمير شمس الدين أفسنقر، هدفها الفتح أولاً، وعزل الملك المذكور ثانياً⁽²⁾، وقد كتب ابن عبد الظاهر على أثر ذلك الفتح كتاباً إلى الأمير القائد، يتضمّن الجواب عن الكتاب الذي أرسله للسلطان، مبشّراً إيّاه بفتح تلك المملكة، مستفتحا إيّاه بآية قرآنية يستشعر القارئ من خلالها الروح العنصرية، التي اتّصف بها المماليك، حيث إنهم كانوا يعتزّون -دائماً- بلونهم الأبيض ويزدرون اللون الأسود، الذي يمتاز به أهل النوبة، وهذا الأمر سيردّ في غير موضع من الرسالة المتناولة، يقول: "وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً"⁽³⁾⁽⁴⁾.

ويلحق ذلك بعدد من العبارات الدُعائية التي ينهال بها على المرسل إليه، ولا غرو في ذلك، لا سيّما وأنّه قائد الحملة المذكورة: "أدام الله نعمة المجلس، ولا زالت عزائمهم مرهوبة، وغنائمهم مجلوبة ومحبوبة، وسطاه وخطاه هذه تكفّ النوب وهذه تكفي النوبة، ولا برحت وطأته على الكفار مشدّة، وآماله لإهلاك الأعداء كرماحه ممتدّة، ولا عدمت الدولة بيض سيوفه التي يرى بها ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾"⁽⁵⁾⁽⁶⁾.

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 357/7.

² انظر: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 416، وأمين، أدب العصر المملوكي الأوّل، ص 121-122.

³ سورة الإسراء، آية 12.

⁴ سلام، الأدب في العصر المملوكي الأوّل، 407/2.

⁵ سورة الزمر، آية 60.

⁶ سلام، الأدب في العصر المملوكي الأوّل، 407/2.

ويُثني على جهوده التي بذلها لأجل تحقيق النصر المنشود، وكبح جماح الشرّ، وتطهير البلاد من الكفر والرّجس والفساد، ولا يُخلي حديثه من الإشارة إلى أنّ الحرب التي دارت بين الجيش الإسلاميّ الفاتح والنّوبيين، ما هي إلا حرب عقائديّة بالدرجة الأولى، كما هي الحروب السّابقة التي شُنّت ضدّ الفرنجة والمغول: "صدرت هذه المكاتبَةُ إلى المجلس تُثني على عزائمِهِ، التي واثت على كلّ أمرٍ رشيد، وأنت على كلّ جبارٍ عنيد، وحكمت بعدلِ السّيف في كلّ عبدٍ سوءٍ ﴿وما ربُّكَ بِظالِّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾⁽¹⁾، حيثُ شُكّرت الضّمّر الجرد وحُمدت العيس، واشتبه يوم النّصر بأَمسه، بقيام حروف العلة مقام بعض، فأصبح غزو كنيسة سوس كغزو سويس، ونُفهمه أنا علينا أنّ الله بفضلِهِ طهّر البلاد من رجسها، وأزاح العناد وحسَمَ مادّةً معظمها الكافر، وقد كَاد وكَادَ⁽²⁾."

ويعمُدُ إلى مدح شمس الدين آقسنقر، الذي أعاد الأمن والاستقرار إلى أهل الصّعيد، بعد تحقيق النّصر في الحملة المذكورة، ويُرفق ذلك بعدد من الصّور الساخرة التي تركز على التّباين اللّوني بين المماليك والنّوبيين، فيصوّر قتلاهم بالأضاحي التي تُتحر في عيد الأضحى، ويُطلق عليهم ألفاظاً عديدة كـ "الليل" و "الخيَط الأسود"، و"العدوّ الأسود" و"غراب بين"، و"الغراب"، يقول: "وعجّل عيد النّحر بالأضحية بكلّ كبشٍ حربٍ، يَبْرُكُ في سواد، وينظرُ في سواد، ويمشي في سواد، وتحقّقنا النّصر الذي شفى النّفوسَ وأزال البؤسَ، ومحا آيةَ الليل بخير الشّموس، وخرّب دُنُقَلةً بجريمة سوس، وكيف لا يَخرِبُ شيءٌ يكونُ فيه سوس؟! فالحمْدُ لله على أن صَبّحتهم عزائم المجلس بالويل، وعلى أن أولجَ النّهار من السّيف منهم في اللّيل، وعلى أن ردّ حرب حرابهم إلى نُحورهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم، وبَيّنَ خيط السّيف الأبيض من الخيط الأسود من فجر فجورهم⁽³⁾، وأطلع مُغيّبات النّصر ذهن المجلس الحاضر، وأورث سليمان الزّمان المؤمن مُلْك داود الكافر، وقرن النّصر بعزم المجلس الأنهض، وأهلك العدوّ الأسود بميمونٍ طائر

¹ سورة فصلت، آية 46.

² سلام، الأدب في العصر المملوكي الأوّل، 407/2.

³ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾، سورة البقرة،

النَّصر الأبيض، وكيف لا وأقسنقر هو الطائر الأبيض، وأقرّ لأهل الصّعيد كلّ عين، وجمع شملهم فلا يرون من عدوّهم بعدها غراب بين، ونصرَ ذوي السيوف على ذوي الحراب، وسهّلَ صيد ملكهم على يد المجلس، وكيف يعسرُ على السُّنقر صيد الغراب⁽¹⁾.

ويشكرُ الله تعالى على توفيق المسلمين في حملتهم، وكسرهم شوكة أعدائهم وإذلال ملكهم الذي همّ بالهروب، عندما أحسّ بالهزيمة، ويدعوه أيضاً إلى إحسان جزاء القائد الفاتح، الذي يتّصف بالشجاعة التي مكّنته من قيادة عديد من الحملات العسكرية، وفتح كثير من المعاقل الإسلامية: "والشُّكرُ لله على إذلال ملكهم الذي لأنّ هان، وأذالَه ببأسه الذي صرّح به شرّ كلّ منهم في قتاله، فأمسى وهو غريّان، وإزهاقهم بالأسنة التي غدا طعنهم كفّ الزّق غدا والزّق ملآن⁽²⁾، ودقّ أفقيتهم بالسيف الذي أنطقَ الله بفألهم أعجم الطير فقال: دقّ قفا سودان، ورعى الله جهاد المجلس، الذي قوّم هذا الحادث المُناد، ولا عدم الإسلام في هذا الخطب سيفه، الذي قام خطيباً، وكيف لا وقد ألبسه منهم السّواد، وشكر له عزمه الذي استبشر به وجه الزّمن بعد القطوب، وتحقّقت بلاد الشّمال به صلاح بلاد الجنوب، وأصبحت به سهام الغنائم في كلّ جهة تُسهم، ومتون الفتوحات تمتطى، فتارة يمطتي السيف كلّ سيس، وتارة كلّ أدهم، وحمد شجاعته التي ما وقف لصدمتها السّواد الأعظم، والله المنّة على أن يجعل ربع العدوّ بعزائم المجلس حصيداً كأن لم تغن بالأمس، وأقام فروض الجهاد بسيوفه المسنونة وأنامله الخمس، وقرن ثباته بتوصيل الطعن لنحور الأعداء ووقت النّحر قيد رمح من طلوع الشمس، ونرجو من كرم الله إكرام داود المطلوب، وردّه على السّيف بعيب هُروبه، والعبد السّوء إذا هرب يُردُّ بعيب الهروب⁽³⁾".

¹ سلام، الأدب في العصر المملوكي الأوّل، 407/2-408.
² إشارة إلى قول الفند الزّماني: فُلماً صرّح الشُّرّ فأمسى وهو غريّان
 ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دائوا
 وطعن كفّ الزّق غدا والزّق ملآن

أبو تَمّام، ديوان الحماسة، ص 30.
³ سلام، الأدب في العصر المملوكي الأوّل، 408/2.

ويشكرُ المرسل إليه -أخيراً- على كتابه الذي يتضمّن البشرى، ويدعو الله أن يُعيده إلى بلاده سالماً: "والله يشكر تفضيلَ مكاتبة المجلس وجملها، وآخر غزواته وأولها، ونزال مرهفاته ونزلها، ويجعله إذا انسَلخَ نهار سيفه من ليل العدوّ يعود سالماً لمستقرّه ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾⁽¹⁾»⁽²⁾.

وقد عمّت الفرحةُ قلوب المسلمين نتيجةَ الفتوحات السابقة، فراحوا يتبادلون رسائل التهنئة فيما بينهم؛ ليعبروا عن مدى سعادتهم بتلك الفتوحات، منوهين إلى عظمتها وأهميّتها، ومفتخرين في الوقت ذاته بالقائد الفاتح، الذي خصّه الله عزّ وجلّ بفتحها، بعدما استعصت على الذين من قبله.

ومن رسائل التهنئة، رسالة أنشأها محيي الدين بن عبد الظاهر عن الأمير بدر الدين بيدرا إلى الأمير حسام الدين طرنطاي، يهنئه فيها بفتح طرابلس على يد المنصور قلاوون، ويقول فيها: "المملوكُ يهنئُ بهذا الفتح الذي كادت به هذه الغزوة تزهر على غيرها من الغزوات وتنتيه، وأشرقَت الأرضُ بنور ربّها ابتهاجاً بما أمضاه الله منه وما سيُمضيه، وبما سيُعطيه حتى يُرضيه، وذلك أن فتحَ طرابلس التي طالما شمخت بأنفها على الملوك، وكم أبت على مُستفتحٍ فما قال لغيره إياؤها: لله أبوك، وأخرَ الله مُدَّتْها إلى خير الأزمان، وفتحها على يد سلطاننا الذي حقّقَ الله به آمالاً لا تتفدّ منه إلا سلطان، فالحمدُ لله الذي عضدّ هذا الملك من مولانا بخير من دبره، وحمّاهُ منه بأقطع حسامٍ جرّده الله لنقض ما أمّره، وما من فتوح ولا أمر ممنوح إلا ومولانا مُنضدّ عقوده، ومُجهّز بريده، ومُطلع سُعوده، ورافع علمه، ومُمضي سيفه، ومُرضي قلمه، فأمتع الله الأُمَّة من مولانا السلطان بسُلطانٍ يسترُدُّ لهم الحقوق ويتقاضى الديون، وأمتع الله سلطانها من مولانا بمن آراؤه أقفال الممالك، وسيوفه مفاتيح الحصون"⁽³⁾.

ويغتنم ابن عبد الظاهر الفتح السابق فيبعث برسالة تهنئة لسلطانهِ، ولا يخفى ما لهذا من أثر في رفع منزلته لديه، وقد حملت الرسالة الموضوعات ذاتها التي وردت في الرسالة السابقة، كالتنويه إلى حصانة المدينة، واستعصاء فتحها على الحُكّام قبل

¹ سورة ياسين، آية 88.

² سلام، الأدب في العصر المملوكي الأوّل، 208/2.

³ النويري، نهاية الأرب، 161/5، وحمادة، وثائق الحروب الصليبية، ص 306.

المنصور قلاوون، والافتخار بالقائد الفاتح وجيشه الذين قوّضوا دعائم الكفر، وانتزعوا جذوره منها، والإشارة إلى يوم فتحها الذي طابق يوم أخذها من أيدي المسلمين، كلّ ذلك جاء في إطارٍ من شكر المولى عزّ وجلّ وحمده على تسهيله مهمة المسلمين في تحقيق مُبتغاهم، وعلى غير عادته في الرسائل السابقة، يبدأ رسالته هذه ببيتين من الشعر، يتضمّنان التهنئة والدعاء، ويتبعهما بحديثٍ يظهر فيه خضوعه للسلطان وطاعته له، حيث يقول:

"هُنَّتَ يَا مَلِكَ الْبَسِيطَةِ فُتِحَ بِهِ النُّعْمَى مُحِيطُهُ
وَبَقِيَ يَا خَيْرَ الْمُلُوكِ كَ، بِسَيْفِكَ الدُّنْيَا مَحُوطُهُ

يُقَبَّلُ الْأَرْضَ وَيَبْتَهِلُ إِلَى دَعَاءٍ صَالِحٍ يُقَدِّمُهُ بَيْنَ يَدَيِ بَشَرِهِ وَبُشْرَاهُ، وكلّ مقام محمود من الإجابة يحولّه في سرّه ونجواه، ويُهَنِّئُ بهذا الفتح الذي كم مضى مَلِكٌ وفي قلبه منه حسرة، وما أدخر الله إلا لمولانا السلطان أجره وفخره، فالحمدُ لله على هذا النصر العزيز وهذا الفتح المُبين، والظفر الذي أعطاه الله إِيَّاهُ في شهر وقد أقامت جموع الكفر حتى حازت بعضه في مدّة سبع سنين، وله الشكر على أن جعل الكفر ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَأَ﴾⁽¹⁾ وجعل أخذ مدينة طرابلس من الكفار في يوم الثلاثاء، وكان أخذها من المسلمين في يوم الثلاثاء، وله المنة في ردّ هذه الأخيذة، وجعلها بين يدي مولانا السلطان منبودة، ثمّ المنة لله على أن سطرّ في سيرة مولانا السلطان هذه المنة، وجعلها ما بين نومة عينٍ وانتباهتها في أقرب من سنة، وردّ إياها على المسلمين بعد أن أقامت هاربةً عند الكفار مائة سنة وستة وثمانين سنة⁽²⁾.

ويدعو الله في خاتمة رسالته أن يُكرّم السلطان ويُمكنه من فتح المدن الإسلامية المسلوبة الأخرى قائلاً: "والله يُلْحِقُ بِهَا فِي الْفَتْحِ أَخَوَاتَهَا مِنَ الْمُدُنِ، وَلَا يَلْبِثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ هَادِيَا بِهَا بَعْدَهَا مِثْلَ عَكَاءٍ وَصُورٍ وَصِيدَا، حَتَّى يَرَاهُنَّ إِلَى قَبْضَتِهِ قَدْ عُذِنَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى"⁽³⁾.

¹ سورة النحل، آية 92.

² النويري، نهاية الأرب، 160/5-161.

³ المصدر نفسه، 161/5.

3.3.2 التّذاكر

هي رسائل تنظيميّة تُكتب عن السلطان لشخص بعينه، أو لعدّة أشخاص، تتضمّن عدداً من الأوامر والتوصيات الواجب التزامها، وتُكتب -عادة- لנائب السلطنة عند سفر السلطان أو لنواب القلاع وولاتها عند استقرارهم فيها أو في أثناء فترة نيابتهم⁽¹⁾.

وتقسم التّذاكر في أغلب الأحيان إلى فصول مختلفة من حيث المضمون، تُجمع تحت باب التنظيم، ويمكن تشبيهها في الوقت الحاضر بدساتير الدّول وموادّها، على الرّغم من أنّها مُقتضبة إلى حدّ كبير.

ويرى القلقشندي أنّ شأنها يعلو عند التزام كتابها بالفصاحة والبلاغة في أثناء إنشائها، وينحطّ بفواتهما⁽²⁾.

ومن الأمثلة عليها تذكرة كتبها ابن عبد الظاهر عن السلطان المنصور قلاوون بسبب قلعة صرخد من الشام، عند استقرار الأمير سيف الدين باسطي نائباً بها، والأمير عزّ الدين والياً سنة (679 هـ).

وهذا النوع من التّذاكر بالأخصّ، يُمكن إدخاله تحت باب الرسائل الحربيّة؛ لما تحويه من تنظيم لشؤون القلاع المفتوحة بعد استخلاصها من أيدي المحتلّين وضمّها إلى أملاك السلطان.

ويُركّز الكاتب في تذكرته السابقة على نواحٍ متعدّدة وفقاً لأوامر سلطانه للمعنيّين بتنظيم شؤون قلعة صرخد، فيتناول -مثلاً- الناحية الدينيّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، والإداريّة، والاقتصاديّة، فيحضّهما -أولاً- على التزام تقوى الله وخشيته في الأمور جميعها، وسلوك منهج الحقّ فيما يعترضهما من قضايا، والعدل في الرّعايا والإنصاف بينهم، وينبّه إلى ضرورة تفقّد معالم القلعة المختلفة وترميمها إن لزم ذلك، إضافةً إلى تنويهه لأهميّة إعلام السلطان بحواصل القلعة من أموال وغلل وغيرها، والعمل كذلك على حفظ أمنها وحراستها، لئلاّ تطالها أيدي المعتدين، كما أنّه يُشير إلى أهميّة عرض أسماء العُمال فيها على السلطان وإبلاغه بمقرّراتهم من

¹ انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 91/13-99.

² انظر: المصدر نفسه، 103/13.

رواتب وجراية، إلى غير ذلك من الأمور التي ستتضح في أثناء عرض التذكرة بأكملها، يقول ابن عبد الظاهر: "تذكرة مباركة نافعة، لكثير من المصالح جامعة، يعتمد عليها الأميران: سيف الدين وعز الدين عند توجههما إلى قلعة صرخد المحروسة:

يعتمدان العدل في الرعية، وسلوك منهج الحق في كل قضية، واعتماد ما يرضي الله تعالى ويرضينا، وليكن الإنصاف لهما عقيدة والتقوى ديناً، ولا يتطلع أحدهما إلى ما في يد أحد من مال ولا نسب، ولا يعارض أحد أحداً بلا سبب، وليتقوا الله ويخشوه، ويتجنبوا الباطل ولا يغشوه، ولا يظن أحد منهم أن قد بعد عنا فيطمح إلى الظلم أو يطمع، فإننا منهم بمرأى ومسمع، وليكونوا على المصالح متفقين، بأذial الحق متعلقين، وعلى الرعية مشفقين.

فصل

يتقدمان بكشف أسوار القلعة المنصورة وأبراجها وبدناتها وأبوابها، وما يحتاج إلى إصلاح وترميم وعمارة، ويحرران أمر ذلك تحريراً، ويجتهدان في إصلاح ما يجب إصلاحه، وترميم ما يجب ترميمه، والمطالعة بما كشفاه وما اعتمداه.

فصل

يتقدمان بعرض حواصل القلعة المنصورة، والخزانة المعمورة، ويحققون ما بها من الأموال والغلال والذخائر والحواصل، ويعملون بذلك أوراقاً محررة، ويُسَيِّرونُ نسختها إلى الباب الشريف.

فصل

يتقدمان بعرض مقدمي رجال القلعة، وأرباب الجامكيات والرواتب بها، ويحرران أمر مقدراتهم: من جامكية وجراية، ويجريان في صرف ذلك على العادة الجارية المستقرة.

فصل

يستفصحن من الأمير عز الدين والأمير علم الدين المنصرفين عن المصالح المختصة بهذه القلعة وعن أمورها، جليلها وحقيرها، فأنهما قد أحسنا في ذلك

التدبير، وأجملًا التأثير، وسلوكًا أجمل مَسَلَك، ويهتديان بما يوضِّحانه لهُمَا مِنَ المصالح والمهمَّات ليكون دخولهما في هذا الأمر على بصيرة.

فصل

يكونُ أمر النِّياية والحُكم العام في القلعة المنصورة، وتنزيل الرِّجال واستخدامهم، وصرف مَنْ يجب صَرْفه للأمير سيف الدين باسطي بمشاركة الأمير عزّ الدين في أمر الرِّجال والاستخدام والصِّرف، ويكون أمر النِّياية راجعاً للأمير سيف الدين باسطي والحُكم فيها له، ويكون أمر ولاية القلعة للأمير عزّ الدين ويجريان في ذلك على عادة مَنْ تقدَّما في هذه النِّياية والولاية، ويكون الأمير سيف الدين في الدَّار التي كان يسكنها الأمير عزّ الدين، وحُكمه في النِّياية كحكمه، ويسكن الأمير عزّ الدين في الدَّار التي كان يسكن فيها الأمير علم الدين، وحُكمه في الولاية كحكمه، ولا يتعدَّى أحد طوره، ولا يخرج عمّا قُرِّرَ فيه، ويرعى كُلُّ منهما لصاحبه حقّه فيما رُتِّبَ فيه، ويتَّفَقان على المصالح كُلِّها، ويكونان كروحين في جسد واحد.

فصل

يتقدَّمان بأن يترتَّب الرِّجال في مراكزهم ومنازلهم على العادة في الليل والنَّهار، والحَرْسِيَّة على العادة في الليل والنَّهار، وإن كان ثَمَّ خلل في ذلك أو تفريط أو إهمال، فليُستدرك الفارط ويُرتَّب الأمر فيه على أحسن ترتيب.

فصل

ينتصبان في أوقات العادة في باب القلعة لكشف مظالم الرِّعيَّة في القلعة والبرّ، ويعتمدان إنصافهم، وتلبية دواعيهم، وسماع كلمهم، وكفّ ظالمهم، وإعانة مظلومهم، واعتماد ما يجب من العدل وبسطه في الرِّعيَّة وكفّ الأيدي العادية.

فصل

أبوابُ القلعة إذا أُغْلِقَتْ في كُلِّ ليلة تُبَيَّت المفاتيح عند النَّائب في المكان المعتاد بعدَ ختم الوالي عليها على العادة، وإذا تسلَّمتها يتسلَّمها بختمها على العادة.

فصل

الذخائرُ والغلالُ يُجْتَهِدُ في تحصيلها بالقلعة، ولا تُخزن غلَّةٌ جديدةٌ على غلَّةٍ عتيقة، وكلُّ هُريٍّ يُخزن فيه غلَّةٌ يُحرَّرُ أمرُها وتُشالَ عَيْنَتُها في كيس، وتُجعل في الخزانة ويُختم عليها، ولا يُصرف من الجديد قبلَ نفاد العتيق، ولا يُترك العتيق ويُصرف من الجديد، وكذلك بقيَّة الحواصل يُسلك فيها هذا المسلك.

فصل

مهما جرتِ العادة بتثمينه على أرباب الجامكيَّات والمقرَّرات، فليُجرِ الأمر فيه على العادة من غير حيف، وليدخل الديوان والمباشرون في التثمين لئلا يسلك أمر التثمين على الرِّجالة والضُّعفاء مع قلة معلومهم، ويوفَّر من ذلك أرباب الدواوين مع كثرة معلومهم، بل يكونوا أولَ مَنْ يُثَمَّن عليه، ومَنْ لا قدرة له: مثلَ راجلٍ ضعيف أو ربٍّ معلومٍ قليل، فليُرفق به في ذلك، نظراً في حقِّ الضُّعفاء.

فصل

يُكثِّرون من الأحطاب ومن الفحم والملح والذخائر، وكذلك من كلِّ ما تدعو الحاجة إليه، ويجتهدون في تحصيل الأموال وتوفيرها بالخزانة المعمورة: بحيث لا يكون لهما شغل يشغلهما عن ذلك بل يصرفان الهمة في غالب أوقاتها إلى الفكرة في مالٍ يُحصلونه، أو صنفٍ يدخرونه ولا يُهملان ذلك.

فصل

يُطالعانِ الأبواب الشريفة في غالب أوقاتها بما يتجدَّد عندهما من المصالح، وبما يتميَّز من الأموال، وبما حُمِلَ إلى الخزائن وإلى الأهراء من الأموال والغلال. وكذلك يُطالعان نائب السلطنة بدمشق المحروسة على العادة في ذلك، ولتكن مطالعتُهما جامعة وعليها خطُّهما. ومَنْ لاحت له مصلحة في بعض الأوقات واختار أن يُطالع بانفراده فليُطالع.

فصل

لا يُمكن أن أحدًا من الرّجال المُرتبّين بالقلعة المحروسة وأرباب النّوب أن يُخلّ بنوبته ولا يُفارقها، ولا يخرج من القلعة أحد من الرّجال إلا بدستور ويعود في يومه، والله الموفّق⁽¹⁾.

ومن الملاحظ على التّذكرة السابقة افتقارها للمحسنات البديعيّة التي اعتيد على رؤيتها في الرّسائل السابقة، ولعلّ ذلك عائد إلى أنّ التّذاكر بشكل عام، تتطلّب من الكتّاب نوعاً من الصّرامة والرّسميّة في أثناء إنشائها؛ ليشعر المعنيّون بها بأهميّة التزام ما جاء فيها وتطبيقه.

وقد عاب القلقشندي على ابن عبد الظاهر عدم التزامه الفصاحة والبلاغة في تذكّره، كما أنّه عاب عليه عدم مراعاته بعض القواعد النّحويّة، وذلك لمراوحتّه عند خطابه للمعنيّين بين صيغة التّثنية والجمع حين قال: "يعتمدان العدل"، "ويتجنّبوا الباطل"، "وليكونوا على المصالح مُتّقين"، "يتقدّمان بكشف أسوار القلعة"، "ويحقّقون ما بها"، "يُكثرّون من الأحطاب"، "يُطالعان الأبواب العالية" إلى غير ذلك، إلّا أنّه عاد مرّة أخرى والتمس له مُبرراً للجوءه إلى ذلك قائلاً: "إلّا أنّه قد يُريد بعدوله من التّثنية إلى الجمع أن ينتقل إلى خطاب جمع المُتحدّثين في القلعة فيما يتعلّق بذلك الفصل الذي يكون فيه، وإلّا فلا يجوز صدور مثل ذلك عنه وتكراره المرّة بعد الأخرى"⁽²⁾.

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 102-99/13.

² المصدر نفسه، 103/13.

الفصل الثالث

الرسائل الاجتماعية، والإخوانية، والأدبية

1.3 الرسائل الاجتماعية:

هي الرسائل التي يتناول فيها الكاتب الحديث عن بعض المظاهر الاجتماعية التي شاعت في عصره، ومن الأمثلة عليها:

1.1.3 إبطال الحشيش

تمّ الحديث في الفصل الأول من هذه الدراسة عن أمر شيوع المنكرات في المجتمع المصري، إبان حكم المماليك، حتى أثار ذلك غيظ بعض سلاطينهم، فراحوا يحاولون القضاء على أسبابها ومظاهرها بشتى الوسائل، وقد بدأ الظاهر بيبرس بتحريم شرب الخمر في مملكته، وتوعّد من يخالف أمره بالعقاب الشديد، فالتزم أفراد المجتمع بذلك، إلا أنهم وجدوا في الحشيش سبيلاً آخر يغنيهم عن شربها؛ بسبب ما يوفره لهم من متعة و مال، إذ إنه يُسمّى "خمر الفقراء" نظراً لرخص ثمنه⁽¹⁾.

وقد شاع تناول الحشيش بين الناس، إلى أن اضطرّ السلطان -مرة أخرى- إلى إصدار أمرٍ يقتضي إبطاله، فكتب محيي الدين بن عبد الظاهر نصّ أمره الذي قرئ على مسامع الأفراد جميعاً، وقد بدأه بالإشارة إلى تحريم الخمر وكسر متعلقاتها، إضافةً إلى ابتعاد الناس عنها، واستعاضتهم بالحشيش عن شربها، كما أنه أشار إلى رخص ثمنها، حيث قال: "تعلّمه أن المنكرات التي أمرنا أن تملأ الصّفايح بأجرها وتفرغ الصّحاف، وألاّ يخلو بيت من بيوتها من كسرٍ أو زحاف، وقد بلغنا الآن أنها اختصرت، وأن كلمة الشيطان بالتعويض عنها ما قصرت، وأن أمّ الخبائث ما عقلت، وأن الجماعة التي كانت ترضع ثدي الكأس عن ثديها ما فطمت، وأنها في النشوة ما خيّب إبليس مسعاها، وأنها لما أخرج المنع عنها ماءها من الخمر،

¹ انظر: أمين، أدب العصر المملوكي الأول، ص 383.

أخرج لها من الحشيشِ مرعاها، وأنها استراحت من الخمار، واستغنت بما تشتريه بدرهم عما كانت تبتاعه من الخمر بدينار⁽¹⁾.

ولم يتوقف عند ذلك فحسب، بل نوه إلى الأثر السلبي الذي يتركه الحشيش على مُدمنيه، من تخدير، واحمرار في العيون، واضطراب في الخطو، إذ قال: "وأن ذلك فشا في كثير من الناس، وعُرف في عيونهم ما يُعرف من الاحمرار في الكاس، وصاروا كأنهم خشب مُسندة سُكراً، وإذا مشوا يُقدّمون رجلاً ويؤخرون أخرى"⁽²⁾.

وقد صرّح كذلك بأمر السلطان، وأشار إلى توعده من يخالفونه بالعقاب الشديد، ولا تخلو الرسالة من التلميح إلى عدم تورّع الناس آنذاك عن اقتراف ذلك المنكر في الأماكن الدينية، كالمساجد والجوامع، حيث قال: "ونحن نأمر بأن تُجتث أصولها وتُقتلع، ويؤدّب غارسها حتى يحصد الندامة ممّا زرع، وتُظهر منها المساجد والجوامع، ويُشهر مُستعملها في المحافل والمجامع، حتى تنتبه العيون من هذا الوسن، وحتى لا تشتهي بعدها خضراء ولا خضراء الدمن"⁽³⁾.

2.1.3 الإقطاع

ظهر الإقطاع في مصر منذ القدم⁽⁴⁾ وقد اعتاد السلاطين تطبيقه إلى أن شاع في أيام المماليك، والإقطاع لغة مصدر للفعل أقطع، ويقال: أقطع أرض كذا إقطاعاً واستقطعه، إذا طلب منه أن يُقطعه، والقطيعة الطائفة من أرض الخراج⁽⁵⁾.

أمّا الإقطاع اصطلاحاً فيُعرّف بأنه نظام اجتماعي سياسي، يقوم على أساس إطلاق الحاكم يد المقطاع في الأشياء التي أقطعها إياها من أرض وبلاد، فيصبح حُرّاً التصرف فيها.

وقد قسّم الإقطاع آنذاك إلى قسمين: القسم الأوّل يُسمّى إقطاع تملك، وفيه يملك المقطاع إقطاعه ويورثه لأبنائه وأحفاده من بعده، أمّا القسم الثاني فيسمّى إقطاع

¹ ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد، ثمرات الأوراق، تحقيق وتعليق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 3، دار الجيل، بيروت، 1997م، ص 356.

² المصدر نفسه، ص 356-357.

³ المصدر نفسه، ص 357.

⁴ انظر: فروخ، تاريخ الأدب العربي، 606/3.

⁵ انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 105-104/13.

استغلال، وفيه يقوم المُقطَّع باستغلال إقطاعه والاستفادة منه دون أن يملكه، إذ يبقى ضمن ملك المُقطَّع⁽¹⁾.

ويبدو أنَّ إقطاعات التَّمليك اقتصرَت في أغلب الأحيان على أفراد الطبقة العليا من أمراء وجند، إلَّا أنَّ إقطاعات الاستغلال كانت من نصيب أفراد الطبقة الوسطى كالْفلاحين مثلاً، الذين كانوا يستصلحون الأراضي المُقطَّعة لهم، ويستغلُّونها استغلالاً حسناً، ممَّا أدى إلى طمع مالكيها فيها؛ فلجأوا -غالباً- إلى تطبيق نظام المزارعة عليهم، وهو نظامٌ يفرض على الفلاح الاحتفاظ بنصف المحصول، وإعطاء المالك نصفه الآخر⁽²⁾.

وتُكتبُ إقطاعات أفراد الطبقة العليا عادةً على صورة مناشير⁽³⁾، تختلف أحوالها باختلاف مراتب أصحابها، صعوداً وهبوطاً.

وقد قُسمَت المناشيرُ وفقاً لذلك إلى أربعة أقسام: القسم الأول، يُكتب لمُقدِّمي الألو⁽⁴⁾ في الدِّيار المصريَّة، سواء أكانوا من أولاد السلطان أو الخاصكيَّة⁽⁵⁾ أو غيرهم، وكذلك جميع النواب الأكابر بالممالك الإسلاميَّة والمُقدِّمين بدمشق، ويُكتب القسم الثاني لأمراء الطبلخانات⁽⁶⁾ بمصر والشام، سواء في ذلك الخاصكيَّة وغيرهم، وكذلك الأمراء المُقدِّمون من نواب القلاع الشَّاميَّة وفي معنهم المُقدِّمون بحلب وغيرها من نواب القلاع، ويُكتب القسم الثالث لأمراء العشرات⁽⁷⁾ مُطلقاً بسائر

¹ انظر: ضيف، عصر الدول والأمارات، ص 54.

² انظر: المصدر نفسه، ص 54.

³ المناشير: هي ما يكتب للأمراء والجند بما يجري في أرزاقهم من ديوان الإقطاع، وهي أخصر من التقاليد، ولا وصايا فيها ولا إطناب في مقاصد للكتاب يستوفيها. انظر: العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص 117.

⁴ هم أعلى مراتب الأمراء على تقارب درجاتهم، ومنهم يكون أرباب الوظائف والنواب، وعدة كلٍّ منهم مائة فارس، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 14/4.

⁵ الخاصكيَّة: هم الذين يلازمون السلطان في خلوته، ويسوقون المحمل الشريف، والمتعيّنون للإمرة والمقرَّبون في المملكة، انظر: غرس الدين الظاهري، خليل بن شاهين (873 هـ)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، صحَّحه بولس داوبس، طبع في مدينة باريس، 1894م، ص 115-116.

⁶ أمراء الطبلخانات: وهي الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشاف بالأعمال وأكابر الولاة وعدة كلٍّ منهم في الغالب أربعون فارساً، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 15/4.

⁷ أمراء العشرات: ومنهم يكون صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف، وعدة كلٍّ منهم عشرة فوارس، انظر: المصدر نفسه، 15/4.

الممالك الإسلامية، أما القسم الرابع فيكتب للممالك السلطانية⁽¹⁾ ومقدمي الحلقة ورجال الحلقة⁽²⁾⁽³⁾.

وتتيح المناشير للكتاب مجال التفنن فيها، وإظهار قدراتهم في إجادة سبك عباراتها وتجميلها بألوان المحسنات اللفظية المختلفة، وذلك لأنها تتطلب منهم براعة في استهلالها، ومن الأمثلة عليها، نسخة منشور أنشأه محيي الدين بن عبد الظاهر عن المنصور قلاوون لابنه الناصر محمد في سلطنة أبيه المذكور، وقد استهلّه بتحميدة قصيرة زاخرة بمدح الأمير الصغير والثناء عليه، حيث قال: "الحمد لله الذي زين سماء الملك بأنوار كوكب بزغ، وأعزّ ملك نبغ، وأشرف سلطان بلغ إلى ما بلغ ذو الاكتحال من اختيار شرف الخلال وما بلغ، نحمده حمداً تزيد به النعماء وتتمى، وتهمل به الآلاء وتهمل، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، شهادة خالصة من كل ريب، واقصة كل عيب، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعثه تعالى بمكارم الأخلاق، ومعاداة ذوي النفاق، وساوى بين الصغير والكبير من أولي الاستحقاق في الإرفاد والإرفاق، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما رقى نسيم وراق، وما خصفت أوراق"⁽⁴⁾.

وقبل انتقال الكاتب إلى غرض المنشور، أطنب في مدح الأمير، فأشار إلى طبيعة نشأته، وحسن طلعتة، إضافة إلى علو مكانته لدى السلطان، ويبدو أنه عمد إلى ذلك ليسوّغ استحقاقه لما أقطع له: "وبعد، فإنّ الهواتف أبين ما تشدو إذا حفت الرياض بها من كل جانب، والسماء أحسن ما تبدو إذا تزينت بالكواكب السيارة والشهب الثواقب، والسعادة أحمد ما تحدو إذا خصّصت بمن إليه وإلا ما تشدّ الرّكائب وعليه، وإلا ما تنثي الحقائق والحقائب، ومن هو للملك فلذة كبده، ونور مقلته، وساعد يده، ومن تتيمّن السلطنة بملاحظة جبينه الوضي، وتستتير بالأنوار المضي، ومن تغضب الدنيا لغضبه وتزهى إذا رضي، ومن نشأ في روض الملك من خير أصل زكي، وفاحت أزاهره بأعطر أرج وأطيب نشر زكي، وطلع في سماء

¹ الممالك السلطانية: وهم أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدراً، الفلقشندي، صبح الأعشى، 15/4.

² مقدّمو الحلقة ورجالها: وهم عددٌ جمٌ وخلقٌ كثير، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم، المصدر نفسه، 16/4.

³ انظر: المصدر نفسه، 158/13-159.

⁴ المصدر نفسه، 168/13.

السلطنة نجماً ما للنيرين ما له من الإضاءة، ويزيدُ عليهما بحسنِ الوضاعة، ومَن تشوّف النصر له من مهده، وتشوّق الظفر إلى أنه يكون من جنده، واستبشرت السلطنة بأن صار لها منه فرع باسق، وعقد متناسق، وزند وار، وجناح وارف، وفخار تليد، وعزّ طارف، وطرفان معلمان تنتشر فيها المطارف⁽¹⁾.

وقد أصدرَ بعد ذلك أمرَ سلطانه بصيغته الرسميّة، التي اقتضت ذكر ألقاب المقطّع، وبما أن نصّ المنشور لم يرد كاملاً في المصادر، فلا يُمكن التعرف إلى طبيعة الإقطاع الممنوح للأمير: "ولهذه المحاسن التي تشرّبُ إلى قصدها آمال الخلائق المنتجة، اقتضى حُسن البرّ الوصول، وشرف الإقبال والقبول، أن خرج الأمر العالي - لا برحت مراسمه متزيّنة زينة السماء بكواكبها، ومزاحمة سَمَك السماك بمناكبها- أن يُجرى في ديوان الجناح العالي المولويّ، الملكيّ الناصري..."⁽²⁾.

ودبّج ابن عبد الظاهر منشوراً آخر كتبه للأمير بيدرا، أستاذ⁽³⁾ المنصور قلاوون، بدأه بعبارات المدح والثناء، منوهاً فيها إلى طبيعة عمله، التي تتطلّب منه متابعة أموال السلطان وقبضها، ومشيراً في الوقت ذاته إلى صفاته الحسنة، التي ساهمت في استحقاقه لإقطاع السلطان، وقد تمثّلت تلك الصفات بالتّدين والتّقوى، وإحسان معاملة الفقراء، والجهاد ضدّ أعداء الدّولة، وكثرة الفتوحات: "الحمدُ لله الذي جعل بدر الدين تماماً على الذي أحسن، وإماما تقتدي النجوم منه بالضياء الأبين، والنور الأزين، ونظماً يجمع من شمل الذرى ما يغدو به حماه الأحمى وجنابه الأصون، نحمده حمدَ مَنْ أعلى صوته وصيته أعلن، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، شهادة تغدو وتبدو عند الذّبّ وفي القلب مكانها الأمكن، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ونبيّه الذي أوهى الله به بناء الشّرك وأوهن، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه ورضي عنّ آمن به وعمّن آمن.

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 168/13.

² المصدر نفسه، 168/13-169.

³ الأستاذ: بكسر الهمزة وهو لقب يُطلق على الذي يتولّى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه، وتمثّل أوامره فيه، وهو مركّب من لفظين فارسيّين: أحدهما إستد، ومعناه الأخذ، والثاني دار، ومعناه المُمسك، فأدغمت الدال في الدال فصارت أستاذ، والمعنى المتولّى للأخذ، يقول بعض الكتاب "أستاذار" و "أستاذ الدار"، انظر: المصدر نفسه، 457/5.

وبعد، فإنَّ خير النِّعماء ما أُتي به على التَّدرِج، وأُتي كما يأتي الغيثُ بالمطر، والقطر لإنبات كُلِّ زوجٍ بهيج، وأقبلَ كما تُقبلُ الزيادة بعد الزيادة، فبينا يُقال: هذا خليج يمدّه البحر إذ يُقال: هذا بحرٌ يستمدُّ منه كلُّ خليج، وبينا يُقال: هذا الأمير إذ يُقال: هذا المُمير، وبينا يُقال: هذا الهلال، إذ يُقال: هذا هو البدر المُنير، ولمّا كان فلان من هذه الدّولة بموضع الغُرّة من الجبين، ومكان الرّاحة من اليمين، وله سوابق خدمة لا يُزاحمه أحد في طرق طروقها، ولا تستكثر له زيادة بالنسبة إلى موجبات حقوقها، وهو من التّقوى بالمحلّ الأسمى على غيره من الطُّراق، والمكان الأحمى الذي مكانه منه - وإن كان أمير مجلس - صدر الرّواق، وله الكرامات التي تُرى الخدود لها صُعُر، وكم سقت من سُمِّ العداة دافّة الذّعر، وكم قابل نوره ناراً فصارت برداً وسلاماً، وكم تكلم على خاطر فشاهد النَّاس منه شيخاً من حيث الشَّبيبة أجلّ الله قدره غلاماً، فهو المُجاهد للكفّار، وهو المتهجّد في الأسحار، وهو حاكم الفقراء وإن كان سلطانه جعله استاد الدّار، وهو صاحب العصا التي أصبح بحملها مضافة إلى السيف يتشرف، ومعجزها لا يستكثر له أنّها لكلِّ حيّة تتلقّف، وهو الذي تحمد الكشوف والسيوف فتوحه وفتحته، والذي يشكر يده عنان كلِّ سابح وزمام كلِّ سُبحة، وكم أسال بيديه من دماء الأعداء ماءً جرى، وعمل بين يديه للفقراء ما جرى، وكم وليّ الله خفيّ شَخْصه فأظهر محضه، فقال الوليُّ: وما أدري درا لولا بيدرا، اقتضى حسنُ الرأى الشريف أن يُجمل إحسان الدّولة القاهرة له عملاً، وأن يُحسن له علماً ونهلاً، وأن يختار له إذ هو صاحب العصا كما اختار موسى قومه سبعين رجلاً⁽¹⁾.

وأصدرَ أمر السلطان بصيغته الرّسميّة، مركزاً على استحقاق الأمير له، حيث قال: "وخرج الأمر العالي - لا زال ظلّه ظليلاً، بامتداد الفيء بعد الفيء وعطاؤه جزيلاً بتتويل الشيء - وهو ذو الكرم والكرامات، وصاحب العصا بالاستاداريّة ولا يُستكثر لصاحبها سحر الحيات"⁽²⁾.

ويلاحظ في المنشورين السّابقين تركُّز مدح الكاتب على المُقطَّعين الإثنيين: الأمير النّاصر محمد، والأمير بدر الدين بيدرا، دون التطرُّق إلى مدح السلطان

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 170/13-169.

² المصدر نفسه، 170/13.

المانّ عليهما بشكلٍ علنيّ، وإذا كان بالإمكان تفسير اقتصاره على مدح الأوّل على النحو التالي: مدحُ ابن السلطان يُقصد به مدح السلطان نفسه، فلا يُمكن تبرير اقتصاره على مدح الأمير بيدرا في منشوره الثاني.

3.1.3 الصداق

اعتاد كُتّاب الإنشاء في العصر المملوكي اتّباع تقاليد معيّنة في أثناء إقامة حفلات عقود زواج الأسر المرموقة في المجتمع، إذ اعتادوا كتابة خطب الصّدّاق لأفراد تلك الأسر⁽¹⁾، وهي بمثابة إعلان رسمي للحدث الجلل، تتضمّن حمد الله وشكره على توفيقه، إضافة إلى عرضٍ لميّزات الزوجين وخصالهما الحميدة كما أنّها تُبيّن بعضاً من مظاهر النعيم التي تعود على أحدهما جرّاء ذلك.

ويُقسّم الصّدّاق إلى قسمين، أوّلهما: رسمي يكتبه أحد منشئي الديوان حين زواج السلطان أو أحد أبنائه، سواء أكان ذكراً أم أنثى، ويدخل الصّدّاق عندها في نطاق الرسائل الديوانيّة، وثانيهما: غير رسمي، يكتبه أحد المنشئين حين زواج أمير أو أحد أكابر الدّولة؛ تشبّهاً بالسلطان⁽²⁾.

وقد أنشأ محيي الدين خطبة صداق السعيد بركة خان ابن السلطان الظاهر بيبرس على ابنة المنصور قلاوون قبل سلطنته، فبدأها بالتحميدات الطويلة مركّزاً فيها على الإشادة بالزوج، وإبراز مكانته الرفيعة، إلى جانب إظهار فضله على والد الزوجة، المتمثّل برفع قدره، والإعلاء من مكانته الاجتماعيّة حيث قال: "الحمدُ لله موفق الآمال لأسعد حركة، ومُصدّق الفال لمن جعل عنده أعظم بركة، ومحقّق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانه وصهره ملكه، الذي جعل للأولياء من لدنه سلطاناً نصيراً، وميّز أقدارهم باصطفاء تأهّله حتى حازوا نعيماً ومُلْكاً كبيراً، وأفراد فخارهم لتقريبه حتى أفاد شمس أمالهم ضياءً وزاد قمرها نورا، وشرّف بها وُصلتهم حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيماً، وإنعامه كثيراً، مهيباً أسباب التّوفيق العاجلة والآجلة، وجاعل ربوع كلّ إملاك من الأملاك بالشموس والبدور والأهّلة أهّلة،

¹ انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 300/14.

² انظر: سليم، عصر سلاطين المماليك، مج 5، ق 1، ج 149/3 - 150.

جامع أطراف الفخار لذوي الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة، وحلت عندهم البركة الكاملة. نحمده على أن أحسن عند الأولياء بالنعمة الاستيداع، وأجمل لتأملهم الاستطلاع، وكمل لأخيارهم الأجناس من العز والأنواع، وأتى آمالهم بما لم يكن في حساب أحسابهم من الابتداء بالتخويل والابتداع، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له شهادة حسنة الأوضاع، مليّة بتشريف الألسنة وتكريم الأسماع، ونُصلي على سيّدنا محمد الذي أعلا الله به الأقدار، وشرّف به الموالي والأصهار، وجعل كرمه داراً لهم في كل دار، وفجره على من استطلعة من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار، صلى الله عليه وعليهم صلاة زاهية الأزهار، يانعة الثمار⁽¹⁾.

ويطنب الكاتب في حديثه عن فضل الصّهار التي ربطت الأسرتين إلى حدّ يلمس فيه مدى الإذلال الذي يُصيب والد الزوجة جراء ذلك؛ فزواج السعيد بركة من ابنة قلاوون ما هو إلا منّة منّ بها عليه تستوجب الشكر.

ولا يخلو حديثه في أثناء تعبيره عن المعنى السابق من مدح الزوج والتّويه بحسبه ونسبه، كيف لا وهو ابن سلطان البلاد الذي بيده المنّ والمنع، يقول: "وبعد، فلو كان اتّصال كل شيء بحسب المتّصل به في تفضيله لما استصلح البدر شيئاً من المنازل لنزوله، ولا الغيث شيئاً من الرّياض لهطوله، ولا الذّكر الحكيم لساناً من الألسنة لترتيله، ولا الجواهر الثمين شيئاً من التيجان لحولته، لكن ليتشرّف بيت يحلّ به القمر، ونبت يزوره المطر، ولسان يتعوّد بالآيات والسّور، ونثار يتجمل باللالئ والدّرر، ولذلك تجملت برسول الله -صلى الله عليه وسلّم- أصهاره وأصحابه، وتشرفت أنسابهم بأنسابه، وتزوج صلى الله عليه وسلّم منهم، وتمّت لهم مزية الفخار حتى رضوا عن الله ورضي عنهم. والمرتبّ على هذه القاعدة الفاضلة نور يستمدّه الوجود، وتقرير أمر يقارن سعد الأخبية منه سعد السعود، وإظهار خطبة تقول الثريّا لانتظام عقودها: كيف؟ وإبراز وصلة يتجمل بترصيع جواهرها متن السيّف الذي يغبطه على إبداع هذا الجواهر به كل سيف، ونسج صهارة يتمّ بها -إن شاء الله- كل أمر سديد، ويتفق بها كل توفيق تخلق الأيّام وهو جديد، ويختار لها أبرك طالع: وكيف لا تكون البركة في ذلك الطّالع وهو السّعيد؟ وذلك بأن المراحم الشريفة

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 301-300/14.

السلطانيّة أرادت أن تحصّن المجلس السّامي بالإحسان المبتكر، وتفرد به بالمواهب التي يُرهب بها الحدّ المنتضى ويعظم الجدّ المنتظر، وأن ترفع من قدره بالصّهارة مثل ما رفع صلى الله عليه وسلّم من قدر صاحبيه: أبي بكر وعمر⁽¹⁾.

ويلجأ بعد ذلك إلى مدح الزوجة مركزاً على إظهار عفتها وطهارتها وعلوّ نسبها، فهذه الأمور مجتمعة كانت داعياً لاختيارها من بين بنات الأكابر وخطبتها، حيث يقول: "فخطب إليه أسعد البريّة، وأمنع منّ تحميها السيوف المشرفيّة، وأعزّ منّ تسبل عليها ستور الصّون الخفيّة، وتضرب دونها خدور الجلال الرضيّة، وتتجمل بنعوتها العقود، وكيف لا وهي الدّرة الألفيّة"⁽²⁾.

ولا ينسى أن يُظهر إقرار قلاوون واعترافه بفضل هذه الصّهارة، حتى لكأنّها معجزة منّ الله بها عليه وعلى ابنته، ولا يخلو الحديث في أثناء ذلك من غبطة الكاتب وغيره من الأفراد لهما، يقول: "فقال والدها وهو الأمير المذكور: هكذا ترفع الأقدار وتُزان، وكذا يكون قران السّعد وسعد القران!!!، وما أسعد روضاً أصبحت هذه المراحم الشريفة السلطانيّة له خميلة!، وأشرف سيفاً غدت منطقة بروج سمائها له حميلة!، وما أعظمها معجزة آتت الأولياء من لدنها سلطاناً! وزادتهم مع إيمانهم إيماناً!، وما أفخرها صهارة يقول التّوفيق لإبرامها: ليت!، وأشرفها عبوديّة كرّمت سلمانها بأن جعلته من أهل البيت!⁽³⁾. وإذا قد حصلت الاستخارة في رفع قدر المملوك، وخصّصته بهذه المزيّة التي تقاصرت عنها آمال أكابر الملوك، فالأمر لملك البسيطة في رفع درجات عبده كيف يشاء، والتّصدّق بما يتقوّه به هذا الإنشاء"⁽⁴⁾.

وتختتم خطب الصّدّاق عادةً بنصّ صريح به، يُستهلّ بالبسملة، وتبرز فيه كلمة "أصدقها"، أو "هذا ما أصدق"، أو نحوهما⁽⁵⁾، ويتضمّن مباركة الزواج، والإشارة إلى

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 301/14 - 302.

² المصدر نفسه، 302/14.

³ إشارة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "سلمان ممّا أهل البيت"، النيسابوري، محمد بن عبد الله (ت 405هـ)، المُستدرك على الصحيحين، حققه مصطفى عبد القادر عطا، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، 691/3.

⁴ القلقشندي، صبح الأعشى، 302/14.

⁵ سليم، عصر سلاطين المماليك، مج 5، ق 1، ج 150/3.

مهر الزوجة المتمثل بمختلف أنواع الصُّروف والإقطاعات، يقول ابن عبد الظاهر في الصَّدَاق المُشار إليه سابقاً:

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

هذا كتابٌ مباركٌ، تحاسدت رماحُ الخطِّ وأقلامُ الخطِّ على تحريره، وتنافست مطالع النُّوَّار ومشارق الأنوار على نظمِ سطوره، فأضاءَ نوره بالجلالةِ وأشرق، وهطل نوءه بالإحسان فأغدق، وتناسبت فيه أجناس تجنيس لفظ الفضل فقال الاعتراف: هذا ما تصدَّق، وقال العُرف: هذا ما أصدق مولانا السلطان: أصدقها ما ملأ خزائن الأحساب فخاراً، وشجرة الأنساب ثماراً، ومشكاة الجلالة أنواراً، أضاف إلى ذلك ما لولا أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأمصاراً، فبذل لها مِنْ العين المصريِّ ما هو باسم والدها تشرَّف، وبنعوته قد تعرَّف، وبين يدي هباته وصدقاته، قد تصرَّف⁽¹⁾.

4.1.3 التعزية

لم تقتصر المراسلاتُ بين حُكَّام البلدان الإسلاميَّة وسلطين الممالك على الجانب السياسيِّ فحسب، بل تنوَّعت لتكون سياسيَّة مرَّةً واجتماعيَّة وإخوانيَّة مرَّةً أخرى.

ومن أهم مظاهر المراسلات الاجتماعية التي دارت بينهم: التهنئة والتعزية فقد حرصوا على مشاركة بعضهم بعضاً في مختلف المناسبات، سواء أكانت سارة أم مُحزنة، فعمدوا إلى تهنئة بعضهم في مناسبات الزَّواج، والولادة، والعود من السَّفر، ومواساة بعضهم عند وفاة أحد أعزائهم، كالأب والأم والأخ، والابن والابنة والزوجة، وسيقتصر الحديث هنا على تناول موضوع التعزية؛ نظراً لطبيعة الرسالة التي سيتمُّ تحليلها فيما بعد.

لقد حرص الكتابُ في أثناء إنشائهم لرسائل التعزية على تضمينها موضوعات محدَّدة، تتمثلُ بدعوة المُعزِّي المُعزَّى "إلى الصَّبْر والتَّسليم بقضاء الله وقدره.. وبعث

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 302/14 - 303.

الأمّل إلى (نفسه) من جديد، وتسليته وسلوّه عمّا أصابه، وفتح عينيه على أملٍ جديد يكون عوضاً عنّ فقده⁽¹⁾.

وغالباً ما كانت تلك الرسائل تترك أثراً إيجابياً في نفس المعزّي؛ فيأمر كاتبه بإنشاء جواب مناسبٍ عن رسالة المعزّي، يتضمّن إبلاغه بوقوفه على رسالته، ووصف أثرها الإيجابي عليه⁽²⁾.

ومن الأمثلة على رسائل الأجوبة عن التعازي، رسالة أنشأها ابن عبد الظاهر عن المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن، جواباً على رسالة عزّى فيها السلطان عن ولده الصّالح علاء الدين علي، وقد افتتحها بالدعاء لذلك الحاكم جزاء تسليته السلطان عن مصابه الجلل، ووصف فيها مدى تأثير رسالته في نفسه، حيث قال: "أعزّ الله نصرته وأحسن تسليته الصبر على كلّ فادح، والأجر على كلّ مُصابٍ قرح القرائح، وجرح الجوارح، وأوفد من تعازيه كلّ مسكّن طاحت به من تلقاء صنعاء اليمن الطّوائح، وكتب له جزاء المصبر عن جارٍ من دمعٍ طافح على جارٍ لسويداء القلب صالح"⁽³⁾.

وقد نعت الكاتب نفسه بالملوك، وأشار إلى طبيعة وظيفته، التي تتطلّب منه القيام بتسطير الرسائل وتحسينها في شتى الظروف والمناسبات، ولعلّه لجأ إلى ذلك لينفي عن نفسه تهمة قد تُلصق به من قبل قراء رسالته، فقد يتبادر إلى أذهانهم أنّ إبداع الكاتب في رسالته واهتمامه بتزيين عباراتها بأنواع البلاغة المختلفة دليل على عدم تأثره بمصاب السلطان: "الملوك يخدم خدمة لا يزود المواصله بها حادث، ولا يؤخرها عن وقتها أمرٌ كارث، ولا تنقصها عن تحسينها وترتيبها بواعث الاختلاف ولا اختلاف البواعث"⁽⁴⁾.

ونوّه فيها إلى وصول رسالة صاحب اليمن، ووقوف السلطان عليها، وأشار في الوقت نفسه إلى أنّها تدلّ على مدى حزن صاحبها وأساه إزاء وفاة الصّالح علاء الدين علي: "ويطلع العلم الكريم على ورودٍ مثالي كريم لولا زرقه طرسه، وزرقه

¹ الغريب، الرسائل الفنيّة في العصر المملوكي الأوّل، ص 121.

² انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 98/9.

³ النويري، نهاية الأرب، 107/8.

⁴ المصدر نفسه، 107/8.

لبسه⁽¹⁾، لقال: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾⁽²⁾ يتضمّن ما كان حدث من رزء تلافاه الله بتناسيه، وتوافى هو والصبر فتولّى التسليم تبين عاسيه وتمرين قاسيه⁽³⁾.

وعمد إلى تصوير قوّة السلطان وثباته، وصبره على مُصابه، وتسليمه بقضاء الله وقدره: "فشكرنا الله على ما أعطى، وحمدناه على ما أخذ، وما قلنا: هذا جزع قد انتبه إلا وقلنا: هذا تثبت قد انتبذ، ولا توهمنا أن فلذة كبد قد اختطفت إلا وشاهدنا حولنا من ذريتنا -والحمد لله- فلذ، وأحسنّا الاحتساب، ودخلت الملائكة علينا من كلّ باب، ووفّانا الله أجر الصّابرين بغير حساب، ولنا -والشكر لله- صبر جميل لا نأسف معه على فائت، ولا نأسى على مفقود، وإذا علم الله حسن الاستقامة إلى قضائه والاستكانة إلى عطائه عوّض كلّ يوم ما يقول المُبشّر به: هذا مولى مولود، وليست الإبل بأغلظ أكباداً ممّن له قلب لا يُبالي بالصدّات كُثرت أو قلّت، ولا بالتبّاريح حُقرت أو جَلّت، ولا بالأزمات إن هي توالّت أو تولّت، ولا بالجفون إن ألقت ما فيها من الدّموع والهجوع وتخلّت، ويخاف من الدّهر من لم يحلب أشطره، ويأسف على الفائت من لا تتابه الخطوب الخطرة، على أن الفادح بموت الولد الملك الصّالح -رضي الله عنه- وإن كان منكياً، والنّائح بشجوه وإن كان مُبكياً، والنّائح بذلك الأسف وإن كان لنار الأسى مُذكياً، فإنّ وراء ذلك من تثبّيت الله ما ينسفه نسفاً، ومن إلهامه الصّبر ما يُجدّد لتمزيق القلوب أحسن ما به يُرفأ، وبكتاب الله وبسنّة نبيّه -صلّى الله عليه وسلم- عندنا حسن اقتداء نضرب به عن كلّ رثاء صفحاً⁽⁴⁾.

وبما أنّ السلطان رضي بقضاء الله وقدره، لم يبق أسير الحزن والأسى، يسمع لرثاء هذا ولوم ذاك، بل شغل نفسه بما هو أجلّ وأعظم، فقد كان المماليك وقتذاك منشغلين بمحاربة الأعداء وتحرير البلاد الإسلاميّة من سيطرتهم، وقد تطلّب ذلك من السلطان تجاوز محنته لأجل الاستعداد للمواجهة: "وما كنّا مع الله -والمنّة لله-

¹ أشار الكاتب في هذه العبارة إلى زرقة لون الورق الذي كتب عليه رسالة صاحب اليمن، وزرقة كيسها كذلك، وكانت العادة آنذاك تقتضي أن توضع رسالة التعزية في كيس أطلّس أصفر، انظر: النويري،

نهاية الأرب، 107/8.

² سورة يوسف، آية 84.

³ النويري، نهاية الأرب، 107/8 - 108.

⁴ المصدر نفسه، 108/8.

نُعْطِي لِمَنْ يُؤْتِبُ وَيُؤْتِبُنْ أَذْنًا وَلَا نُعِيرُهَا لِمَنْ يُلْحِي، إِذِ الْوَلَدُ الذَّاهِبُ مَرَّةً فِي رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى سَالِكًا طَرِيقًا لَا عَوْجَ فِيهَا وَلَا أَمْتًا، وَانْتَقَلَ سَارًّا بَارًّا صَالِحًا وَمَا هَكَذَا كُلُّ الْمَوْتَى نَعِيًّا وَلَا نَعْتًا، وَإِنْ كَانَ نَفَعْنَا فِي الدُّنْيَا فَهِيَ نَحْنُ بِالصَّدَقَاتِ وَالتَّوَحُّدِ عَلَيْهِ نَنْفَعُهُ، وَإِنْ كَانَ الْوَلَدُ عَمَلٌ أَبِيهِ فَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ رُوحَ وَلَدِنَا فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ - تَحَقَّقَ أَنَّهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾⁽¹⁾ وَفِيمَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ مِنْ اشْتِغَالٍ بِالْحُرُوبِ مَا يَهْوُونَ مَا يَهْوِلُ مِنَ الْكُرُوبِ، وَفِيمَا نَحْنُ عَاكِفُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَكَافِحَاتِ الْأَعْدَاءِ مَا بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ قَلْبِهِ يَحُولُ، وَمُثْلُهُ عَنْ تَخِيلِ أَسْفٍ فِي الْخَاطِرِ يَجُولُ:

إِذَا اعْتَادَ الْفَتَى خَوْضَ الْمَنَآيَا فَأَهْوَنُ مَا يَمِرُّ بِهِ الْوُحُولُ⁽²⁾»⁽³⁾.

وَيُلَاحِظُ مِمَّا سَبَقَ اطمئنان السلطان على مصير ولده في الآخرة، فلا بُدَّ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى رَفَعَهُ إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ؛ نَظْرًا لِلصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ الَّتِي تَمَتَّعَ بِهَا فِي حَيَاتِهِ، فَالكَاتِبُ عَدَّهُ مُشَابِهًا لِلصَّاحِبِ فِي صِفَاتِهِ، حِينَ أُورِدَ الْجُمْلَةُ الْمُعْتَرِضَةُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وَقَدْ أَيْدَهُ السُّلْطَانُ قَائِلًا: "الْوَلَدُ الذَّاهِبُ مَرَّةً فِي رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى". وَيَعْمَدُ الْكَاتِبُ عَادَةً فِي رِسَائِلِ أَجُوبَةِ التَّعَاذِي إِلَى ذِكْرِ ذُرِّيَّةِ الْمُعْزَى، الَّتِي يَجِدُ فِيهَا الْعَوْضَ عَمَّا فَقَدَ، وَقَدْ أَشَارَ الْكَاتِبُ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ إِلَى ذُرِّيَّةِ الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ، فَخَصَّ مِنْهَا الْأَشْرَافَ خَلِيلَ، الَّذِي تَوَلَّى زِمَامَ مَنْصَبِ وَلَايَةِ الْعَهْدِ بَعْدَ وَفَاةِ أَخِيهِ الصَّالِحِ وَجَلَسَ عَلَى عَرْشِ السُّلْطَنَةِ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهِ: "وَلَنَا - بِحَمْدِ اللَّهِ - ذُرِّيَّةٌ ذُرِّيَّةٌ، وَعَقُودٌ - وَالشُّكْرُ لِلَّهِ - كُلُّهَا ذُرِّيَّةٌ".

إِذَا سَيِّدٌ مِنْهُمْ خَلَا قَامَ سَيِّدٌ قَوْلٌ لِمَا قَالَ الْكِرَامُ فَعُولٌ⁽⁴⁾

مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ نَظَرَ سَعْدَهُ، وَمَنْ سَعْدُهُ يَنْتَظِرُ، وَمَنْ يَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ الْمَبْتَدَأَ وَأَنْ تَسُدَّ حَالَهُ بِكَفَالَتِهِ وَكَفَايَتِهِ مَسَدَّ الْخَبَرِ، وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ إِنْ غَيَّبَ الْقَمَرُ، لَا سَيِّمًا مِنَ الدِّينِ بِهِ إِذْ هُوَ صَلَاحُهُ أَعْرَفَ، وَمَنْ إِذَا قِيلَ لِبَنَاءٍ مُلْكٌ: هَذَا عَلَيْهِ قَدْ وَهَى، قِيلَ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَعْلَى بِنَاءِ سَعْدٍ أَشْرَفَ⁽⁵⁾.

¹ سورة فاطر، آية 10.

² المتنبي، ديوان أبي الطيب المتنبي، ص 253.

³ النويري، نهاية الأرب، 108/8 - 109.

⁴ السموال، أبو عبد الله نفطوية، ديوان السموال، تحقيق وشرح واضح الصمد، ط 1، دار الجيل، بيروت، 1996م، ص 78.

⁵ النويري، نهاية الأرب، 109/8 - 110.

وتضمّنت الرّسالة شكرَ المعزّي على مشاركته السلطان في سرّائه وضرّائه: "وعلى كلّ حال لا عُدِمَ إحسان المولى الذي يتنوّع في برّه، ويعاجل قضاء الحقوق فتساعف مرسومه في توصيله طاعة بحره وبرّه، وله الشكرُ على مساهمة المولى في الفرح والتّرح، ومشاركته في الهناء إذا سنّح وفي الدّمع إذا سفّح، وما مثل مكارم المولى من يعزب مثل ذلك عن علمها، ولا يُعزى إلى غير حكمها وحلمها، وهو - أعزّه الله- ذو التجارب التي مخضت له من هذه وهذه الزّبدّة، وعرضت عليه منهما الهضبة والوّهدة"⁽¹⁾.

وقد أنهى رسالته بالدّعاء، وطلبَ من الله أن يجعل وفاة الصالح خاتمة للمصائب، وأن يشغل السلطان وأفراد مملكته بجهاد الأعداء وسحقهم: "والرّغبة إلى الله تعالى في أن يجعل تلك المصيبة للرّزايا خاتمة، وكما لم يجعلها للظّهور قاصمة فلا يجعلها لغرا الشكر فاصمة، وأن يجعلها بعد حمل هذا الهمّ وفصاله على عليّه فاطمة، وأن يُحبّب إلينا كلّ ما يلهي عن الأموال والأولاد من غزوٍ وجهاد، وأن يجعلنا ليس يحدّ لدينا على مفقود تأدّب مع الله غير السيّوف فإنّها تُعرف بالحداد، وألا تُقصّف رماحنا إلا في فودٍ أو في فؤاد، ولا تُحوّل سروج خيلنا من ظهر جواد في السّرايا إلا إلى ظهر جواد، وألا تُشقّ لدينا إلا أكباد أكناد، ولا تُجزّ غير شعور ملوك التّتار تُتوّج بها رؤوس الرّمّاح ويصعد بها على قِمم الصّعاد"⁽²⁾.

وعاد مرّةً أخرى لشكر صاحب اليمن على عزائه المليء بالحُزن والأسى على رحيل الصالح علاء الدين، وطلب إلى الله أخيراً أن يبعد المصائب عنه، ويجعل الأخبار السارّة طارقةً لمسامعه في شتّى الأوقات: "والله يشكر للمولى سعيّ مرّاثيه التي لولا لطف الله بما صبرنا به لأقامت الجنائز، واستخفّت النحائز، ولهوت بالنفوس في استعمال الجائز من الأسف وغير الجائز، ولا شغل الله لبّ المولى بفادحة، ولا خاطره بسانحة من الحُزن ولا بارحة، ولا أسمع به غير المسرّات من هواتف الإبهاج صادحة بمنّه وكرمه"⁽³⁾.

¹ النويري، نهاية الأرب، 110/8.

² المصدر نفسه، 111-110/8.

³ المصدر نفسه، 111/8.

5.1.3 الصيد

اهتمَّ العرب بالصيد في مختلف العصور، وقد كان لانفتاحهم على الأمم الأخرى، واختلاطهم بأفرادها، دورٌ كبيرٌ في زيادة معرفتهم بآدابه ووسائله⁽¹⁾.

وقد عُدَّ الصيّد قبل العصر الأموي وسيلةً من وسائل الرِّزق والتَّرويح عن النَّفس والتَّدريب على القتال، إلا أنَّه اختصَّ -فيما بعد- بإمتاع الأفراد؛ نظراً للثَّروة الطائلة التي توافرت في أيديهم⁽²⁾.

وتتلخَّصُ نظرة الممالك إلى الصيّد "على أنَّه رياضة نبيلةٌ تسمو بالنَّفس، وتُهذِّبُ الخُلُق.. (و) أنَّه العمل الذي يليقُ بهم في السَّلم إذا توقَّف عملهم في ميدان القتال"⁽³⁾.

وقد اعتادَ سلاطين الممالك على اصطحاب كُتَّاب الإنشاء معهم في أثناء خروجهم للصيّد؛ ليكونوا شهود عيان للمعركة الطَّاحنة التي يخوضونها ضدَّ طيور الفلا ووحوشه، ليحيلوا تلك المشاهد إلى سطور وعبارات تُرسل إلى بعض المقرَّبين لهم.

وتتضمَّنُ رسائل الصيّد -عادةً- وصفاً لرحلة الصيّد وكيفية خروج الموكب السلطاني، إضافة إلى ذكر الأدوات المستعملة في تلك الرحلة وأنواع الطَّرائد التي تمَّ اصطيادها.

ومنَ الرسائل الصيديَّة رسالة أنشأها ابن عبد الظاهر عن السلطان الظاهر بيبرس إلى الأمير عز الدين الحلِّي، نائب السلطنة بالقلعة، وقد افتتحها بالدَّعاء للمرسل إليه قائلاً: "هذه المكاتبةُ إلى المجلس لا توارت شمس أنسه، ولا ذبلت ثمار غرسه، ولا برح غدهُ في السَّعد مُربيّاً على يومه ويومه على أمسه"⁽⁴⁾.

ثمَّ تناولَ الكاتب بعد ذلك موضوع الرسالة مباشرة فصرَّح بأنَّها تتضمَّنُ إعلام المقصود برحلة صيد السلطان، وأشار إلى ضخامة الموكب السلطاني بحديث لا يخلو من المبالغة، إذ قال: "تتضمَّنُ إعلامه بأنَّا خرجنا إلى الصيّد المُبارك بجنودٍ

¹ انظر: الباشا، عبد الرحمن رأفت، الصيد عند العرب، أدواته وطرقه - حيوان الصائد والمصيد، ط 2،

دار النفائس، بيروت، 1978م، ص 11.

² انظر: المصدر نفسه، ص 23-32-33.

³ أمين، أدب العصر المملوكي الأوَّل، ص 343.

⁴ النويري، نهاية الأرب، 105/8.

تملاً السَّهْلَ والجبل، وتستحيي الشمس منها فتستتر في سَحَابِهَا من كثرةِ الخَجَلِ، تسيرُ على الأرض منها جبال، وتأوي الرِّمال منها إلى أُرَافِ ظِلَالٍ⁽¹⁾.

وقد حدَّدَ اسم المنطقة التي قصَّدها الموكب، مع التَّنويه إلى كثرة الوحوش فيها، فما أن وصلها موكب السلطان حتى استقبلهم موكب آخر مكوَّن من شتَّى أنواع الوحوش، عندها، بدأت المعركة فتَمَّت مُحاصرة الوحوش أولاً: "وتوجَّهنا إلى جهة الطَّرَافَةِ وإذا بحشود الوحوش قد توافدت، وعلى مناهل المناهج قد توارت، والأجل يسوقهم، والبيد تعقبهم، والمنايا تعوقهم، ولم تزل أيدي الخيل تجمعهم في صعيد، وتطوي بهم سطوراً في طروس البيد حتى أحاطت بهم إحاطة الفلك بالنجوم الزَّواهر، والأجفان بالعيون النَّواظر"⁽²⁾.

ولا تخلو رسائل الصيد من ذكر أدواته سواء أكانت حيَّة أم جامدة، وذلك لأنَّ الصيَّادين -عادةً- لا يقتصرون على استعمال السيوف والرِّماح والسَّهام والبندق في صيدهم، وإنَّما يرفقونها في أغلب الأحيان بالحيوانات المفترسة كالفهود والنمور والكلاب، إضافة إلى الطيور الجارحة كالعقاب، والبازي، والصَّقر، والشَّاهين⁽³⁾.

ويبدو أنَّ الموكب المقصود في هذه الرسالة اقتصرَ على الأدوات الجامدة في القضاء على طرائده، إذ استعمل أفراده السيوف والنِّبال والسَّهام: "وجرَّدت السيوف فظنَّتها غُدرًا، ورُميت النَّبال فحسبَتها شرراً، وعُزلت الرِّماح بالسَّهام وحيَّتها السَّلامُ بالسَّلام"⁽⁴⁾.

غير أنَّ المكان المزدحم بالوحوش أصبحَ مُقفرًا منها بعد انتهاء أحداث المعركة؛ فقد قضى عليها الجيش الغازي، فصرع بعضها وأسر بعضها الآخر: "وسكنت نهاراً من العَجاج في ظلام، وضائق عليها الأرض بما رحبت، وأدركت المنية منها ما طلبت، وراسلتها المنايا، وأهدت إليها رياحين تحايا، فمن صريع وطريح وطريد، وجريح ومُقبلٍ وشرِّيد، وقائمٍ وحَصيد"⁽⁵⁾.

¹ النويري، نهاية الأرب، 105/8.

² المصدر نفسه، 106-105/8.

³ انظر: الباشا، الصيد عند العرب، ص 29.

⁴ النويري، نهاية الأرب، 106/8.

⁵ المصدر نفسه، 106/8.

ولعلَّ الكاتب يشيرُ إلى حالة الجوِّ في مكان وقوع المعركة، فإشارته إلى اختفاء الشمس خلف الغيوم تدلُّ على برودة الجوِّ؛ نظراً لتكاثف الغيوم في السماء إذ قال: "ولم تسلم في هذا اليوم غير غزالة السَّماء، فإنَّها استتارت بالغيوم، وخافت أن يكون الهلال قد نصبَ فخاً لصيدها وصيد غيرها من النجوم"⁽¹⁾. وتتطلبُ رسائل الصَّيد -أيضاً- ذكر أنواع الحيوانات المصيدة: "والموتُ أسرَّ كُلَّ مهابة مهابة، ونالَ الحنفُ من كلِّ طلاً طلابه، وفتكت الطُّبا بالطُّبى، وقالت السَّهام لأجبيادها: مرحبا"⁽²⁾.

وقد صوَّرَ الكاتبُ رحلة العودة، وأشار إلى وفرة الصيد الذي غنم به الموكب آنذاك: "وثنيينا الأعنة والشَّفار قد أنهلت، والظَّهور قد أثقلت، والكُنس خاوية على عروشها، والبيد قد أوحشت من وحوشها"⁽³⁾. وترفق الرسائل الصَّيدية عادةً بهديَّة إلى المُرسل إليه، تحتوي عدداً من الحيوانات التي تمَّ اصطيادها في رحلة الموكب السلطاني، ولا تخلو تلك الرسائل في معظم الأحيان من بيان رفعة مكان صاحبها لدى السلطان: "وما نشتمل عليه من محبة المجلس وإيثاره، ونجده من الوحشة له مع دنوِّ داره، وسروره بما عساه لنا يتجدد، وحبوره بما يرد من جهتنا، وهذا لا نشك فيه ولا نتردد، أوجب أن نخصّه به ونتحفه، ونصفه له على جليته إذا كنّا بالتخصيص به لن ن نصفه، وقد بعثنا إليه منه قسماً، ولم ننسَ عند ذكرنا أنفسنا له اسماً"⁽⁴⁾.

2.3 الرسائل الإخوانية

هي رسائل مُتبادلة بين الأصدقاء، تدلُّ على قوَّة العلاقة التي تربطهم، ولا تخلو من العواطف والمشاعر الفياضة،⁽⁵⁾ ومن الأمثلة عليها:

¹ النويري، نهاية الأرب، 106/8.

² المصدر نفسه، 106/8.

³ المصدر نفسه، 106/8.

⁴ المصدر نفسه، 106/8.

⁵ انظر: القيسي، فايز عبد النَّبي فلاح، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ط 1، دار البشير للنشر والتوزيع، عمَّان، 1989م، ص 100، وباشا، عمر موسى، أدب الدول المتتابعة (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ط 1، دار الفكر الحديث، مصر، 1967م، ص 810.

1.2.3 الاستدعاء

هو مظهرٌ من مظاهر الرسائل الإخوانية، وفيه يطلبُ الصديق إلى صديقه الحضور؛ لمشاركته في متعةٍ ما، ومنهُ استدعاء محيي الدين بن عبد الظاهر صديقه إلى حمّام تتوافر فيه مقومات السعادة التي يحتاج المرء إليها، فهو يجمع النار والنور والماء والوجه الحسن في آن واحد: "هل لك -أطال الله بقاءك- إطالة تكرر في منهل النعيم، وتتملّى بالسعادة تملّى الزهر بالوسميّ، والنظر بالحسن الوسيم في المشاركة في جمع بين جنة ونار، وأنواء وأنوار، وزهر وأزهار، قد زال فيه الاحتشام وكلّ عارٍ ولا عار" (1).

فالحمام جنة الدنيا في نظر الكاتب، توقد فيه النار للتدفئة، وتسخن المياه المعدة للاستحمام، وتشتعل فيه الأنوار والمصابيح؛ وذلك لأنه مكان مغلق لا نوافذ فيه، وهو جنة -أيضاً- لأنه مجمع لكثير من الملاح والحسان الذين يتمتع الناظر بمشاهدتهم، إضافة إلى زوال الاحتشام فيه من دون عار.

ويصف الحمام من الداخل، فيصور مصابحه بالنجوم في السماء، إلا أنها تختلف عنها بالإضاءة الدائمة ليلاً ونهاراً، ويشير إلى تواجد أزهار ونباتات منقوشة على رخامه، لذلك فهي لا تذبل أبداً: "نجوم سمائه لا يعترىها أفول، وناجم رخامه لا يعترىه ذبول" (2).

كما أنه يصور تنافس عناصر الطبيعة المختلفة (الماء، التراب، النار، الهواء، الأشجار) على ارتياد الحمام وخدمة من فيه، وقد نجحت جميعها في تحقيق مبتغاها ماعدا التراب والهواء: "تنافست العناصر على خدمة الحال به تنافساً أحسن كل فيه التوسل إلى بلوغ أربه، فأرسل البحر ما جسده من جسده من زبده لتقبيل أخصه إذ قصرت همته عن تقبيل يده، ولم ير التراب له في هذه الخدمة مدخلا، فتطفّل وجاء وما علم أن التسريح لمن جاء متطفلاً، والنار رأت أنه عين مباشرتها وأنها بفرض خدمته لا تخل ولأن لها حرمة هداية الضيف في السرى، وبها دفع القرّ ونقع القرى،

¹ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 279/17.

² المصدر نفسه، ج 6، ق 279/17.

فأعلمت ضدّها الماء فدخلَ وهو حرّ الأنفاس، وغلت مَرجلُهُ فلأجل ذلك داخلَهُ من صوت تسكابه الوسواس، ورأى الهواء أنه قصرَ عن مطاولة هذه المبار، فأمسك مُتهيباً ينظر ولكن من خلف زُجاجةٍ إلى تلك الدار، ثمَّ إنَّ الأشجار رأت أنها لا شائبة لها في هذه الخطوة، ولا مساهمة في تلك الخلوة، فأرسلت من الأمشاط أكفّاً أحسنت بما تدعو إليه الفرق، ومرّت على سواد العذار الفاحم كما يمرُّ البرق⁽¹⁾.

ويمدحُ قِيَمَ الحَمَام الذي يقوم بغسلِ الأجسام وتطهيرها، وقصّ الشعرِ وتسريحه، وحلق الأذقان، فيشير إلى خبرته ومهارته في عمله، وحسن أدائه له، إضافة إلى لطف أخلاقه: "وذلك بيد قِيَمٍ قِيَمٍ بحقوق الخدمة، عارف بما يعامل به أهل النعيم أهل النعمة، خفيف اليد مع الأمانة، موصوفٌ بالمهارة عند أهل تلك المهانة، لطف أخلاقاً حتى كأنّها عتابٌ بين لحظة والزمان، وحسنُ صنعة فلا يُمسك يداً إلا بمعروف ولا يُسرحُ تسريحاً إلا بإحسان، أبداً يرى مع طهارته وهو ذو صلف، ويُشاهدُ مزيلاً لكلّ أذى حتى لو خدّم البدر لأزال من وجهه الكلف، وبيده موسى كأنّها صباحٌ ينسخُ ظلاماً، أو نسيمٌ ينفضُ عن الزهر كمّاماً، إذا أخذ صابونه أوهم من يخدمه بما يمرّه على جسده أنه بحرٌ عجاج، وأنه يبدو منها زبد الأعكان التي هي أحسن من الأمواج"⁽²⁾.

ولا بُدَّ أن المرءَ سيفاجأ عندما يقرأ النصّ التالي من الرسالة؛ إذ يتحوّل فيه محيي الدين بن عبد الظاهر من رجلٍ صالح تقيٍّ، إلى رجلٍ خليعٍ يُسحر بأجساد الملاح الذين يرتادون الحمام، فيتغزلُ بوجوههم وشعورهم وخصورهم وأردافهم، ولعلّه لجأ إلى ذلك ليستميل قلب صاحبه إلى زيارة الحمام: "فهلمّ إلى هذه اللذة، ولا تعدّ الحمام أنها دعوة أهل الحُرّاف فربما كانت هذه بين تلك الدّعاوات فذّة، ولعلّ سيّدنا يشاهدُ ما لا يُحسِن وصفه قلّمي، وأستحسن وصفه ليدي وفمي، وإذا جمحَ عناني فأقول، وإذا ترامت بي الخلاعة أخلع ما يتستّرُ به ذوو العقول، لديّ -أبهجك الله- غصونٌ قد هزّها الحُسنُ طرباً، ورماحٌ لغيرِ كفاحٍ قد نشرت الشعور عذاباً، وبدورٌ أسدلت من الذوائب غيهاً، قد جعلت بين الخصورِ والروادِفِ مِنَ المآزرِ

¹ الصّفيدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 279/17.

² المصدر نفسه، ج 6، ق 279/17-280.

برزخاً لا يبغيان، وعلماً بهم أننا في جنة تجري من تحتها الأنهار، وتطوف علينا بها الولدان، يكاد الماء إذا مرَّ على أجسادهم يجرحها بمرّه، والقلب يخرج إلى مباشرتها من الصدر، وعجيب من مباشرٍ لأمرٍ لا يلتقيه بصدرة، إذا أسدل ذوائبه ترى ماءً عليه ظلُّ يرف، وجوهرًا من تحت عنبر يشف، يطلب كلُّ منهم السَّلام وكان الواجب طلب السَّلامة، وكيف لا وقد غدا كلُّ منهم أمير حُسنٍ وشعره المنثور وخاله العلامة، إذا قلب بأصفر الصفر ماءً على الحُضار، قلت: هذا بدرٌ بيده نجمٌ تُقسَّم منه أشعةُ الأنوار، وإن أخذ غسولاً وأمره على جسمه مفرّكاً، لم يبقَ عضوٌ إلا واكتسبَ منه لطافةً وراح مدلّكاً⁽¹⁾.

ويختتم الرسالة قائلاً: "فما عُذرك في انتهازِ الفرص، واقتناصِ هذه الشوارد التي يجب على مثلك أن يغدو لها وقد اقتنص، والله تعالى يوالي إليك المسار، ويجعلها لديك دائمة الاستقرار بمنّه وكرمه"⁽²⁾.

2.2.3 الإهداء

وهو مظهر آخر من مظاهر الرسائل الإخوانية، يدلُّ على دوام المحبة والتواصل بين الأصدقاء، ومنه رسالة كتبها محيي الدين بن عبد الظاهر مع مِداد أهداها إلى جماعة من الكتاب في الأيام المعزية، وقد استفتحها بالدعاء لتلك الجماعة بطول البقاء، وسردَ بعد ذلك كثيراً من المجاملات لهم، مركزاً فيها على بيان رفعة قدرهم بين الكتاب آنذاك، ومُشيداً بحُسن إنشائهم ومهاراتهم في استخدام البلاغة التي وقفت لها عناصر الطبيعة المختلفة وقفة إجلالٍ وتبجيل: "أطال الله بقاء الموالى السادة، ولا زالت سماء الدولة محروسةً بشهبِ أقلامهم، ومواسم السعادة مختالةً بشريف أيامهم، ونحورُ العلياء متزيّنةً بتضيدِ نظامهم، ورياضُ البلاغة معلمة الأطراف والبرود بما تحوَّكه غنائمهم، إذا غدت رفيعه الهضاب، أضحيت في أعلى سمك السماك مضروبة القباب، وأحنى منالُ الشمسِ دونَ منالها وعظمُ توهم إدراكها حتى أمست ولا الحلم وجود بها ولا بمثالها، استحقَّ في جانب شرفها كلُّ جليل،

¹ الصّفي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 280/17-281.

² المصدر نفسه، ج 6، ق 281/17.

واستدّر بجودها كل شيء جزيل، واستقلت الرياض أن تهدي إلى جنبها زهراً،
والسحاب أن ترسل إلى بحرها قطراً، والفلك الدائر أن يخدمها بنجومه، والشذى
العاطر أن يكثر عرف أوصافها بنسيمه، والنهار أن يمنح أيامها رقة أصائله وبكره،
والليل أن يقدم بين يدي مساعيها حمد مسراه ونسمة سحره، والبدر أن يلبس حلة
السرار ويكسوها حلل تمامه، والجفن الساهر أن يصبر على مفارقة الطيف ويحبوها
لذيق منامه، واستحى كل فوقف موقف الإجلال وانتهى من التبجيل إلى حد كاد يبلغ
به الإخلال⁽¹⁾.

ويبدو أن الكاتب صور في هذه الرسالة رحلته الشاقة في طلب البلاغة، إذ كثر
طارقو بابها في ذلك الوقت، ولم يتسن إلا للقليل منهم إتقانها، ومن بينهم جماعة
الكتاب الذين خاطبهم في رسالته، فاندفع بصحبة عدد من أصدقائه ليستقوا البلاغة
من منابعها، إلى أن وصلوا إلى تلك الجماعة، فتم لهم ما أرادوا، ولا يخلو حديثه في
أثناء ذلك من عبارات التبجيل والتقدير لتلك الجماعة: "إلى أن تعارضت أدلة
الرسائل، وتزاحمت الغربان على ورود تلك المناهل، فقلب المملوك وجهه في سماء
سماتها، وأسأم فكره في أريض روضاتها قائلاً للجواهر الفاخر: أنت قريب العهد من
تلك البحار، وللنضار: أنت بعض هاتيك النسمات، وللعبير: لا تقل أنا ضائع نعم عند
شذى تلك النفحات، وللنظم والنثر: أنتما جنى غصون تلك الأقلام، وللحمد والشكر:
أنتما كمام ذلك الفضل والإنعام، فحار كل جواباً وغدا لا يملك خطاباً، وأبى مشاكلة
تلك الفضائل، واستسقى سحاب تلك البلاغة التي إذا قالت لم تترك مقالاً لقائل،
والإصغاء إلى أوصافها، والتسليف على سلافها، فشغف بها حباً، وصار بمحاسننها
صباً، ودعاه إليها جمالها البديع، وأغراه بحسنها الذي لها منه أكرم شفيح:

وَقَالَ لَهُ بَدْرُ السَّمَاءِ أَلَا اجْتَلِي	وَقَالَتْ لَهُ تِلْكَ الثَّمَارُ إِلَّا اجْتَنِي
وَسَاعَدَهُ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ مُعْتَلٍ	وَسَاعَدَهُ مِنْ ذَلِكَ الْفَجْرِ مُعْتَنِي
وَشَاهَدَ مِنْ تِلْكَ الْفَضَائِلِ مَا غَدَا	يَمِيسُ بِهِ عَطْفُ الزَّمَانِ وَيَنْثِي
فَضَائِلُ مِثْلُ الرُّوضِ بَاكِرَةِ الْحَيَا	فَمَغْنَاهُ مِنْ تَتْوِيلِ كَفِّ النَّدَى غَنِي

¹ الصّدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 269/17.

فسامَ وصالها ﴿فأعرضَ ونأى بجانيه﴾⁽¹⁾ ورامَ قُربَهَا فسَدَّ عليه الإجلالُ أبوابَ مطالعه ومطالبه قائلاً: لستَ يا ابنَ السبيل من هذا القبيل:

ألا إنما نحنُ الأهلَّةُ إنما نُضيءُ لمن يسري إلينا ولا نقري
فلا منح إلا ما تزودَ ناظرٌ ولا وصل إلا بالخيالِ الذي يسري

فتعلَّلَ بأحاديثِ المُنَى وقال: زورَ الزيارة بالرَّغمِ مِنِّي! فقالت: القناعة غنى!
ومن لم يجد ماءً طهوراً تيمِّماً، ثمَّ ثبتَ إلى عطفِ أوصافها الجميلة، وقالت: قد
رأيت لك مزيدَ قصدِكَ وإلا أنا بالطَّيفِ على غيرك بخيلة، فشكرتُ لها ذلك الإنعام،
وقلت: أ يكونُ ذلك نهاراً أو ليلاً هذا على تقديرِ وجودِ المنام! فقالت: أوليسَ اللَّيْلُ هو
حَلَّةُ البدرِ الأكلفِ أم النَّهار، ولا يأنفُ على شمسِهِ أنَّ ما بناه ضربةُ بمرماه الصَّائبِ
بل نبغ، وهذا نسيمُ الرَّوضةِ التي أطاعها عاصيها، وثمرُ الجنَّةِ التي كلَّ ما تشتهي
الأنفُسُ وتلذُّ الأعين فيها⁽²⁾، وهذه البلاغةُ التي كُنتَ بالإتحافِ بها موعوداً، وهذه
الفواضلُ والفضائلُ التي حقَّقتَ أنَّ في النَّاسِ مجدوداً، ومحدوداً، ومسعوداً، ومبعوداً.
ولمحةُ المملوكِ فقال: هذا نورٌ أم نور، وهذا ما يُنسبُ إلى ما يُستخرجُ من أصدافِ
البحورِ ويُجعلُ في أطواقِ أعناقِ النَّحورِ مِنَ الحُورِ، ولم يرَ أحلى من تشبيهه وإن
جلَّ عن التشبيه، ولا أحلى من بلاغته البالغة بما فيه من فيه، ولمَّا شاهدَ من
مُعجزِها ما بهرَ حمدَ وشكر، ورامَ مُجادلتها فعجزَ عنها جوادُ القلمِ فقصرَ وعثرَ،
وسوَّلتَ له نفسه الإضرابَ عن الإحالة في الإجابة ولو وُفقَ لرأيه لأصابه، وإنَّما
حداهُ إلى التعرُّضِ لنداهِ يحقِّقه بأنَّه لم يكن في بيته الكريمِ إلا مَنْ هوَ بهذه المثابة في
الإثابة، ومن يتلقَّى رايةَ الصَّائبِ بيمنٍ يمينه خيراً من عرابه⁽³⁾. قالَ مُسافرُ بن
سيَّار: ولمَّا سللتُ غضبَ هذا المقالِ من غمده، وتمتَّعتُ من شميمِ عرارِ نجده⁽⁴⁾،
وأتمَّ لي عشراً وعشراً من عنده، قلت: بماذا أجازي هذه المحنة وأكافي هذه المنة

¹ سورة الإسراء، آية 84.

² إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تُشْتَهَى الْأَنْفُسُ وَتَلذُّ الْأَعْيُنُ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، سورة الزُّخْرَف، آية 71.

³ مأخوذ من قول الشَّمَاخ بنِ ضرار: إذا ما راية رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تلقاها عرابه باليمين
ديوان الشَّمَاخ، حقَّقه ونشره صلاح الدين الهادي، (د.ط.)، دار المعارف، مصر، (د.ت.)، ص 336.

⁴ مأخوذ من قول الشاعر: تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ
أبو تَمَّام، ديوان الحماسة، ص 373.

التي تشحُّ بمثلها القرائحُ السَّمحة؟ فقلَّ لي: بشكرٍ مَنْ هُوَ قَادِحُ زِنَادِ هذه القريحة،
وفاتح جواد هذه الطرق المُفضية الفسيحة:

مَلِكٌ بِهِ الْأَقْلَامُ تُقَسِّمُ أَنَّهَا مَا إِنْ يَزَالُ إِلَى غُلَاهِ سُجُودُهَا
وَتَكَادُ مِنْ أَوْصَافِهِ وَمَدِيحِهِ تَهْتَزُّ مِنْ زَهْوٍ وَيَرُوقُ عُودُهَا
سُعْدَ الْكِرَامِ الْكَاتِبُونَ بِبَابِهِ إِذْ هُمْ جِيوشُ يِرَاعِهِ وَجُنُودُهَا
دَامَتْ فَوَاضِلُهُ تَصِيدُ خَوَاطِرًا وَيَرُوقُ فِيهِ قَاصِدُهَا وَقَاصِدُهَا
ثُمَّ خَفْتُ أَنْ أَقْصُرَ وَإِنْ اجْتَهَدْتُ، وَأَنْ أَهْلَ الْحُبِّ وَإِنْ شَدَدْتُ، وَرَبِحْتُ فِي
يَوْمِي مِنَ الْخَجَلِ مَا لَعَلَّهُ يَكُونُ لِي غَدِي، ثُمَّ خَطَرَ أَنْ أَقُولَ مُعَمِّيًّا وَلَا أَصْرَحَ مُسَمِّيًّا
لَأَكُونَ مِنْ سَهَامِ التَّأْوِيلَاتِ الرَّاشِقَةِ مُتَوَقِّيًا، فَأَخْفَيْتُ مِنْ مَعْرِفَتِي مَا ظَهَرَ، وَقُلْتُ: إِذَا
كَانَ الْمَبْتَدَأُ مَعْرِفَةً فَلَا يَضُرُّ تَنْكِيرُ الْخَبَرِ، وَسَأَلْتُ وَلَدِي الْمُسَاعِدَةَ وَالْمُسَاعِفَةَ، فَقَالَ:
لَا يَضُرُّ اشْتِرَاكِي أَنَا وَأَنْتَ فِي هَذَا الْقَصْرِ وَقَدْ تَسَمَّيْتَ بِمَسَافِرٍ، فَاجْمَعْ إِلَى جَوَابِكَ
الْجَوَابَ مُقْتَصِرًا عَلَى ذَلِكَ، فَالْمَسَافِرُ جَائِزٌ لَهُ الْجَمْعُ وَالْقَصْرُ، فَأَجَابَهُ عَنْهَا بِقَوْلِهِ: لَمَّا
ظَعَنَ وَالِدِي وَقَطَنْتِ، وَتَحَرَّكَ لِلرَّحْلَةِ وَسَكَنْتِ، قَلَقْتُ لِبُعْدِهِ وَأَرْقَتُ مِنْ بَعْدِهِ،
وَوَجَدْتُ غَايَةَ الْأَلَمِ عِنْدَ فَقْدِهِ، فَبَقِيتُ لَا أَلْتَذُّ بَطْعَامٍ وَلَا شَرَابٍ، وَلَا آوِي إِلَى أَهْلِ وَلَا
أَصْحَابٍ، وَلَا أَتَّخِذُ مَكَانًا فِي الْأَرْضِ إِلَّا ظَهَرَ سَابِحٌ وَلَا جَلِيسٌ إِلَّا كِتَابٌ، أَعَالِجُ
لَوَاعِجَ الْأَشْوَاقِ، وَأَبُوحُ بِمَا أَجِدُ مِنَ الْفُرَاقِ، وَأَنُوحُ لِلْوَرَقَاءِ حَتَّى تَغْدُو مَشْقُوقَةً
الْأَطْوَاقِ، وَحِينَ طَالَتْ شُقَّةُ الْبَيْنِ وَلَمْ تَنْفَصِلْ، وَتَهْلَهْتَ خِيوطُ الدَّمُوعِ تَنْقَطِعُ تَارَةً
وَتَتَوَصَّلُ:

لَبِسْتُ ثِيَابَ الْحُزَنِ رَأَيْتُ جَدِيدَةً تَشْفُ عَلَى أَثْوَابِ بَشَرٍ مُمَزَّقٍ
عَقَرْتُ سَوَائِمَ الْأَمَالِ بِعَقْرِ دَارِي، وَلَزِمْتُ بَيْتِي بَانَكْسَارِي، يَتَزَايِدُ شَوْقِي
وَيَتَنَاقِصُ صَبْرِي، وَتَتَّسِعُ هُمُومِي فَيُضِيقُ لَهَا صَدْرِي، فَبَقِيتُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الزَّمَنِ
بُرْهَةً، لَا أَدْخُلُ فِي لَذَّةٍ، وَلَا أَخْرُجُ إِلَى نَزْهَةٍ، إِلَى أَنْ شَامَتِ بَوَارِقُ الْبَيَارِقِ الشَّرِيفَةِ
عَيُونَ الشَّامِ، فَتَوَجَّهَ لَخِدْمَتِهَا الْمَخْدُومُ وَاثِقًا بِأَنْ قَدْ هُزِمَتِ الْأَحْزَابُ وَغُلِبَتِ الرُّومُ،
لَكِنَّ الْجَزْمَ يُوجِبُ لِلْقُلُوبِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الدُّنْيَا خَائِفَةً، وَالْعَزْمَ يَقْتَضِي أَنْ تَوْجِدَ رَاجِيَةً،
وَأَنْ يَتَحَقَّقَ أَنْ فَرَقَهُ لَمْ يَفَارِقِ الْإِسْلَامَ وَالرَّكَّابَ الشَّرِيفَ هِيَ النَّاحِيَةُ، وَكَنتُ بِتِلْكَ
الْمُدَّةِ اسْتَرِيحُ مِنَ الْغُمُومِ إِلَى النَّبْتِ الْعَمِيمِ، وَأَسْأَلُ مَنْ أَلْقَاهُ مِنَ الْوُفُودِ حَتَّى وَفَدَ

النَّسِيم، فخطرَ لي في بعض الأيام أن أكرَّ بِطَرْفِ طَرْفي في ميادين الفضاء، وأن أُجرِّد سيف عزمي لقطع مواصلة الهموم فإنَّه معروفٌ بالمضا، فخرجتُ أُجِيلُهُ في مَساري الغمام وهو يتمطرُ، وأميلُهُ عن محالِّ الوعول ومجاري السيول وهو لَطول الجمام يتقطرُ، وكانَ فيما يجاور المدينة من الحيط والغيط جبلٌ يُسمَّى بالخيط، يُشاكل خيط الصَّبَح في امتداده، ويُمائل جناحَ الجَنح بكثرة ظلال نجمه وشجره وسواده، قد شَمَخَ بأنفه على وجه الأرض، ورفعَ رأسه فشَقَّ السَّمَاءَ بالطُولِ وشَقَّ الأرضَ بالعرض، قامَ الدَّوْحُ على رأسه وهو جالسٌ وتبسَّم البلجُ في وجهه وهو عابسٌ:

وقورٌ على مرِّ الليالي كأنَّما يُصيخُ إلى نحوي وفي أذنيه وقرُ
يمسحُ بكفِّ الثُّريا عن أعطافه، ويديرُ منطقةَ الجوزاء على أردافه، فعزمت
على أن أستظلَّ بذروته وأستظلَّ من ذروته، فدعوتُ جماعةً من أصحابي كنتُ
بالسَّفر أرافقهم، وفي الحَضَرِ أَلْزَمهم فقلَّما أفارقهم، وقد انتظموا بالموَدَّةِ انتظام الدُّرِّ
في الأسلاك، واتَّسقوا في الصُّحبة اتَّساق الدَّراري في الأفلاك:

وقَد كَثُرُوا عَدَاً ولكن قُلُوبُهُمْ قَد اتَّفَقَتْ وَدَاً على قلبٍ واحدٍ
يتجارونَ إلى الفضائلِ كتباري الجياد، ويهتزونَ إلى الفضائلِ اهتزازَ الصَّعَاد،
قد تجنَّبوا المُشاققة والمُحاققة، والتزموا بشروط الموافقة والمُرافقة، فذكرتُ لهم ما
خَطَرَ لي مِنَ العَزَم فكلُّهم أشارَ بأنَّ الحَزَم في الجزم، فسرنا والشمسُ قد رُفِعَ حجاب
الظلام عنها، وقد تراعت لنا تحت غمامةٍ بدا جانبٌ منها، وكُنَّا في فصل الربيع الذي
قد رَقَّ حُسناً وراقَ شباباً، وشابَ عارضه بالزَّهر على صبيٍّ فجعلَ له الظلُّ خِضاباً،
قد اكتست أرضه وأشجاره، واستوت في الطَّيب هواجرُه وأسحاره

نجيبُ القوم وضاحُ المُحيَّا أنيقُ الرِّوضِ مصقولُ الأديم
فلم نزل نمرُّ مرَّ السَّحاب، ونقفُ للتَّنَزُّه وقوفَ السَّراب حتى أشرفنا على وادٍ لا
يُعرَف قعره، ولا يُسلَك وعره، قد نزلَ عن سمت الأودية والبقاع، وأخذَ فن
الانحطاط نظير ما أخذَ جبله في الارتفاع، وقد استدارَ بالجبل وأحْدَق، وأضحى
لِعالي سورِه كالخندق، لا يسلكه إلا ملكٌ أو شيطان، ولا يصل إلى قرارته ولا منها
إلاَّ بأمراسٍ ومِراسٍ أشطان:

سحيقٌ ساخٍ في الأرضين حتى حكي في العُمق أوديةَ الجحيم

ولاحَ الدَّوْحُ والأَنْهَارُ فيه فَخَلْنَا ثَمَّ جَنَاتِ النَّعِيمِ

وعندما أشرَفنا عليه حمدنا التَّأْوِيبَ لا السُّرَى، ورأينا به ما لَمْ يَرِ بِشَعْبِ بَوَّانٍ ولا وادي القُرَى، فأجمعنا على النُّزولِ إلى قَرَارِهِ، والمبيتِ بِمُخَيِّمِ أَشْجَارِهِ، فتحدَّرنا إليه تَحَدَّرَ السَّيْلُ، ونزلنا إلى بطونِ شِعَابِهِ عن ظهورِ الخَيْلِ، ولم نزل تَارَةً نَهْوِي هَوِيَّ القَشَاعِمِ، وننسَابُ أَوْنَةً انسيَابَ الأَرَاقِمِ، إلى أن انقطعت أنفاسُنا وأنفاسُ الهَوَاءِ، واحتجبَ عَنَّا عَيْنُ الشَّمْسِ، وكادَ يَحْتَجِبُ وَجْهَ السَّمَاءِ، ولمَّا بلغنا مُنْتَهَاهُ بِطَرِيقٍ غيرِ مَسْلُوكٍ، ونزلنا كما يَقُولُ العَامَّةُ إلى السَّيِّدُوكِ، إذا هو وادٍ يُذْهِلُ لِحُسْنِهِ الجِنَانِ، وكأنَّما هو في الدُّنْيَا أُنْمُودَجُ الجِنَانِ، وقد امتدَّت سَمَاوُهُ غَصُونًا عندما هبَّ الهَوَاءُ، وفجَّرت أرضه عيونًا فالتقى الماءُ⁽¹⁾:

فَبِتْنَا والسُّرُورُ لَنَا سَمِيرٌ وَمَاءُ عِيُونِهِ الصَّافِي مُدَامَ

تُسَاوِرُهُ النَّسِيمُ إِذَا تَغَنَّتْ حَمَائِمُهُ وَيَسْقِيهِ الْغَمَامُ

ولمَّا طَلَعَ الصَّبَّاحُ عَلَيْنَا طَلَعْنَا، ودعا داعي السُّرُورِ فسمعنا وأطعنا، وتعلَّقنا بِذَيْلِ الجبلِ، وشققنا فُروجَ المَسَاهِبِ، وَعَلَوْنَا عَاتِقَهُ حَتَّى كِدْنَا نَلْمَسُ عَلَيْهِ عَقُودَ الكَوَاكِبِ، ولمَّا طَرْنَا إِلَيْهِ طِيرَانَ البُزَاةِ إِلَى الأَوْكَارِ، وصعدنا عليه صُعودَ السُّرَاةِ عَلَى الأَكْوَارِ، تَكشَّفَ للعيونِ وتكسَّفَ، فَقُلْتُ لَهَا مُجَابُواً وَمُنْصَفٍ:

إِذَا كُنْتُ فِي اللَّيْلِ تَخْشَى الرَّقِيبَ لِأَنَّكَ كَالْقَمَرِ الْمُشْرِقِ

وَكَانَ النَّهَارُ لَنَا فَاضِحاً فَبِاللَّهِ قُلْ لِي مَتَى نَلْتَقِي

فَقَالَتْ: إِذَا جَنَحْتَ شَمْسِي لِلْمَغِيبِ فَإِيَّاكَ أَنْ يَرَى طِيفِي مِنَ النُّجُومِ رَقِيبَ، أَوْ يَشُوبُ شَبَابَ ذَلِكَ اللَّيْلِ مِنْ أَضْوَائِهَا مَشِيبَ، وَعَلَيْكَ بِسَوَادِ الجَفُونِ فَكُونْ مِنْهُ لَيْلًا، وَسُوْدَاءِ القُلُوبِ فَأَسْدِلْ مِنْهُ ذَيْلًا، وَانْتَظِرْ زِيَارَةَ الطَّيْفِ، وَلَا تَجْعَلْ غَيْرَ رُوحِكَ قَرِي ذَلِكَ الضَّيْفِ، فَأُبْتُ إِلَى فَهْمِي وَرَاجِعِي حَلْمِي⁽²⁾.

وقد جرت العادةُ أَنْ يَذْكُرَ الصَّدِيقُ هَدِيَّتَهُ فِي الرِّسَالَةِ المُرْفَقةِ مَعَهَا، وَأَنْ يُشِيرَ إِلَى بَعْضِ صِفَاتِهَا⁽³⁾، فَهَذَا ابْنُ عَبْدِ الظَّاهِرِ أَهْدَى جَمَاعَةَ الكِتَابِ مِدَادًا، وَهُوَ سَائِلٌ

¹ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالتقى الماء على أمرٍ قد قدير﴾، سورة القمر، آية 12.

² الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 269/17-267.

³ انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 100/9.

يُكْتَبَ به، وقد نَوّه إلى لونه الأسود وطيب رائحته، ولا يخلو حديثه من التضرّع إلى تلك الجماعة بإسعاده بالزيارة: "وأهديتُ إليها ليلاً من المِدادِ أَسْتزِيرُ في جُنْحِه طيفَ خيالها، وأَسْتَطْلُعُ في غَسَقِه بدرَ كمالها، وجعلتُهُ كخافية الغراب، وكشيعار الشعرِ أيامَ الشَّبابِ:

كَأَنَّمَا قَدْ ذَابَ فِيهِ اللَّمَى أَوْ حَلَّ فِيهِ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ
تَغْدُو جَفُونُ الْأَقْلَامِ كحيلةٍ بِإِثْمِهِ، وَوَجْوهُ السُّودِّ مَبِيضَةٌ بِأَسْوَدِهِ:

يَقُولُ مَنْ أَبْصَرَهُ حَالِكاً هَذَا لَعَمْرِي هُوَ مِنْ حَالِكَا
أَوْ ذَاكَ مِنْ حَظِّكَ بَيْنَ الْوَرَى قُلْتُ: صَدَقْتُمْ إِنَّهُ ذَلِكَ
وَقَدْ خَدَمَ بِهِ آمِلاً أَنْ يَسْتَنْشِقَ لَعْبِيرَهُ نَثْراً عَطِراً، وَيَرَى لِلَّيْلِ مِنَ الْفَضَائِلِ
صُبْحاً مُسْفِراً، وَيَشَاهِدُ بَدْرَ الْفَضَائِلِ كَيْفَ يَرِقُّ فِي حُلِّهِ، وَالبَلَاغَةُ كَيْفَ تَغْدُو مِنْ
تَخْيِيلِهِ وَخَوَلِهِ، فَحِينَئِذٍ يُنْشَدُ:

أَصْلَحْتَ قِرْطَاسَكَ عَنْ حُسْنِهِ أَشْجَارُهُ مِنْ حَكْمٍ مُثْمَرَةٍ
مَسْوَدَّةً نَقْشاً وَمُبِيضَةً طَرَسَا كَمَثَلِ اللَّيْلِ الْمُقْمَرَةِ
وَالرَّأْيُ أَعْلَى فِي إِجَابَةِ مَا التَّمَسَّهُ⁽¹⁾.

3.3 الرسائل الأدبية

هي الرسائل التي تفتح المجال أمام الكاتب لتفجير ملكته الأدبية، ومقدرته الفنية على نحوٍ يزيدُ -إلى حدٍّ ما- عن المألوف في كتاباته، فيعمدُ إلى ابتداع كثيرٍ من الصُّور البلاغية التي تتركزُ على التَّشبيه، والاستعارة، والكناية، والطباق، والجناس، والتورية، وغيرها من المحسنات البديعية، ومن ألوان تلك الرسائل: المدح، والهجاء، والثناء، والفخر، والوصف، وغيرها.

1.3.3 المدح

هو لونٌ أدبيٌّ يعمدُ فيه الكاتب إلى إظهار محاسن ممدوحه، والإكثار من عبارات الثناء عليه والإشادة به، وقد جاء هذا اللون في بعض الرسائل السابقة،

¹ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 276/17.

كالرسائل السياسيّة، والإداريّة والحربيّة، إلا أنّه لم يكن موضوعاً رئيساً فيها، بل لجأ إليه الكاتب -أحياناً- للضرورة.

ولعلّ الرسالة التي كتبها محيي الدين بن عبد الظاهر في يوسف، قيّم حمّام الصوفيّة⁽¹⁾، الذي يقع جوار خانقاة سعيد السعداء، تمثّل هذا اللون.

ويركز فيها الكاتب على إظهار براعة الممدوح في عمله، وإتقانه له، وحُسن معاملته لمرتادي حمّامه، في عبارات تتضمّن دعوة خفيّة لزيارة ذلك الحمّام، يقول: "يقولُ الفقيرُ إلى الله تعالى، عبدالله بن عبد الظاهر، إنّ أبا الحجاج يوسف، ما برح لأهل الصلاح متمّماً، وله جودة صناعةٍ استحقّ بها أن يُدعى قيّماً، كم له عندَ جسمٍ من منّ جسيم، وكم أقبل مُستعملوه ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾⁽²⁾، وكم تجرّدَ مع شيخٍ صالحٍ في خلوة، وكم قال وليُّ الله: يا بُشراي؛ لأنّه يوسف حين أدلى في حوض دلوّه، كم خدمَ من العلماء والصلحاء إنساناً، وكم اتّخرَ بركتهم لدُنْيا وأخرى فحصلَ من كلّ منهم شفيعين مؤتزرًا وعريّاناً⁽³⁾، كم حرمة خدمةٍ له عند أكابر الناس، وكم له يد عند جسد، ومِنّة على راس، كم شكرته أبشار البشر، وكم حكَّ رجلَ رجلٍ صالح، فتحقّقَ هنالك أنّ السعادة لتلحظ الحجر، قد ميّزَ بخدمة الفضلاء والزهاد أهلُه وقبيله، وشكّرَ على ما يعاب به غيره من طول الفتيلة، كم ختمَ تغسيلَ رجلٍ بإعطائه براءته يستعملها ويخرج من حمّامٍ حارٍّ، فاستعملها وخرج فكانت له براءةٌ وعتقاً من النار، كم أوضحَ فرقاً، وغسلَ درناً مع مشيب، فكان الذي أنقى فما أبقى، تتمتعُ الأجسادُ بتطيبه لحمامه بـ ﴿ظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾⁽⁴⁾، وتكادُ كثرة ما يُخرجه من المياه أن يكونَ أنبوباً على أنبوب، كم له بيّنة حرٌّ على تكثيرِ ماءٍ يزول به الاشتباه، وكم تجعّدت فباتت كالسُطور في كلّ حوض، فقل:

¹ حمّام الصوفيّة: هذه الحمّام بجوار الخانقاة الصلاحية سعيد السعداء، أنشأها السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب لصوفيّة الخانقاة... ولا يدخلها يهودي ولا نصراني، المقرّبي، المواعظ والاعتبار، 554/2.

² سورة المطففين، آية 24.

³ إشارة إلى قول الفرزدق: ليس الشّفيعُ الذي يأتيك مُتّزراً مثل الشّفيع الذي يأتيك عريّاناً، الأصفهاني، أبو الفرج (ت 356هـ)، الأغاني، تحقيق سمير جابر، ط 2، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، 360/3.

⁴ سورة الواقعة، آية 29-30.

كتاب الطَّهارة، باب المياه، كم رأس أنشدت موساه حين أخرجت من تلاحق الأنبات خضراً:

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَنبَتٍ شَعْرَةٌ لِسَانًا يَبِثُّ الشُّكْرَ كُنْتُ مُقَصِّراً⁽¹⁾.

2.3.3 الهجاء

وهو من أبرز الألوان الأدبية التي تُصوِّرُ مدى العداوة بين الكاتب وغيره من الأفراد، وفيه تظهر مشاعر الحقد، والبُغض، والكرهية للشخص المهجَّو، من خلال التعريض به، وذكر مساوئه.

ويبدو أنَّ العداوة تمكَّنت في نفس محيي الدين بن عبد الظاهر، تجاه الكاتب المعروف بالوطواط⁽²⁾، حتى إنَّه أنشأ تقليداً بخصوصه، على لسان سيِّدنا سليمان عليه السلام، وهو مغايرٌ لما عهدَ من التقاليد السابقة، ففي الوقت الذي تتَّسم فيه تلك التقاليد بالرَّسمية والجديَّة، يتَّسم هذا التقليد بالطابع الهزليِّ الساخر.

فمِنَ المعلوم أنَّ الله سبحانه وتعالى مَنَّ على سيِّدنا سليمان بمعرفة كلام الطيور، وكلفه بالسيادة عليها، فكان هذا الأمر مشجَّعاً لابن عبد الظاهر في كتابة تقليده المذكور؛ إذ إنَّ صُدُورَهُ على لسان سيِّد الطيور، يجعلُ المعنَّيين فيه مُلْزمين بتطبيق ما تضمَّنهُ من أوامر وطلبات.

وفيه يوكل المقلِّد شخصاً يُسمَّى شرف الدين بن غراب بمتابعة الوطواط الطائر ورصد تحركاته، وفي الوقت ذاته يأمر الطيور جميعها بتعقبه وقتله؛ نظراً لآتسامه ببعض الصفات المذمومة كما سيظهر لاحقاً.

¹ سلام، الأدب في العصر المملوكي، 405/2، وقد وردت هذه الرسالة في كتاب مطالع البدور للغزولي إلا أنَّ النقص يعتري جزءاً منها، انظر: مطالع البدور، 16/2.

² هو جمال الدين الكتبي، ولد في مصر سنة (632 هـ)، وتوفي سنة (718 هـ)، ومن مؤلفاته كتاب (مباهج الفكر ومناهج العبر) و(غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة)، انظر: العسقلاني، ابن حجر (852 هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تحقيق محمد سيِّد جاد الحق، ط 2، مطبعة المدني، القاهرة، (د.ت)، 298/3، الصفدي، أعيان العصر وأعيان النصر، ط 1، دار الفكر، دمشق، 1998م، 203/4.

وقد بدأ الكاتبُ التقليدَ بتحديد الجهة التي صدر عنها، والجهة المُكَلِّفة بتطبيق ما جاء فيه، وأتبع ذلك بمقدمةٍ تتضمَّن الحديث عن الطيور بمختلف أنواعها، مع ذكرِ لأسماء بعضها وصفاتها قائلًا: "﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾" (1)، إلى كُلِّ ذي جناح، وكُلِّ اجتراءٍ من الطير واجترأح، وإلى كُلِّ ذي صيَالٍ منهم، وكُلِّ ذي صياح، وإلى كُلِّ ذي عفافٍ منهم، وكُلِّ ذي جِماح. أمَّا بعد:

فإنَّه لَمَّا عَلَّمَنَا مِنَ اللَّهِ كَلَامَ الطَّيْرِ (2)، وفهمناه من مَنطِقِهِ، وألْزَمَنَاهُ مِنْ عَهْدِهِ وَمَوَاقِفِهِ، فقال: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ (3)، ترى أَنَّ مَنْ بَرَزَ لِعَجْزٍ مِنْ أُولَى الْمَخَالِبِ وَذَوِي الْمَنَاسِرِ، صار على ذي مُسَالَمَةٍ، وإن غدا بعضُها لبعضٍ طُعْمًا، ولا يتجاوز أحدٌ منها مقامه المحمود في المُكَارَمَةِ، وإن اتَّفَقَتِ الْأَجْنَاسُ، واختلفتِ الْأَسْمَاءُ لِلْوَضِيعِ وَالْأَسْمَى، وأن يشكُرَ لِلوَرَقِ حُسْنَ سَجْعِهَا، وعَفَافَ طَبْعِهَا مساعدتها للخليِّ بغنائها في دَوْحِهَا، وللحزِينِ بترجيعِ نَدْبِهَا ونَوْحِهَا، ولأنَّهَا مُتَحَجِّلَةٌ بِتَخْضِيبِ الْكَفِّ وَتَطْوِيقِ الْأَعْنَاقِ، ومُتَحَمِّلَةٌ مِنَ الْقُدُودِ إِلَى الْغُصُونِ رَسَائِلَ الْعُشَّاقِ بِالْأَشْوَاقِ، حتَّى وُسِّمَتْ بِأَنَّهَا على تعانقِ القُضْبِ رُقْبًا، وَسَمَتْ حتَّى أَصْبَحَتْ على منابرِ الْأَشْجَارِ خُطْبَاءَ، ويؤثر أن يحملَ لذواتِ الاصطِيَادِ مِنَ الْجَوَارِحِ تحصيل ما تَقْتَاتُ بِهِ النُّفُوسُ، وتمتازُ مِنْهُ الْجَوَارِحُ؛ لِأَنَّهَا شَرَفَتْ بِنُفُوسِهَا حتَّى عَلَتْ على أَيْدِي الْمُلُوكِ، وقيل لابنِهَا: اللَّهُ أَبُوكَ، وأن يَصِفَ بِحُسْنِ اعْتِزَالِهِ فِي جِيئَتِهِ وَذَهَابِهِ، وأن يَنْثِي على حُسْنِ خُطْبَتِهِ، وَجَمِيلِ خُطَابِهِ، إلى غير ذلك من قُطَا (4) لو تُرِكَ لَهْدًا وَنَامَ، وإلى بِلَابِلِهِ (5) مِنَ الْحَمَامِ، وإلى غُرَانِيْقٍ (6) تَهْرَبُ الشَّعَابِينُ مِنْ أَصْوَاتِهَا، وإلى

¹ سورة النمل، آية 30.

² إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، سورة النمل، آية 16.

³ سورة الإسراء، آية 13.

⁴ القُطَا: طائر معروف معدود من الحمام، واحده قُطَاة، ويسمى قُطَا لأنه يصيح بصوته (قُطَا قُطَا)، وله نوعان: كدري وجوني، والكدريُّ غَيْرُ اللَّوْنِ، أَرْقَشُ الْبَطْنِ وَالظَّهْرِ، وَأَصْفَرُ الْحَلْقِ، قَصِيرُ الذَّنْبِ، أمَّا الْجُونِيُّ فِبَاطِنِ جَنَاحِهِ أَسْوَدٌ وَمَقَادِمُهُ كَذَلِكَ، وَظَهْرُهُ أَغْبَرُ أَرْقَطُ تَعْلُوهُ صَفْرَةٌ، وَهُوَ أَكْبَرُ حَجْمًا مِنَ الْكَدْرِيِّ، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 73/2.

⁵ البلبِل: هو طائر أسود يُقال له التَّغْزُ والكعيت والجميل، انظر: المصدر نفسه، 78/2.

⁶ الغُرْنُوق: ويقال فيه غُرْنِيق ويجمع على غُرَانِيق، وهو طائر أبيض من طير الماء طويل العنق، انظر: المصدر نفسه، 68/2.

سباطر⁽¹⁾ ترتجُ الأرضُ بأكلها لحياتها، وإلى لغالغ⁽²⁾ تتطق، وكأنما ألبست ملابس أهل الجنان من السُّندسِ والاستبرق⁽³⁾، وإلى ما ينجلي من طواويسٍ كأنما استعار منها قوسُ قزح أثوابا دبَّجتها الشمسُ بشعاعها، وأهَّلَتها الأهلَةُ لإيداعِ إبداعها، وإلى ديكَةٍ مباركة، يؤنُّ أذانها بمرورِ ملكٍ من الملائكة، وإلى نسرٍ عظيم التأمير، وإلى نعامٍ كاذٍ يطير⁽⁴⁾.

وهو لا يهجو الوطواط الكاتب مباشرة، بل يتخذ الوطواط الطائر وسيلةً لذلك، فينعتُه بالخُبث، وحقارة الصفات، والخسَّة، ويعزو ذلك لأسبابٍ متعدِّدة منها: مخالفتُه لصفات الطيور عامَّة؛ إذ إنَّه يلد ويمني كالرجال، ويمتلكُ أذنًا ناتئة، إضافةً إلى سوء هيئته، وسواد لونه، كما أنَّه يألفُ الظُّلُمَةَ وأماكن القبور؛ نظراً لتغذيهِ على دماء الموتى: "وإنَّا فكَّرنا في بعضِ ذوات الأجنحة خبيث، حقير السمات، أسود الوجه والقفا والصفات، لا يألفُ إلا قبور الأموات، ولا يسعى إلا في الظُّلُمِ والظُّلُمات، ذو أذنٍ ناتئة، وما هذه الصِّفَّة من صفات الطيور، وإنَّه يولد والطيرُ لا يُعرف منها إلا أنَّها تحضن بيضها في أعشاشها والوكور، وإنَّه لا يقع في الشِّبَّاك، ولا في الفُخوخ، وإنَّه يمني كما يمني الرَّجُل وليسَ مِنَ الإنس، وإن كان شيطاناً فإنَّه شيطانٌ ممسوخ، ولا يُسمع منه هديلٌ ولا هدير، ولا يصير مسروراً حيثُ يصير، يغدو على الروضات مُتَلَصِّصاً، ويغدو للثَّمار مُنْقَصاً، مشوِّمُ الطَّلعة، مذمومُ النَّجعة، مرجومُ البُقعة، سيئُ الجوار، قبيحُ الآثار، مؤذِنٌ بخراب الدِّيار، أسودٌ من قار⁽⁵⁾، وأفسدُ من فار، لا يحسن به الانبساط، ولا يُمكن معه الاحتياط، أخسُّ مخلوقات الله تعالى، وهو

¹ السباطر: جمع سبطر، وهو طائر طويل العنق جدًّا، تراه أبدأ في الماء الضَّخْضاخ، ابن منظور، لسان العرب، مادة (سَبَطَر)، ويبدو أنَّه الطائر الذي ذكر اسمه القلقشندي بـ (الشبيطر)، وهو طائر أبيض أسود طرفي الجناحين، ورجلاه ومنقاره خمر، وهو يأكل الحيات، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 69-68/2.

² اللغغ: هو طائر دون الإوز بالمقدار، لونه كلون الإوز الحبشي إلى السواد، أبيض الجفن، أصفر العين، ويعرف في مصر بالعراقي، ومن خصائصه أنَّه إذا كبر حدث في بياض بطنه نقط سود، انظر: المصدر نفسه، 64/2.

³ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّتٍ وَعَيُْون * يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، سورة الدُّخان، آية 52، 53، وقوله: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، سورة الكهف، آية 31.

⁴ الصفدي، أعيان العصر وأعيان النَّصر، 205/4 - 206.

⁵ القار: شيء أسود تطلُّ به الإبل والسُّفن، يمنع الماء أن يدخل... وقيل: هو الزَّفت، ابن منظور، لسان العرب، مادة (قير).

المُسَمَّى بالطوطا، كم ضَرِيَّ وكم ضَرَّ، وكم ساءَ وما سَرَّ، وما أبرأَ قَطَّ ولا أبرَّ، ولا هو حيوانٌ مِن بحرٍ يُنتَفَعُ به ولا مِن بَرٍّ⁽¹⁾.

ويقولُ القلقشنديُّ في أثناء حديثه عن ذلك الطائر: "وليسَ هو من الطير في شيء، فإنَّ له أسناناً وخصيتين، ويحيضُ، ويضحكُ كما يضحك الإنسان، ويبول كما تبول ذوات الأربع، ويُرضع ولده من ثديه... ويُقال: إنَّه هو الذي خلقه المسيح - عليه السلام - مِن الطين، ونفخَ فيه فكان طيراً بإذن الله.. ومن أجل ذلك كان مُبايناً لغيره من الطيور، ولذلك سائر الطيور مُبغضة له، وتسطو عليه، فما كان منها يأكلُ اللحم أكله، وما كان منها لا يأكلُ اللحم قتلَه، وهو شديدُ الطيران، سريعُ التقلُّب، يقتاتُ البعوض والذباب وبعض الفواكه"⁽²⁾.

ونظراً للصفات السابقة، وغيرها من الصفات التي ستردُّ لاحقاً، يُصدر المقلِّد أمره بإِرافة دم ذلك الطائر وإهلاكه، ناعثاً إياه بالحيوان الخبيث: "وهذا كتابنا إلى كلِّ ذي بسطٍ وقَبْض، وإلى كلِّ ذي انتِهاشٍ، وانتِهاشٍ، وعضٍّ، وكلِّ رَبٍّ مقبرة مُظلمة، وكلِّ ذي مُوحشةٍ مُعتمة، وكلِّ مَنْ إليه تَوَغَّل الأعماق المُقْتِمَة، يتضمَّنُ إهلاك هذا الحيوان الخبيث، وتطهير الأمكنة من رجسه، وسدِّ المنافسِ على الكريهين من نفسِه ونفسِه، وأن لا تُرعى له حُرمة، ولا يُرَقَّب فيه إلَّا ولا ذِمَّة⁽³⁾، بِحُكْمِ أَنَّهُ ليس من الطيرِ ولا مِن الوحش، ولا ذو قوَّةٍ ولا بطش، ولا فيما يَنْتَفَعُ به صائل ولا صائد ولا آكل، ولا هو مُعِينُ ذي فرج ولا ثاكل، وإنَّ ضَرَرَةَ للأحياء والأموات فاشٍ، ولأنَّه إذا دُعِيَ بأحب الأسماء إليه قيلَ له: خَفَّاش، لا يَكْرَعُ في نَهر النَّهار، ولا يحوم مع ذوات الجناح في مَطار، وأكرهُ شيءٍ إليه الأنواءُ والأنوار، ولا يُوصَفُ بأنَّه السَّهم، ولا هو ذو ريشٍ يَنْتَفَعُ به بإِراشةِ السَّهم، ولا تحدُّ له الصَّفائح، ولا يُعدُّ في جملة الذبائح، ولا رِيحَ له في الشَّواء، ولا رِيحَ له في الشَّرائح"⁽⁴⁾.

ويُصدر أمره بتقليد ابن غراب أمر الطيور عامَّة، وأمر الطوطا خاصَّة، فيطلب إليه مراقبته ومتابعته، ولا يخلو حديثه من انتقاء النعوت البذيئة له، يقول:

¹ الصفدي، أعيان العصر وأعيان النُّصر، 204/4.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 88-87/2.

³ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَرْفُقُونَ فِي مَوْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾، سورة التوبة، آية 10.

⁴ الصفدي، أعيان العصر وأعيان النُّصر، 207-206/4.

"ورسمنا أن يُفَوِّضَ أمره وحسبة الطير للإمام شرف الدين بن غراب، فليَتَّقِ الله في كُلِّ ذات طَوْقٍ وغير طَوْقٍ، وليُرَاقِبْهُ مراقبةً أبْيَه إِذَا قَنَعَ من إيمانه بما اقتنعَ به صَلَّى الله عليه وسلَّم مِنَ السَّودَاءِ بأن قال لها أين الله؟ فقالت: في السماء⁽¹⁾، وأبوه، فلا يزال يقول: الله فوق، وليحتسب على هذا الخبيث المشوَّه، وهذا الخسيس المُنوَّه، فقد فَوَّضنا ذلك إليه، إذ هو كأبيه مُنْطَقٌ مُفَوَّهٌ، وليترك في أمره النعيقَ والنعيبَ، وليعلن بلغته إعلاناً فصيحاً، يستوي فيه البعيدُ والقريبُ، ويتجاوز في ذلك كُلَّ سَمِيٍّ بهذا الاسم المشوَّوم، إذ لِكُلِّ أمرئ من نعتِه نصيبٌ"⁽²⁾، والعبارة الأخيرة خير دليل على أنَّ المقصود في الهجاء السابق هو الوطواط الكاتب عينه.

ويطلب إليه أخيراً إذاعة التقليد قائلاً: "وليُقرأ هذا المرسوم على رؤوس الأشهاد، وعند الأبَارِ المُعَطَّلَةِ، والبراني، والخراب، واليباب، ويزيل من التَّربِ المظلمة والقباب عند كُلِّ باب، والخاتم الشريف السُّلَيْماني أعلاه، حُجَّةً بمقتضاه، إن شاء الله تعالى"⁽³⁾.

وتدخل في باب الهجاء -أيضاً- الرسالة التي بعثها ابن عبد الظاهر إلى الأمير ناصر الدين حسن بن شاور الكِنَّاني، المعروف بابن النقيب، مع أنَّها تتضمن المدح والفخر، إلى جانب الهجاء، إلَّا أنَّ الكاتب أنشأها -أولاً- بهدف الهجاء؛ نظراً لانتقاص قدره، والخط من شأنه على لسان شخص ينتسب إلى الشيعة، في مجلس الأمير المذكور، ويلاحظ في الرسالة التي سترد فيما بعد، ما يدلُّ على جودة سبكها، وفراة أسلوبها، وجزالة ألفاظها، وكثرة تشبيهاتها، على الرغم من أنَّ الكاتب -وقتها- كان في ريعان شبابه، إذ إنه أنشأها سنة (653 هـ)، مما يدلُّ على تمكُّنه من صناعة الإنشاء وتجويدها في مرحلةٍ مُبَكِّرةٍ من عمره.

¹ "في أحد الأيام جاء رجل إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلَّم - ومعه جارية أعجمية سوداء، أراد عتقها، فطلب إليه الرسول أن يدعوها إليه، فلمَّا حضرت قال لها صَلَّى الله عليه وسلَّم: أين الله عزَّ وجل؟ قالت: في السماء. قال: فمن أنا؟ قالت: أنت رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم. قال: إنها مؤمنة فاعتقها". انظر: النسائي، أحمد بن شعيب (ت 303 هـ)، سنن النسائي (المجتبى)، حققه عبد الفتاح أبو غزه، ط 2، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، 17/3.

² الصفدي، أعيان العصر وأعيان النُصر، 207/4.

³ المصدر نفسه، 207/4.

وفي بداية رسالته المذكورة، يُعلم الأمير المذكور بوصول الخبر إليه، مُفصلاً في ذكر الأشياء التي تواردت إلى مسمعه، ولا يخلو حديثه من الدُّعاء الحَسَنَ للمرسل إليه، ولا غرو في ذلك، إذا ما عُلِمَ بأنه كان أحد المدافعين عنه في أثناء انتقاده، يقول: "بلغني -أعزَّكَ اللهُ، ولا برحتَ رحيبَ فناءِ الفخر، قشيبَ ملبسِ العُمر، يانعَ ثمرِ الشُّكر، مُفعمَ حياضِ البرِّ- أن فلاناً غَضَّ مِنِّي كُلَّ غَضِّ الجنى، وأنه عبثَ بي عبثَ الأيامِ بالْمُنَى، وأنه رَدَّنِي إلى أرذلِ العُمرِ من الاطِّراح، وغلَّقَ في وجهِ تتجُحي أبوابَ النِّجاح، وزعمَ أنَّ إناءَ أناتي غيرَ مُفعم، وبناءَ مجدي غيرَ مُحكم، وجوادَ إجادتي غيرَ مُلجِم، وأنَّ ميلادَ مجدي حديث، وسببٌ⁽¹⁾ سعدي رثيث، وأنَّ جوارحَ إجادتي جريحة، وقرائحَ ارتجالي قريحة، وأنَّ صدورَ المجالسِ تُتكرر إقدامُ أقدامي، وبطون الطُّروس لا تُلْقح بوطءِ أقلامي، وأنِّي لا أُعدُّ في جملةِ الكتَّاب، وإذا دخلوا من أبوابِ متفرقةٍ للتَّكريم، لا أدخلُ معهم في بابٍ"⁽²⁾.

ويتَّضحُ من النصِّ السابق أنَّ الشخصَ المقصودَ حطاً من قَدَرِ الكاتبِ إلى حدٍّ كبير، فشكٌّ في قُدرته على الإِجادة في إنشائه، ولم يعدَّه من الكتَّاب أصلاً؛ نظراً لحدائثةِ سنِّه -حينها- في ذلك الفن؛ مما أثار حفيظته، فردَّ عليه بهجاءٍ لاذعٍ مريبٍ، مُستفتحاً إيَّاه ببيتٍ للمتنبِّي، فحواه أنَّ المرءَ إذا تعرَّضَ لانتقادٍ من قِبَلِ شخصٍ دنيءٍ، فذلك ما هو إلا شهادة على كماله، لأنَّ الدَّنيءَ -دائماً- لا ينتقدُ سوى الأشياءِ التي لا تتوافر في شخصه، وهي من دون شك أشياءً حَسنة.

ولم يكتفِ ابن عبد الظاهر بذلك فحسب، إنَّما حاولَ تفسيرَ إقدامِ الشخصِ المقصودِ على انتقاده، مُتَّخِذاً جهله بِشخصه، وغروره سبباً لذلك، ويبيِّنُ له في الوقت ذاته خطأهُ الفظيعَ في إقدامه على تلك الخطوة؛ لأنَّه لم يعرف قَدْرَهُ ومكانتَهُ، فهو ليسَ شخصاً عادياً يستمع إلى نقد الآخرين له ويسكت، وكلُّ ما سبق سبَّكهُ في قالبٍ من الفخر، والاعتداد بالذات، وانتقاص الطُّرفِ المقابل، مُستخدماً عدداً من الصور الفنيَّة التي تخدم الغرض المُراد، يقول:

"وإذا أَنتَكَ مَذْمُومِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ"⁽³⁾

¹ معنى السَّبب هنا: الحبل، ابن منظور، لسان العرب، مادة (سبب).

² الصفدي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، ص 404-405.

³ المتنبي، ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، 260/3.

وقد بنيتُ مقالةَ هذا القائل على أمور، وحملتُها على احتمالات؛ غرّة في جميعها الجهل، كما غرّة بالله الغرور، والذي أقوله له مخاطباً، وأحيلُ إليه مُجاباً: إن كانَ استرسالُك أيُّها العائب عبثاً، فما كُلُّ الأفاعي تعبتُ بها الأنامل، ولا كُلُّ المراعي تُتصَّب بها الحبائل، ولا كُلُّ زَخَّارٍ يُخاض، ولا كُلُّ جناحٍ يُهاض، ولا كُلُّ جامحٍ يُراض، ولا كُلُّ سَابِغَةٍ تُفاض، ولا كُلُّ نَسْرِ واقع، ولا كُلُّ نَيِّرٍ راجع، ولا كُلُّ السَّموم يدخلُ في درياق، ولا كُلُّ مُطَوَّقٍ يُجذَّب بالأطواق، فإن كانَ ما قُلْتَهُ حُلماً، فإنَّ مِنَ الأحلامِ ما يُروِّع، أو وهماً فإنَّ مِنَ الأوهامِ ما يُخامر الضُّلوع، أو جهلاً فإنَّ المندل الرَّطْب⁽¹⁾ لا يضرُّه كونه حَطْباً في موطنه، والتَّبرُّ لا يضرُّه كونه تُراباً في معدنِه، ولا يضرُّ الزَّنَاد الواري قَدَحَ القادح، كما أنَّه لا يُضير النِّجم السَّاري نَبَحَ النَّابح، ولا عليّ إذا قُلْتَ ملاماً، وقُلْتَ أنا سلاماً، والفخر في أن أحلُم إذا قُلْتَ اهتضاماً، لا في أن تقولَ كُلَّ ما حلَمْتَ مناماً، كما أنَّك ما في يدك أن تُحدِّث لي ضرّاً، وفي يدي أن أوسعك صبراً، وفي قُدرتي أنَّك تستغضبني فلا أغضب، وفي قُدرتك أني أسترضيك ولا ترضى، وعندك أنَّك تأكلُ لحمي ميتاً⁽²⁾، وعندي أني لا استحلُّ أن أكلَ لك لُقمةً ولا زيتاً، ويُعجبك أنَّك تحفرُ لي بئراً وتقع فيها، ولا يُعجبني أنِّي أقع فيك:

أُنزّهَ قلبي عن مُجازاةٍ مثله متى كانتِ الآسادُ مثلُ الثَّعالبِ⁽³⁾.

ويطرُحُ عليه مجموعة من الأسئلة التي يستنكر من خلالها اقترافه لتلك الغلطة المتمثلة في نقده، ويُنوِّه في الوقت نفسه إلى عدم مبالاته بما صدر عنه، مُستحضراً عدداً من الصور التي تُمثِّل ذلك، ولا يخفى ما لهذا الأسلوب من دلالة على سُخرية الكاتب بعائبه، وتقليله من قدره: "وأعودُ إلى مُحاققةِ النَّفس، فتأبى إلا إظهار اللِّبس، فأقول: هل أنت يا فلان إلا مُتخرِّصٌ بزور، وآيسٌ من الخير كما يأس الكفار من أصحاب القبور، وآمنٌ من العواقب والله عاقبة الأمور! وما مبالاتي بك إلا مبالاة الديك بالبط، والشمعة بالقط، ورماح الخطِّ بأقلام الخط، ومتى خافت الرُّعود من

¹ المندل الرَّطْب: العود الرَّطْب، ابن منظور، لسان العرب، مادة (مندل).

² إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، سورة الحجرات، آية 12.

³ الصفدي، تمام المتون، ص 405-406.

الوعود، أم متى أحجمت الأسود عن القروء، أم متى جزعت البحار من التيّار، أم متى صارت النار كالأنوار، أم متى فزعت بنات نعش⁽¹⁾ من ابني سمير⁽²⁾»⁽³⁾.

ويبدو أنّ الكاتب اقتنص الفرصة في هذه الرسالة لعرض مخزونه العلمي، الذي يدلّ على سعة ثقافته وتنوعها، وعرض مقدرته الفنية في سبك العبارات وتحسينها، وتزيينها بأنواع البلاغة المختلفة، فتراه يخدم هجاءه بالإشارة إلى شيء من أيام العرب في الجاهلية والإسلام، ذاكراً أسماء بعض القبائل آنذاك، وأسماء بعض أعلامها البارزين، وذلك كلّ ساقه ليدلّل على عدم مبالاته بما صدر عن الشخص المقصود: "أم متى صغرت بنو الريّان في عين أبي كبير، أم متى جبنَ الفرزدق من جرير، أم متى شبّهت النّعامي⁽⁴⁾ بالنّعام، أم متى خاف هرّمي مصر من الأيام، وهي التي يُخاف منها على الأيام! وهل تُبالي الدُّرّة المضيئة إذا قيلَ لها: اليتيمة! أم هل تُعاب الأعين النُّجل إذا قيلَ لها: السَّقِيمة! أم هل تُخلّ الهَضِيمة بالخصور إذا قيلَ لها: الهَضِيمة!، وما مُبالاتي بما تقوله إلا مبالاة آدم بعدم سجود إبليس⁽⁵⁾، ولا ضرر منك إلا ضرر الصّرح المُمرّد من قوارير بوطء بلقيس⁽⁶⁾، أم هل أبالي بك إلا مبالاة البازيّ بالحمام، والليث بالتفاف الخيس، ومتى كانت همدان تفخر على كلب، أو تحذر منها الكيد، أم متى خاف الأسد من أبي زبيد! وهل بالت قريشُ بتأليب أبي سفيان، أم هل فزعت مازن يوماً من استباحة ذهل بن شيبان، وبحمد الله ما أحوج الزّمان إلى زياد، ولا ألجأ إلى تلقّيه بوجهٍ مُكفهرٍ، كأنّ عليه أرزاق العباد، ولست لحاك الله- من بني صريم، الذين تلقّتهم التّهائم والنُّجود، ولا من بني عمرو الذين لبيوتهم سمّت صعب الصُّعود، ولا فيك ما في أبي قابوس من

¹ بنات نعش: سبعة كواكب أربعة منها نعش لأنّها مربّعة، وثلاثة بنات نعش، شبّهت بحمّلة النّعش في تربيّعها، ابن منظور، لسان العرب، مادّة (نعش).

² ابنا سمير: هما الليل والنهار، ابن منظور، المصدر نفسه، مادة (ابن).

³ الصفدي، تمام المتون، ص 406.

⁴ النّعامي: من أسماء ربح الجنوب، ابن منظور، لسان العرب، مادّة (نعم).

⁵ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، سورة البقرة، آية 34.

⁶ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾، سورة النمل، آية 44.

حَزَمٍ وَنَائِلٍ⁽¹⁾، وَلَا لَدَيْكَ مَا لَدَى مَنْ إِذَا قَالَ لَمْ يَتْرَكَ مَقَالًا لِقَائِلٍ⁽²⁾، وَلَا يَخْفَى مَا
لِلْعِبَارَاتِ الْآخِرَةِ مِنْ دَلَالَةٍ عَلَى إِقْلَالِ الْكَاتِبِ مِنْ شَأْنِ عَائِبِهِ.

وَيُبَيِّنُ لَهُ سَمَرَةً أُخْرَى - خَطَأَهُ فِي تَعَرُّضِهِ لَهُ بِانْتِقَادِهِ وَانْتِقَاصِهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا
يَدْخُلُ فِي نِطَاقِ الرِّجَالِ الضُّعَفَاءِ الَّذِينَ لَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا قُوَّةَ عَلَى مُوَاجَهَةِ مُنْتَقِدِيهِمْ،
فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْمُوَاجَهَةِ؛ لَكُونِهِ رَجُلًا بَلِيغًا مَنْطِقِيًّا، ذَا مَكَانَةٍ رَفِيعَةٍ وَقُدْرَةٍ عَلَى سَبْكِ
الْكَلَامِ وَإِحْسَانِ إِنْشَائِهِ، وَيَعْمَدُ فِي أَثْنَاءِ حَدِيثِهِ إِلَى اسْتِحْضَارِ عَدَدٍ مِنَ الْأَبْيَاتِ
الشَّعْرِيَّةِ، الَّتِي تَخْدُمُ فَخْرَهُ بِنَفْسِهِ، وَانْتِقَاصِهِ لِعَائِبِهِ: "وَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْكَ تُمْسِيكَ
إِمْسَاكَ ابْنِ الْمُعَذَّلِ عَنْ مُلَاحَاةِ⁽³⁾ الْمُعَرِّضِ بِنَبْهَانٍ، وَأَنْ تَأَلَّفَ مِنْ فَضِيحَةِ جَهْلِكَ
الْفُظْلِيَّةِ أَنْفَةَ جَبَلَةِ بْنِ الْأَيْهَمِ مَا بَيْنَ غَسَّانَ، وَمَا كَانَ أَشْغَلَكَ عَنْ ذِكْرِي بِذِكْرِكَ،
وَأَحَقَّكَ بِأَنْ تُجِيلَ فِي خُوَيْصَةِ نَفْسِكَ جَوَادَ فِكْرِكَ، وَأُولَاكَ بِأَنْ تَدْخُلَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ
بِعِرْفَانِكَ لِقُدْرِكَ:

وَلَوْ أَنِّي بُلِيتُ بِهَاشِمِيٍّ خَوَّلْتُهُ بَنُو عَبَدِ الْمَدَانِ
لَهَانَ عَلَيَّ مَا أَلْقَى، وَلَكِنْ تَعَالَوْا فَانْظُرُوا بِمَنْ ابْتَلَانِي!⁽⁴⁾
وَتَالِكَ لَقَدْ اسْتَنْطَقْتَ مِنْ مِثْلِي مُفَوَّهًا⁽⁵⁾، وَآثَرْتَ مِنْ ذَمِّي مُرْفَهًا، وَهَزَزْتَ مِنْ
قَلَمِي مُتَقَفًا، وَأَصَلْتَ مِنْ كَلَمِي مُرْهَفًا:
مَتَى سَأَلْتَ بَغْدَادَ عَنِّي وَأَهْلَهَا فَإِنِّي عَنْ أَهْلِ الْعَوَاصِمِ سَائِلٌ⁽⁶⁾
وَلَنْ عِيبَ مِنِّي يَابْنَ لَخْمٍ هِجَاءً، فَإِنِّي لَأَرْجُو أَنَّهُ سَيُيْعِثُ بِكَ دَاءً :
لَقَدْ هَزَّ مِنِّي عَامَرٌ يَوْمَ لَعَلَعٍ حُسَامًا إِذَا ذَاقَ الضَّرْبِيَّةَ صَمَمًا⁽⁷⁾»⁽⁸⁾.

¹ أبو قابوس هو الثُّعْمَانُ بْنُ الْمَنْذَرِ، وَفِي الْعِبَارَةِ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِ حَجَرِ بْنِ خَالِدٍ حِينَ مَدَحَ الْمَذْكُورَ قَائِلًا:

سَمِعْتُ بِفِعْلِ الْفَاعِلِينَ قَلَمٌ أَجَدُ كَمِثْلِ أَبِي قَابُوسَ حَزَمًا وَنَائِلًا

أَبُو تَمَّامٍ، دِيْوَانُ الْحَمَاسَةِ، ص 532.

² الصَّفْدِيُّ، تَمَامُ الْمَتُونِ، ص 206-207.

³ الْمُلَاحَاةُ: الْمَقَاوِلَةُ وَالْمَخَاصِمَةُ، ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ، مَادَّةُ (لَحَا).

⁴ الْخَزَاعِي، دَعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ (ت 246هـ)، دِيْوَانُ دَعْبِلِ الْخَزَاعِيِّ، صَنَعَةُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْأَشْتَرِ، ط 2، مَجْمَعُ
اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، دِمَشْقُ، 1983م، ص 429.

⁵ مُفَوَّهًا: بَلِيغًا مَنْطِقِيًّا، ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ، مَادَّةُ (فِيهِ).

⁶ الْمَعْرِيُّ، أَبُو الْعَلَاءِ، سَقَطُ الزُّنْدِ، شَرْحُ أَحْمَدَ سَمَشِ الدِّينِ، ط 1، دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، بَيْرُوتَ، 1990م،
ص 248.

⁷ الْبَصْرِيُّ، صَدْرُ الدِّينِ عَلِيٍّ (ت 656هـ)، الْحَمَاسَةُ الْبَصْرِيَّةُ، تَحْقِيقُ وَشَرْحُ وَدِرَاسَةُ عَادِلِ سَلِيمَانَ جَمَالٍ،
ط 1، مَكْتَبَةُ الْخَانَجِيِّ، الْقَاهِرَةُ، 1999م، 257/1، وَهُوَ (أَيُّ الْبَيْتِ) لِعَمْرُو بْنِ الْجَنِّ الْقُضَاعِيِّ.

⁸ الصَّفْدِيُّ، تَمَامُ الْمَتُونِ، ص 407.

ويوكل الكاتبُ أمرَ عائبه الله عزَّ وجلَّ، مُنتظراً أن يرى ماذا سيحلُّ به في غده، بعدما دعا عليه بالاعتلالِ والمرض، يقول: "وها نحنُ ننتظرُ فعلَ الله فيك بما تفعل بنفسك، ونحسبُ لك عِثارك في غدِكَ وأمسِكَ، ونتربِّصُ بكَ الدَّوائرَ تربِّصك بفلسك: وَمَنْ يَتَرَبَّصَ صَوْلَةَ الدَّهْرِ يَلْقَهُ وَشِيكاً، وَهَلْ تُوحِي الْأَسَاوِدُ بِالْوَلَعِ! وكيفَ لا يدخلُ عليكِ الاعتلالُ، وأنتَ وأخوكَ وأبوكَ وفوكَ وكلُّ معتلٍّ وذو مالٍ!"⁽¹⁾، والعبارةُ الأخيرةُ خيرُ دليلٍ على استغلالِ محيي الدين لمفردات اللغة النحوية في هجائه.

ومع أنَّ الكاتبَ صرَّحَ بعدمِ مبالاته بالقول الصَّادر عن ذلك الشَّخص، إلا أنَّ كتابته لهذه الرسالة، وإطالته في هجاء المقصود فيها يُثبت عكس تصريحه، فالهجاء الصَّادر عنه يدلُّ على شدَّة غضبه، وصعوبة الأمر عليه، وتأثُّره به.

ويستمرُّ في عرضِ محاسنه، مُنوهاً إلى أنَّ رفعة الفرد ومجده لا يبانان إلا من كرمه وعطائه الوفير، وليس ذلك فحسب، بل يردُّ على المقصود في قضيَّة انتقاده لتواضعه في الجلوس، وحلوله في أخريات المجالس، ضارباً له أمثلةً لعدَّة أشياء لم يُخلِّ التأخير فيها، مُعتمداً على كثيرٍ من مصطلحات الأدب والنحو والفلك، ومُستحضراً بعض الأبيات الشعرية التي تخدم غرضه، يقول:

"وليسَ الغنى إلا غنى زَيْنَ الفتى عشيَّةً يَقْرِي أو غداةً يُنِيلُ

وأما ما توهَّمتَ من حلولي في أخريات المجالس، وكوني في ذلك غير مُنافِسٍ ولا مُنافَسٍ، فلا عيب على السَّنَانِ إذا خَتَمَ الأنابيب، ولا حلول القافية في آخر البيت من الأعاجيب:

والبدرُ أحسنُ ما تَرا هُ العَيْنُ في ذيلِ الأفق

ولا حطَّ منزلة الحمدلة له إذا أتى بها في آخر الكتاب من كَتَب، ولا تُشَان

سورة الإخلاص إذا تقدَّمتها في المصاحف سورة أبي لهب:

وَلَوْ لَمْ يَعْلُ إِلَّا ذُو مَحَلٍّ تَعَالَى الْجَيْشُ وَانْحَطَّ الْقَتَامُ⁽²⁾

¹ الصفدي، تمام المتون، ص 407.

² المتنبي، ديوان أبي الطيب المتنبي، ص 92.

ولا تُعَابُ الشَّمْسُ إذا كان لها دون فلك زُحَل مقام، ولا يوم عَرُوبَة إذا جاء
سادساً للأيام، ولا الألف إذا جاء بعد الواحد في العدد، ولا الزُّهْرَة إذا كان بيتها
الثَّور كما لا فخرَ للشَّمْسِ إذا كانَ بيتها الأسد:

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُهُ⁽¹⁾
وَالْبَيْتُ بِأَهْلِهِ، وَالْغِمْدُ بِنَصْلِهِ، وَالثَّوبُ بِبَلَابِسِهِ، وَالْجَوَادُ بِفَارِسِهِ، وَالْقَوْسُ
بِرَامِيهَا، وَالصَّهْوَةُ بِرَاقِيهَا، وَمِنْ أَسْفَلِ الْبُحُورِ تَتَرَقَّى الدَّرَارِي إِلَى أَعَالِي النُّحُورِ:
وَقَدْ يَنْمَى كَبِيرٌ مِنْ صَغِيرٍ وَيَنْبْتُ مِنْ نَوَى الْقَشْبِ اللَّبَانُ⁽²⁾

ولئن تأخرت الواو في "عمرو" في الهجاء، فلطالما كانت صدر الكلام في
الابتداء، ولئن جاءت الهمزة آخر الممدود من الأسماء، فكثيراً ما جاءت أولاً
بالاستفهام والإغراء، وقد وردَ التَّصْغِيرُ للتَّعْظِيمِ، ونطقَ القرآنُ بالتهكُّم بلفظ "الكريم"،
على أَنَّ السَّعْدَ بحمد الله- لا يتوقَّف على الجلوس في أوائل المجالس، ولا الحلول
منها في الأواخر، ولا يحضُّ المُرْتَفِعُ ويخصُّ المُنْتَضِعُ، فقد غلظت السَّبَابَةُ والوسطى
وحليت دونهما الخناصر، ولا حَسُنَ الثَّوبُ إِلَّا بِسَجَافِهِ⁽³⁾، ولا رَقَمَ المعلم في بُرْدٍ إِلَّا
في أطرافه:

إِذَا أَنْتَ أُعْطِيتَ السَّعَادَةَ لَمْ تُبَلِّ وَلَوْ نَظَرْتَ شَذْرًا إِلَيْكَ الْقَبَائِلُ
تَقْتَكِ عَلَى أَكْتَاكِ أَبْطَالِهَا الْقَنَا وَهَابَتَكَ فِي أَعْمَادِهِنَّ الْمَنَاصِلُ⁽⁴⁾»⁽⁵⁾
ولا ينفكُّ الكاتبُ في كُلِّ مَرَّةٍ يفخر بنفسه، مُبِينًا جَلَالَ قَدْرِهِ، وَسَعَةَ مَعْرِفَتِهِ
وَتَقَافَتِهِ، ولا يخفى على القارئ مدى إعجابه بذاته وبإنشائه في هذه الرسالة، وذلك
كله ساقه ليدفع العائب إلى الشعور بالندم على ما اقترفه بحقه؛ فلا بُدَّ أَنَّهُ لم يكن يعلم
قَدْرَ الفرد الذي أقدم على نقده، وهذه الرسالة بما فيها من مؤشرات إلى مدى إبداع
مُنشئها- خيرُ دليلٍ له على خطئه في حُكْمِهِ عَلَيْهِ وانتقاصه: "ولقد لامست مني
شيهاً، ومارست ضيغماً، وجالست أرقماً، وزاحمت جندلاً، وهاويت أجدلاً:

¹ المتنبي، ديوان أبي الطيب المتنبي، ص 306.

² المعري، سقط الزند، ص 49.

³ السجاف: الستر، ابن منظور، لسان العرب، مادة (سَجَف).

⁴ المعري، سقط الزند، ص 110.

⁵ الصفدي، تمام المتون، ص 408-409.

يا سالِكاً بينَ الأُسْنَةِ والقَنّا إِنِّي أَشْمُ عَلَيْكَ رَائِحَةَ الدِّمِّ (1)

وها أنا قد وجدتُ مكانَ القولِ ذا سَعَةِ، والسيفُ أَقْطَعُ ما يكون إذا هُزَّ، والجوادُ أسرع ما يكون إذا لُزَّ، وإنَّ مع اليومِ غداً، ولو تُرِكَ القَطَا لهذا (2)، وعداوةُ الشُّعراءِ بئسَ المُقْتَنَى!

وَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ حُمَةُ الْأَفَاعِي يَعِشُ -إِنْ فَاتَهُ أَجَلٌ- عَلِيلاً (3) (4).

ويبدو أنَّ ابن عبد الظاهر مؤمنٌ بسوء تأثير كلماته في نفس سامعها المقصود بها، وإلجامها له، وهذا يتَّضح من قوله: "وإن قلت: إنَّكَ لا يضرُّكَ هذا الإرهاج، ولا يُثيرُكَ هذا الإزعاج، ولا تُبالي به إلا مبالاة الزَّجَّاجِ بالزُّجَّاجِ، ولا تأنف منه إلا أنفة الحَجَّاجِ بالحَجَّاجِ:

فإنَّ بَنِي النُّويرة أدركتهم مَذْمُومٌ بَعْدَ أَبِي سِرَاجٍ" (5).

ويُتابع فخره بنفسه، مُركِّزاً على محاورِ عِدَّةٍ تتمثل بإشارته إلى رفعة نسبه، وعلو قدره وإيائه، ومكارم أخلاقه وحسنها، وسطوع نجمه في سماء الإنشاء وتقدُّمه فيه، وسريان ذكره على الألسنة بسبب إبداعه في ذلك الفن، يقول: "وأعودُ فأقول: ما أَظُنُّكَ وقعتَ مني على الخبير، ولا أنتَ في الفحصِ عن حالي في قبيلٍ ولا دبير، ولا علمتَ أنَّ جَدِّي سعد وجَدِّي سعيد، ولا أَنِّي -بحمد الله- المأمون، وكيف لا ووالدي الرَّشيد، ولا أنَّ لي إباء يَضَعُ لي فوق البدر مِهَاداً، وشيماً تجعلُ الجوزاء تحت يدي وِسَاداً:

وقد سارَ ذِكْرِي في البلادِ فَمَنْ لَهُمْ بِإِخْفَاءِ شَمْسٍ نَورُهَا مُتْكَامِلٍ
وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الْأَخِيرَ زَمَانُهُ لَا تِ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الْأَوَائِلُ (6)

وتالله إنَّ يومي يُنافِسُ في الأَمْسِ، وقومي يَفْخرون بي كما فخر عصام بالنفس:

¹ القيرواني، ابن رشيقي، ديوان ابن رشيقي القيرواني، جمعه ورثبه عبد الرحمن ياغي، (د.ط)، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ص 175.

² لو تُرِكَ القَطَا ليلاً لنام، مثلاً عربيٌّ قالته حذام بنت الرِّيَّان إثرَ حادثةٍ معيَّنة، وبسببه شاع قولهم: إذا قالت حذامُ فصَدَّقوها فإنَّ القولَ ما قالت حذامُ،

انظر: الميداني، مجمع الأمثال، 174/2.

³ المعري، سقط الزند، ص 270.

⁴ الصفي، تمام المتن، ص 409.

⁵ المصدر نفسه، ص 409.

⁶ المعري، سقط الزند، ص 106.

إِنَّا ذُوو النَّسَبِ الْقَصِيرِ فَطَوَّلْنَا أَعْيَا عَلَى الْكِبَرَاءِ وَالْأَشْرَافِ
وَالرَّاحُ إِنْ قِيلَ ابْنَةُ الْعَنْبِ اكْتَفَتْ بِأَبٍ عَنِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَوْصَافِ⁽¹⁾»⁽²⁾.

ويمتدُّ الهجاءُ والفخرُ إلى أن يُدرِكَ الكاتبُ مدى إسهابه في حديثه، فيقول مخاطباً عائبه: "ولا أعلم أيُّها المُتَقَصِّصُ لي ذنباً يستدعي هذا الإسهاب، ولا بيني وبينك خطوباً فيما فُهِتَ به منَ الخطابِ"⁽³⁾.

ويجدُ الفرصةَ مواتيةً للتَّعْرِيزِ بالشَّيعةِ وانتقادهم؛ نظراً لانتماء مُنتَقِصِهِ إليهم، ويركِّزُ في نقده على بعض المُعْتَقَدَاتِ التي تدلُّ على ضلال أصحاب ذلك المذهب، مُشِيراً في الوقت ذاته إلى عدم انتمائه إلى بعض الأشخاص الذين يتبرأ منهم أولئك؛ نظراً لاقتراحهم عدداً من الأعمال الشائنة، وذلك كلّه لجأ إليه الكاتب لينفي عن نفسه ارتكاب خطأ ما، يستحقُّ لأجله الانتقاد والانتقاص من قِبَلِ عائبه فيقول: "اللَّهِمَّ إِنِّي لَا أَعْتَقِدُ اعْتِقَادَكَ الْمُضَلَّلَ، وَلَا أَرَى رَأْيَكَ الْمُؤَوَّلَ، وَلَا أَقْلُدُ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَبَأٍ فِي اعْتِقَادِهِ، وَلَا أَبَا الْخَطَّابِ الْأَسَدِيَّ فِي اجْتِهَادِهِ، وَلَا أَوَافِقُ هِشَامَ بْنَ مُسْلِمٍ الْجَوَالِيْقِيَّ عَلَى مُرَادِهِ، وَلَا أَنْشُدُكَ:

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ	وُلَاةَ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سِوَاءِ
عَلِيٍّ وَالْأَئِمَّةُ مِنْ بَنِيهِ	هُمُ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ
فَسَبْطُ سَبْطِ إِيْمَانٍ وَبِرٍّ	وَسَبْطُ غَيْبَتِهِ كَرِبْلَاءُ
وَسَبْطُ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى	تَعُودَ الْخَيْلُ يَقْدُمُهَا اللَّوَاءُ ⁽⁴⁾
وَلَا أَنْشُدُكَ قَوْلَ السَّيِّدِ الْحَمِيرِيِّ:	
أَلَا قُلْ لِلرَّضِيِّ فَدَتَكَ نَفْسِي	أَطْلَتَ بِذَلِكَ الْجَبَلَ الْمَقَامَا
أَضْرَ بِمَعَشَرٍ وَالْوَكَّ مِنْنَا	وَسَمَّوكَ الْخَلِيفَةَ وَالْإِمَامَا ⁽⁵⁾

¹ المعري، سقط الزند، ص 255.

² الصنفدي، تمام المتن، ص 409 - 410.

³ المصدر نفسه، ص 410.

⁴ السيّد الحميري (ت 173هـ)، ديوان السيّد الحميري، جمعة وحققه وشرحه وعلّق عليه وعمل فهارسه شاكر هادي شكر، قدّم له محمّد تقيّ الحكيم، (د.ط)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص 51.

⁵ المصدر نفسه، ص 379.

أو أنك تعتقد أنني من شيعة أبي كامل، أو أنني اتفقتُ أنا وابن ملجم⁽¹⁾ على تلك الغوائل، أو أنني من الطالبين بئار الدار إذا جدَّ الوهل، أو أنني كنتُ مع ضبة في يوم الجمل⁽²⁾، أو أنني تأولتُ في قتلِ عمَّار بن ياسر ذلك التأويل السقيم، أو أنني كنتُ في جملة من رَفَعَ المصاحف لطلب التحكيم، أو استبرأتُ عقلَ أبي موسى الأشعري بالمُشاورة، أو خدعتهُ بخلع الرِّجلين في المُساورة⁽³⁾، أو اتبعتُ عبد الله بن وهب الرَّاسبي في جمعه⁽⁴⁾، أو ناظرتُ عبد الله بن عباسَ لما حضرَ لمناظرته على صنعه، أو ساعدتُ معاوية بن حديج على فعله⁽⁵⁾، أو أشرتُ على معاوية بإنفاذِ بئر ابن أرطاة إلى المدينة حين لا عهد لها بمثله⁽⁶⁾، أم تراني أنشدتُ يوم قُتلَ الإمام عليه السلام:

نُفلقُ هاماً من رجالٍ أعزَّةٍ علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلمات⁽⁷⁾

أم تراني ألقى الله بعملِ سنان بن أنس⁽⁸⁾، أم أقدمتُ إقدامه حينَ ضربه حتى ألقاه عن الفرس، حاشَ لله! ما أنا من هذا القبيل، ولا سالك هذا السبيل. وعلى تقدير أنني أتيتُ بأكثر من هذه الذنوب، وأنَّ قافلَ توبتي لا يؤوب، أليس لي نفسٌ لا تصبر على ضيم، وشمسٌ إبائي لا يسترها غيم، وبياضُ خلق ولا بياض خلقٍ سحيم! أأمنت كاتب الدِّرجات باتِّفاق الاسمين، لما ظهرَ الفرقُ في كتاب النبيِّ -صلى الله عليه

¹ يتبرأ الشيعة من فعل ابن ملجم في قتله لعلي بن أبي طالب، ويرون أنَّ موالاته وإسعافه في صداق زوجته قطام جريده، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 234/13.

² يوم الجمل: هو يوم الخميس عاشر جمادى الأولى، وقيل خامس عشر سنة (36 هـ)، وفيه ركبت السيدة عائشة على جمل اسمه عسكر في سيره إلى البصرة؛ لتدعو الناس إلى طلب قتل عثمان بن عفان، فحصل قتال شديد في ذلك اليوم، وقام بعض بني ضبة، ما يقارب الثمانين منهم بقطع خطام الجمل وهو الحبل الذي يقاد به، وأذوه إلى أن عقر، فانهزموا وأمر علي بن أبي طالب بحمل هودج السيدة عائشة وإيصالها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، انظر: الزرقاني، محمد بن عبد الباقي، شرح الزرقاني على موطأ مالك، (د.ط)، دار الفكر، (د.ت)، 121/3.

³ ويتبرأ الشيعة كذلك من عمر بن العاص -رضي الله عنه- بانتدائه إلى معاوية ابن أبي سفيان وخديعته أبا موسى الأشعري يوم الحكمين، حتى خلع علياً، وإنَّ من ظاهره وعاضده كان مخطئاً، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 232/13.

⁴ عبد الله بن وهب الرَّاسبي: هو رئيس الخوارج الذين خالفوا علياً بعد قضية التحكيم بصيقي، وقائد الجمع الذي أقام بالتهروان من العراق لقتال علي بن أبي طالب، انظر: المصدر نفسه، 233/13.

⁵ معاوية بن حديج: هو قاتل محمد بن أبي بكر الصديق -رضي الله عنهما-، انظر: المصدر نفسه، 381/1.

⁶ ويتبرأ الشيعة كذلك من بئر من أرطاة؛ لأنَّ معاوية بعثه إلى الحجاز في عسكر، فدخل المدينة وسفك بها الدماء، واستكره الناس على البيعة لمعاوية، انظر: المصدر نفسه، 232/13.

⁷ هذا البيت للحصين بن الحمام المرِّي، أبو تَمَّام، ديوان الحماسة، ص 119.

⁸ يقال إنَّ سنان بن أنس النخعي هو من احتزَّ رأس الحسين بن علي، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 232/13.

وسلم- بين العبدین، أو باختلاف المنزلتين، لما غلبت بيّنة الشمس على القمر وبينهما للزهرة وعطارد بعد فلكين:

وإذا خفيت على الغبي فعاذر ألا تراني مقلّة عمياء
أنا صخرة الوادي إذا ما زوحت وإذا نطقت فإنني الجوزاء⁽¹⁾»⁽²⁾.

ويرى في ذلك القدر كفاية لاستمراره في الهجاء المنثور، بعدما لامه وعاتب وقرّع، ويختتم رسالته بالدعاء الحسن للمرسل إليه، ويصور إلى جانب ذلك أثر رسالته على الطرفين: الأمير ابن النقيب، والرجل العائب، ولا يخفى على القارئ مدى إعجابه بنفسه لإبداعه بإنشائه لها، كما أنه يورد في نهايتها أبياتاً شعرية من نظمه، يُبين فيها لعائبه طريق الرفعة والسُّمو، الذي يسمو به الأشخاص، ويرسم له سبيل المجد الحقيقي، المتمثل بالتواضع والعلم والكرم ومكارم الأخلاق، لا سبيل النسب وغيره، وتتضمن الأبيات إلى جانب فخر الكاتب بذاته، هجاءً للعائب، ومدحاً للأمير المذكور، يقول: "وقد آن أن أحبس العنان، وأغمد حدّي السيف واللسان، وأشدّ بأعناق المني غير هذه وأضرب صفحا، وأنشئ على رأي العامرية صلحا، وأعدل من نار القرّ إلى نار القرى، وأسري لأحمد السرى، وأستروح من مثالبه لأستريح، وأودعها ولا أودّعها، وأجم لها ولا أجم منها، وأهب جفن الدّواة غفوة، وأغفر لحدّ القلم نبوة. ومن يكن المولى مهيمن فرائده، وجوهريّ قلائده، ومثقف صِعادته، ومقويّ زنده، وموريّ زِناده، والمحامي عنه بسيفه وقلمه، والمرشح له من ديمه، فلا يُبالي بتنقيص العاري، ولا يتأسّف على ثلب المُباري:

عليّ نحت القوافي من مقاطعها وما عليّ لهم أن تفهم البقر⁽³⁾

ولا يضرّ الورد الخضل استنقاص من به داء الجعل، كما أنه لا يضرّ القمر المنير استهزاء الضّرير. ويكفيني -أطال الله بقاءك- في الدعاء عليه تأمينك، وفي حفظ مساويه تلقينك، وفي الاعتداء عليه تجهيزك، وفي التكاثر عليه تعزيزك، وها أنا أستعين وأستعير وأستميل وأستتير:

والقوافي كما علمت قوافٍ إثر من حاد عن طريق الصّواب

¹ المتنبي، ديوان أبي الطيّب المتنبي، ص 115.

² الصفدي، تمام المتون، ص 410-411.

³ البحرري، ديوان البحرري، (د.ط)، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1962م، مج 308/2.

وسأدهمه منها بما لا قبلَ له بها، وأجلبَ عليه بخيلٍ ورُجْل، ولا قُدرةَ له بجلبِها، وإن كانَ عرضُه لا يصلحُ للهجو، ولا يُساوي ثوبَ عليه أجرة الرّفو، فقد يجربُ السّيفَ في خُفِّ البعير، ويُسْتَحِلُّ نِكَاحُ المرأةِ البريئةِ بالعبدِ الصّغير، وتُصَفَّى الفضّةُ الخالصُ بالرّصاص، وتُفصلُ عقودُ الجواهر بالسّحاب، وتُساغُ اللقمةُ المُحلّلةُ بِمُحرّمِ الشّراب، ومَن لم يجد ماءً طهوراً تيمّماً⁽¹⁾، فأدامَ اللهُ لك النّعمةَ إدامةً لا ينقصها اختزال، وحرسها عليك حراسةً لا تنتهي إلى زوال، خذها -أجلك اللهُ- قد أنشأتها سحُباً ثَقِلاً لك منها عَذبُ الشّراب ولغيرك عذابُ السّراب، وأوريتها ناراً لك منها الإنارة ولغيرك الإحراق، وأجريتها بحاراً لك منها الإرواء ولغيرك الإغراق، وأدرتها شمولاً لك منها النّشوة ولغيرك الخمار، وطبعتها نُصولاً لك ما ضُمّت عليه الأنامل منها ولنحرٍ غيرك الغرار، وها قد أتتك لم يكشف غيرك لها نقاباً، ووفدت عليك لم تطرق لغيرك باباً، فأرخ عليها سِتْرَ معروفك الذي سترت به قدماً علي عواري، وقد حسدَها القريضُ على سَبَقِها إلى ناديك، وغبَطَها على حلولها بواديك، فتعلّقَ بأذيالها مُستشفعاً، ونظرَ خلال سطورها متطلّعاً، وها هوَ قد خيمَ بأبياتهِ في ذُراك، وترجّلت قوافيهِ بينَ يدي عداك:

والحلى في اتّشاحِ دُرِّ الحُلوم	العُلا في ارتِشافِ دُرِّ العلُوم
ما التّباهي بـكُلِّ خِلٍّ حَمِيم	والنّناهي في كُلِّ فِعْلٍ حَمِيد
مالَ بتفريقِ خَلَّةٍ وخَدِيم	والسّعِيدُ الشّقيُّ مَن جَمَعَ الـ
لفَقيدِ مواسيأٍ وعَدِيم	والغنيُّ الفقيرُ مَن لا تَـرَاهُ
يُترجّى في كُلِّ خَطْبٍ عَظِيم	والعَظِيمُ المَقْدَارُ كُلُّ سَـرِيٍّ
فيأتي بـكُلِّ فِعْلٍ كَرِيم	والكَرِيمُ الأَباءُ مَن يُسألُ الفَضْلُ
ليسَ بالصّعبِ، لا ولا بِزَنِيم	والفَتى مَن يَكونُ في كُلِّ حَالِ
مَن أتى خُلُقُهُ بفِعْلٍ ذَمِيم	ليسَ عِندي الذّمِيمُ في الخُلُقِ إلّا
ويلتذُّ دائماً بالنّسيـم	فَعَقِيمُ الرِّياحِ يكرَهُ بالطّـبـعِ
ما سَلِيمٌ فيما يرى كَسَلِيم	واتّفاقُ الأَسْماءِ ليسَ بِمُجـدِّ
مِن رُسومٍ في جِلدِهِ وَوُسُوم	واتّسامُ الإنسانِ بالشُّكْرِ أُولى

¹ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، سورة النساء، آية 43.

إِنَّمَا يَظْهَرُ التَّفَاوُتُ فِي الْفِعْلِ، وَلَيْسَتْ وَلُودَةٌ كَعَقِيْمٍ
 وَمِضَاءُ الْغِرَارِ فِي السَّيْفِ أَمْسَى
 وَاللَّائِي لَوْلَا التَّلَاؤُ فِيهَا
 إِنَّ حُسْنَ الثَّنَاءِ يُعْلِي مِنَ الْمَرِّ
 وَبَغِيضٌ كَأَنَّهُ الْمَوْتُ إِلَّا
 غَضٌّ مِنِّي مَا لَا يُغَضُّ وَأَمْسَى
 وَلَئِنْ كَانَ فِي النَّعِيمِ بِمِثَالٍ
 وَلَكُمْ تَأَهُ مِنْ غِنَاهُ فَقُلْنَا:

إِنْ يَكُنْ بِالْحُطَامِ يَشْرُفُ شَيْءٌ
 أَثِيهَا السَّائِلِي عَنِ الْعَيْبِ فِيهِ
 هُوَ ذُو الْبُخْلِ وَالْبَذَاءَةِ، وَاللُّوْ
 وَلَعَمْرِي إِنَّ الْحَلِيمَ إِذَا مَا

حَاضِرُ الْعَيْبِ حِينَ يَرْجَمُ
 لَا تَسْلَنِي عَنْهُ فَمَا هُوَ خَافٍ
 وَكَذَا لَيْسَ فِي الْأَنَامِ بِخَافٍ
 سَيِّدٌ مِنْ كِنَانَةٍ هُوَ مِنْهَا

زَانِنِي مَدْحُهُ، وَلَوْلَا ثَنَاهُ
 حُسْنُ الْأَسْمِ وَالْفِعَالِ كَرُوضٍ
 فَلَمَجْدِي مِنْهُ أَمَدٌ خَصِيْبٍ
 وَلَكُمْ قُلْتُ مُعَلِّناً فِي مَعَالِيهِ بِشَجْوٍ مُرَجَّعِ التَّرْنِيمِ

خَذْ قَرِيضاً أَدَارَهُ كَرَمُ الْوِ
 هُوَ فِي الْأَمْتَرَاكِ مَاءٌ، وَخَمْرٌ
 وَلَئِنْ جَاءَ فِيهِ هَجْوٌ فُلَانٍ
 فَلَعَمْرِي لَهُ الْهَجَاءُ نَسِيْبٌ

وَلَكُمْ نَفْعُهُ وَلِغَيْرِ مِنْهُ
 إِنَّ زُهَرَ النُّجُومِ مِنْهَا رُجُومٌ

سَبَباً فِي زِيَادَةِ التَّفْخِيمِ
 لَمْ تُقَارَنْ بِكُلِّ وَجْهِ وَسِيمِ
 وَ يُغْلِي وَخَمٌّ أَمْرٍ وَخِيمِ
 فِي اقْتِرَابٍ مِنَ الْغَفُورِ الرَّحِيمِ

مِنْ عِنَانِي يَثْنِي أَشَدَّ شَكِيمِ
 فَهُوَ بِالْبُخْلِ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ
 لَيْسَ ذَا التَّيِّبَةِ عِلَّةُ التَّعْظِيمِ
 لَمْ تُعْظَمْ شَعَائِرُ الْحَطِيمِ

هُوَ كَمَ عَاثَ مَرَّةً فِي أَدِيمِ
 مِ، وَسُوءُ الْجَوَارِ وَالتَّجْسِيمِ
 سِيمَ خَسَفًا تَرَاهُ غَيْرَ حَلِيمِ
 بِالْغَيْبِ تَرَاهُ غَيْرَ عَلِيمِ

كَيْفَ يَخْفَى شَيْطَانُهُ مِنْ رَجِيمِ!
 مِنْ أَيْيَادِهِ مَسْلِيَاتُ الْهَمُومِ
 خَيْرُ سَهْمٍ مُسَدَّدٍ التَّصْمِيمِ
 لَمْ أَقْلَدْ بِكُلِّ نَظِيمِ

فَاقَ حُسْنَ الْمَرَأَى وَحُسْنَ الشَّمِيمِ
 وَلِضِدِّي مِنْهُ أَشَدُّ خَصِيمِ
 وَلَكُمْ قُلْتُ مُعَلِّناً فِي مَعَالِيهِ بِشَجْوٍ مُرَجَّعِ التَّرْنِيمِ

دَّ سُلَافاً يُزْرِي بِنَبْتِ الْكُرومِ
 فِي اقْتِسَامِ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ
 بَعْدَ مَدِيحٍ لَكُمْ فُغَيْرِ مُلُومِ
 وَالنَّسِيبُ الْجَدِيرُ بِالتَّقْدِيمِ

لَسَعُهُ، رَبُّ أَرْقَمٍ مِنْ رَقِيمِ
 وَوَجُومٌ وَالْإِهْتِدَا بِالنُّجُومِ

رُبَّ وَصَلٍ أَتَاكَ مِنْ بَعْدِ هَجْرٍ وَصَبَّاحٍ مِنْ بَعْدِ لَيْلٍ بِهِمْ
 فَهَبِ الصَّفْحَ لَاعْدَمْتُكَ مَوْلَى ذَا بَنَانٍ هَامٍ وَبِرٍّ عَمِيمٍ
 والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
 أجمعين⁽¹⁾.

3.3.3 الوصف

هو من أبرز الألوان الأدبية التي تظهر قدرة الكاتب وبراعته في استخدام قوة خياله وتعبيره، في رسم لوحاته الفنية المستمدة من الطبيعة بنوعيتها: الصائتة والصامتة، وبعض المظاهر الحضارية. ومن أبرز معالم الطبيعة الصائتة التي وصفها ابن عبد الظاهر، الخيل والبغال، فقد حظيت تلك الحيوانات باهتمام العرب القدامى وعنايتهم في مختلف العصور؛ إذ إنها تعدّ من أهم وسائل التنقل وأدوات الجهاد والصيد آنذاك، وقد نوه الرسول صلى الله عليه وسلم - إلى أهمية الخيل بالذات، وضرورة اقتنائها، حينما قال: "الخيْلُ معقودٌ بنواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والغنيمة"⁽²⁾.

كما أنها حظيت باهتمام الباحثين والأدباء كذلك، فراح الفريق الأول يُطنب في ذكر أصنافها، وألوانها، وصفاتها المُستَحسنة وغير المُستَحسنة، إلى غير ذلك، في ثنايا مؤلفاتهم، وأورد أصحاب الفريق الثاني ما ذكره أولئك، في أشعارهم ورسائلهم، التي تتركز على وصفها والتغني بها⁽³⁾.

إلا أن التفضيل -دائماً- كان للخيل على البغال؛ نظراً لأصالتها وشرَفها، حتى إن بعضهم شبَّهها بالإنسان في ذلك، فمن شرفها أنها لا تأكل بقية علف غيرها، كما أنها ترى المنامات مثله، وتوصف بحدة البصر⁽⁴⁾.

¹ الصفدي، تمام المتون، 412-415.

² مسلم، ابن الحجاج، صحيح مسلم، (د. ط)، دار الكتب العالمية، بيروت، 1992م، 15/13.

³ انظر: السيوطي، ديوان الحيوان، مخ، المكتبة الملكية، 170-205، والقلقشندي، صبح الأعشى، 13/2-30، والعمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، ص 326-327، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ط 2، مكتبة مدبولي، 1996م، 22، 23/20.

⁴ السيوطي، ديوان الحيوان، ص 191.

ومن أهم الصفات المُستَحسنة في الخيل كما ورد في بعض الكتب: عِظَمُ البُنْيَانِ الخارجيِّ لها، وعِظَمُ الرأس وطوله مع سَعَةِ الجبهة، وطول الأذنين وضرورة انتصابهما وقُرب المسافة بينهما، واعتدال شعر النَّاصية في الطُّول مع لِينِ شعر الجسم، وسَعَةُ العينين وحدَّتُهما، إضافةً إلى أسالة الخَدَّين وسَعَةُ الشَّدقين، ونَتوء الصدر، ونعومة الجلد، إلى جانب ضرورة اتِّسامها باتِّساع الخطى، وسرعة الجري والانعطاف⁽¹⁾.

أمَّا أهم الصفات المُستَحسنة في البغال فتتلخَّص في قول القلقشندي: "إن خيار ما يُقْتنى من البغال ما اشتدَّت قوائمه، وعظمت قَصْرَتُهُ وعُنْقُهُ وهامَتُهُ، وصَفَتْ عيناه، ورَحِبَ جوفُهُ، وعَرَضَ كَفْلُهُ، وسَلِمَ من جميع العيوب والعِلل .. (و) خَفَّةُ شعر الناصية، وأن يكون بيديها ورجليها خطوط مختلفة"⁽²⁾.

وقد أنشأ محيي الدين بن عبد الظاهر -كبقية الأدباء- رسالةً في وصف الخيل والبغال، التي أرسلت -على ما يبدو- إلى إحدى الجهات، فصورَ فيها حُسن الخيل المُرسلة، وطبيعة حركتها في أثناء المسير، وذكرَ بعضاً من ألوانها كالأشقر، والأحمر، والأشهب، والأصفر الحبشي، وشيئاً من صفاتها، وهي مطابقة -إلى حدٍّ ما- للصفات التي أوردها العمري في كتابه (التعريف بالمصطلح الشريف)، حيث قال واصفاً بعضها: فإنَّ "أزينا الشَّهْب"⁽³⁾ وأصبرها الكُميت⁽⁴⁾، وأسبقها الشَّقْر⁽⁵⁾، وأحدَّها نفوساً الدُّهْم⁽⁶⁾، وما سَلِمَ فيها من الوضَح كان أشدَّ"⁽⁷⁾، يقول ابن عبد الظاهر: "وسيرَ من الخيول الرَّهاوين كلَّما هو على الحُسن مُشتمِل، ومع سرعته يمشي الهوبنا، كمشي الشَّارب الثَّمِل، من كلِّ أشقرٍ كأنَّهُ النجم السريع لا البطيء،

¹ انظر: السيوطي، ديوان الحيوان، والقلقشندي، صبح الأعشى، 18/2، والعمري، التعريف بالمصطلح الشريف، 326-327.

² القلقشندي، صبح الأعشى، 30/2.

³ هي الخيل البيضاء التي يخالط بياضها لون آخر، إلا أنَّ البياض يطغى عليه، انظر: المصدر نفسه، 14/2.

⁴ هي الخيل الحمراء التي يخالط حمرتها سواد، انظر: المصدر نفسه، 15/2.

⁵ هي الخيل الصافية، قليلة الحمرة، وعرفها وذيلها أشقران، انظر: المصدر نفسه، 15/2.

⁶ هي الخيل شديدة السواد، انظر: المصدر نفسه، 15/2.

⁷ العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، 326-327.

وَكُلٌّ أَحْمَرٌ كَالشَّفَقِ⁽¹⁾، وَغُرَّتُهُ مَا يَتَخَلَّلُ الشَّفَقُ مِنَ النُّورِ الْمُضِيِّ، وَكُلٌّ أَشْهَبُ كَالنَّارِ⁽²⁾ وَمَا فِي هَذَا مِنَ السَّوَادِ مَا بِذَلِكَ مِنْ أَوَاخِرِ اللَّيْلِ وَأَوَائِلِ الْعِشِيِّ، وَكُلٌّ أَصْفَرُ حَبْشِي⁽³⁾ يَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ لِرِكَابِ الْمَقَرِّ خَادِمًا، وَكَيْفَ لَا وَهُوَ الْخَصِيُّ الْحَبْشِيُّ⁽⁴⁾.

وَمَعَ أَنَّ مَعْظَمَ الْأَفْرَادِ يَفْضَلُونَ الْخَيْلَ عَلَى الْبِغَالِ، إِلَّا أَنَّ اجْتِمَاعَ بَعْضِ صِفَاتِ الْخَيْلِ وَالْحَمِيرِ فِيهَا، مَيَّزَهَا عَلَى بَعْضِ أَنْوَاعِ الْخَيْلِ فِي ارْتِفَاعِهَا، وَطُولِ وَتَبْهَاهَا، وَسُرْعَتِهَا، وَتَحْمَلُ قَطْعَ الْمَسَافَاتِ الطَّوِيلَةِ: "وَمَنْ الْبِغَالِ كُلُّ فَارِهِمُ الْوَثْبَةِ، كَارِهَةٌ أَنْ تَكُونَ دُونَ رُتْبَةِ الْجِيَادِ فِي حَلَبِهِ، كَمْ قَاسَتْ بِذِرَاعِهَا شَقَّةَ أَرْضٍ، فَعَلِمَتْ طَوْلَهَا مِنْ عَرْضِهَا، وَكَمْ لَحَقَتْ بِمَشِيَّتِهَا مَا تَلَحَّقَهُ الْجِيَادُ بِرُكُضِهَا، كَمْ حَسِبَ رَاكِبُهَا أَنَّهُ مِنْ وَطْئِ ظَهْرِهَا عَلَى فُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ، وَكَمْ بَوِيَغَ لَهَا بِالْخِلَافَةِ عَلَى الْجُرْدِ الْمُطَهَّمَةِ⁽⁵⁾ عَلَى أَنَّهَا مَخْلُوعَةٌ، يَشْهَدُ بِتَمَامِ حُسْنِهَا الْعَقْلُ، وَيَصْدَقُهُ عَلَى ذَلِكَ مِنْهَا صَحَّةُ النَّقْلِ، مَا ضَرَّتْهَا هُجْنَةُ أُمِّهَا مَعَ أَصَالَةِ أَبِيهَا وَأُمُّهَا هَجِينَةٌ"⁽⁶⁾.

وَلَا يَنْسَى الْكَاتِبُ -أَخِيرًا- تَذْكِيرَ الْقَارِئِ بِمَسَاوَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَهَا، حِينَ جَمَعَهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لَتَرَكَّبُوَهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽⁷⁾، يَقُولُ مُحْيِي الدِّينِ بْنُ عَبْدِ الظَّاهِرِ: "وَمَا شَانَهَا ذَلِكَ وَاللَّهُ تَعَالَى سَاوَى بَيْنَهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لَتَرَكَّبُوَهَا وَزِينَةً﴾، تَسْبِقُ الطَّرْفَ وَالطَّرْفَ، وَأُمُّهَا خَالِهَا وَمَا هِيَ حَرْفٌ"⁽⁸⁾.

وَقَدْ حَظِيَ الْحَمَامُ كَذَلِكَ بِاهْتِمَامِ النَّاسِ قَدِيمًا، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ عَمَدُوا إِلَى تَدْوِينِ أَنْسَابِهِ فِي دِفَاطِرِ خَاصَّةٍ⁽⁹⁾، وَلَاقَى الْحَمَامُ الرَّسَائِلِيَّ بِالذَّاتِ عَنَائَةً خَاصَّةً مِنْ

¹ يَبْدُو أَنَّهُ يَشِيرُ إِلَى الْخَيْلِ الْمُسَمَّى بِالْأَمْعَزِ، وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ أَحْمَرُ وَذِيلُهُ وَعَرْفُهُ كَذَلِكَ، انْظُرْ: الْقَلْقَشْنَدِيُّ، صَبِيحُ الْأَعَشِيِّ، 15/2.

² يَبْدُو أَنَّهُ يَشِيرُ إِلَى الْخَيْلِ الْمُسَمَّى أَشْهَبُ كَافُورِي، وَهُوَ الَّذِي يَخَالِطُ بَيَاضَ شَعْرِهِ أَسْوَدَ وَالْأَغْلَبُ فِيهِ الْبَيَاضُ، انْظُرْ: الْمَصْدَرُ نَفْسَهُ 14/2.

³ وَهُوَ مَا كَانَتْ صَفَرَتُهُ خَالِصَةً تَشْبَهُ الذَّهَبَ وَعَرْفُهُ وَذِيلُهُ أَسْوَدَانِ، وَيُسَمَّى أَيْضًا أَصْفَرُ مَطْرَفٍ، انْظُرْ: الْمَصْدَرُ نَفْسَهُ، 16-15/2.

⁴ الْغَزُولِي، مَطَالِعُ الْبَدُورِ، 197/2.

⁵ الْمُطَهَّمُ مِنَ النَّاسِ وَالْخَيْلِ: الْحَسَنُ التَّامُّ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ عَلَى حَدِّهِ فَهُوَ بَارِعُ الْجَمَالِ، ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ، مَادَّةُ (طَهَم).

⁶ الْغَزُولِي، مَطَالِعُ الْبَدُورِ، 197/2.

⁷ سُورَةُ النَّحْلِ، آيَةُ 8.

⁸ الْغَزُولِي، مَطَالِعُ الْبَدُورِ، 197/2.

⁹ انْظُرْ: الْقَلْقَشْنَدِيُّ، صَبِيحُ الْأَعَشِيِّ، 90/2.

قَبِلَ سلاطين الممالك؛ نظراً لأهميته في نقل الرسائل المختلفة وإيصالها إلى الجهات المطلوبة بأسرع وقتٍ ممكن.

وبناءً على أهمية الوظيفة المُلقاة على كاهل ذلك النوع من الحمام، أمر أولئك السلاطين بعمل أبراج له ينطلق منها، في أثناء تحميله الرسائل المطلوبة، وقد شُيِّدت تلك الأبراج في مراكز متعددة من أنحاء الديار المصرية⁽¹⁾.

وبما أنه يُحمَل -غالباً- رسائل غاية في الأهمية والسرية، فإن أولئك السلاطين كانوا يتركون طعامهم، ويهجرون نومهم إذا حضر الطائر حاملاً جواب الرسالة المبعوثة⁽²⁾.

ونوة العمريُّ إلى ذكاء ذلك النوع من الحمام، حين قال: وهو "أشدُّ الطير ذكاءً، ومن ذكائه أنه يعرف علامات بُرجه في الهواء، ويكون طيرانه مدوراً كمن يصعد المنارة، ولا يزال يصعد حتى يرى شيئاً من علامات بلده، فإذا رأى ذلك يهبط إليه بأدنى زمان، وفي بعض الأوقات عند صعوده يتغيَّم الجوّ، ويصيرُ الغيمُ حائلاً بينه وبين رؤية بلده، فيقع ببلاد شاسعة، أو يصيده شيء من الجوارح"⁽³⁾.

وقد أُشيرَ سابقاً -إلى اهتمام محيي الدين بن عبد الظاهر بذلك النوع؛ نظراً لطول فترة عمله في ديوان الإنشاء المملوكي، حتى إنه أفردَ له -كما ذكر- كتاباً خاصاً سمّاه "تمائم الحمام" وهو من كتبه المفقودة.

ولعلَّ من الأهمية بمكان إيراد النصِّ الذي اقتبسه المقرئ من ذلك الكتاب، عند حديثه عن الحمام، وفيه يتحدَّث ابن عبد الظاهر عن كيفية كتابة الرسائل المُحمَّلة لذلك الطائر، قائلاً: "وينبغي أن تُكتب البطائق في ورق الطير المعروف بذلك، ورأيتُ الأوائل لا يكتبون في أولها بسملة، وتورِّخ بالساعة واليوم لا بالسنين، وأنا أورِّخها بالسنة، ولا يُكثر في نعوت المُخاطَب فيه، ولا يُذكر حشو في الألفاظ، ولا يُكتب إلا لبُّ الكلام وزبدته، ولا بدُّ أن يُكتب "سُرَّح الطائر ورفيقه" حتى إن تأخرَ الواحد ترقَّب حضوره أو تطلَّب، ولا يُعمل للبطائق هامش، ولا تُجَمَّل، ويُكتب في آخرها حَسْبَلَة، ولا تُعَنَوَّن إلا إذا كانت منقولة، مثل أن تُسَرَّح إلى السلطان من

¹ انظر: المقرئ، المواعظ والاعتبار، 110/3، والسيوطي، حسن المحاضرة، 313/2.

² انظر: المقرئ، المواعظ والاعتبار، 110/3.

³ العمري، مسالك الأبصار، 87/20.

مكان بعيد، فيكتب لها عنوان لطيف حتى لا يفتحها أحد، وكلُّ والٍ تصل إليه، يكتب في ظهرها أنها وصلت إليه ونقلها، حتى تصل مختومة⁽¹⁾.

أضف إلى ذلك أنه أنشأ رسالة في وصفه، مركزاً فيها على دوره في نقل الرسائل المُرداة إلى مُختلف الأنحاء، بأسرع وقتٍ ممكن، ومشيراً في الوقت ذاته إلى سلبه البريد البري أهميته؛ بسبب تلك الميزة، ومبالغاً كذلك في بيان جلال قدره، إذ إنَّ أشباهه من الحمام تتوقَّف عن الهديل وترديده إذا ما مرَّ؛ تأدُّباً معه، يقول: "وأما حمائم الرسائل فكم أغنت البُردَ عن جوب القفار، وكم قدَّت جيوبها عن أسرى أسرار، وكم أعارت السَّهام أجنحةً فأحسنت بتلك العارية المطار، وكم قال جناحها لطالب النِّجاح: لا جناح، وكم سرَّت فحمدت المساء إذا حمد غيرها من السَّارين الصِّباح، وكم ساوقت الصِّبا والجنايب ففاقتهما، ولم تُحوج سلامَ المُشتاقين إلى امتطاء كاهل الرِّياح، كم حسنَ ملكٌ كلَّ منهما ملك، وكم قال مُسرَّحها لمجيئه بها: قرّة عين لي ولك، وكم أجملت في الهوى تقلُّبا، وإذا غنَّت الحمائم على الغصون صممت عن الهديل والهدير تأدُّباً"⁽²⁾.

ويُبيِّن شيئاً من موضوعات الرسائل المُحمَّلة له في أثناء إشارته إلى أهميّة الوظيفة التي يقوم بها، ومنها: إظهارُ بعض الحقائق، ورفع الشكاوى، وإيصال الأمانة، ومنح الأمان، وزفُّ البشرى، ويمزج ذلك ببعض العبارات البلاغيّة، التي تدلُّ على مدى سرعته في أداء مهمّته، إضافةً إلى تنويهه -مرّةً أخرى- إلى جلال قدره؛ وذلك لأنَّ تفانيه في أداء المهمّة الموكلة إليه، نأى به عن التغريد والغناء كبقية الطيور، ولا يخلو حديثه من التلميح إلى تفضيله نقل الرسائل بواسطة ذلك النوع من الحمام؛ للحفاظ على السريّة التي تستوجبها بعض الرسائل على الأقل، وهذا ما قد لا يتوفّر في أثناء نقلها عن طريق البريد البري؛ لوجود بعض الأشخاص الذين يعملون تحت إمرة السلطان، وفي الوقت ذاته يتربّصون للإطاحة به، من خلال تأمرهم مع بعض الجهات التي تكيّد له، يقول: "كم دفعت شكّاً بيقينها، ورفعت شكوى بتبيينها، وكم أدّت أمانة، ولم تعلم أجنحتها بما في شمالها، ولا شمالها بما في يمينها، كم

¹ المقرّبي، المواعظ والاعتبار، 110/3.

² السيوطي، حسن المحاضرة، 317/2.

التفت منها الساق بالساق، فأحسنّت لربّها المساق⁽¹⁾، وكم أخذت عهود الأمانة فبدت أطواقا في الأعناق، ويقال: ما تضمّنته من البطائق بعض ما تعلّق منها في الرّياض من الأوراق، تسبق اللّمح، وكم استفتح بها بشير إذا جاء بالفتح، تفوت الطّرف السّابق والطّرف الرّامي الرّامق، وما تلت سورة البروج إلا وتلت سورة الطارق، كم أنسى مطارها عدوّ السّلكة والسّليك، وكم غنيت في خدمة سلّطانها عن الغناء، وقال كلّ منهما لرفيقه: إليك عن الأيك⁽²⁾.

ويشير الكاتب في النصّ السابق إلى أنّ الرسائل كانت توضع في جناح الطائر عند إرسالها، من خلال قوله: "ولم تعلم أجنحتها بما في شمالها.."، ويعلّل سبب ذلك في كتابة المفقود قائلا: "كان الجاري به العادة أنّها لا تحمل بطاقة إلاّ في جناحها، لأمر منها: حفظها من المطر، ولقوة الجناح"⁽³⁾.

كما يتّضح من قوله: "وقال كلّ منهما لرفيقه: إليك عن الأيك"، أنّ الطائر لم يكن يُطلق وحده في أثناء حمله للرسائل، بل لا بدّ من إطلاق طائر آخر معه؛ ليكون رفيقا له في رحلته، ولعلّ الرسالة المرداة كانت تُحمّل لكليهما؛ حتى يُضمن بذلك وصولها، نظراً لكثرة المعوّقات التي قد تواجههما في رحلتهما، كتعرّضهما لبعض الطيور الجارحة، وحيادهما عن المسار الصحيح؛ بسبب انعقاد الضباب، وسقوط المطر الغزير، وغير ذلك من الظروف الجويّة التي قد تطرأ حينذاك.

ويختتم رسالته بعبارات يُعيد فيها ما طرحه سابقاً، من التّركيز على أهميّة الطائر، وسرعته، وحفظه للأسرار المحمّلة إليه، قائلا: "ما أحوج تصديقهما في رسالتهما إلى الإعزاز بثالث، وكم قيل في كلّ منهما لمن سام: هذا حام في خدمة أبناء يافث، كم سرّحا بإحسان⁽⁴⁾، وكم طارا بأفق فاستحقّ أن يُقال لهما: فرسا سحاب إذ قيل لأحدهما فرسا رهان، حاملة علم لمن هو أعلم به منها، يُغني السّفار والسّفارة فلا تحوجهم إلى الاستغناء عنها، تغدو وتروح، وبالسّر لا تبوح، فكم غنيت باجتماعها بألفها عن أنّها تتوح، كم سارت تحت أمر سلّطانها أحسن السّير، وكم

¹ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والتفت الساق بالساق* إلى ربك يومئذ المساق﴾، سورة القيامة، آية 29-30.

² السيوطي، حسن المحاضرة، 317/2-318.

³ المصدر نفسه، 313/2.

⁴ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿الطلاق مرّتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾، سورة البقرة، آية 229.

أفهمت أن ملك سليمان إذ سُخِّرَ له منهما في مهمّاته الطير⁽¹⁾، أسرع من السّهام المفوّقة، وكم من البطائق مُخلّقة وغير مُخلّقة⁽²⁾، كم ضلّلت من كيد، وكم بدت في مقصورةٍ دونها مقصورة ابن دُرَيْد⁽³⁾.

وله رسالةٌ في وصف الحيات، يُصوّر فيها طبيعة حركتها، إذ إنّها تتسابُ يُمْنَةً ويُسرّة في سرعة وخبائة، ومن أخطر أنواعها حيّة الصلّ، التي تنقضُّ على فريستها وتُسكِنها في غياهب الألم والحمّى، حتى يتولّاها سبحانه وتعالى برحمته، كما أنّه يشيرُ إلى تنوّع ألوانها، وتغيّر أثوابها، وكثرة تواجدها في الصّحاري، ويعجب من كونها تُسبّب الموت وهي تزحف على بطنها، ويعجب كذلك من عدم أكلها لفريستها بأنيابها، إذ إنّ المعهود لديها الابتلاع، لا الأكل، يقول: "تروغ للمراغي والمراعي، وتستمتع منها السّهام المنيّة قعاقع بتراكيش الأفاعي، من كلّ صلّ يفترس افتراس الضيّغم، وينملسُ انملاس الجدول المُفعم، تنقضُّ انقضاض السّهام، وتروغُ رائئها في المنام، ومن حُمّتها يحمُّ الحمام، وإذا انقبضت كانت للمنيّة عروة، وإذا انبسطت فهي للرزية حزام، وما نابها بنوائبه ناب، ولا لعابها في جدّه بالإتيان على النفوس بلعاب، ذوات ألوان كالذّنيا تروق وتروع، وذات معاطف كالليالي والأيام منذرة كالنفخ للوقوع، قد غدت للخيام أطناً عوضاً عن الأطناب، ونابت عن العمد فيها شرّ مناب، فلو شاهدتها بقراط لم يرَ أنّ غيرها للموت من العلل الخبائث والأسباب، كم تصبّحت الأعين منها بأسودّ سالخ، وكم غدا مهريّ بسُمّها مهريّاً من الحريق، فهو في كورٍ على لغة العوامّ نافخ، ومن عجب أنّها تمشي على بطنها، ولا تأكل من نهشته بنابها النائب عن سنّها، تحترس وتفترس، وترى لعينها في الظلام ناراً لا يجد

¹ قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَخَيْرَ لِسُلَيْمَانَ جُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، سورة النمل، آية 16-17.

² إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، سورة الحج، آية 5.

³ السيوطي، حسن المحاضرة، 318/2.

عليها هدى طرف المُقْتَبَس، كم غدت لبعيرٍ عقالا، وكم اعتقلَ الموت منها للمطاعنة رِمَاحاً طوالاً، وأرسل نبالاً⁽¹⁾.

ومن أهمّ معالم الطبيعة الصّامته، التي وصفها الكاتب، فصلُ الربيع، والبطيخ الحلبي، وفيضان النيل، فيصور في أثناء وصفه لفصل الربيع أولاً مظاهر الفرحة التي عمّت معالم الطبيعة جرّاء حلوله، حيث الأشجار المكتسية بثوبها الأخضر الجميل، والأزهار المتفتحة، والغدران الجارية، ولا يخلو وصفه من ذكرٍ لبعض أسماء الأزهار والأشجار، وقد صاغ ذلك كلّهُ بقالبٍ من الصنعة اللفظية المتنوّعة، التي تدلّ على براعته، يقول: "والأغصانُ قد اخضرّ نباتُ عارضِها، ودنانير الأزهارِ ودراهمها وقد تهيّأت لتسليم قابضِها، والمنثورُ وقد نظمت قلائده وصيغَت ولانده، والحرورُ وقد جاوزَ السُّها بالتبّاشير والسُّرور، قد كشفت عن سُوقِها، وقالت لها تلك الغدران بهديرها: ﴿إِنَّهُ صَرَخٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ﴾"⁽²⁾، والسّوسان وقد لاحظ جفنه الوسنان، والوردُ وقد ورّد، والبانُ وقد بان"⁽³⁾.

ومن أطرف الأشياء التي وصفها، البطيخ الحلبي الذي أهدى إليه في أحد الأيام، إذ يُبدي إعجابه بمظهره الخارجي أولاً، ويصور الواحدة منها بالقنديل، وعروقها بالفتيلة التي يُستضاء بها، كما أنّه يُشيرُ إلى تفاوت أحجامه، فيمثّل كُبراه بالبطن الضّامر لِشِدّة جوعه، مع أنّها تحتوي على لبٍّ شهيّ تحنُّ لتذوّقه، أمّا صُغراه فتظهر بصورة رأس، تحوي عدداً من الجباه عند تقسيمها، يقول الغزولي ناقلًا ما قاله محيي الدين بن عبد الظاهر في وصفه: "فشاهد إهابه وكأنّما جُمع من زهر الأقاح، وكأنّ كلّ واحدٍ منه قنديل وعروقه فتيلة الإصباح، وكأنّ كُبراه بطنٌ خميص، كم له من مجموع اللبّ حنين، وكأنّ صُغراه رأسٌ كم منها إن فُصِلت جبين، يُقسم كلّ رأسٍ منه رئيسٌ من الأناسي، وقصرَ أيمانه في الاستحسان عليه، فما يقول إلّا وحقّ راسي"⁽⁴⁾.

¹ الصفدي، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، 195/1 - 196.

² سورة النمل، آية 44.

³ الغزولي، مطالع البدور، 123/2.

⁴ المصدر نفسه، 129/2.

وقد نال نهر النيل قسطاً وافراً من رسائل الكتّاب وقتذاك، وذلك لأنهم عدّوه من أجل النعم التي منّ بها الخالق على عباده القاطنين في الديار المصرية؛ لارتباطه بمفهومَي الحياة والخصوبة في أذهانهم، ولهذا عمد كثير منهم إلى وصفه في أثناء شحّه وفيضانه، طالبين الله في الحال الأولى أن يُفرِّج كربهم بإنزال الغيث من السماء؛ كي تحصل الزيادة، أمّا في الحال الثانية، فيكثرّون من عبارات الشكر والامتنان له عزّ وجلّ، ويلجأون في الوقت ذاته إلى زفّ بُشرى ذلك النبأ إلى مُختلف الأنحاء الإسلاميّة.

وقد قال القلقشندي في أثناء حديثه عن ذلك النوع من الرسائل: "وهذه المكاتبة من خصائص الديار المصريّة، لا يُشاركها فيها غيرها من الممالك، ولم يزل القائمون بالأمر في الديار المصريّة من قديم الزّمان وهلمّ جرّاً يكتبون بالبشارة بذلك إلى ولاية الأعمال؛ اهتماماً بشأن النيل، وإظهاراً للسرور بوفائه، الذي يترتّب عليه الخصبُ المؤدّي إلى العمارة وقوام المملكة، وانتظام أمر الرعيّة"⁽¹⁾.

وفي بعض الأحيان، قد تطغى الزيادة على المقياس المطلوب، فيحصل للناس جرّاء ذلك بلاءٌ عظيم؛ بسبب زحف المياه المتدفّقة إلى المنازل والأراضي الزراعيّة، ممّا يؤدّي إلى انتشار الخراب المُتمثّل بالغرق، والانجراف، والاقتلاع، إلى غير ذلك.

وقد أنشأ محيي الدين بن عبد الظاهر رسالةً لنائب السلطنة بحلب المحروسة، مبشراً إيّاه فيها بوفاء النيل، فاستفتحها بالدعاء قائلاً: "وسرّة بكلّ مُبهجة، وهناءُ بكلّ مُقدّمة سرور تغدو للخصب والبركة مُنتجة، وبكلّ نعمى لا تُصبح لمنّة السحائب محوجة، وبكلّ رحمة لا تستبعد لأيامها الباردة ولا لللياليها المتلجة"⁽²⁾.

وعند دخوله في موضوع الرسالة، ينوّه إلى أنّ أعظم منّة منّ بها الله على أهالي الديار المصريّة، تتمثّل بغزارة غيئه، الذي أدّى إلى زيادة النيل، وفيضانه بصورة حسنة، بعد أن مرّ عليه حين من الجفاف، إذ ضمنوا بتلك الزيادة المحمودّة انتشار الخصب، وإغلال الإقطاعات: "هذه المكاتبة تُفهّمه أنّ نعم الله وإن كانت

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 328/8.

² الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 276/17-277.

متعدّدة، ومنحُه وإن غدت بالبركات مُتردّدة، ومننه وإن أصبحت إلى القلوب مُتودّدة، فإنَّ أشملها، وأكملها، وأجملها، وأفضلها، وأجزلها، وأنهلها، وأتمّها، وأعمّها، وأضّمّها، وألمّها نعمةً أجزلت المَنَّ والمنح، وأنزلت في أبرك سفح المُقطّم أغزر سَفَح، وأتت بما أعجب الزُّرّاع، ويُعجل الهَرّاع، ويُعجز البرق اللّماع، ويغلّ القطاع، ويغلّ الإقطاع.⁽¹⁾

ويصفُ -بعدَ ذلك- فيضان النّهر المذكور، وشِدّة جريان مائه، الذي غمر الأراضي، وملاً البرك والسّواقي على خير وجه، ولا يخلو الحديث من الدلالة على براعة الكاتب وعمق تخيُّله؛ وذلك لأنّه صوّر الطّميّ الأحمر الذي يُخالط مياه النيل، بالحمرة التي تعلو وجه المُسافر جرّاء طول تعرّضه للشمس في أثناء سفره، كما أنّه لا ينسى الإشارة إلى مقياس ارتفاع مائه، إذ بلغ ستّة عشر ذراعاً، وهو ما يُسمّى آنذاك بماء السّلطان: "وتتبعثُ أمواههُ وأفواجهُ، وتمدُّ خطاً أمواهه وأمواجه، ويسبقُ وفد الرّيح من حيث ينبري، ويغبط مرّيخه الأحمر القمر؛ لأنّه بيته السرطان، كما يغبط الحوت؛ لأنّه بيتُ المشتري، ويأتي عجبهُ في الغد بأكثر من اليوم، وفي اليوم بأكثر من الأمس، وتركتُ الطريق مُجدّاً، كأن ظهر بوجهه حمرة، فهي ما يعرض للمسافر من حرّ الشّمس، ولو لم تكن شقّته طويلة لما قيسَت بالذّراع، ولولا أنّ مقياسه أشرفُ البقاع، لما اعتُبر ما تأخر مملٍ ما حوّلَه الماضي بقاع، بينا يكون في الباب إذ هو في الطّاق، وبيننا يكون في الإحتراق إذا هو في الاختراق للإغراق، وبيننا يكون في المجاري إذا هو في السوراي، وبيننا يكون في الحباب إذ هو في الجبال، وبينما يقال لزيادته: هذه الأمواه، إذ يقال لغلاتها: هذه الأموال، وبيننا يكون ماءٌ إذ أصبح خيراً، وبيننا يكسب تجارةً قد أكسب تجربة، وبيننا يفيد غزاةً قد أفاد عزاء. جسورٌ على الجسور جيشه الكرّار، لو أمست التّراع منه تُراع والبحارُ منه تحار. كم حسنتُ مقطّعاتهُ على مرّ الجديدين. وكم أعانت ميزاب مقياسه على الغزو من بلاد سيس على العمودين، أتمّ الله لطفه في الإتيان به على التدرّج، وإجرائه بالرحمة التي تقضي للعيون بالتفرّج وللقلوب بالتفريح، فأقبل جيشه بمواكبه، وجاء يطاعن الجذب بالصواري من مراكبه، وتضافف لحاجة الجسور في بيد الحجة،

¹ الصّفدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 17/ق 277.

ويثاقف القحط بالتراس من بركه والسيوف من خلجه. ولما تكامل إياه، وضح في ديوان الفلاح والفلاحة حسابه، وأظهر ما عنده من ذخائر التيسير وودائعهم، ولقط عموده جُمْل ذلك على أصابعه. وكانت الستة عشر ذراعا تسمّى ماء السلطان⁽¹⁾. ويصوّرُ مظاهر الفرحة التي عمّت أفراد الشعب المصريّ، نتيجةً لذلك الحدث، فقد تجمّعوا عند الخليج، لشكر الله أوّلاً، ولللقاء السلطان وحاشيته ثانياً، حتى إذا ما وصلوا، استقبلوهم بالأدعية الحسنة، والتّقاريض البديعة: "نزلنا وحضرنا مجلس الوفاء المعقود، واستوفينا شكر الله تعالى بفيض ما هو من زيادته محسوب، ومن صدقاتنا مخرج ومن القحط مردود، ووقع تيّارُهُ بين أيدينا سطورا تفوق، وعلمت يدنا الشريفة بالخلق، وحمدنا السّير كما حمدنا السّرى، وصرفناه في القرى للقرى، ولم نحضره في العام الماضي، فعملنا له من الشكر شكرانا، وعمل هو ما جرى، وحضرنا الخليج وإذا به أممّ قد تلقّونا بالدعاء المُجاب وقرّضونا، فأمرنا مائه أن يحثو من سدّه -كما ورد- في وجوه المادحين التُّراب، ومرّاً يبيدي المسارّ ويُعيدّها، ويزور منازل القاهرة ويعودها، وإذا سئل عن أرض الطبالة قال: جُننا بليلي، وعن خلجها: وهي جنت بغيرنا، وعن بركة الفيل قال: وأخرى بنا مجنونة لا نريدّها!، وما برح حتى تعوّضَ عن القيعان البقية من المراكب بالسّرر المرفوعة، ومن الأراضي المحروثة من جوانب الأدور بالزّرابي المبتوثة، وانقضى هذا اليوم عن سرور لمثله فليحمد الحامدون، وأصبحت مصرُ جنةً فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، وأهلها في ظلّ الأمن خالدون"⁽²⁾.

ويُنهي رسالته بقوله: "فيأخذ حظّه من هذه البُشرى، التي ما كتبنا بها حتى كتّبت بها الرّياح إلى نهر المجرّة إلى البحر المُحيط، ونطقت بها رحمةُ الله تعالى إلى مجاوري بيت الله تعالى، من لابسِي النّقوى ونازعي المَخيط، وبشّرت بها مطايا المسير الذي يسير من قوص غير منقوص، ويتشارك في الابتهاج بها العالم، فلا مصر دون مصرٍ بها مخصوص، والله تعالى يجعل الأولياء في دولتنا يبتهجون بكلّ أمرٍ جليل، وجيران الفرات يفرحون بجيران النيل"⁽³⁾.

¹ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ق 277/17-278.

² المصدر نفسه، ج 6، ق 278/17.

³ المصدر نفسه، ج 6، ق 278/17-279.

وأنشأ رسالة أخرى في النيل، إلا أنها تختلف عن البشارة السابقة؛ لأنها لا تصوّر مظاهر سعادة الناس وفرحهم بوفائه، بل تصوّر مظاهر الخراب التي عمّت بعض الأماكن نظراً لفيضانه، إذ يتحوّل النيل فيها إلى طاغية يقتحم الديار، يغمر الأراضي، ويخرّب المنازل، ويهجم على السواقي والبرك، فيملؤها بمياهه إلى حدّ لا يُطاق، وكلّ ذلك يرسمه الكاتب في لوحة فنيّة مليئة بالصّور الحيّة، النابضة باللون والحركة، ولا يخلو حديثه من التضرّع إلى الله عزّ وجلّ لأجل كفّ أذى ذلك النهر عن العباد، وإعادته إلى سابق عهده، حيث الزيادة المحمودة، يقول: "ويُنهي إليه أمر النيل الذي سرّ في أوائله الأنفس بأنفس بشرى، ويقصّ عليه نبأه العظيم الذي ما يُرينا من آيةٍ إلا هي أكبر من الأخرى⁽¹⁾، ويصفّ له ما ساقه إلى الأرض من كلّ طليعة، إذا تنفس الليل تفرّق صباحها وتفرّى، فهو وإن كان خصّ الله البلاد المصريّة بوفوره ووفائه، وأغنى به قُطرها عن القطر فلم يحتج إلى مدّ كافيه وفائه، ونزّهه عن منّة الغمام، الذي هو إن جاد فلا بدّ من شهقة رعده، ودفعة بكائه، فقد وطئ بلاده بعسكره العجّاج، وزاحم ساحاتها بأفواج الأمواج، فعمل فيها بذراعه، ودار عليها بخناقه، وتخلّلها بنزاعه، وحملها على سوارى الصواري تحت قلوّعه، وما هي إلا عمّد قلاعه، وزار زرابيّ الدور المبنوثة⁽²⁾، وجاس خلال الحنايا، كأن له فيها خبايا موروثة، ومرق كالسهم من قناطره المنكوسة، وعلا زبد حركته، ولولاه ظهرت في باطنه من الأقمار والنجوم أشعّتها المعكوسة، وحمل على بركة الفيل، حمل الأسود على الأبطال، وجعل المجنونة من تيّاره المنحدر في السلاسل والأغلال، والمرجو من الله أن يُزيل أذاه، ويُعيد علينا منه ما عهدناه، فإنّ له الإياب الأكبر، وفيه العجائب والعبّر، فما وجود الوفاء عند عدم الصّقاء، وبلوغ الهرم إذا احتدم واضطرم، وأمن كلّ فريق إذا قطع الطريق، وفرح قطن الأوطان إذا كُسِر، وهو كما يقال: سلطان، إلى غير ذلك من خصائصه، وبراعته من الزيادة من

¹ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾، سورة الزخرف، آية 48.

² إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَزَرَابِيٌّ مَبْنُوثة﴾، سورة الغاشية، آية 16.

نقائصه، طالما فتح أبواب الرحمة بتعليقه، وفاز كلُّ أحدٍ عند رؤية مائة المُعصفر بتخليقه⁽¹⁾.

وتتمثل معالم المظاهر الحضارية التي وصفها بالمباني، كوصفه لحصن المَرْقَب، والجامع الأموي، وأدوات السلاح، كالجواشن، ومصادر الضوء، كالشمعة. فقد كان حصنُ المَرْقَب من ضمن الحصون الخاضعة لسيطرة الصليبيين، وحصل للمسلمين القاطنين في المدن المجاورة له - جرّاء ذلك - أذىً كبير، فحاول غيرُ حاكم - وقتها - فتحه، لكن لم يتسنَّ لهم ذلك؛ نظراً لمنعته وحصانته، إلى أن تحقّق الأمل المرجو في ولاية المنصور قلاوون سنة (683 هـ)، فراح الشعراء والكتاب - حينها - يُظهرون إبداعاتهم في وصف ذلك الحصن، وكيفية فتحه⁽²⁾.

وقد ركّز محيي الدين بن عبد الظاهر - في أثناء وصفه له - على علوّه وحصانته، مشيراً إلى موقعه المجاور للبحر، ومنوّهاً إلى كثرة الأموال التي أنفقت في بنائه، حيث يقول: "وهذه القلعة لها بالنجم مناط، وبالسحاب ارتباط، ولها على الدهر اشتراط، ولبروجها ببروج السماء اختلاء واختلاط، كم يسهو إليها السُّها، ولولا المغالاة - واستغفر الله - لقلت: تكاد تستظل بسدره المنتهى⁽³⁾، كأنما الرياح لجديها مُخَنِّقة، والغيومُ لخصرها مَنطقة؛ تجاور البحر، وكملَ الله القلاع العشر بها، فأُمسّت لنحر الأعداء عيداً فما هي إلا عيدُ النحر، مصونة السرح، وكأنها ما تمنّاهُ فرعون على هامان من صرح، أحسنَ الله بها للأمة المحمدية الإدراك، وجعلَ الموهبة بها بمساعدة الملائكة حسنة الاشتراك، وما كانت الممالك لتفخر بأن لها حصن أكراد إلا وتزاد من هذه حصن أتراك، قد أُمِنَ بأخذها من بلاد الدعوة النازح والمقيم، وما كان ليكون لها كهف إلا ومن هذه لها رقيم، كم عاندَ أهل الكهف منها شيطانٌ رقيم مريد، وكم شاهدوا منها كلباً باسطاً ذراعيه بالوصيد⁽⁴⁾، كم سمح إخوة

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 272/10-273.

² انظر: ابن عبد الطاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 77-86.

³ سدره المنتهى شجرة في الجنة، وقد ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿عند سدره المنتهى﴾، سورة النجم، آية 14.

⁴ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، سورة الكهف،

آية 9، وقوله: ﴿وَكَلَبُوهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعِيَهِ بِالْوَصِيدِ﴾، سورة الكهف، آية 18.

بيت الاستبار في عمارتها من الفضة والذهب، بما يُوزَنُ بالقنطارِ بعد القنطار، وكم كانوا إخوة وما تحاسبوا في الإنفاق عليها حسابَ التَّجَّارِ، وما سُمِّيَ بالمرْقَبِ إلَّا لأنَّ الأهلَةَ به ترقى ومنه تُرَقَّب، وما نُقِبَ بالفتكات السلطانية إلَّا لأنَّه جوهرة قَذَفَهَا البحرُ إلى السَّاحِلِ، والجوهرة لا يَضُمُّها السِّلْكُ حتَّى تُنْقَبَ، تُجاور رِفْعته الأفلاك بأحاديثها، وتُجاور الفلك لتأثيرها، وتُجاور الحصر بما أباحته مِن سَلْبِ جماعتها وأخذ مواريتها"⁽¹⁾.

وقد أشارَ بعضُ الأمراء على المنصور قلاوون بهدم ذلك الحصن بعد الاستيلاء عليه، كما أشارَ بعضهم بإبقائه، فرأى السلطان أن يبقيه؛ لحصانته ومنعته، وحُسنِ بنائه وتزيينه، وكَي يكون حِسرَةً في قلوب الكفار، وعضداً لِحِصون الإسلام المُجاورة له⁽²⁾.

ويصفُ جمالَ الجامع الأمويِّ في ليلة نصف شعبان، التي تمتازُ بظلمتها الحالكة، وصفاء جوِّها وسكونه، إذ تتبدَّى أركانهُ المُحاطة بالنيران للرَّائي كالحزام الذي يلتفُ حول مجسمِ الجامع، ويُصورُ صفاءَ الأشعة المنبعثة من تلك النيران بالحَبِّب، الذي يطفو على سطح الكأس عند صبِّ الخمر فيها، يقول: "لا تلمحُ الأعينُ مصباحا، وتودُّ أنَّها لا ترى لتلك الليالي صباحا، إذ تمنطقت أركانهُ مِن اللهب بمناطق الذهب، وبدت أشعَّتْها في صفائه كما يبدو في الكأس -وحاشاهُ- الحَبِّب، لاسيَّما في ليلةِ النِّصف التي كم رُفِرَ عليها النِّعيم، وكم خدَمَها إلَّا مِنَ النَّسيم:

وكم للنَّاسِ فيها لاحَ بدرٌ يروقُ العينَ منظرُهُ الوسيم
بدا وبدا الوقودُ فقلتُ بدرٌ لخدمته ترجلتِ النُّجوم

كم أضاءَ بوجهه ديجور، وكم انعكست أشعَّةُ تلك الأضواء على وجهه المُنير، فكان نوراً على نور⁽³⁾:

فِي خَدِّهِ لِلوَرَى رَبِّيع ونصفُ شعبان في فؤادي"⁽⁴⁾.

¹ ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 85.

² انظر: المصدر نفسه، ص 80.

³ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿نورٌ على نورٍ﴾، سورة النور، آية 35.

⁴ الغزولي، مطالع البدور، 291/2.

أما أدوات القتال، فقد اختار ابن عبد الظاهر منها الجواشن لتكون مادة لوصفه في الرسالة الآتية، والجواشن دروغ يلبسها المقاتلون على صدورهم، لتقيهم من ضربات الأعداء⁽¹⁾، التي قد تكون قاتلة أحياناً.

وقد أشار محيي الدين في رسالته إلى حسن هيئتها ومتانتها، وشدة لمعانها، وجمال زينتها، ونوه كذلك إلى دورها في حفظ نفوس المقاتلين في أثناء المواجهة، يقول: "ومن الجواشن حسنة التسامي والتسامت، لا يرى في خلق سمائها من تفاوت، قد رُفع بعضها فوق بعض درجات⁽²⁾، وبُنيت أسواراً لحفظ المُهجات، وقد زُيّنت سماؤها بزينة الكواكب⁽³⁾، وفاق غمامها المتراكم، وراق موجهها المتركب، كم أحسنت دفاع البؤس عن النفوس عدة وقوع، وكم حنت حين حُنت أضالعها على الضلوع، كم دخلت جنة جنتها بسلام، وكم بدت كأنها طلّع نضيد⁽⁴⁾، ولا عجب، فإنها ذوات الأكمام⁽⁵⁾"⁽⁶⁾.

ويصف شمعاً أُشعلت في إحدى الليالي المظلمة، مشيراً إلى ضالة الأشعة المنبعثة منها، ومصوراً إياها بالذهب؛ نظراً لصفرة لونها، قائلاً: "في حين ما شق زنجي الدجى عن ترائبه جيباً، ونشر الظلام ظفائره وقد اشتعل رأسه من النجوم شيباً⁽⁷⁾، في ضوء شمعة نشرت على الورق رداء الأصيل، وأخفت من الدجى سواد جفنه الكحيل، وسترت ذوائبه في معصر أبهج من وجنتي بثينة لولا أنها في صفرة وجه جميل"⁽⁸⁾.

¹ انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (جشن).

² إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾، سورة الأنعام، آية 165، وقوله تعالى: ﴿لَنَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾، سورة الزخرف، آية 32.

³ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾، سورة الصافات، آية 6.

⁴ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّخْلَ بِاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾، سورة ق، آية 10.

⁵ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَاللَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾، سورة الرحمن، آية 11.

⁶ الغزولي، مطالع البدور، 172/2.

⁷ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾، سورة مريم، آية 4.

⁸ الغزولي، مطالع البدور، 86/2.

الفصل الرابع

الخصائص الفنية

1.4 بناء الرسالة، ولغتها وأسلوبها، والصورة والخيال

1.1.4 بناء الرسالة

التزم كُتّاب الإنشاء في العصر المملوكي -إلى حدٍّ ما- شكلاً محدداً لبناء الرسالة، وهو الشكل الذي توارثوه عن الكُتّاب المتقدمين، والذي يتمثل بالمقدمة، والمضمون، والخاتمة، والذيل، إلّا أنّ تتابع العصور وتواليها، ومواكبة أفرادها للتطور الحاصل نتيجة لذلك، دفع الكُتّاب إلى الالتزام بشكل الرسالة، مع العمل على تطوير محتوى ذلك الشكل وعناصره.

ولا ينطبق الحديث السابق على الرسائل جميعها، بل يخصّ الرسائل الديوانية التي تصدر عن ديوان الإنشاء المملوكي، وهي: الرسائل السياسية، والإدارية، والحربية، إذ حاول معظم الكُتّاب آنذاك الالتزام بشكل الرسالة عند كتابتها، وقد جنحت أقلية منهم إلى اختصار شيء من عناصره؛ إمّا لعدم مناسبته لموضوع الرسالة المنشأة، أو للرغبة في الاختصار أحياناً.

وقد تطلّب الانتقال ما بين العصور المختلفة العمل على نسخ الرسائل غير مرّة بغرض حفظها، فحدث نتيجة لذلك إسقاط كثير من عناصر الشكل، التي التزم بها الكُتّاب في الرسائل الديوانية خاصة؛ ممّا أدّى إلى عدم ملازمة الباحث -أحياناً- للتطور الحاصل في محتوى العناصر الشكلية، نتيجة لذلك الانتقال.

أمّا الرسائل الاجتماعية، والإخوانية والأدبية، فقد حاول معظم الكُتّاب فيها النأي عن الالتزام بالعناصر الشكلية للرسائل الديوانية، ولعلّ ذلك عائد إلى رغبتهم في التحرر من القيود الشكلية التي تُفرض عليهم في تلك الرسائل، فعمدوا إلى الدخول إلى مضمون الرسالة مباشرة، دون الاستهلال بالمقدمة، أو الانتهاء بالخاتمة والذيل؛ إلّا أنّ بعضهم احتفظ بالمقدمة والخاتمة والذيل؛ إمّا لاعتياده على كتابة الرسائل الديوانية وتأثره بها، أو لرغبته في ذلك لغاية ما في نفسه.

ومن أهم العناصر الشكلية التي تواجه القارئ في مقدّمة الرسالة على الترتيب: البسملة، والعنوان، والتحية، والحمدلة، والصلاة على النبي، والتخلص.

وقد اتخذ شكل البسملة المعروف حالياً (بسم الله الرحمن الرحيم)، من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾⁽¹⁾، إذ كانت صيغة البسملة قبل نزول هذه الآية "باسمك اللهم"⁽²⁾.

ويلاحظ المتأمل في رسائل محيي الدين بن عبد الظاهر السابقة، خلوها من البسملة، سواء أكانت ديوانية، أم اجتماعية أم إخوانية، أم أدبية، وذلك من دون شك - لا يعني استغناء الكاتب عن الاستفتاح بها في مقدّمات رسائله، فلعل ذلك عائد إلى عبث النساخ في تلك الرسائل، وحذفهم بعض العناصر الشكلية لمقدّماتها؛ نظراً لتسليمهم بضرورة وجودها، حتى وإن كانت محذوفة، ففي اعتقادهم أن القارئ يؤمن باستفتاح الكاتب بالبسملة؛ إذا فلا داعي لذكرها ما دام يعلم ذلك.

وقد صرح ابن عبد الظاهر نفسه عن عدم استغنائه عن البسملة حتى في البطائق الصغيرة، التي تحمّل لحمام الرسائل قائلًا: "ورأيت الأوائل لا يكتبون في أوائلها بسملة .. وأنا ما كتبتها قطّ إلا ببسملة للبركة"⁽³⁾، فكيف يُمكن تصوّر استغنائه عنها في رسائل هامة كالرّسائل السياسية على سبيل المثال؟.

وقول ابن عبد الظاهر السابق، يشير إلى سبب لجوء الكتاب إلى كتابة البسملة في بدايات رسائلهم، إذ إنهم كانوا يتبرّكون بالابتداء بها ويتمنون بذكرها⁽⁴⁾.

وعلى الرغم من التعميم السابق بخلو رسائل ابن عبد الظاهر -المتناولة في هذه الدراسة- من البسملة، إلّا أنّ استفتاحه التقليد السليمانى⁽⁵⁾ -الموجّه لابن غراب بشأن الوطواط- بالآية الكريمة: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، يُظهر عدم استغنائه عن البسملة، أضف إلى ذلك أنّه استهلّ بها النصّ الذي ختم به صدّاق السعيد بركة خان على ابنة سيف الدين قلاوون⁽⁶⁾.

¹ سورة النمل، آية 30.

² انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 217/6-219.

³ السيوطي، حسن المحاضرة، 314/2.

⁴ انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 222/6.

⁵ انظر فيما سبق، ص 225.

⁶ انظر فيما سبق، ص 206.

ويحتلُّ العنوانُ المرتبةَ الثانيةَ في مُقدِّمة الرسالة آنذاك بعد البسملة، وهو "الديباجة الشكلية المتضمنة ذكر اسم المرسل والمرسل إليه.. (وهو) دليلُ بيان يجعل المُرَاسلة مُنَعَدَّة الأطراف، واضحة الوجهة"⁽¹⁾.

والنَّاطِرُ في الرسائل السابقة، لا يلمح ظهور هذا العنصر بشكلٍ جليٍّ فيها؛ نظراً لاختفاء الكاتب بذكر طرفٍ واحد من أطراف المُرَاسلة، وهو المرسل إليه، فكان يُصرِّح باسمه أحياناً، كما في الرسالة الساخرة التي أنشأها على لسان الظاهر بيبرس لصاحب قبرس، حيث قال: "هذه المكاتبة إلى حضرة الملك أوك دلزنيال"⁽²⁾، ويقتصر على إيراد لقبه أحياناً أخرى، كما في الرسائل التي أنشأها عن السلطان المذكور للقاضي ابن خلكان، بسبب فتح مدينة يافا، وحصني الأكراد وعكار، فجاءت عناوينها على التوالي: "هذه المكاتبة إلى المجلس السامي"⁽³⁾، "هذه البُشرى إلى المجلس القضائي"⁽⁴⁾، "هذه المكاتبة إلى المجلس السامي القضائي"⁽⁵⁾، وقد وردَ على هذا النحو في الرسالة الصيدية التي بعثها عن السلطان نفسه إلى الأمير عزَّ الدين الحلِّي، نائب السلطنة بقلعة الجبل، حيث قال: "هذه المُكاتبة إلى المجلس"⁽⁶⁾.

ويُمكن عزوُّ أمر عدم ورود العنوان بصيغته الكاملة إلى عبث النساخ أيضاً، فمعرفة الباحثين بطرفي المُرَاسلة في الرسائل المُتناولة في الصفحات السابقة، خيرُ دليل على التزام الكاتب بإيراد صيغة العنوان كاملة.

ولا ينطوي الكلام السابق على الرسالة الهجائية، التي عرَّض بها الكاتب بالوطواط الكتبي؛ نظراً لاكتمال صيغة العنوان فيها بذكر اسم المرسل (سيِّدنا سليمان)، وتحديد المرسل إليه (مجموعة الطيور)، حيث قال: "إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، إلى كُلِّ ذِي جَنَاحٍ، وَكُلِّ اجْتِرَاءٍ مِنَ الطَّيْرِ واجْتِرَاحٍ، وَإِلَى كُلِّ ذِي صِيَالٍ مِنْهُمْ، وَكُلِّ ذِي صِيَاحٍ، وَإِلَى كُلِّ ذِي عَفَافٍ مِنْهُمْ، وَكُلِّ ذِي جِمَاحٍ"⁽⁷⁾.

¹ الدروبي، محمد محمود، الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص 458.

² انظر فيما سبق، ص 102.

³ انظر فيما سبق، ص 167.

⁴ انظر فيما سبق، ص 169.

⁵ انظر فيما سبق، ص 171.

⁶ انظر فيما سبق، ص 211.

⁷ انظر فيما سبق، ص 225.

وتُعَدُّ التَّحِيَّةُ عنصراً ثالثاً من عناصر مقدِّمة الرسالة، وقد لجأ إليها الكُتَّاب آنذاك "لتأليف القلوب"⁽¹⁾. استناداً إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم! أفشوا السَّلامَ بينكم"⁽²⁾، فكانت التَّحِيَّةُ المُتعارَفة في ذلك الوقت "سلامً عليكم"⁽³⁾ إلا أنَّ هذه الصيغة لم ترد في رسائل ابن عبد الظاهر، بل ظهرت في رسالةٍ واحدة له صيغة مُغايرة لتلك الصيغة، حيثُ قال في الرسالة التي أنشأها عن الظاهر بيبرس لملك الغرب: "تحيَّاتُ الله التي تتَّابَعُ وفودها وتتوالى، وتُشرق نجومها وتتلا.. تخصُّ الحضرة السنيَّة، العالميَّة، العادليَّة، المُستصريَّة"⁽⁴⁾.

وتأتي الحمدلةُ بعدَ التَّحِيَّةِ، وقد جيءَ بها في مقدِّمات الرسائل للتَّيْمُن والتَّبَرُّك أيضاً⁽⁵⁾، استناداً إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ أمرٍ ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذَم"⁽⁶⁾.

وقد أكثرَ الكاتبُ في رسائله من إيراد صيغة الحمدلة، في الموضوعات السياسيَّة كالعهود، والمُكاتبات الإداريَّة، كالتَّقاليد والمراسيم والتَّواقيع، وبعض الموضوعات الاجتماعيَّة، كالإقطاع، والصَّدَاق.

ولم تأتِ الحمدلةُ وحدها في تلك الرسائل، بل ارتبطت بعدد من الجُمَل التي ناسبت موضوعاتها الرئيسيَّة، أضف إلى ذلك أنَّ الكاتب نوَّعَ في صيغة الحمدلة المُستعملة في تلك الرسائل، فجاء بها مرَّةً بالصيغة الاسميَّة (الحمد لله)، ومرَّةً بالصيغة الاسميَّة والفعلية في آنٍ معاً (الحمدُ لله.. نحمدهُ)، ومرَّةً أوردَها على الصيغة التالية (أمَّا بعدَ حمد الله).

وقد وردت الحمدلةُ بصيغتها الاسميَّة في عهد الخليفة العبَّاسي، الحاكم بأمر الله للمنصور سيف الدين قلاوون، حيثُ قال الكاتب: "الحمدُ لله الذي جعل آيةَ السيفِ ناسخةً لكثيرٍ من الآيات.. ثمَّ الحمدُ لله الذي جعلَ الخلافةَ العبَّاسيَّة بعدَ القُطوبِ حسنة

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، 229/6.

² المصدر نفسه، 229/6.

³ المصدر نفسه، 229/6.

⁴ انظر فيما سبق، ص 68.

⁵ القلقشندي، صبح الأعشى، 224/6.

⁶ المصدر نفسه، 224/6.

الابتسام..⁽¹⁾، وفي تقليد السعيد بركة خان الوزارة للصاحب بهاء الدين بن حنا: "الحمد لله الذي وهب لهذه الدولة القاهرة من لَدُنْهِ ولياً"⁽²⁾.

وفي تقليد تاج الدين بن بنت الأعزّ قضاء قضاء الشافعية: "الحمد لله مجرد سيف الحق على مَنْ اعتدى، وموسّع مجاله لمن راح إليه واعتدى..⁽³⁾، وفي تقليد إمرة العُربان في بلاد الشام لفخر الدين عثمان: "الحمد لله الذي خصَّ مَنْ والى هذه الدولة القاهرة بالتقدمة والفخر، ورمى من عاداها بالمدلة والقهر..⁽⁴⁾، وفي نسخة التوقيع بتدريس المدرسة الصلاحية لتقيّ الدين ابن القاضي تاج الدين بن بنت الأعزّ: "الحمد لله شافي عيِّ البحث بخير إمام شافعي، والآتي منه في الزَّمن الأخير بمن لو كان في الصِّدر الأوّل، لأثنى على ورعه ودينه كُلُّ صحابيٍّ وتابعي..⁽⁵⁾، وفي الإقطاع الذي منحه المنصور قلاوون لابنه الناصر محمد: "الحمد لله الذي زينَ سماء الملك بأنور كوكب بزغ، وأعزّ ملك نبغ..⁽⁶⁾.

ووردت بصيغتها الاسمية والفعلية في عهد الظاهر بيبرس لابنه السعيد بركة خان، حيث قال: "الحمد لله مُنمّي الغروس.. نحمده على نِعَمِهِ التي أيقظت جفن الشُّكر المُتغافي..⁽⁷⁾، وفي عهد المنصور قلاوون لابنه الملك الصالح علاء الدين علي: "الحمد لله الذي شَرَّفَ سرير الملك مِنْهُ بعلِيّه، وحاطَهُ مِنْهُ بوصِيّه، وعَضَدَ منصورَهُ بولايَةِ عهدِ صالحه.. نحمده على نِعَمِهِ التي جمعت إلى الزَّهرِ الثَّمَر..⁽⁸⁾، وفي عهد السلطان المذكور لابنه الأشرف خليل: "الحمد لله الذي لم يزل له السَّمْع والطاعة فيما أمر.. نحمده على أن جعلَ سُلْطَانَنَا ثابت الأركان، نابت الأغصان..⁽⁹⁾، وفي الإقطاع الممنوح لبدر الدين بيدرا: "الحمد لله الذي جعلَ بدرَ الدين تماماً على الذي أحسن.. نحمده حمدَ مَنْ أعلى صوته وصيته أعلن"⁽¹⁰⁾، وفي

¹ انظر فيما سبق، ص 42-43.

² انظر فيما سبق، ص 107.

³ انظر فيما سبق، ص 111.

⁴ انظر فيما سبق، ص 114.

⁵ انظر فيما سبق، ص 120.

⁶ انظر فيما سبق، ص 200.

⁷ انظر فيما سبق، ص 48.

⁸ انظر فيما سبق، ص 52.

⁹ انظر فيما سبق، ص 57.

¹⁰ انظر فيما سبق، ص 201.

صداق السَّعيد بركة على ابنة قلاوون: "الحمدُ لله موفِّقُ الآمالِ لأُسعد حركة.. نحمدُهُ على أن أحسنَ النِّعمة الشَّاملة، وحلَّت عندهم البركة الكاملة، نحمدُهُ على أن أحسنَ عند الأولياء بالنِّعمة والاستيداع.."(1).

ووردت صيغةُ (أمّا بعد حمد الله) في المرسوم الذي أصدره قلاوون بتقليد علم الدين سنجر نيابة السلطنة ببلاطنس، حيث قال: "أمّا بعد حمد الله على نِعَمٍ توالى رِفْدُها، ووجبَ شُكْرُها.."(2)، وفي نسخة التوقيع برئاسة اليهود: "أمّا بعد حمد الله الذي جعلَ ألطاف هذه الدولة القاهرة تصطفي لدمَّتْها من اليهود رئيساً فرئيساً.."(3)، فالحمد في هذه الرسائل كما يقول القلقشندي مُقدِّمٌ معنى وإن جاء مُتأخراً لفظاً(4).

كما أن ذكرَ الصلاة على النبي، وآل بيته، وصحابته الكرام في مقدّمات الرسائل، يُعدُّ من الضّروريات؛ نظراً لقوله تعالى في مُحكم كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(5)، وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾(6).

ووردت الصلاة على النبي، وآل بيته، وصحابته، في الرسائل التي استُهلَّت بالخطب، كالعهود، والتّقاليد، والتّواقيع، وبعض الرسائل الاجتماعيّة، وجاءَ نصُّها في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله للمنصور قلاوون، على النحو التالي: "وَنُصَلِّي على سيّدنا محمد، الذي أكرَمنا الله به وشَرَّفَ لنا الأنساب.. صَلَّي الله عليه وعلى آله الذين انجابَ الدين منهم عن أنجاب، ورضيَ الله عن صحابته الذين هُم خيرُ صحاب"(7)، كما أنها وردت في عهد الظاهر بيبرس لابنه السَّعيد بركة خان(8)، وفي عهد قلاوون لابنه الملك الصالح(9)، وفي عهده لابنه الأشرف(10)، وفي تقليد السعيد

¹ انظر فيما سبق، ص 203-204.

² انظر فيما سبق، ص 117.

³ انظر فيما سبق، ص 125.

⁴ انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 225/6.

⁵ سورة الأحزاب، آية 56.

⁶ سورة التوبة، آية 103.

⁷ انظر فيما سبق، ص 43.

⁸ انظر فيما سبق، ص 48.

⁹ انظر فيما سبق، ص 52-53.

¹⁰ انظر فيما سبق، ص 58.

بركة الوزارة للصاحب بهاء الدين بن حنا⁽¹⁾، وفي تقليد قلاوون إمرة العربان لفخر الدين عثمان⁽²⁾، وفي التوقيع بتدريس المدرسة الصلاحية للقاضي تقي الدين⁽³⁾، وفي التوقيع برئاسة اليهود⁽⁴⁾، وفي الإقطاعات الممنوحة للناصر محمد، وللأمير بدر الدين بيدرا⁽⁵⁾، إضافة إلى صداق السعيد بركة خان على ابنه قلاوون⁽⁶⁾.

ويُعدُّ التخلُّصُ آخر عنصر من عناصر مقدّمات الرسائل في ذلك العصر، وهو "وسيلة فنيّة يستحضرها الكاتب.. في سبيل إشعار المُتلقي -قارئاً أم سامعاً- بالانتقال من المُقدّمات التمهيدية إلى الغرض المطلوب، وقد جرى الكتاب منذ الجاهلية على استعمال صيغة "أمّا بعد" .. لتفصل بين فاتحة الرسالة ومضمونها، ولتشكّل معبراً ينفذ منه الكاتب إلى معالجة الموضوع الذي دعا إلى إنشاء رسالته"⁽⁷⁾.

ولم يقتصر كتاب العصر المملوكي على الالتزام بصيغة (أمّا بعد) فحسب، بل راوحوا بينها وبين صيغة "وبعد" حتى إنّ محيي الدين بن عبد الظاهر أكثر من استخدام الصيغة الثانية في رسائله؛ فأوردها مُتقدّمة على الحمدلة لفظاً، ومُتأخّرة معنى في عهد الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله لقلاوون، إذ قال: "وبعدَ حمد الله على أن أحمدَ عواقب الأمور.." ⁽⁸⁾، وأوردها وحدها في عهد الظاهر بيبرس لابنه السعيد بركة، حيث قال: "وبعد: فإنّا لما ألهمنا الله من مصالح الأمم.." ⁽⁹⁾، وفي عهد المنصور قلاوون لابنه الصالح⁽¹⁰⁾، وفي عهده لابنه الأشرف⁽¹¹⁾، وفي تقليد الوزارة لبهاء الدين بن حنا⁽¹²⁾ وفي تقليد إمرة العربان لفخر الدين عثمان⁽¹³⁾، وفي التوقيع

¹ انظر فيما سبق، ص 107.

² انظر فيما سبق، ص 114.

³ انظر فيما سبق، ص 121.

⁴ انظر فيما سبق، ص 125.

⁵ انظر فيما سبق، ص 200-201.

⁶ انظر فيما سبق، ص 204.

⁷ الدروبي، الرسائل الفنيّة في العصر العبّاسي، ص 488-498.

⁸ انظر فيما سبق، ص 43.

⁹ انظر فيما سبق، ص 49.

¹⁰ انظر فيما سبق، ص 53.

¹¹ انظر فيما سبق، ص 58.

¹² انظر فيما سبق، ص 107.

¹³ انظر فيما سبق، ص 114.

بتدريس المدرسة الصلاحية للقاضي تقي الدين⁽¹⁾، وفي الإقطاع الممنوح للناصر محمد⁽²⁾، ولبدر الدين بيدرا كذلك⁽³⁾، وفي صدق السعيد بركة⁽⁴⁾.

وقد وردت صيغة "أما بعد" قبل الحمدلة لفظاً وبعدها معنى في نسخة التوقيع برئاسة اليهود⁽⁵⁾، ووردت وحدها في الرسالة الهجائية الموجهة للوطواط⁽⁶⁾.

ولم يكتفِ كتاب العصر المملوكي بإيراد العناصر السابقة في مقدمات رسائلهم فحسب، بل زادوا إليها أحياناً، وجددوها أحياناً أخرى، ومن العناصر التي زِيدت لمقدمات الرسائل حينذاك، التَّشهُد، والدُّعاء، فأوردوا التَّشهُد بعد الحمدلة في الرسائل التي تقتضي من كاتبها استهلالها بالخطب، وسبب لجوئهم إليه عائدٌ إلى قوله صَلَّى الله عليه وسلم: "كُلُّ خُطْبَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَشَهُدٌ فَهِيَ كَالْيَدِ الْجَذْمَاءِ"⁽⁷⁾.

والناظرُ لرسائل ابن عبد الظاهر السابقة، يرى أنَّ التَّشَهُدَ جاء في مقدمات العهود جميعها، وفي التَّقَالِيد، والتَّوَاقِيع، وبعض الرسائل الاجتماعية، كالإقطاعات، والصدقات.

أمَّا الدُّعاء، فقد استفتح به الكاتب بعضاً من رسائله، وجعلهُ معترضاً بعض عبارات رسائله الأخرى، ومن الأمثلة على الرسائل التي استفتحها بالدُّعاء: رسالة الظاهر بيبرس لابن خلكان، التي تتضمن بُشْرَى فتح مدينة أنطاكية، حيث قال الكاتب: "أدامَ اللهُ سعادةَ المجلس السامي، القضائي، ولا برح يُؤثر البشائر حشايا المنابر.." ⁽⁸⁾، ورسالة المنصور قلاوون لصاحب اليمن، المتضمنة بُشْرَى انتصاره على المغول: "أعزَّ اللهُ نصرَةَ المقامِ العالي، المُظفَّرِي، الشَّمْسِي، ولا زالت البشائر تُورد على سَمْعِهِ، وتُوفَد على رِبعِهِ.." ⁽⁹⁾، وجواب رسالة التعزية التي بعثها الملك المذكور للمنصور قلاوون؛ بسبب وفاة ابنه الصالح: "أعزَّ اللهُ نُصْرَتَهُ، وأحسنَ

¹ انظر فيما سبق، ص 121.

² انظر فيما سبق، ص 200.

³ انظر فيما سبق، ص 202.

⁴ انظر فيما سبق، ص 204.

⁵ انظر فيما سبق، ص 125.

⁶ انظر فيما سبق، ص 225.

⁷ القلقشندي، صبح الأعشى، 226/6.

⁸ انظر فيما سبق، ص 164-165.

⁹ انظر فيما سبق، ص 173.

بتسليته الصبر على كل فادح..⁽¹⁾، ورسالة الإهداء التي بعث بها إلى جماعة الكتاب: "أطال الله بقاء الموالي السادة، ولازالت سماء الدولة محروسة بشهب أقلامهم"⁽²⁾.

ومن الأمثلة على الرسائل التي جاء فيها الدعاء مُعْتَرِضاً بعض عباراتها، رسالة الظاهر بيبرس لملك الغرب، إذ قال الكاتب فيها بعد إلقاء التحية: "تخصُّ الحضرة السنية.. لازالت سماؤها بالعدل مُغْدَقَة الأنواء، مُشْرِقة الأنوار، ورياضها بالفضل موزقة الأغصان.."⁽³⁾، ورسالة السلطان المذكور إلى صاحب قبرس⁽⁴⁾، ورسالته لابن خلكان بسبب فتح حصن الأكراد⁽⁵⁾، وجواب الرسالة التي بعثها شمس الدين آقسنقر بسبب فتح النوبة⁽⁶⁾، والرسالة التي بعثها الكاتب لابن النقيب بشأن عائبه⁽⁷⁾، ولا يخفى ما للدعاء من أهمية في نشر المحبة والتآلف بين أطراف تلك الرسائل.

وقد لجأ بعض الكتاب حينذاك إلى تضمين مُقَدِّمات رسائلهم شيئاً من ألقاب المرسل إليهم فيها، وشيئاً من نعوتهم، ولا بُدَّ من أن ذلك عائدٌ إلى محاولتهم إشعار بعضهم بالعزّة ورفعة القدر، وإشعار بعضهم الآخر بالدلّة، وتدخلُ في نطاق التفسير الأوّل الرسالة التي أنشأها الكاتب عن الظاهر بيبرس لملك الغرب، حيث قال فيها: "تحياتُ الله.. تخصُّ الحضرة السنية، العالمية، العادلةّة، المستنصرية، ذخيرة أمير المؤمنين، وعصمة الدنيا والدين، وعدّة الموحّدين"⁽⁸⁾، وتدخلُ في نطاق التفسير الثاني الرسالة التي أنشأها عن السلطان المذكور لصاحب أنطاكية وطرابلس، إذ قال فيها: "قد علِمَ القومُصُّ الجليل، المُبجّل، المُعزّز، الهمام، الأسد، الضرغام، فخرُ الأمّة

¹ انظر فيما سبق، ص 207.

² انظر فيما سبق، ص 216.

³ انظر فيما سبق، ص 68.

⁴ انظر فيما سبق، ص 102.

⁵ انظر فيما سبق، ص 169.

⁶ انظر فيما سبق، ص 187.

⁷ انظر فيما سبق، ص 229.

⁸ انظر فيما سبق، ص 68.

المسيحية، رئيسُ الطائفة الصليبية، كبيرُ الأمة العيسوية، بيمند المُنتقلة مُخاطبته - بأخذ أنطاكية منه- من البرنسية إلى القومصية⁽¹⁾.

وتجدر الإشارة -هنا- إلى أنَّ القلقشندي، فصلَ الحديث في صُبحهِ عن كيفية كتابة الرسائل بأنواعها المختلفة، مُنوهاً إلى ما يجب التزامه في مُقدّماتها، ومضامينها، وخواتيمها، وذيولها، وفقاً لطبيعة موضوعاتها أولاً، والوجهات المُرسلة إليها ثانياً، كما أنَّ العُمريَّ فعلَ الشيء ذاته في تعريفه.

وقد حاولَ عددٌ من الكتاب حينذاك النَّأيَ عن التزام المُقدّمات السابقة في بعض رسائلهم، إذ لجأوا إلى التَّجديد فيها، فكانوا يستفتحونها ببعض العبارات التي تؤثر في نفس المُرسَل إليه، وتزيد من أواصر المحبة بينه وبين المُرسَل، كما في الرسالة التي أنشأها محيي الدين بن عبد الظاهر للوزير بهاء الدين بن حنا، واصفاً رحلة الجيش في أثناء سيره لفتح قيسارية، إذ استفتحها بقوله: "يُقَبَّلُ الأرضَ بساحاتِ الأبواب الشريفة، السَّيدية، الصَّحابية، البهائية"⁽²⁾.

ويستفتحونها أحياناً ببعض الآيات القرآنية، وهذا ما عمدَ إليه الكاتب في الجواب الذي أنشأه للأمير شمس الدين آقسنقر، حيث قال: "﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾"⁽³⁾، أدامَ الله نعمة المجلس..⁽⁴⁾

ويستفتحونها أحياناً أخرى ببعض الأبيات الشعرية، كما في تهنئة الكاتب للسلطان المنصور قلاوون؛ بسبب فتحه طرابلس، حيث قال:

"هُنَّتَ يَا مَلَكَ الْبَسِيطَةِ فَتَحاً بِهِ النُّعْمَى مُحِيطَهُ

وَبَقِيتَ يَا خَيْرَ الْمَلُوكِ لَكَ بِسَيْفِكَ الدُّنْيَا مَحُوطَهُ

يُقَبَّلُ الأرضَ، ويبتهل إلى دُعاءٍ صالحٍ يُقدِّمه بينَ يدي بشره وبُشراه..⁽⁵⁾

ويقعُ المضمونُ مُتوسِّطاً بينَ مُقدِّمة الرسالة وخاتمتها، ويُعدُّ أهمَّ عُنصرٍ من العناصر الشكلية لبناء الرسالة؛ إذ إنَّه الغرض الأساس الذي أنشئت عباراتها لأجله، وفيه "يشي الكاتبُ بكفايته الأسلوبية، وميله إلى إضفاء قدرٍ من التَّميُّزِ الفنِّي على

¹ انظر فيما سبق، ص 96.

² انظر فيما سبق، ص 130.

³ سورة الإسراء، آية 12.

⁴ انظر فيما سبق، ص 187.

⁵ انظر فيما سبق، ص 191.

رسالته⁽¹⁾، عن طريق دقة اختياره لألفاظها، بحيث تكون مناسبة لتلك المضامين، ولجوءه إلى استحضار كثيرٍ من الأشعار، وإيراد الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وبعض الأحداث التي تدلُّ على سعة ثقافته، إلى جانب العمل على تنميق عباراتها بألوان البلاغة المختلفة.

وقد اتَّسمت رسائلُ ابن عبد الظاهر -كما هو حال الرسائل في العصر المملوكي عامة- بخاصيتين أساسيتين: التنوع والوحدة؛ وذلك لأنه لم يقتصر في إنشائه لها على موضوعاتٍ محدَّدة، بل نوَّع فيها، فتناول الموضوعات السياسية، والإدارية، والحربية، والاجتماعية، والإخوانية، والأدبية، ولم يكتفِ بذلك فحسب، وإنما لجأ إلى التنويع في مضامين الرسائل، التي جُمعت في إطار كلِّ موضوع من الموضوعات السابقة، فحوت رسائله السياسية المخاطبات الإعلامية كالعهود، والعلاقات الخارجية مع الدول الإسلامية وغير الإسلامية، وحوت الرسائل الإدارية النقايد، والمراسيم، والتواقيع، وحوت الرسائل الحربية وصف رحلات الجيش، والبشارات والتهاني، والتذاكر، كما حوت الرسائل الاجتماعية إبطال الحشيش، والإقطاع، والصداق، والتعزية، والصيد، وحوت الرسائل الإخوانية الاستدعاء، والإهداء، أمَّا الرسائل الأدبية فقد حوت المدح، والهجاء، والوصف، ولا يخلو اللون الأخير من ألوان الرسائل الأدبية من التنوع أيضاً، إذ لجأ فيه الكاتب إلى وصف بعض مظاهر الطبيعة الصائتة كالخيول، والبغال، والحمام، والحيات، وبعض مظاهر الطبيعة الصامتة كالربيع، والبطيخ الحلبي، وفيضان النيل، وبعض المظاهر الحضارية كوصف حصن المرقب، والجامع الأموي، والجواشن، والشمعة.

وعلى الرغم من تعدُّد الموضوعات وتنوعها، إلا أنَّ الكاتب التزم الوحدة العضوية في كلِّ رسالة من رسائله السابقة، فكان استحضاره لبعض الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأشعار، إضافة إلى إكثاره من عبارات الدِّعاء والمدح والثناء، في الرسائل السياسية، والإدارية، والحربية، والاجتماعية، والإخوانية، وبعض الرسائل الأدبية، ينتظم في سلك المضمون الواحد، إذ تدرَّجت تلك المظاهر في بناء المضمون وخدمته.

¹ الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص 492.

ففي رسائل العهد -مثلاً- يلجأ الكاتب إلى مدح المقصود بها، قبل إصدار أمر العاهد بصيغته الرسمية، ذاكراً خصاله الحسنة، وهدفه من ذلك إقناع القارئ باستحقاقه تولي شؤون ولاية العهد، حتى إذا ما أصدر أمر العاهد، عمد إلى مدّ نفوذه على أراضي الدولة المختلفة، وتحديد صلاحيّاته، ولا يكفي بذلك فحسب، بل يلجأ في نهاية العهد إلى طرح الوصايا على مسامعه، فعلى الرّغم من تنوّع الموضوعات السابقة، إلا أنّها تخدم مضمون الرسالة الرئيس، المتمثّل بتسليم ولاية العهد للمقصود، وهذا الأمر ينطبق على معظم رسائل ابن عبد الظاهر الأخرى، سواء أكانت إداريّة، أم حربيّة، أم اجتماعيّة، أم إخوانيّة، أم أدبيّة.

وربّما أنّ التّطويل الذي اقتضته الرسائل السابقة، هو ما دفع الكاتب إلى استحضار تلك الموضوعات، وبثّها في ثناياها، إلا أنّ الملاحظ في مضامين رسائله الوصفيّة، أنّها لا تتجاوز عناوينها، فحين أراد الكاتب -مثلاً- وصف الخيول والبغال، لم يلجأ إلى الخروج عن ذلك العنوان، إذ جاءت رسالته من أولّها إلى آخرها تحوي وصفاً لتلك الحيوانات، من حيث طبيعة حركتها، وألوانها، وميزاتها المختلفة، وهذا ينطبق على رسائله المتبقية في ذلك الموضوع.

وكبقية كتاب ذلك العصر، اهتمّ محيي الدين بن عبد الظاهر بخواتيم رسائله السابقة، بدرجة لا تقلّ عن اهتمامه بمقدّماتها، ولا غرو في ذلك؛ إذ إنّ "المقدّمة والخاتمة كجناحيّ الطير، يرتبطان ارتباطاً عضوياً وثيقاً، ويتعانقان في سبيل توفير القوّة الدافعة، التي تضمن تحليق الطائر عالياً"⁽¹⁾.

وقد تضمّنت خواتيم رسائل ابن عبد الظاهر عناصر عدّة تمثّلت بالدعاء، والمشية، وطلب التوفيق من الله سبحانه وتعالى، والمينة والكرم كذلك، إضافة إلى الاختتام ببعض الآيات القرآنيّة، وبعض الأبيات الشعريّة، إذ ناسب بين خاتمة كلّ رسالة وموضوعها الرئيس .

وإنهاء الرسائل بمشيئة الله عزّ وجلّ، معروف منذ القدم، إذ لجأ إليه الكاتب للتبرّك، والرّغبة في نجاح مقصد رسائلهم⁽²⁾، وقد حثّ سبحانه وتعالى على اختتام

¹ الدروبي، الرسائل الفنيّة في العصر العبّاسي، ص 501.

² انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 232/6.

الحديث بمشيئته، حين قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا* إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾⁽¹⁾، ومن الأمثلة على اختتام الكاتب بالمشيئة، والدعاء، قوله في عهد السعيد بركة خان: "والله لا يعدمنا منه إشفاقاً وبرّاً، ويجعله أبداً للأمة سنداً وذخراً إن شاء الله تعالى"⁽²⁾، وفي عهد الملك الصالح علاء الدين علي: "والله تعالى يُنمي هلالك، حتى يوصله إلى درجة الإبدار.. ويجعل الرعيّة بك في أمنٍ وأمان، حتى لا تخشى سوءاً، ولا تخاف دركاً، والاعتماد على الخطّ الشريف -أعلاه الله تعالى- أعلاه إن شاء الله تعالى"⁽³⁾، وفي الهدنة المعقودة بين السلطان قلاوون وابنيه: علاء الدين علي، والأشرف خليل، ومملكة صور: "يلتزم كلّ من الجهتين حفظها إلى آخرها، ومن تولى بعد الآخر حفظها إلى آخرها، والخطّ الشريف أعلاه، حجةً بمقتضاه، إن شاء الله تعالى"⁽⁴⁾، وفي بشرى فتح أنطاكية: "والله يكرمه بجعل سعادته من أتمّ الذخائر، إن شاء الله تعالى"⁽⁵⁾، وفي بشرى فتح صافيتا: "وإن كان الهناء عظيمًا، اشترك كلّ شيء فيه، إن شاء الله تعالى"⁽⁶⁾، وفي تهنئة المنصور قلاوون؛ بسبب فتح طرابلس: "والله يلحق بها في الفتح أخواتها من المدن، ولا يلبث -إن شاء الله- هاديا بها بعدها مثل عكّاء وصور وصيداء، حتى يراهنّ إلى قبضته قد عُدن، إن شاء الله تعالى"⁽⁷⁾، وفي هجائه للوطواط: "والخاتم الشريف السليمانى أعلاه، حجةً بمقتضاه، إن شاء الله تعالى"⁽⁸⁾.

أمّا طلبُ التّوفيق فقد ورد مقروناً بالمنّة والكرم في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله للمنصور قلاوون، حيث قال الكاتب: "والله الموفّق بمنّه وكرمه"⁽⁹⁾، وكرّر الصيغة ذاتها في تقليد قضاء القضاة الشافعية لتاج الدين بن بنت الأعز⁽¹⁰⁾، وورد وحده في الهدنة المنعقدة بين المنصور قلاوون وابنه الصالح، وملك عكا: "وعلى

¹ سورة الكهف، آية 23، 24.

² انظر فيما سبق، ص 52.

³ انظر فيما سبق، ص 57.

⁴ انظر فيما سبق، ص 96.

⁵ انظر فيما سبق، ص 166.

⁶ انظر فيما سبق، ص 187.

⁷ انظر فيما سبق، ص 191.

⁸ انظر فيما سبق، ص 228.

⁹ انظر فيما سبق، ص 48.

¹⁰ انظر فيما سبق، ص 113.

جميع ذلك وقع الرضا والصفح، والاتفاق، وحلف عليها من الجهتين، والله الموفق⁽¹⁾، وفي بشرى انتصار قلاوون على المغول: "لابرح المولى يفرح للمؤمنين بنصر الله، ويشكر مواقف سلطان ليس عن نصر الدين بغافل ولا لاه، والله الموفق⁽²⁾، وفي التذكرة الخاصة بقلعة صرخد، إذ أنهاها بعبارة "والله الموفق⁽³⁾".

ووردت عبارة "بمنه وكرمه" وحدها في الرسالة الموجّهة لملك الغرب، حيث قال كاتبها: "أمتع الله ببركاتها التي امتدّ رواقها، وأنار الحالك إشراقها، ولا زالت يراوحها تسليم عطر النّفحة، وتُصافحها تحيّات جميلة الصّفحة، بمنه وكرمه"⁽⁴⁾، وفي تقليد الوزارة لبهاء الدين بن حنّا: "والله يزيد المجلس، الصحابي، الوزير، البهائي، سيد الوزراء، من فضله.. ويُمَتّع بنيّته الصالحة التي يحسن بها - إن شاء الله - نماء الفرع كما حسن نماء أصله، بمنه وكرمه"⁽⁵⁾، وفي البشارة التي تخصّ حصن الأكراد: "والله يمتّع الشريعة بمساعيه، المستحسنة بمنه وكرمه"⁽⁶⁾، وفي جواب التعزية الموجّه لصاحب اليمن: "ولا شغلَ الله لبّ المولى بفادحة، ولا خاطره بسانحة من الحزن ولا بارحة، ولا أسمع به غير المسرّات من هواتف الإبهاج صادحة، بمنه وكرمه"⁽⁷⁾، وفي الاستدعاء الموجّه لصديقه: "والله تعالى يوالي إليك المسار، ويجعلها لديك دائمة الاستقرار، بمنه وكرمه"⁽⁸⁾.

أمّا الاختتام ببعض الآيات القرآنيّة، فقد ظهر في نسخة التوقيع برئاسة اليهود، حيث قال الكاتب: "قل لهم: هذه موهبة الدولة، وإحسانها إليكم، ولطفها بكم، وعاطفتها عليكم، وبصرهم بذلك كلّما تلا إحساننا إليهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾"⁽⁹⁾⁽¹⁰⁾، وفي الجواب المرسل لشمس الدين آقسنقر بسبب

¹ انظر فيما سبق، ص 86.

² انظر فيما سبق، ص 177.

³ انظر فيما سبق، ص 196.

⁴ انظر فيما سبق، ص 70.

⁵ انظر فيما سبق، ص 111.

⁶ انظر فيما سبق، ص 171.

⁷ انظر فيما سبق، ص 210.

⁸ انظر فيما سبق، ص 216.

⁹ سورة البقرة، آية 40.

¹⁰ انظر فيما سبق، ص 129.

فتح النبوة: "والله يشكر تفصيل مكاتبة المجلس وجملها.. ويجعله إذا انسلخ نهار سيفه من ليل العدو يعود سالماً لمستقره ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾⁽¹⁾»⁽²⁾. واختتم بالشعر مدحة لقيم حمّام الصوفيّة⁽³⁾، ووصفه للجامع الأموي⁽⁴⁾.

وقد انفردت بعض رسائله بالاختتام بعبارات معينة، كرسالته الموجّهة لملك الحبشة إذ أنهاها بعبارة "والله أعلم"⁽⁵⁾، وفي تقليد إمرة العربان لفخر الدين عثمان، حيث قال: "والله تعالى يوزعه شكر النعمة"⁽⁶⁾، وفي الإهداء الذي بعث به لجماعة الكتاب: "والرأي أعلى في إجابة ما التمس"⁽⁷⁾، كما أنه لم يتقيد بالخاتمة في بعض رسائله الاجتماعية، والإخوانية، والأدبية، ولعل ذلك عائداً إلى رغبته في التحرر من القيود المفروضة عليه في الرسائل الديوانية، والإدارية، والحربية خاصة، التي تقتضي منه الالتزام بالعناصر الشكلية لبناء الرسالة.

وقد عمد بعض الكتاب آنذاك إلى إلحاق خواتيم رسائلهم ببعض الذيول، التي تتضمن ذكر اسم الكاتب، وتاريخ الكتابة، إضافة إلى ذكر أسماء الشهود، إذا كان الموضوع يتطلب وجودهم، والنّاظر في رسائل ابن عبد الظاهر السابقة، يرى أنه لم يلحق خواتيمها بالذيول إلا في ثلاثة مواضع، تتدرج جميعها تحت عنوان البشارات والتّهاني، وهي الرسائل التي وجهها للقاضي ابن خلّكان عن السلطان الظاهر بيبرس مبشراً بإيائه بفتح أنطاكية، وحصني عكار والأكراد، إذ جاءت الذيول في هذه الرسائل على التوالي: "كتب رابع شهر رمضان المعظم، سنة ست وستين وستمائة"⁽⁸⁾، و"كتب في التاريخ المذكور أعلاه"⁽⁹⁾، و"كتب في التاريخ أعلاه"⁽¹⁰⁾.

وقد نوّه محمد الدروبي إلى أهميّة ذكر تاريخ الرسالة المنشأة، حيث قال: "فهّي شاهد حيّ على أحداث تاريخيّة مهمّة، إذ نعرف بهذه التواريخ متقدّمها من متأخريها،

¹ سورة يس، آية 38.

² انظر فيما سبق، ص 190.

³ انظر فيما سبق، ص 224.

⁴ انظر فيما سبق، ص 254.

⁵ انظر فيما سبق، ص 106.

⁶ انظر فيما سبق، ص 116.

⁷ انظر فيما سبق، ص 222.

⁸ انظر فيما سبق، ص 166.

⁹ انظر فيما سبق، ص 172.

¹⁰ انظر فيما سبق، ص 171.

مثلاً هي شاهدٌ على التطوُّر الذي أصاب هذه الطائفة من الرسائل، إذ إنَّ وضعها في نسق زمنيٍّ تصاعديٍّ، يُتيحُ للباحث أن يتعقَّب ملامح ذلك التطوُّر⁽¹⁾.

2.1.4 اللغة والأسلوب

عُنِيَ كُتَّابُ العصر المملوكي - في كتاباتهم المختلفة - باللغة والأسلوب؛ فكانوا يميلون - في معظم الأحيان - إلى الوضوح والبساطة، والابتعاد عن التعقيد والغموض، فعمدوا إلى استحضار الألفاظ الفصيحة البيّنة، التي لا تُكَلِّفُ القارئَ عناءَ تقليبِ كتب اللغة المختلفة لاستخراج معناها⁽²⁾، حتى إذا ما تمَّ ذلك، صاغوها في سياق لا يُخلُّ بتلك الفصاحة، وبذلك كانوا يضمنون إقبال المتلقّي على كتاباتهم، سامعاً كان أم قارئاً، جليلاً كان أم حقيراً.

وقد نوّه ابنُ الأثير إلى الأشياء التي يحتاجها الكاتب في أثناء كتابته قائلاً: "اعلم أنَّه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء، الأول منها: اختيارُ الألفاظ المفردة، وحُكْمُ ذلك اللَّائِي المُبَدَّدة، فإنَّها تُتَخَيَّرُ وتُنْتَقَى قبل النِّظْم، الثاني: نظمُ كُلِّ كلمةٍ مع أختها المشاكلة لها؛ لئلا يجيءَ الكلامُ قَلَقاً نافراً عن مواضعه، وحكمُ ذلك حكمُ العقد المنظوم في اقتران كُلِّ لَوْلُوءَةٍ منها بأختها المُشاكلة لها، الثالث: الغرضُ المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه، وحكمُ ذلك حكمُ الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم، فتارة يُجعلُ إكليلاً على الرأس، وتارة يُجعلُ قلادةً في العنق، وتارة يُجعلُ شَنَفاً في الأذن، ولكُلِّ موضعٍ من هذه المواضع هيئةٌ مِنَ الحُسْنِ تخصُّه، فهذه ثلاثة أشياء لا بُدَّ.. من العناية بها، وهي الأصلُ المُعتمد عليه في تأليفِ الكلام من النِّظْم والنثر، فالأوَّل والثاني من هذه الثلاثة المذكورة، هُما المراد بالفصاحة، والثلاثة بجملتها هي المراد بالبلاغة"⁽³⁾.

¹ الدروبي، الرسائل الفنيّة في العصر العبّاسي، ص 515.

² انظر: ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله (637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (د.ط)، المكتبة العصرية، بيروت، 1995م، 81/1، والأبشيهي، شهاب الدين محمد (850هـ)، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق مفيد محمد قميحة، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت 1986م، 96/1.

³ ابن الأثير، المثل السائر، 149/1.

وبناءً على الكلام السابق، لابدّ للكاتب أن ينتقي ألفاظه، بحيث تكون مناسبة للموضوعات المطروحة فيها، وهذا ما يلاحظ في رسائل ابن عبد الظاهر السابقة، إذ يجد القارئ أن كاتبها جنح إلى الوضوح والبساطة في معظمها؛ لذلك، لم يحتج إلى إعمال فكره كثيراً في أثناء تحليله لأبعادها المختلفة.

وتظهر السمات السابقة جليّة في رسائله السياسيّة والإداريّة والحربيّة؛ وذلك لأنها تصدر عن ديوان الإنشاء، باسم السلطان، أو أحد أمرائه عادةً، وتُتَشَأُّ لأمر ما يُصدرونه، فلا مجال للكاتب أن يُظهر قدراته الإبداعية كلّها في إنشائه لها، إلا في القليل النادر، وبما أن تلك الرسائل تُوجّه إلى كثيرٍ من الأفراد الذين يختلفون في مقاماتهم وقدراتهم الفكرية؛ اقتضى ذلك التزام الوضوح والفصاحة فيها.

ومن الأمثلة على ذلك، قوله في عهد السعيد بركة خان على لسان الظاهر بيبرس: "كانت شجرتنا المباركة قد امتدّت منها فرع تفرّسنا فيه الزيادة والنموّ، وتوسّمتنا منه حُسنَ الجنى المرجوّ، ورأينا أنّه الهلال الذي أخذ في ترقّي منازل السُّعود إلى الإبدار، وأنّه سرُّنا الذي صادفَ مكان الاختيار له حُسن الاختبار، أردنا أن نُنصبّه في منصبٍ أحلّنا الله فسيحَ عُرفه، ونُشرّفه بما خولّنا الله من شرفه، وأن تكون يدنا ويده تقتطفان من ثمره، وجيدنا وجيده يتحلّيان بجوهره، وأنا نكون للسلطنة الشريفة السَّمعَ والبصر، وللمملكة المعظّمة في التّأوب بالإضاءة الشمس والقمر.."(1).

فالألفاظ في الفقرة السابقة، واضحة وبسيطة، تنساب انسياباً حسناً على لسان قارئها، وتطرق آذان سامعها طرّقاً لطيفاً، كما أنها مناسبة للغرض المقصود فيها. وقوله في تقليد قضاء قضاة الشافعية، لتاج الدين بن بنت الأعز: "وبعد، فإنّ أحقّ من جُدّد له شرفُ التّقريض، وخُلّد له إرضاء الأحكام وإمضاء التّفويض، وریش جناحه وإن لم يكن المهيض، وفُسّحَ مجاله وإن كان الطويل العريض، ورُفِعَ قدره على الأقدار، وتقسّمت من سحائبه الأنواء، ومن أشعّته الأنوار، من غرّر مدّه فجرت منه في رياض الحقّ الأنهار، وغدا تخشع لتقواه القلوب.."(2).

¹ انظر فيما سبق، ص 50.

² انظر فيما سبق، ص 112.

فقد نأى الكاتبُ في النصِّ السَّابق عن التَّعقيدِ والغموض، لاجئاً إلى الوضوح مع الجزالة التي تُناسب أمرَ التَّقليد.

وقوله في رسالته التي أنشأها عن بيبرس لحاكم أنطاكية: "ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كُسِّرَتْ ونُثِرَتْ، وصُحِفَهَا مِنَ الْأَنَاجِيلِ الْمَزُورَةِ وقد نُشِرَتْ، وقبور البطارقة وقد بُعِثِرَتْ، ولو رأيت عدوكَ المسلم وقد داسَ مكانَ القُدَّاس، والمذبح وقد ذُبِحَ فِيهِ الرَّاهِب.."(1).

فعلى الرَّغم من قوَّة الألفاظ وجزالتها في الفقرة السابقة، إلَّا أنَّها لا تحتاجُ عنايةً يُبذَل لفهمها، كما أنَّها تآلفت جميعها لتخدم غاية كاتبها في إغضاب الحاكم المذكور وقهره.

كما أنَّه وظَّفَ الألفاظَ الجَزَلَة وتألَّفَهَا في تصوير ما آلت إليه حال الأعداء بعد هزيمتهم على أيدي الجيش الفاتح لقيسارية، حيث قال: "وأما العدوُّ فتقاسمت الأيدي ما يمتطونه مِنَ الصَّوَاهِلِ والصَّوَّافِنِ، وما يصولونَ به من سيوفٍ وقِسيٍّ وكنائن، وما يلبسونَهُ من خوذ ودروع وجواشن، وما يتموَّلُونَهُ من جميع أصناف المعادن.."(2).

ولم تقتصر سماتُ الوضوح، والبساطة، والتآلف في خدمة المضمون على ألفاظ الرسائل الديوانية فحسب، بل انطبقت كذلك على ألفاظ الرسائل الاجتماعية، والإخوانية، والأدبية إلى حدٍّ ما، فاختارَ الكاتبُ ألفاظاً بسيطةً للتعبير عن ظهور الحشيش، وإقدام الأفراد عليه، واستعاضتهم به عن الخمر، حيث قال: "وقد بلغنا الآن أنَّها اختصرت، وأنَّ كلمةَ الشيطان بالتعويض عنها ما قصرت، وأنَّ أمَّ الخبائث ما عقلت، وأنَّ الجماعة التي كانت ترضعُ ثديَ الكأس عن ثديها ما فطِمت، وأنَّها في النَّشْوَةِ ما خَيَّبَ إبليسُ مَسْعَاهَا، وأنَّها لمَّا أخرجَ المَنعُ عنها ماءها من الخمر، أخرج لها مِنَ الحشيشِ مرعاها، واستراحت من الخمَّار، واستغنت بما تشتريه بدرهم عمَّا كانت تبتاعُهُ مِنَ الخمرِ بدينار"(3).

¹ انظر فيما سبق، ص 100.

² انظر فيما سبق، ص 141.

³ انظر فيما سبق، ص 197-198.

واختار ألفاظاً رقيقةً رشيقةً، لها أثرٌ في نفس المُتلقّي، وتُشعره بالراحة عند قراءتها أو سماعها؛ لأنها مُستمدّة من الطبيعة في مُجملها، تخدم مدحه للسعيد بركة من جهة، وتبيّن فضل الصّهارة على قلاوون، في الصّدّاق الذي أنشأه بخصوص ذلك، إذ قال: "قلو كان اتّصالُ كُلِّ شيءٍ بحسب المتّصل به في تفضيله، لما استصلح البدرُ شيئاً من المنازل لنزوله، ولا الغيثُ شيئاً من الرياض لهطوله، ولا الذكرُ الحكيمُ لساناً من الألسنة لترتيبه، ولا الجوهْرُ الثمينُ شيئاً من التيجان لحلوله، لكن ليتشرّف بيتٌ يحلُّ به القمر، ونبتٌ يزوره المطر، ولسانٌ يتعوّد بالآيات والسُور، ونثارٌ يتجمل باللالئ والدُرر.." (1).

ويصف ما رآه في الحَمّام عند استدعائه صديقه لزيارته، منتقياً ألفاظاً بسيطةً تُغري المقصود، وتدفعه إلى تلبية النداء قائلاً: "وتطوفُ علينا بها الولدان.. يطلبُ كُلُّ منهم السّلام، وكان الواجبُ طلبُ السّلامة، وكيف لا وقد غدا كلُّ منهم أميرَ حُسنٍ، وشعره المنثور، وخاله العلامة" (2).

وتمتاز ألفاظه بالوضوح والبساطة -أيضاً- عند مدحه لقيم حَمّام الصّوفيّة، حيث قال: "إنَّ أبا الحجّاج يوسف ما برح لأهل الصّلاح مُتمّماً، وله جودة صناعةٍ استحقَّ بها أن يُدعى قيماً، كم له عندَ جسمٍ من مَنّ جسيم، وكم أقبل مُستعملوه ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾" (3).." (4).

وتتألّف الألفاظ الرقيقة لتقدّم للقارئ صورةً جميلةً لفصل الربيع، وكيفية احتفال مظاهر الطبيعة بحلوله، حيث قال الكاتب: "والأغصانُ قد اخضرَّت نباتُ عارضِها، ودنانيرُ الأزهارِ ودراهمُها وقد تهيّأت لتسليم قابضها، والمنثورُ وقد نُظِمَت قلائدهُ وصيغت ولأئدهُ، والحوْرُ وقد جاوز السّها بالتّباشير والسرور.." (5).

وعلى الرّغم من اتّسام معظم الرسائل الوصفية بالبساطة والوضوح، إلا أنّ الناظر في مقدّمة رسالة الكاتب التي يصف فيها الحيات، يلمس شيئاً من الغموض

¹ انظر فيما سبق، ص 204.

² انظر فيما سبق، ص 216.

³ سورة المطففين، آية 24.

⁴ انظر فيما سبق، ص 223.

⁵ انظر فيما سبق، ص 248.

والخلل في كَيْفِيَّةِ الرَّبْطِ بين الألفاظ، مع الحاجة إلى تفسير بعض منها، إذ قال: "تروغ للمراعي والمراعي، وتستمع منها السَّهام المنية قعاقع بتراكيش الأفاعي"⁽¹⁾. وفي بعض الأحيان قد تكون الألفاظ بسيطة وواضحة لدى المتلقي، إلا أنه ينفر منها؛ إذا ما تألفت لتُشكِّلَ صورةً بذينةً لشيءٍ ما، وهذا ينطبق تماماً على الرسالة الهجائية، التي عرَّضَ فيها الكاتب بالوطواط الكتبي، وذلك أنه استخدم ألفاظاً بسيطة -لا تحتاج إلى أعمال الفكر لتفسير معناها- في رسم صورة سيئة له تترك أثراً سيئاً في نفس القارئ والسامع، حيث قال: "وأنا فكَّرنا في بعض ذوات الأجنحة، خبيث، حقير السمات، أسود الوجه والقفا والصفات، لا يألف إلا قبور الأموات، ولا يسعى إلا في الظلم والظلمات، ذو أذنٍ ناتئة وما هذه الصفة من صفات الطيور، وإنه يولد والطيور لا يُعرَف منها إلا أنها تحضن بيضها في أعشاشها والوكور، وإنه لا يقع في الشباك ولا في الفخوخ، وإنه يمني كما يمني الرَّجُل وليس مِنَ الإنس، وإن كان شيطاناً فهو ممسوخ..⁽²⁾".

ونظراً للثقافة الواسعة التي يتمتع بها كُتَّابُ الإنشاء آنذاك؛ كانوا يُضَمِّنُونَ نصوص إنشائهم لمحا من تلك الثقافة، فيعمدون إلى إظهار ثقافتهم الدينية، عن طريق استحضار بعض الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والإشارة إلى بعض الأحداث، ويستحضرون شيئاً من المصطلحات النحوية، والصرفية، لإظهار ثقافتهم اللغوية، إلى غير ذلك من الإشارات التي تدلُّ على اتساع ثقافتهم، وهذا ما أشار إليه ابن الأثير في أثناء حديثه عن آلات علم البيان التي يجب توافرها في شخص الأديب، سواء أكان ناثراً أم ناظماً، حيث قال: "النوع الأول: معرفة اللغة العربية من النحو والتصريف. النوع الثاني: معرفة ما يحتاج إليه من اللغة وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشي الغريب، ولا المستكره المعيب. النوع الثالث: معرفة أمثال العرب وأيامهم، ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بأقوام فإن ذلك جرى مجرى الأمثال أيضاً. النوع الرابع: الاطلاع على تأليفات من تقدّمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منه والمنثورة، والتحفُّظ للكثير

¹ انظر فيما سبق، ص 247.

² انظر فيما سبق، ص 226.

منه. النوع الخامس: معرفة الأحكام السلطانية والإمامة، والإمارة، والقضاء، والحسبة، وغير ذلك. النوع السادس: حفظ القرآن الكريم والتدرب باستعماله وإدراجه في مطاوي كلامه. النوع السابع: حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي، والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال. النوع الثامن: وهو مختص بالناظم دون الناثر، وذلك علم العروض والقوافي، الذي يُقام به ميزان الشعر⁽¹⁾.

ويبدو أن إيراد الأمور السابقة في النصوص المختلفة -سواء أكانت منثورة أم منظومة- لا يمكن المتلقي الذي يتسم بمحدودية الثقافة من سبر أغوارها، إلا إذا عاد إلى كتب التاريخ، فيما يخص الحوادث التاريخية، أو كتب الدين، إن كانت دينية، إضافة إلى مراجعة كتب اللغة فيما يخص المصطلحات النحوية والصرفية، وهكذا يفعل مع بقية الأمور.

والناظر في رسالة ابن عبد الظاهر التي هجا فيها عائشة، يجدها ملأى بالأحداث التي تعود إلى أيام الجاهلية والإسلام، كما أنها لا تخلو من ذكر أسماء بعض الأشخاص الذين ينتمون لتلك الفترات، مما يشكل صعوبة على من أراد تحليلها، إذ يتكلف عناء العودة إلى الكتب المختلفة وتقليبها؛ ليحصل على قصة تلك الأحداث كاملة، حتى يتمكن من تكوين الفكرة النهائية التي رمى إليها الكاتب في تلك الرسالة، ومنها قوله مخاطباً الشخص المقصود: "أو أنك تعتقد أنني من شيعة أبي كامل، أو أنني أتفقت أنا وابن ملجم على تلك الغوائل، أو أنني من الطالبين بشار الدار إذا جدّ الوهل، أو أنني كنت مع بني ضبة في يوم الجمل، أو أنني تأولت في قتل عمار بن ياسر ذلك التأويل السقيم، أو أنني كنت من جملة من رفع المصاحف لطلب التحكيم، أو استبرأت عقل أبي موسى الأشعري بالمشاورة، أو خدعته لخلع الرجلين في المشاورة، أو اتبعت عبد الله بن وهب الراسبي في جمعه، أو ناظرت عبد الله بن عباس لما حضر لمناظرته على صنعه، أو ساعدت معاوية بن حديج

¹ ابن الأثير، المثل السائر، 29/1.

على فعله، أو أشرتُ على معاوية بإنفاذ بُسر بن أرطاة إلى المدينة حين لا عهدَ لها بمثله..⁽¹⁾.

وقد ضمّنَ بعضاً من رسائله مصطلحات نحويّة وصرفيّة على سبيل التّورية، منها رسالة اقترحَت عليه، قال فيها: "حرسَ الله نعمة مولاي! ولا زال كَلِمَ السَّعد من اسمه، وفِعله، وحرف قلمه يأتلف، ومُنَادى جُوده لا يُرَخَّم، وأحمد عيشه لا ينصرف، ولا عدمَ مُستوصل الرزق من براعته التي لا تقف الوصل...⁽²⁾، ولا عدمت نحاة الجود من نواله كلّ موزونٍ معدود، ومن فضله وظلّه كلّ مقصورٍ وممدود، ولا خاطبت الأيامُ مُلتَمسه إلا بلام التوكيد، ولا عدوّه إلا بلام الجحود، هذه المفاوضةُ إليه أعزّه الله! تفهمه أنا بلغنا أن فلانا أضمر سيّدنا له فعلاً، غدا به مُنتصياً للمكاييد ومُعْتلاً وليس موصولاً كالذي بِصِلَة وعائد، وما ذاك إلا لأنّ معرفتها داخلها التّكرير، وفدّرَ لها من الاحتمالات أسوأ التّقدير، ونعوت صحبته تكرّرت فجازَ قطعها بسبب ذلك التّكرير، وسيّدنا يعلم بالعلمية المدكون من الإنافة، وما لإضافته إلى جلالته من الانتماء الذي يجب أن يكون لأجله عيشه به خَفْضاً على الإضافة، وكان الظَّنُّ أنّ الأشغال التي جُمِعت له لا تكون جمع تكسير بل جمع سلامة، وآية لا تكلف تعليمها على وصول، لأنّه في الديوان كالْحَرْف لا يُخْبَر به ولا عنه، والحرف ليس له علامة، وحاشَ لله! أن يصبح مُعَرَّبُ إحسانِهِ مَبْنِيّاً، وأنّ نزيلَ كرمه يكون للنّكراتِ بأيّ محكيّاً، أو أن يأتي سيّدنا بالماضي من الأفعال في معنى الاستقبال، أو أن يجعل بدل غلظه الإبدال للاشتغال، أو يُدغم من مودّته مُظهِراً، أو أنّه لا يجعل لمبتدأ محبّته مُخْبِراً، أو أن لا يكون له من أبنية تدبير سيّدنا مَصْدَراً، ولا برحَ سيّدنا نسيجَ وحده في أموره! ولا زالَ حِلْمُهُ يتناسى الهفوات، لا يشتغل مفعوله عن فعله بضميره"⁽³⁾.

فعلى الرغم من بساطة موضوع الرسالة السابقة -التمثّل بمحاولة التأثير بالمرسل إليه، ودفعه إلى العفو عمّن أساءَ لِشَخْصِهِ- إلّا أنّ استحضار الكاتب للمصطلحات اللغويّة المختلفة، وإكثاره منها، جعلها تبدو غاية في الغموض والتّعقيد.

¹ انظر فيما سبق، ص 237.

² بياض في الأصل.

³ القلقشندي، صبح الأعشى، 176/1-177.

ومن الأمثلة على استخدامه لتلك المصطلحات، قوله في الجواب الذي بعثه عن الظاهر ببيرس لآفسنقر بسبب فتح النوبة: "واشتبه يوم النصر بأمره بقيام حروف العلة مقام بعض، فأصبح غزو كنيسة سوس كغزو سيس"⁽¹⁾.

وقوله في جواب التعزية الذي بعث به إلى صاحب اليمن عن المنصور قلاوون: "ولنا بحمد الله - ذرية ذرية.. ما منهم إلا من نظر سعدة، ومن سعدة ينتظر، ومن يحسن أن يكون المبتدأ وأن تسدّ حاله بكفالاته وكفايته مسدّ الخبر"⁽²⁾.

وقوله في الإهداء الذي بعث به إلى جماعة الكتاب: "وقلت: إذا كان المبتدأ معرفة فلا يضرّ تكرير الخبر"⁽³⁾، وفي هجائه لعائبه: "وكيف لا يدخل عليك الاعتلال، وأنت وأخوك وأبوك وفوك وكلّ معتلّ وذو مال"⁽⁴⁾.

وقد يؤدّي إطناب الكاتب في رسالته إلى تشتيت القارئ، وعدم مقدرته على ضمّ الأحداث إلى بعضها بعضاً؛ ممّا يساهم في ضياع خيوط الفكرة الرئيسة من ذهنه، وهذا ما يلمح في رسالة ابن عبد الظاهر لجماعة الكتاب، فطول الرسالة، والإكثار من الضمائر التي تعود على الغائب البعيد، ونسجه لها على نمط المقامات، حيث الإغراق في الخيال، وتعدّد الشخصيات، يجعل المرء يشعر بغموضها، فما أن ينتهي من بعض فقراتها حتى يعود إلى البداية؛ محاولاً ربط الأحداث للخروج بفكرة ما، ومنها قوله: "أطال الله بقاء الموالي السادة، ولا زالت سماء الدولة محروسة بشهب أقلامهم، ومواسم السعادة مختالة بشريف أيامهم، ونحور العلياء متزيّنة بتضيد نظامهم، ورياض البلاغة معلّمة الأطراف والبرور بما تحوكة غنائمهم، إذا غدت رفيعة الهضاب، وأضحت في أعلى سمك السماك مضروبة القباب، وأحنى منال الشمس دون منالها، وعظم توهم إدراكها حتى أمست ولا الحلم وجود بها ولا بمثالها، استحقر في جانب شرفها كلّ جليل، واستدرّ بجودها كلّ جزيل، واستقلّت الرياض أن تهدي إلى جنبها زهراً، والسحائب أن ترسل إلى بحرها قطراً... واستحى كلّ فوقف موقف الإجلال، وأنتهى من التبجيل إلى حدّ كاد يبلغ به الإخلال،

¹ انظر فيما سبق، ص 188.

² انظر فيما سبق، ص 209.

³ انظر فيما سبق، ص 219.

⁴ انظر فيما سبق، ص 233.

إلى أن تعارضت أدلة الرسائل، وتزاحمت الغريبان على ورود تلك المناهل، فقلّبت المملوك وجهه في سماء سماتها، وأسام فكره في أريض روضاتها قائلاً للجوهر الفاخر: أنت قريب العهد من تلك البحار، وللنضار: أنت بعض هاتيك النسمات، وللعبير: لا تقل أنا ضائع نعم عند شذا تلك النفحات.. فحار كل جواباً، وغدا لا يملك خطاباً، وأبى مشاكلة تلك الفضائل، واستسقى سحائب تلك البلاغة التي إذا قالت لم تترك مقالاً لقائل، والإصغاء إلى أوصافها والتسليف على سلافها، فشغف بها حباً، وصار بمحاسنها صَبّاً، ودعاه إليها جمالها البديع، وأغراه بحسنها الذي لها منه أكرم شفيح.. فسام وصالها ﴿فَأَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾⁽¹⁾ ورام قريبها، فسدّ عليه الإجلال أبواب مطالعه ومطالبه، قائلاً: لست يا ابن السبيل من هذا القبيل⁽²⁾، والمتابع للرسالة برُمّتها يلمس ذلك.

وما يُراد التوصل إليه ممّا سبق، أنّ محيي الدين بن عبد الظاهر لجأ في معظم رسائله إلى اقتناص الألفاظ البسيطة الواضحة، التي لا تحتاج إلى إعمال الفكر من أجل فهمها، وهذا ما يلمح في رسائله السياسية، والإدارية، والحربية خاصة؛ وذلك لأنها تفرض عليه التقيّد بأسس كتابتها، فلا تُمكنه من إظهار قدراته الإبداعية جميعها، كما أنّ ذلك يلمس في رسائله المتنبّية، مع وجود بعض الشواذ، أضف إلى ذلك أنه عمد إلى توظيف الألفاظ وتآلفها في خدمة المضمون المراد.

وعلى الرغم من سهولة ألفاظه وبساطتها ووضوحها، إلا أنّ إيرادها في سياق مُعيّن، قد يجعل المرء يشعر بتعقيدها وغموضها عند تضمين الرسائل شيئاً من الإشارات والمصطلحات التي تدلّ على سعة ثقافته خاصة، أو تلوينه في أساليب الخطاب، وانتقاله بين الضمائر المختلفة، بعد حين من الإطناب.

3.1.4 الصورة والخيال

يعدّ الخيال الأداة الرئيسة لتكوين الصورة؛ وذلك لأنه يُتيح المجال أمام الأديب لتفكيك المعاني غير المحسوسة، في ذهنه، ومن ثمّ يدفعه إلى العمل على إعادة

¹ سورة فصلت، آية 51.

² انظر فيما سبق، ص 216-218.

تركيبها، باستخدام الألفاظ المختلفة، التي تتألف مع بعضها بعضاً؛ لتساهم في تقديم تلك المعاني تقديماً حسياً، وتشكيلها على نحوٍ تصويريٍّ جديد⁽¹⁾.

وقد تنافسَ كُتَّابُ العصر المملوكيِّ -غالباً- في ابتداعِ الصُّور الجديدة، ولا غروَ في ذلك؛ إذ كانَ مقياسُ المفاضلة بينهم آنذاك قائماً على مقدرة الأديب على تضمين كتاباته عدداً من الصُّور المُبتكرة، الدَّالة على صفاء الذَّهن وقوَّة الخيال، إضافةً إلى تزيينها بأنواع البديع المختلفة.

وكان محيي الدين بن عبد الظاهر من أوائل الكُتَّاب الذين لجأوا إلى ابتداع الصُّور وابتكارها في ذلك العصر، ناهجاً نهجَ مَنْ سبقوه من كُتَّاب العصر الأيوبيِّ البارزين، كالقاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وغيرهم.

فقد بثَّ الكاتبُ في طَيَّاتِ رسائله السَّابقة عدداً لا بأس به من الصُّور بأنواعها المختلفة، معتمداً في تشكيلها على مصادر متعدِّدة، من أهمِّها القرآن الكريم، فكان يورد بعض آياته كاملة أحياناً، ويقتطف شيئاً منها أحياناً أخرى.

ومن الأمثلة على ذلك قوله في عهد السعيد بركة: "ونصليَّ على سيِّدنا محمد الذي أطلع الله به نجمَ الهدى، وأوضح به مناهجَ الدين وكانت ﴿طَرَائِقُ قِدْدَا﴾⁽²⁾»،⁽³⁾ فالكاتبُ يبيِّنُ فضلَ الرسول -صلى الله عليه وسلّم- في جمع آراء النَّاس، وضمِّهم تحت راية الإسلام، بعدَ اختلافهم في الآلهة، واعتناق الأديان.

وقوله في عهد الأشرف خليل في أثناء إشارته إلى ضرورة تطبيق الشرع وإحقاق الحقِّ والابتعاد عن الباطل: "والشرُّعُ الشَّريف، فهوَ قانونُ الحقِّ المُتَّبَع.. وهوَ جَنَّةٌ والباطلُ نارٌ ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾⁽⁴⁾»⁽⁵⁾.

¹ انظر: ناصف، مصطفى، الصورة الأدبيَّة، (د.ط)، دار الأندلس، بيروت، (د.ت)، ص 18، وصالح، بشري موسى، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، ط 1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994م، ص 21.

² سورة الجن، آية 11.

³ انظر فيما سبق، ص 48.

⁴ سورة آل عمران، آية 185.

⁵ انظر فيما سبق، ص 61.

وقوله مصوراً هيئة الأعداء وهم يُقاتلون، في الرسالة التي أنشأها لبهاء الدين ابن حنّا، واصفاً فيها رحلة الجيش الفاتح لقيسارية: "وصاروا مع عدم ذكر الله بأفواههم وقلوبهم يُقاتلون ﴿فَيَمَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ (1)» (2).

وقوله عن الخطباء في تلك المدينة: "وبها خطباء ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ (3)» (4). وقوله في أثناء إشارته إلى خلوّ حصن الأكراد من الناس، عند مهاجمة الجيش الفاتح له: "فَوُجِدَتْ أرباضه جميعها من الذعر ﴿خَاوِيَةً عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ (5)» (6). وتصويره لأسرى المغول، الذين ساقهم قلاوون معه، في أثناء عودته إلى دياره: "وثنى مولانا السلطان العنان، وملوك المغل الأسارى يُساقون بين يديه ﴿سُكَّارَى وَمَا هُمْ بِسُكَّارَى﴾ (7)» (8).

وقوله في جواب التعزية الذي بعث به عن المنصور قلاوون لصاحب اليمن؛ بسبب وفاة الصالح علاء الدين علي: "وإن كان الولدُ عمل أبيه فقد رفع الله روح ولدنا في أعلى عليين - تحقق أنه العملُ الصالح ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (9)» (10). وتصويره لحسن هيئة مُرتادي حمّام الصوفيّة، قائلاً: "وكم أقبل مُستعملوه ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (11)» (12).

وفي بعض الأحيان، لجأ الكاتب إلى استحضار شيء من عبارات القرآن الكريم لتشكيل صورته، دون إيراد الآيات بنصّها الكامل، ومن ذلك قوله على لسان قلاوون لابنه علاء الدين علي، حين أوكّل إليه ولاية العهد: "وازدد بالاسترشاد بآرائنا نوراً على نور" (13).

¹ سورة آل عمران، آية 191.

² انظر فيما سبق، ص 139.

³ سورة الفرقان، آية 44.

⁴ انظر فيما سبق، ص 151.

⁵ سورة البقرة، آية 259.

⁶ انظر فيما سبق، ص 170.

⁷ سورة الحج، آية 2.

⁸ انظر فيما سبق، ص 176.

⁹ سورة فاطر، آية 10.

¹⁰ انظر فيما سبق، ص 209.

¹¹ سورة المطففين، آية 24.

¹² انظر فيما سبق، ص 223.

¹³ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، سورة النور، آية 35. انظر النص فيما سبق، ص 56.

وقوله مصوراً ارتفاع حصن الأكراد: "وعلا في الهواء، فلا بَصَرَ يَلْمَحُهُ إِلَّا وينقلب خاسئاً ويرتدُّ" (1) (2).

وقوله عن الخمر والحشيش: "وأنها لما أخرج المنع عنها ماءها من الخمر، أخرج لها من الحشيش مرعاها" (3) (4).

وقوله عن قِيمَ الحمام الذي استدعى إليه صديقه: "وحَسُنَ صنْعُهُ فلا يُمَسِكُ يداً إلا بمعروف، ولا يسرِّح تسريحاً إلا بإحسان" (5) (6).

وقوله عن الحمام الرِّسائلي: "وكم أدَّت أمانة، ولم تعلم أجنتها بما في شِمالها، ولا شِمالها بما في يمينها، كم التفت منها السَّاقُ بالسَّاق، فأحسنت لربِّها المَساق" (7) (8).

وقوله في تصوير عدم مبالاته بقول عائبه: "وما مُبالاتي بما تقوله إلا مبالاة آدم بعدم سجود إبليس" (9)، ولا ضرر منك إلا ضرر الصرح المُمرَّد من قوارير بوطء بلقيس (10) (11).

ويُعَدُّ الحديثُ النبويُّ الشريفُ المصدرُ الثاني الذي اعتمد عليه الكاتب في رسم صورهِ وتشكيلها، إلا أنه لم يلجأ إليه إلا في القليل النادر، إذ طغى القرآن الكريم على مصادر الصُّور المبنوثة في ثنايا رسائله جميعها، ومن الأمثلة على استخدامه

¹ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾، سورة الملك، آية 4.

² انظر فيما سبق، ص 169.

³ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، سورة النازعات، آية 31.

⁴ انظر فيما سبق، ص 197-198.

⁵ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾، سورة البقرة، آية 229.

⁶ انظر فيما سبق، ص 215.

⁷ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾، سورة القيامة، آية 29، 30.

⁸ انظر فيما سبق، ص 245-246.

⁹ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، سورة البقرة، آية 34.

¹⁰ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾، سورة النمل، آية 44.

¹¹ انظر فيما سبق، ص 231.

له قوله في عهد الصالح علاء الدين علي في أثناء إصدار أمر السلطان بصيغته الرسمية: "ولاية واستخلافاً تُسندُهُما الرواة، وتترنم بهما الحداة، وتعيهُما الأسماع، وتنطق بهما الأفواه، تفويضاً يُعلن لكافة الأمم، ولكل رب سيفٍ وقلم، ولكل ذي علم وعلم، بما قاله -صلى الله عليه وسلم- لِسَمِيهِ -رضي الله عنه- حين أولاه من الفخار ما أولاه: "مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ" (1) (2).

وقوله مصوراً فضل الصَّهارة على قلاوون: "وأشرفها عبوديَّة كَرَّمَت سِلْمَانَهَا بأن جعلته من أهل البيت" (3) (4).

ويعدُّ التراث الأدبيّ مصدراً ثالثاً من مصادر الصورة عند محيي الدين بن عبد الظاهر، إذ إنه لجأ إلى استحضار كثيرٍ من الأبيات الشعرية وعباراتها، وبثّها في ثنايا رسائله المختلفة، كما أنه استحضر شيئاً من الأمثال الموروثة.

ومن الأمثلة على ذلك قوله في أثناء حديثه عن ملك الغرب: "فبَارِقَةٌ يُضِيءُ لَدَيْهِ الْحَالِكُ، وَبَلَمَحَةٍ يَهْتَدِي بِحَيْثُ اهْتَدَتْ أُمُّ النُّجُومِ الشَّوَابِكُ" (5) (6).

وقوله في أثناء حديثه عن الجيش في رحلة فتح قيسارية: "فَبِتْنَا بِهَا وَخَيُولُنَا مَبْثُوثَةٌ فَوْقَ الْأَحْيَدِيبِ، كَمَا نَثَرَتْ الدَّرَاهِمُ فَوْقَ الْعُرُوسِ" (7) (8).

وقوله شاكراً الله -عز وجل- لتمكين آقسنقر من فتح النوبة وإذلال ملكها وإزهاق أهلها: "وَالشُّكْرُ لِلَّهِ عَلَى إِذْلَالِ مُلْكِهِمُ الَّذِي لَانَ وَهَانَ، وَأَذَالَهُ بِأَسْأَةِ الَّذِي صَرَّحَ بِهِ شَرُّ كُلِّ مِنْهُمْ فِي قِتَالِهِ فَأَمْسَى وَهُوَ عُرْيَانٌ، وَإِزْهَاقِهِم بِالْأَلْسِنَةِ الَّتِي غَدَا طَعْنُهُمْ كَفَمَ الزُّقِّ غَدَا وَالزُّقُّ مَلَّانٌ" (9).

¹ الترميذي، سنن الترمذي، 633/5.

² انظر فيما سبق، ص 55.

³ إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "سلمان ميثاً أهل البيت"، ويقصد سلمان الفارسي، التيسابوري، المستدرك على الصحيحين، 691/3.

⁴ انظر فيما سبق، ص 205.

⁵ عجز بيت لتأبط شراً، وصدرة: "يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي"، أبو تمام، ديوان الحماسة، ص 39.

⁶ انظر فيما سبق، ص 69.

⁷ إشارة إلى قول المتنبي:

نثرتهم فوق الأحديب نثره كما نثرَت فوق العروس الدَّراهمُ

ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، ص 378.

⁸ انظر فيما سبق، ص 135.

⁹ إشارة إلى قول الفند الزماني: فلماً أصبح الشَّـرُّ فأمسى وهو عُرْيَانٌ =

واستخدمَ المثل في تشكيل صورته الآتية، التي يتحدّث فيها عن السلطان في أثناء رحلة فتح قيسارية: "فنزل في وادٍ به مرعى ولا كالسعدان⁽¹⁾، ومرأى ولا كشعب بوآن"⁽²⁾.

وفي قوله على لسان السلطان في أثناء تقليد بهاء الدين بن حنا الوزارة: "فكما كان والدنا الشهيد رحمه الله - يخاطبه بالوالد قد خاطبناه بذلك، وخاطبناه، وما عدنا عن ذلك.. لأنه ما ظلمَ مَنْ أشبه أباه⁽³⁾"⁽⁴⁾.

وقوله عند تكليف تقي الدين بن تاج الدين بتدريس المدرسة الصلاحية: "فالحمدُ لله على أن أعطى قوس ذلك المحراب باريها⁽⁵⁾"⁽⁶⁾.

وقد استقى الكاتب من الطبيعة بنوعيتها: الصائتة والصامتة معظم صورته المتناثرة في رسائله السابقة، ومن الأمثلة على ذلك تصويره السعيد بركة خان بالشبل، وتصويره الظاهر بيبرس بالأسد، حيث قال في رسالة تقليد بهاء الدين بن حنا الوزارة: "والله تعالى يزيد المجلس صاحبي، الوزير، البهائي، سيّد الوزراء من فضله، ويُبقيه لِغابِ هذه الدولة، يصونه لشبله، كما صانه لأسده من قبله"⁽⁷⁾.

وتصويره المسلمين بالأسود، وقت هجومهم على الأعداء قائلا: "واقترنت أساد المسلمين المشركين اقتناصاً"⁽⁸⁾.

وتصويره أعداء المسلمين بالنسور، والأسود في أثناء حديثه عن فتح طرابلس، حيث قال: "وأخلى الله من نسورهم الأوكار، ومن أسودهم الأجم"⁽⁹⁾.

= ولم يبقَ سوى العدوا
وطعن كُفْمَ الزَّقْ
ن دَبَّاهُم كَمَا دائوا
غَذَا والزَّقْ مَلَّانْ

أبو تَمَّام، ديوان الحماسة، ص 30. انظر النص فيما سبق، ص 189.

¹ الميداني، مجمع الأمثال، 276/2-277.

² انظر فيما سبق، ص 157.

³ "من شابه أباه فما ظلم"، الميداني، مجمع الأمثال، 300/2.

⁴ انظر فيما سبق، ص 110.

⁵ أعطى القوسَ باريها"، الميداني، مجمع الأمثال، 19/2.

⁶ انظر فيما سبق، ص 123.

⁷ انظر فيما سبق، ص 111.

⁸ انظر فيما سبق، ص 164.

⁹ انظر فيما سبق، ص 179.

وتصويره لهم مرة أخرى- في أثناء فتح حصن الأكراد بالصقور، حيث قال:
"تنقض من غشه صقور الأعداء الكاسرة"⁽¹⁾.

وتصويره بروج الحصن المذكور بالمطايا: "وتكادُ بروجُهُ تُرى كالمطايا
المقطرة"⁽²⁾.

كما أنه صورَ أفعى الصلّ بالضّيغم، عندَ انقضاها على فريستها ونهشها لها،
إذ قال: "من كلّ صلّ يفترسُ افتراسَ الضّيغم"⁽³⁾.

وبعدَ الانتهاء من التمثيل على مظاهر الطبيعة الصائتة التي استقى منها الكاتب
بعض صوره، لا بدّ من التمثيل على مظاهر الطبيعة الصامتة، ومنها قوله مصوراً
العدل: "والعدلُ فهوَ الغرسُ المثمر، والسحابُ الممطر، والروضُ المزهر"⁽⁴⁾.

وقوله مصوراً الأشخاص الخاضعين لحكم الدولة المملوكيّة بالشموس، والبدور
والشهب: "وكلّ من يدخل في حكم هذه الدولة الغالبة من شموسيها المضيئة، وبدورها
المنيرة، وشهبها الثاقبة"⁽⁵⁾.

وقوله مصوراً سرعة نزول خيل المسلمين من فوق الجبل وكثرتها: "فانصبّت
الخيال إليهم من أعلى الجبل انصبابَ السيل"⁽⁶⁾.

وتصويره الناصر محمد بالكوكب، حيث قال: "الحمدُ لله الذي زيّن سماء
المملكة بأنور كوكب بزغ"⁽⁷⁾.

وتصويره إياه مرة أخرى بالنجم: "وطلع في سماء السلطنة نجماً ما للنيرين ما
له من الإضاءة، ويزيد عليهما بحسن الوضاءة"⁽⁸⁾.

وتصويره السعيد بركة في الصّدّاق الذي أنشأه له بالقمر والمطر، حيث قال:
"لكن ليتشرّف بيتٌ يحلُّ به القمر، ونبتٌ يزوره المطر"⁽⁹⁾.

¹ انظر فيما سبق، ص 184.

² انظر فيما سبق، ص 185.

³ انظر فيما سبق، ص 247.

⁴ انظر فيما سبق، ص 46.

⁵ انظر فيما سبق، ص 109.

⁶ انظر فيما سبق، ص 138.

⁷ انظر فيما سبق، ص 200.

⁸ انظر فيما سبق، ص 200-201.

⁹ انظر فيما سبق، ص 204.

وتصويره لمعان موسى -التي يستخدمها قيّم الحمّام في إزالة الشعر-
بالصباح، والشعر بالظلام؛ نظراً لسواد لونه، إذ قال: "بيده موسى كأنّها صباح ينسخُ
ظلاماً"⁽¹⁾.

أمّا المداد الأسود الذي أهده ابن عبد الظاهر لجماعة الكتّاب، فقد صوّره مرّةً
بالليل، ومرّةً بخافية الغراب، ومرّةً بلون الشعر أيّام الشباب، حيث قال: "وأهديتُ
إليها ليلاً من المداد.. وجعلته كخافية الغراب، وكشعار الشعر أيّام الشباب"⁽²⁾.
وصوّر الخيل -أيضاً- مرّةً بالنجم ومرّةً بالشفق، وفقاً للونها، قائلاً: "من كلّ
أشقر كأنّه النجم السريع لا البطيء، وكلّ أحمر كالشفق"⁽³⁾.

كما أنّ الكاتب استخدم مظاهر الحضارة المختلفة في تكوين صوره وتشكيلها،
فصوّر بهاء الدين بن حنا بالمراب، والسحاب، والباب، قائلاً: "وكم بيوت عبادة
صاحب هذه البركات هو محرابها، وسماء جود هو سحابها، ومدينة علم هو
بابها"⁽⁴⁾.

وصوّر تقي الدين بن تاج الدين بن بنت الأعزّ بواسطة القلادة، حيث قال:
"ليجمل منه بذلك العقد الثمين من علماء الدين بأفخم واسطةٍ تفخر بها تلك القلادة"⁽⁵⁾.
وصوّر الجبال المحيطة بقرية ريّان بالأسوار مرّةً، وبالسّوار مرّةً أخرى:
"وتطوفُ بهذه القرية جبالٌ كأنّها أسوار، بل سوار"⁽⁶⁾.

وصوّر الأمطار بالتيجان قائلاً: "ورحّلنا في يوم الأحد.. وكانت السماء قد
حيّت الأرض بتيجانٍ أمطارها"⁽⁷⁾.

وصوّر الحجارة الحمراء -التي بُنيَ منها خان قرطاي- بالرخام، قائلاً: "كلّه
مبنيٌّ بالحجر المنحوت المصقول الأحمر، الذي كأنّه رخام"⁽⁸⁾.

¹ انظر فيما سبق، ص 215.

² انظر فيما سبق، ص 222.

³ انظر فيما سبق، ص 242-243.

⁴ انظر فيما سبق، ص 108.

⁵ انظر فيما سبق، ص 124.

⁶ انظر فيما سبق، ص 144.

⁷ انظر فيما سبق، ص 144-145.

⁸ انظر فيما سبق، ص 147.

وصورَ البحر بالجلباب، والسحاب بالخمار في أثناء حديثه عن طرابلس، حيث قال: "إذ البحرُ لها جِلْبَاب، والسحاب لها خِمار" (1).

وصورَ بدر الدين بيدرا بالحُسام: "فالحمدُ لله الذي عضدَّ هذا المَلِك من مولانا بخيرٍ مَنْ دَبَّرَه، وحماه منه بأقطع حُسام جرَّده الله لنقضٍ ما أمره" (2).

كما أنَّه صورَ آراء الأمير المذكور بالأقفال، وسيوفه بالمفاتيح: "وأمتع الله سلطاننا من مولانا بمن آراه أفعال الممالك، وسيوفه مفاتيح الحصون" (3).

وصورَ اللهب المحيط بأركان الجامع الأموي بالأحزمة الذهبية: "إذ تمنطقت أركانهُ مِنَ اللهب بمناطق الذهب" (4).

وقد اعتمدَ ابنُ عبد الظاهر كبقية الكتاب آنذاك على عنصر التشخيص في بناء بعض صورهِ، فأضفى على المعنويات والماديَّات شيئاً من صفات الإنسان، فالإيمان له وجه في قوله: "هذه المكاتبُ تتحدَّثُ بنعمة الله التي تهلَّل لها وجه الإيمان" (5)، والسعادة لها عيون: "وجاءها بنفسِهِ النفيسة، والسعادة قد أحرسَتْ عيونَهَا" (6)، ويتحوَّلُ الاعترافُ إلى شخصٍ يستطيع الكلام، والعُرفُ كذلك الأمر: "فقال الاعترافُ: هذا ما تصدَّق، وقال العُرفُ: هذا ما أصدق مولانا السلطان" (7).

والمعاقلُ المفتوحةُ تتحوَّلُ إلى شخصٍ له نواجذ ومراشف: "والثغور، فهي للممالك مباسمها، فاجعل نواجذها تفتُرُ عن أحسن ثنايا الصَّوْن، ومراشفها شَنِبة الشِّفاء بحُسنِ العَوْن" (8)، والأزهارُ تتبسَّم والغدرانُ تُقهقه: "ومررنا على مدينة دلوک، وهي رسوم سُكَّانِها، ضاحكة عن تبسُّم أزهارها، وقهقهة غدرانها" (9)، والمعاولُ لها صوت كالإنسان، والأعلام لها ألسن: "فما مضى إلا بقدر ما جرَّدت السيوفُ مِنَ الأغماد، أخذت المعاول في العويل على أهل الإلحاد، ونطقت ألسنُ الأعلام بالنصر

¹ انظر فيما سبق، ص 180.

² انظر فيما سبق، ص 190.

³ انظر فيما سبق، ص 190.

⁴ انظر فيما سبق، ص 254.

⁵ انظر فيما سبق، ص 165.

⁶ انظر فيما سبق، ص 180.

⁷ انظر فيما سبق، ص 206.

⁸ انظر فيما سبق، ص 62.

⁹ انظر فيما سبق، ص 133.

المُبين⁽¹⁾. ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قوله عن حصن الأكراد: "ولساعة نزولنا بساحته، ومُصافحتنا بالصِّفاح مبسوطاً راحتته"⁽²⁾، وقوله في أثناء حديثه عن مشاركة مظاهر الطبيعة المختلفة للأفراد آنذاك في ذعرهم من المغول وخشيتهم من بطشهم: "وكادت قلبها قلوبُ الجبال أن تتصدَّع، ودموغُ السَّحائب أن تتشرَّع، وأكبادُ البيد أن تتقطع"⁽³⁾، وفي إسقاطه الصِّفات الأنثويَّة على طرابلس: "وكانت طرابلس هي ضالَّة الإسلام الشَّريفة.. وكلَّما مرَّت شمخت بأنفِها، وتأنَّقت في تحسين منارةٍ منازلها وتزيين ريحانها وعصفيها، ومرَّت وهي لا تُغازل ملكاً بطرفيها"⁽⁴⁾، وقوله: "ونضالٍ أسهرَ كلَّ جفنٍ حتى جفون السيوف"⁽⁵⁾، وقوله: "وأنَّ الجماعة التي كانت ترضعُ ندي الكأس، عن ثديها ما فُطمت"⁽⁶⁾.

كما أنَّ الرماح والأقلام تتحاسد، ومطالع النوار ومشارك الأنوار تتنافس: "هذا كتابٌ مباركٌ تحاسدت رماحُ الخطِّ وأقلامُ الخطِّ على تحريره، وتنافست مطالع النوار ومشارك الأنوار على نظمِ سطوره"⁽⁷⁾، والشمسُ تخجل: "خرجنا إلى الصيد بجنود تملأُ السهلَ والجبل، وتستحيي الشمسُ منها فتستترُ في سحابها من كثرة الخجل"⁽⁸⁾، ويُضفي أفعال الإنسان وصفاته على عناصر الطبيعة التي تهالكت من أجل خدمة مرتادي الحمَّام: "تنافست العناصرُ على خدمة الحالِّ به.. فأرسلَ البحرُ ما جسَّده من جسده من زبده لتقبيلٍ أخصه، إذا قصَّرت همَّته عن تقبيلِ يده، ولم يرَ التُّراب له في هذه الخدمة مدخلا، فتطفَّل وجاء وما علم أنَّ التسريحَ لمن جاء مُتطفلاً، والنارُ رأت أنَّه عينٌ مباشرتها، وأنها بفرضِ خدمته لا تُخل.. فأعلمت ضدها الماء، فدخل وهو حرٌّ الأنفاس وغلَّت مراجله فلأجل ذلك داخله من تسكابه الوسواس، ورأى الهواء أنَّه قصرَ عن مطاولة هذه المبار، فأمسك مُتهيباً ينظر ولكن من خلف زُجاجة إلى تلك الدار، ثمَّ إنَّ الأشجار رأت أنَّها لا شائبة لها في هذه الخطوة، ولا مساهمة

¹ انظر فيما سبق، ص 168.

² انظر فيما سبق، ص 169.

³ انظر فيما سبق، ص 174.

⁴ انظر فيما سبق، ص 180.

⁵ انظر فيما سبق، ص 186.

⁶ انظر فيما سبق، ص 197.

⁷ انظر فيما سبق، ص 206.

⁸ انظر فيما سبق، ص 211-212.

في تلك الخلوة، فأرسلت من الأمشاط أكفأ أحسنت بما تدعو إليه الفرق، ومرّت على سواد العذار الفاحم كما يمرّ البرق⁽¹⁾، ويقولُ عنه وعن صُحبته في رحلته الطويلة التي طلب فيها البلاغة: "ولم نزل تارة نهوي هوي القشاعم، وننسبُ آونةً انسياب الأرقام، إلى أن انقطعت أنفاسنا وأنفاسُ الهوا"⁽²⁾، ويقول عن النيل: "كانَ ظهرَ بوجهه حُمرةً فهي ما يعرّض للمسافر من حرّ الشمس"⁽³⁾، وعنه وقت فيضانه وإخراجه للأراضي: "فقد وطئ بلادها بعسكره العجاج، وزاحم ساحاتها بأفواج الأمواج، فعَمِلَ فيها بذراعه"⁽⁴⁾.

ومن أبرز أنماط الصُّور التي وردت في رسائل ابن عبد الظاهر، الصورة البصريّة، التي يُضمّنُها -عادةً- اللون والحركة، ومن الأمثلة عليها قوله لحاكم أنطاكية وطرابلس، واصفاً مدى الخراب الذي أحلّه الجيش المسلم بأنطاكية: "وما شاهدته بعد رحيلنا من إخراب العمائر، وهدم الأعمار، وكيف كُنِسَتْ تلك الكنائس من على بساط الأرض، ودارت الدوائر على كُلِّ دار، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر، وكيف قُتِلَت الرّجال، واستُخِدِمَت الأولاد، وتُمَلَّكَت الحرائر، وكيف قُطِعَت الأشجار ولم يُترك إلّا ما يصلح لأعواد المجانيق - إن شاء الله - والسّتائر، وكيف نُهِبَتْ لك ولرعيّك الأموال والحريم والأولاد والمواشي..⁽⁵⁾ ولا يخفى ما للأفعال التي تضمّنّها هذه القطعة من دورٍ في بثّ الحركة بين جزيئات الصورة فيها.

ويظهرُ عنصرُ الحركة في الصورة البصريّة التي رسمها مصوراً من خلالها غابات الأشجار التي قطعوها في أثناء مسيرهم لفتح قيسارية، حيث قال: "وأخذنا في اختراق غابات أشجارٍ تُخفي الرّقيق عن رفيقه، وتُشغله عن اقتفاء طريقه، ينبري منها كُلُّ غصنٍ يُرسله المُتقدّم إلى وجه رفيقه، كما يخرجُ السّهمُ بقوةٍ من منجنيقه"⁽⁶⁾.

¹ انظر فيما سبق، ص 214-215.

² انظر فيما سبق، ص 221.

³ انظر فيما سبق، ص 250.

⁴ انظر فيما سبق، ص 252.

⁵ انظر فيما سبق، ص 97.

⁶ انظر فيما سبق، ص 134.

ويظهرُ عنصرُ اللونِ في قوله مصوِّراً هيئةَ الجيشِ المسلمِ في أثناءِ مشاهدةِ الأعداءِ له: "ولمَّا شاهدوا سناجقَ مولانا السلطانِ المنصورة، ومن حولها مِن المماليكِ الظاهريةِ، وعليهم الخوذُ الصفرُ المُقترحة، وكأنَّها في شعاعِ الشمسِ نيرانُ مُقْتَدِحَةٍ"⁽¹⁾، ويظهرُ اللونُ في قوله عن البرواناهِ الهاربِ: "وامتطى -هرباً- أشهبَ الصبحِ، وأحمرَ الشفقِ، وأصفرَ الأصيلِ، وأدهمَ الليلِ"⁽²⁾، ومن الصورِ التي جمعتِ اللونَ والحركةَ، قوله في أثناءِ حديثه عن موقعةِ عينِ جالوتِ: "ولم تزل أخبارُ المسلمينَ تنتقلُ إلى الكفارِ، وأخبارُ الكفارِ تنتقلُ إلى المسلمينَ، إلى أن خلطَ الصَّبَّاحُ فضَّتهِ بذهبِ الأصيلِ"⁽³⁾، وقوله في الموقعةِ ذاتها: "واقْتَنَصَتْ آسَادُ الْمُسْلِمِينَ الْمُشْرِكِينَ اقْتِنَاصاً، فلا روضةَ إلا دِرْعَ، ولا جدولَ إلا حُسامَ، ولا غمامةَ إلا نَقَعَ، ولا وَبَلَ إلا سِهَامَ، ولا مُدَامَ إلا دِمَاءَ، ولا نَغَمَ إلا صَهِيلَ، ولا مُعْرَبَدَ إلا قَاتِلَ، ولا سَكَرَانَ إلا قَتِيلَ"⁽⁴⁾، وقد ظهرَ عنصرُ الصوتِ في هذه الصورةِ في قوله: "ولا نغمَ إلا صهيلَ".

ومن الأمثلةِ -أيضاً- على اللونِ والحركةِ قوله: "وطلعتِ سناجقُ الإسلامِ الصُّفْرَ على أسوارِها، ودخلتِ عليهم من أقطارِها، وجاستِ الكسابةُ خلالَ ديارِها"⁽⁵⁾، وقوله: "وَعُرِفَ فِي عِيُونِهِمْ مَا يُعْرَفُ مِنَ الْاحْمَرَارِ فِي الْكَأْسِ، وَصَارُوا كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ سُكْرًا، وَإِذَا مَشَوْا يُقَدِّمُونَ رِجْلًا وَيُؤْخِرُونَ أُخْرَى"⁽⁶⁾، وقوله: "وَجُرِّدَتْ السِّيُوفُ فَظَنَّتْهَا غُدْرًا، وَرُمِيَتْ النَّبَالُ فَحَسِبَتْهَا شَرَرًا.. وسكنتِ نهاراً من العَجَاجِ في ظلامِ، وضافتِ عليها الأرضُ بما رَحِبَتْ"⁽⁷⁾، وقوله: "بيدهِ موسى كأنَّها صباحٌ ينسخُ ظلاماً، أو نسيمٌ ينفِضُ عن الزَّهْرِ كَمَامًا"⁽⁸⁾، وقوله: "وسيرَ من الخيولِ الرَّهَاوِينَ كُلِّمَا هُوَ عَلَى الْحُسَنِ مُشْتَمِلٌ، وَمَعَ سُرْعَتِهِ يَمْشِي الْهُوِينَا كَمْشِي الشَّارِبِ الثَّمَلِ، مِنْ كُلِّ أَشَقَرٍ كَأَنَّهُ النَّجْمُ السَّرِيعُ لَا الْبُطِيءَ، وَكُلِّ أَحْمَرٍ كَالشَّفَقِ وَغُرَّتِهِ مَا يَتَخَلَّلُ الشَّفَقُ

¹ انظر فيما سبق، ص 138.

² انظر فيما سبق، ص 143.

³ انظر فيما سبق، ص 163.

⁴ انظر فيما سبق، ص 164.

⁵ انظر فيما سبق، ص 182.

⁶ انظر فيما سبق، ص 198.

⁷ انظر فيما سبق، ص 212.

⁸ انظر فيما سبق، ص 215.

من النور المضيء، وكلُّ أشهب كالنار، وما في هذا من السواد ما بذاك من أواخر الليل وأوائل العشي، وكلُّ أصفر حبشيٍّ يحسن أن يكون لركاب المقرِّ خادماً، وكيف لا وهو الخصيُّ الحبشيُّ⁽¹⁾.

ويجبُ التَّنويه -أخيراً- إلى أنَّ ما اقتطفَ سابقاً من رسائل محيي الدين بن عبد الظاهر في أثناء التمثيل لموضوع الصورة والخيال، ما هو إلاَّ غيضٌ من فيض، والناظرُ في رسائله جُلُّها يُدرك ذلك.

2.4 المحسنات البديعية

غلبت الزينة اللفظية على إنشاء الكتاب في العصر المملوكي؛ إذ إنَّهم نهجوا نهج الكتاب الأيوبيين في الإكثار من استخدام المحسنات البديعية، كالسَّجع، والجناس، والطباق، والتورية.

ولم يقتصر استخدامهم لتلك المحسنات على نوع واحد من الكتابة فحسب، بل ضمَّنوها كتاباتهم المختلفة، من سياسية، وإدارية، وحربية، واجتماعية، وإخوانية، وأدبية، وغير ذلك.

ويُعَدُّ القاضي الفاضل -الكاتب الفاطميُّ الأيوبي- المثل الأعلى في استخدام تلك المحسنات، وقد تأثَّرَ بطريقة إنشائه غيرُ كاتبٍ مملوكيٍّ، ومن أبرزهم، محيي الدين بن عبد الظاهر، ودليل ذلك قول الصَّقدي عنه: هو "شيخُ أهلِ الترسُّل، ومَن سلكَ الطريقَ الفاضليَّة في إنشائه"⁽²⁾.

وللتمثيل على استخدام ابن عبد الظاهر للمحسنات البديعية في كتاباته، لا بدَّ من تناول كلِّ نوعٍ منها على حدى:

1.2.4 السَّجع

يُعَدُّ السَّجع أكثرَ المحسنات البديعية استخداماً من قِبَل الكتاب آنذاك، وقد عرَّفَه ابن الأثير قائلاً: هو "تواطؤُ الفواصل في الكلام المنثور على حرفٍ واحد"⁽³⁾، إلاَّ أنَّه

¹ انظر فيما سبق، ص 242-243.

² الصفدي، الوافي بالوفيات، 257/17 - 258.

³ ابن الأثير، المثل السائر، 195/1.

لم يقف عند حدود ذلك المعنى فقط، بل تابع قائلًا: "ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة، طنانة رنانة، لا غثة ولا باردة، وأعني بقولي غثة باردة أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير النظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة، وما يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها، وما يشترط له من الحسن (والواجب) أن يكون اللفظ تابعاً للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ"⁽¹⁾.

وقد ذكر الحلبي أن السجع يُقسم إلى أربعة أقسام: التصرّيع، والمتوازي، والمطرّف، والمتوازن.

ويعمد الكاتب في النوع الأول إلى الموافقة بين الألفاظ في العدد، واستواء أوزانها، ويراعي في النوع الثاني التزام الوزن الواحد في الكلمتين الأخيرتين فقط، ويلتزم في النوع الثالث رويًا واحدًا فيهما، دون التقيّد بوحدة الوزن، أمّا النوع الرابع فيراعي فيه استواء وزنهما مع اختلاف حرف الروي"⁽²⁾.

وإذا ما نظر المرء في رسائل محيي الدين بن عبد الظاهر، بأنواعها المختلفة يلاحظ التزامه السجع فيها، مع مراوحته في استخدامه له بين السجعات المتساوية وغير المتساوية.

ومن الأمثلة على سجعاته المتساوية، قوله موصياً قلاوون على لسان الخليفة الحاكم بأمر الله: "ونواب الممالك ونواب الأمصار، فأحسن لهم الاختيار، وأجمل لهم الاختبار، وتفقد لهم الأخبار"⁽³⁾، وقوله منوهاً إلى ضرورة إعلان أمر قلاوون بتسليم ولاية العهد لابنه علاء الدين: "ولكل رب سيف وقلم، ولكل ذي علم وعلم"⁽⁴⁾، وقوله على لسان السلطان المذكور لابنه الأشرف: "وأمرأء الجيوش.. فكن لجنودهم متحبيًا، ولمرابعهم مخصيًا، وفي حمدهم مطمئناً، وفي شكرهم مسهباً"⁽⁵⁾، وقوله ناعيًا بيمند، حاكم أنطاكية: "فخر الأمة المسيحية، رئيس الطائفة الصليبية، كبير الأمة

¹ ابن الأثير، المثل السائر، 197-198.

² انظر: الحلبي، شهاب الدين محمود (725 هـ)، حسن التوسّل إلى صناعة الترسل، تحقيق أكرم عثمان يوسف، (د.ط)، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، 1980م، ص 207-210.

³ انظر فيما سبق، ص 47.

⁴ انظر فيما سبق، ص 55.

⁵ انظر فيما سبق، ص 62.

العيسويّة⁽¹⁾، وقوله مادِحاً تاج الدين بن بنت الأعز: "وهو شجرة الأحكام، ومصعدُ
كَلِمِ الحُكَّام، ومَطْلَعُ أنجم الإسلام، ومَهْبِطُ وحي المُقَدِّمات والارتسام"⁽²⁾، وقوله في
الخطبة التي استهلَّ بها التوقيع الذي يخصُّ تقي الدين بن بنت الأعز: "ونشهدُ أن لا
إله إلا الله، وحده، لا شريك له، شهادةً يتزَيَّن بها المقال، ويتبيَّن بها الحقُّ من
الضلال"⁽³⁾، وقوله واصفاً ما حلَّ بقتلى الأعداء: "وأبصرَ الرِّياح لأشلائهم مُتَخَفِّفةً،
والهوامَّ في أجسادهم مُتَصَرِّفةً"⁽⁴⁾، وقوله في الرسالة التي أنشأها لصاحب اليمن؛
بسبب انتصار قلاوون على المغول: "ويستفتحُ بذكرِ نعمي مَنْ اللهُ بها على كُلِّ
مؤمنٍ.. وهي النِّعمةُ التي عادَ بِها عُمُرُ الإسلامِ فتياً، وكوكبُ سعدِهِ مضيئاً، ويومُ
نصرِهِ بدرِياً"⁽⁵⁾، وقوله في صداق السعيد بركة خان: "ما أسعدَ روضاً أصبحت هذه
المراحم الشريفة السلطانية له خميلة، وأشرفَ سيفاً غدت منطقة بروج سمائها له
حميلة"⁽⁶⁾، وقوله في الاستدعاء الذي بعثه لصديقه واصفاً الحمَّام: "نجومُ سمائه لا
يعتريها أفول، وناجمُ رخامِهِ لا يعتريهِ ذبول"⁽⁷⁾، وقوله للشَّخص الذي انتقصه: "فما
كُلُّ الأفاعي تعبتُ بها الأنامل، ولا كُلُّ المراعي تُتصبُّ بها الحبال، ولا كُلُّ زَخَّارٍ
يُخاض، ولا كُلُّ جناحٍ يُهاض، ولا كُلُّ جامعٍ يُراض، ولا كُلُّ سابغةٍ تُفاض، ولا كُلُّ
نسرٍ واقع، ولا كُلُّ نَيْرٍ راجع، ولا كُلُّ السُّموم يدخلُ في دِرياق، ولا كُلُّ مُطَوَّقٍ
يُجذب بالأطواق"⁽⁸⁾.

وله سجعَاتٌ قصيرةٌ متساوية، لا تزيدُ ألفاظها عن اثنتين، وهي تدلُّ كما يقولُ
الحَلَبِيُّ "على قوَّةِ التَّمَكُّن وإحكام الصُّنعة"⁽⁹⁾، وأمثلتها كثيرة، منها قوله في عهد علاء
الدين علي في أثناء إصدار أمر السلطان بتسليمه ولاية العهد: "ولايةٌ تامَّةٌ عامَّةٌ،
شاملةٌ كاملةٌ، شريفةٌ مُنيفةٌ، عطوفةٌ رؤوفة"⁽¹⁰⁾، وقوله في تقليد إمرة العربان

¹ انظر فيما سبق، ص 96.

² انظر فيما سبق، ص 113.

³ انظر فيما سبق، ص 121.

⁴ انظر فيما سبق، ص 158.

⁵ انظر فيما سبق، ص 173-174.

⁶ انظر فيما سبق، ص 205.

⁷ انظر فيما سبق، ص 214.

⁸ انظر فيما سبق، ص 230.

⁹ الحلبي، حسن التَّوَسُّل، ص 213.

¹⁰ انظر فيما سبق، ص 54.

لفخر الدين عثمان: "أن يفوض له التقدمة على العربان.. وأن يكون منازلُهُ اللازم له حفظها بُعداً وقرباً، حضراً وبدواً، عامراً وغامراً، رائحاً وغادياً"⁽¹⁾، وقوله في أثناء وصفه لرحلة الجيش الفاتح لقيسارية: "وهذا النهر بين الجبال مهوى رجامها، ومثوى غمامها، وملوى زمامها، ومأوى قَتَامِها"⁽²⁾، وقوله واصفاً معالم الدَّمار والخراب التي حَلَّتْ بأنطاكية؛ نتيجةً مهاجمة الجيش الفاتح لها: "وأريقت الدِّماء، واستُحيت النساء، وغُنمت الأموال، وجُدِّلَت الأبطال"⁽³⁾، وقوله في الردِّ على عائبه: "والبيتُ بأهلِهِ، والغمدُ بنَصْلِهِ، والثوبُ بلباسِهِ، والجوادُ بفارسِهِ، والقوسُ برامِيهِا، والصَّهْوَةُ برَاقِيهِا"⁽⁴⁾.

ويُلاحظُ في رسائله -أيضاً- مراوحتُهُ بينَ السَّجَعات في الطول والقصر، فقد تكون السَّجعة الأولى أطول من الثانية، وقد تكون الثانية أطول من الأولى، والنمط الأوَّل عنده قليل، ومن الأمثلة عليه قوله: "والعدلُ فهو الغرسُ المثمر، والسَّحابُ الممطر.. وبِهِ تَنْتَزِلُ البركات، وتُخلفُ الهبات"⁽⁵⁾، وقوله: "حتى رَمِينَاهُم بالحنفِ الواصل، والعذاب الواصب"⁽⁶⁾، وقوله: "واستنزلنا أصحابَك من الصِّيَاصي، وأخذناهم بالنَّواصي"⁽⁷⁾، وقوله: "وأصحاب عقدٍ وحلٍّ، وظعنٍ وحلٍّ.. وكلُّ صاحبِ عِلْمٍ وتدريس، و تهليلٍ وتقديس"⁽⁸⁾، وقوله: "وكانَ لفلِك الشريعةُ المحمديَّة قطباً، ولجِئمانها قلباً"⁽⁹⁾، وقوله: "واللازمُ لَهُ وَلَهُم مَخايِض تُحْفَظ، ومفاوز تُلَحَظ"⁽¹⁰⁾، وقوله: "وليزكُر من الدروس ما يُهيجُ الأسماع، ويُرضي الانتجاع"⁽¹¹⁾، وقوله: "وأقلعوا في البحرِ بمراكبه، والبرِّ بمواكبه"⁽¹²⁾، وقوله: "وطُفنا بها طوافَ المناطقِ

¹ انظر فيما سبق، ص 115.

² انظر فيما سبق، ص 136.

³ انظر فيما سبق، ص 166.

⁴ انظر فيما سبق، ص 234.

⁵ انظر فيما سبق، ص 46.

⁶ انظر فيما سبق، ص 49.

⁷ انظر فيما سبق، ص 100.

⁸ انظر فيما سبق، ص 109.

⁹ انظر فيما سبق، ص 112.

¹⁰ انظر فيما سبق، ص 116.

¹¹ انظر فيما سبق، ص 124.

¹² انظر فيما سبق، ص 163.

بالخصور، والشفاء بالثُّغور⁽¹⁾، وقوله: "ولا زالت البشائرُ تورِدُ على سمعِهِ، وتوفدُ على رُبْعِهِ"⁽²⁾، وقوله: "فأطلقَهُم سيفُنَا وأمله يمتدُّ إلى مَنْ هو أعزُّ منهم مالاً، وأكثر احتفالاً"⁽³⁾، وقوله: "واستبشرت السلطنةُ بأن صارَ لها منه فرْعٌ باسِقٌ، وعقدٌ مُتناسِقٌ"⁽⁴⁾، وقوله: "وهذه القلعةُ لها بالنَّجمِ مَنَاطٌ، وبالسَّحابِ ارتباطٌ"⁽⁵⁾.

وقد أكثرَ من إطالةِ السَّجعةِ الثانيةِ في كتاباته، وهذا ما حثَّ عليه الحلبيُّ الكتابَ، إذ قال: "قالأحسنُ أن تكونَ الثانيةُ أزيدَ من الأولى، ولكن لا بقدرٍ كثيرٍ؛ لئلا يبعدَ على السامعِ وجودُ القافية، فيقلُّ الالتذاذُ بسماعِها"⁽⁶⁾.

ومنَ الأمثلةِ على ذلكِ قوله: "الحمدُ لله مُنَمِّي الغروس، ومُبْهَجُ النفوس، ومُزَيِّنُ سماءِ المملكةِ بأحسنِ الأهلةِ وأضواءِ البدورِ وأشراقِ الشُّموس"⁽⁷⁾، وقوله: "ولا منبرِ خطيبٍ إلَّا باسمينا يَمِيس، ولا وجهِ درهمٍ ولا دينارٍ إلَّا بنا يُشرقُ ويكادُ تبرُّجاً لا بهرجاً يتطلَّعُ من خلالِ الكيس"⁽⁸⁾، وقوله: "ومنَ تَشَخُّصِ الأبصارِ لِكَماله يومَ ركوبهِ حسيِّرة، وتُلقي البنانِ سلاحها ذُهاً وهي لا تدري لكثرةِ الإيماءِ إلى جلاله إذا يبدو مسيره"⁽⁹⁾، وقوله: "وكيف تُصبحُ أنجمُ ذوي الأقدارِ في سماءِ مملكتنا نيرةَ المطالعِ، وكيف يلقى الخيرُ في عراضها مَنْ رَامَهُ، إذا كان على الخيرِ في غيرِ أيَّامنا مانعاً"⁽¹⁰⁾، وقوله: "وأنها في النشوةِ ما خيَّبَ إبليسُ مسعاها، وأنها لمَّا أخرجَ المنعُ عنها ماءها من الخمرِ أخرجَ لها من الحشيشِ مرعاها"⁽¹¹⁾، وقوله: "وسروره بما عساهُ لنا يتجددُ، وحبوره بما يردُّ من جهتنا وهذا لا نشكُّ فيه ولا نتردَّدُ"⁽¹²⁾، وقوله: "فهلُمَّ إلى هذه اللذةِ، ولا تَعَدَّ الحمَّامُ أنَّها دعوةُ أهلِ الحرَّافِ فربَّما كانت هذه بين تلكِ

¹ انظر فيما سبق، ص 168.

² انظر فيما سبق، ص 173.

³ انظر فيما سبق، ص 184.

⁴ انظر فيما سبق، ص 201.

⁵ انظر فيما سبق، ص 253.

⁶ الحلبي، حسن التَّوَسُّل، ص 213.

⁷ انظر فيما سبق، ص 48.

⁸ انظر فيما سبق، ص 51.

⁹ انظر فيما سبق، ص 59.

¹⁰ انظر فيما سبق، ص 114-115.

¹¹ انظر فيما سبق، ص 197-198.

¹² انظر فيما سبق، ص 213.

الدعوات فَذَّة⁽¹⁾، وقوله: "لا يُمكن معه الاحتياط، أخسُ مخلوقات الله تعالى وهو المُسمى بالوطواط"⁽²⁾، وقوله: "كم أجملت في الهوى تَقَلُّباً، وإذا غَنَّت الحمامُ على الغصونِ صممت عن الهديلِ والهديرِ تَأْدُباً"⁽³⁾.

وقد كان ابنُ عبد الظاهر يُنوع في سجعاته، من حيث الرُّوي، فلم يُخضع رسالة من رسائله للرُّوي ذاتِه من بدايتها إلى نهايتها، بل كان يلتزم في بعض فقراتها رويّاً واحداً، ويعمد إلى تنويعه في بقيّة الفقرات، فالتزم رويّاً واحداً في الخطبة التي استفتح بها تقليد الوزارة لبهاء الدين بن حنّا، حيث قال: "الحمدُ لله الذي وهبَ لهذه الدولة القاهرة من لَدُنْه وليّاً، وجعلَ مكانَ سرّها وشدّ أزرّها عليّاً، ورضيَ لها مَنْ لم يزل عندَ ربّه مرضيّاً، نحمدهُ على لُطفِهِ الذي أمسى بنا حفيّاً، وشكره أن جعلَ دولتنا جنةً أورثَ تدبيرها من عبادِهِ مَنْ كانَ تقيّاً، ونشهدُ أن لا إله إلا الله، وحده، لا شريكَ له، شهادةً نُسبِحُ بها بكرةً وعشيّاً، ونُصَلِّي على سيّدنا محمد، الذي آتاهُ الله الكتاب وجعله نبياً، صَلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه، صلاةً نتَّبِع بها صراطاً سوياً"⁽⁴⁾.

أمّا تنويعُهُ فيه فيتمثّل بقوله: "يعتمدانِ العدلَ في الرعيّة، وسلوكَ منهجِ الحقّ في كلّ قضيّة، واعتماد ما يُرضي الله تعالى ويُرضينا، وليكنِ الإنصافُ لهُما عقيدةً والتّقوى ديناً، ولا يتطلّع أحدهما إلى ما في يدِ أحدٍ من مالٍ ولا نشب، ولا يُعارض أحدٌ أحداً بلا سبب، وليتّقوا الله ويخشوه، ويتجنّبوا الباطل ولا يَغشوه"⁽⁵⁾.

وخلاصةُ القول -فيما سبق- إنّ ابن عبد الظاهر نوّع في سجعاته التي ضمّنها رسائله المختلفة، فكان يُساوي بينها حيناً، ويراوح بينها حيناً آخر، عن طريق تطويل السّجعة الأولى وتقصير الثانية، أو تطويل الثانية وتقصير الأولى، وقد التزم النمط الأخير كثيراً فيها، أضف إلى ذلك أنّه لم يلتزم رويّاً واحداً في أثناء إنشائه لها، بل نوّع فيه ولوّن، والمتنبّع لرسائله، يتبيّن أمثلة كثيرة، يمكن إدراجها تحت هذا الموضوع.

¹ انظر فيما سبق، ص 215.

² انظر فيما سبق، ص 226-227.

³ انظر فيما سبق، ص 245.

⁴ انظر فيما سبق، ص 107.

⁵ انظر فيما سبق، ص 193.

2.2.4 الجناس

هو الزينة اللفظية الثانية، التي لجأ إليها الكتاب آنذاك؛ لتحلية نصوصهم المختلفة، ويُسمى أيضاً التّجنيس، ويرى ابن الأثير أنه يُقسم إلى قسمين: تجنيس حقيقي، وهو أن يكون اللفظ واحداً، والمعنى مختلفاً، مع مراعاة التشابه في الوزن⁽¹⁾، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾⁽²⁾، إذ جانس سبحانه وتعالى بين لفظي: "السَّاعَةُ، ساعة".

أمّا القسم الثاني فتجنيس غير حقيقي، أو المشبه بالتّجنيس، كما يقول ابن الأثير، وينقسم إلى ستة أقسام، يراعى في الأوّل منها المساواة بين اللفظين في تركيب الحروف مع الاختلاف في الوزن، كقوله صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمَّ كَمَا حَسَنْتَ خَلْقِي حَسِّنْ خُلُقِي"⁽³⁾، إذ جانس عليه الصلاة والسلام بين لفظي "خُلُقِي، خُلُقِي" مع اختلاف وزنهما؛ نظراً لاختلاف حركة الحرف الأوّل في كلّ منهما، ويراعى في القسم الثاني المساواة بين اللفظين في الوزن مع اختلاف تركيبهما بحرف واحد لا غير، من مثل قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ إلى ربّها نَاضِرَةٌ⁽⁴⁾، فقد جانس سبحانه وتعالى بين لفظي "ناضِرَةٌ، نَاضِرَةٌ" في التركيب، مع اختلاف الحرف الثاني فيهما، ويراعى في القسم الثالث الاختلاف في الوزن والتركيب بحرف واحد، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾⁽⁵⁾، والمقصود في هذه الآية "يَحْسِبُونَ، يُحْسِنُونَ" فالفرق واضح بين اللفظين في وزن الحرف الأوّل، واختلاف الحرف الرابع، أمّا القسم الرابع من التّجنيس غير الحقيقي فله نوعان، النوع الأوّل يُسمى التّجنيس المعكوس، وفيه يتمّ عكس الألفاظ، كقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾⁽⁶⁾، وقد قال ابن الأثير في أثناء حديثه عنه: "وهذا الضّرْبُ مِنَ التّجنيس له حلاوة وعليه رونق (ويُسمى)

¹ انظر: ابن الأثير، المثل السائر، 241/1.

² سورة الروم، آية 55.

³ ابن الأثير، المثل السائر، 248/1.

⁴ سورة القيامة، آية 22، 23.

⁵ سورة الكهف، آية 104.

⁶ سورة يونس، آية 31.

التَّبدِيل (أيضاً)⁽¹⁾، ويقوم الكاتبُ في النَّوع الثاني بعكسِ الحروف، كقول أحدهم في كرسيٍّ أُهديَ إليه: "كرسيٌّ تفاعلتُ فيه لَمَّا رأيتُ مَقْلُوبَهُ يُسرَك"⁽²⁾، فقد عكسَ حروف لفظ "كرسي"، فخرج بلفظٍ جديد وهو "يُسرَك"، وهذا النَّوع نادر الاستعمال، ويُراعى في القسم الخامس -المُسَمَّى بالمُجَنَّب- الجمع بين كلمتين إحداهما تتبَعُ الأُخرى والجنبيَّة لها، كقول القائل: "أبا العَبَّاس لا تحسب بأنِّي لشيءٍ من حُلَى الأشعارِ عاري"⁽³⁾، والمقصود هنا "الأشعار، عاري"، إذ اتَّفَقَ اللفطان في حرفي العين والراء فقط، ولا يَسْتَحْسِن ابن الأثير هذا النَّوع من التَّجنيس، ويرى ضرورة إدخاله في باب لزوم ما لا يلزم؛ نظراً لقلَّة الاتِّفاق في تركيب اللفظين، أمَّا القسمُ السَّادس، فيُراعى فيه المساواة في الوزن والتركيب، مع الاختلاف في ترتيب الحروف بين التَّقديم والتَّأخير، ومنه قولُ أبي تَمَّام:

بيضُ الصَّفائِح لا سَوْدُ الصَّحائف في متُونِهِنَّ جلاءُ الشَّكِّ والريبِ

فقد ساوى بين لفظي "الصَّفائِح والصَّحائف" في الوزن والتركيب، مع اختلاف ترتيب حروفها⁽⁴⁾.

وقد ضمَّن محيي الدين بن عبد الظاهر رسائله السابقة غيرَ نوعٍ من أنواع الجنس المختلفة، سواء أكانت حقيقيَّة، أم غير حقيقيَّة، ومن الأمثلة على استخدامه الجنس الحقيقي قوله: "وأقام الخِلافةَ العباسيَّةَ في هذا الزَّمن بالمنصور، كما أقامها في ما مضى بالمنصور"⁽⁵⁾، والمقصود في هذه العبارة لفظ المنصور، فعلى الرَّغم من التَّشابه في الوزن والتركيب، إلّا أنَّ المعنى مختلف، فالمنصور في الجزء الأوَّل يُراد به المنصور سيف الدين قلاوون، والمنصور في الجزء الثاني، يُراد به أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني عباس، وقوله: "وكيفَ جُعِلَت تلكَ الجزائرُ من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر"⁽⁶⁾، فالمراد بالجزائر الأولى أجساد الموتى المتناثرة في أرض المعركة، أمَّا الثانية فيُراد بها الأرض المحاطة بالماء، وقوله:

¹ ابن الأثير، المثل السائر، 255/1.

² المصدر نفسه، 257/1.

³ المصدر نفسه، 257/1.

⁴ انظر: المصدر نفسه، 258-241/1.

⁵ انظر فيما سبق، ص 43.

⁶ انظر فيما سبق، ص 97.

"وتَحَقَّقْنَا النَّصْرَ الَّذِي شَفَى النُّفُوسَ، وَأَزَالَ الْبُؤْسَ.. وَخَرَّبَ دَنْقَلَةَ بِجَرِيْمَةِ سَوْسَ، وَكَيْفَ لَا يَخْرِبُ شَيْءٌ يَكُونُ فِيهِ سَوْسٌ؟"⁽¹⁾، فالمراد بسوس الأولى، كنيسة سوس الموجودة في دنقلة من بلاد السودان، والمراد بالثانية الحشرة المعروفة بالسوس، وقوله: "الحمد لله الذي زَيَّنَ سماءَ المَلِكِ بأنوارِ كوكبِ بزغ.. وأشرفَ سلطانَ بَلْغَ إلى ما بَلْغَ ذُووُ الاكْتِهالِ من اختيارِ شَرَفِ الخلالِ وما بَلْغَ"⁽²⁾، والمراد هنا لفظ "ما بَلْغَ"، ويُقصد به في الجزء الأول من العبارة أَنَّهُ وَصَلَ إلى ما وَصَلَ إِلَيْهِ ذُووُ الاكْتِهالِ، أمَّا الثاني فيعني أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ سَنَ الرُّشْدِ، وقوله: "هَذَا كِتَابٌ مَبَارَكٌ تَحَاسَدْتَ عَلَيْهِ رِمَاحُ الْخَطِّ، وَأَقْلَامُ الْخَطِّ عَلَى تَحْرِيرِهِ"⁽³⁾، فيقصد بالخط الأولى، أَرْضُ تُتَسَبَّ إِلَيْهَا الرِّمَاحُ الْخَطِيَّةُ، أمَّا الثانية فيقصد بها الكتابة، وقوله: "وَذَلِكَ بِيَدِ قَيِّمٍ قَيِّمٍ بِحَقُوقِ الْخِدْمَةِ"⁽⁴⁾، فَيَقِيْمُ الْأَوَّلَى تَعْنِي الشَّخْصَ الَّذِي يَعْمَلُ فِي الْحَمَّامِ، أمَّا الثانية فتعني خبير.

وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ عَلَى الْقِسْمِ الْأَوَّلِ مِنَ الْجِنَاسِ غَيْرِ الْحَقِيقِيِّ، قَوْلُهُ: "وَلِكُلِّ رَبِّ سَيْفٍ وَقَلَمٍ، وَلِكُلِّ ذِي عِلْمٍ وَعِلْمٍ"⁽⁵⁾، فَالْعِلْمُ مَعْرُوفٌ بِأَنَّهُ الدَّرَاسَةُ، أمَّا الْعِلْمُ فَالرَّايَةُ، وقوله: "وَالثُّغُورُ، فَهِيَ لِلْمَمَالِكِ مَبَاسِمُهَا.. وَمِنْهَا بِمَا يَحْمِي السَّرْحَ مِنْهَا"⁽⁶⁾، إِذْ جَانَسَ بَيْنَ "مِنْهَا وَمِنْهَا"، وَالْمَرَادُ فِي الْأَوَّلَى التَّزْوِيدَ (زَوَّدَهَا)، وَالثَّانِيَةَ مِنْ حُرُوفِ الْجَرِّ، وقوله: "وَكَانَ لِفَلَكَ الشَّرِيعَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ قُطْبًا، وَلِجُنُثَانِهَا قَلْبًا، وَلِسَوَارِهَا قُلْبًا"⁽⁷⁾، وَجَانَسَ هُنَا بَيْنَ "قَلْبًا وَقُلْبًا"، وَالْمَرَادُ فِي الْأَوَّلَى الْعَضُو الَّذِي يَضِخُ الدَّمَ فِي جِسْمِ الْإِنْسَانِ، وَفِي الثَّانِيَةِ الْقَالِبُ الَّذِي يُصَاغُ فِيهِ السَّوَارُ، وقوله: "أَعْلَتِ الدُّوْلُ مِنْ شَأْنِهِ.. وَقَلَّدَتْهُ فَحَسَنٌ فِي جِيدِهِ مَا قُلَّدَ مِنْ مَنْ"⁽⁸⁾، فَمِنْ الْأَوَّلَى حَرْفُ جَرٍّ، وَالثَّانِيَةَ الْعَطَاءُ.

¹ انظر فيما سبق، ص 188.

² انظر فيما سبق، ص 200.

³ انظر فيما سبق، ص 206.

⁴ انظر فيما سبق، ص 215.

⁵ انظر فيما سبق، ص 55.

⁶ انظر فيما سبق، ص 62.

⁷ انظر فيما سبق، ص 112.

⁸ انظر فيما سبق، ص 118.

ومن الأمثلة على النوع السابق كذلك، قوله: "وبات السلطانُ والناسُ في وطأةٍ هناك، وسمحت السُّحبُ بما شاعت من بَرْدٍ وبَرَدٍ"⁽¹⁾، إذ جانس بين "بَرْدٍ وبَرَدٍ"، وقوله: "وأردفتهُ الملائكةُ بنجدِها، وكأثرتهُ الملوكُ بِعَدَدِها وعُدَدِها"⁽²⁾، والجناس واضح بين "عَدَدِها وعُدَدِها"، وقوله: "وعلى كُلِّ حالٍ، لا عِدَمَ إحسانِ المولى الذي يتنوّع في برّه، ويُعاجل قضاءَ الحقوق فتساعف مرسومه في توصيله طاعة بحره وبرّه"⁽³⁾، فقد جانس بين لفظي "برّه وبرّه"، وقوله: "وكم حكَّ رجلَ رجلٍ صالحٍ، فتحقّقَ هنالك أنَّ السَّعادةَ لتلحظُ الحجر"⁽⁴⁾، إذ جانس بين "رجلَ ورجلٍ"، وقوله: "يتضمَّنُ إهلاكَ هذا الحيوانِ الخبيثِ، وتطهيرِ الأمكنةِ من رجسه، وسدِّ المنافسِ على الكريهيتين من نفسِه ونفسِه"⁽⁵⁾، والجناس واضح بين اللفظين الأخيرين.

وَمِنَ الأمثلةِ على القسم الثاني من الجناس غير الحقيقي، قوله: "ونوابُ الممالك، ونوابُ الأمصار، فأحسن لهم الاختيار، وأجمل لهم الاختبار"⁽⁶⁾، والمُراد "الاختيار والاختبار"، وقوله: "وتكون الأخلاقُ الملوكيَّةُ مُنتشئةً معه، ومُنْتشبةً به من الصَّغر"⁽⁷⁾، والمراد "مُنْتشئةً ومُنْتشبةً"، وقوله: "ونشهدُ أن لا إله إلا الله، وحده، لا شريك له، شهادةً تزيدُ قائلها لله تفويضاً، وتجزل له تعويضاً"⁽⁸⁾، والمراد "تفويضاً وتعويضاً"، وقوله: "فلمَّا كانَ مذهبُ الإمامِ الشافعي.. هو شُهادةُ المتلفِّظ، وكفايةُ المتحفِّظ، وبُهجةِ المتلحِّظ، وطرارِ ملبسِ الهدى، وميدانِ الاجتهادِ الذي لا تقفُ أعنةُ جِيادِهِ عن إدراكِ المدى"⁽⁹⁾، والمُراد "المتلفِّظ والمتحفِّظ"، و"الهدى والمدى"، وقوله: "ومَن يزهو ببقَى قلبه، ورقى جوابه لسانَ التعويل، ولسانَ التَّعويز"⁽¹⁰⁾، والمُراد "التَّعويل والتَّعويز"، وقوله: "وهذا النهر بينَ الجبالِ مهوى رِجامُها، ومثوى غمامُها،

¹ انظر فيما سبق، ص 136.

² انظر فيما سبق، ص 175.

³ انظر فيما سبق، ص 210.

⁴ انظر فيما سبق، ص 223.

⁵ انظر فيما سبق، ص 227.

⁶ انظر فيما سبق، ص 47.

⁷ انظر فيما سبق، ص 50.

⁸ انظر فيما سبق، ص 58.

⁹ انظر فيما سبق، ص 121.

¹⁰ انظر فيما سبق، ص 122.

وملوى زِمَامُهَا، ومأوى قَتَامُهَا⁽¹⁾، والمُرَاد "مهوى، ومثوى، وملوى، ومأوى"، وقوله: "وَفَمَ ذَلِكَ الدَّرْبَ الَّذِي كَمَ عَضَّتْ أُنْيَابُهُ عَلَى مُسَاوِقٍ وَمُسَابِقٍ"⁽²⁾، والمُرَاد "مُسَاوِقٍ وَمُسَابِقٍ"، وقوله: "وَشَرَعَ الْقُرَاءُ يَقْرَءُونَ جَمِيعاً وَفُرَادَى .. وَعَدَلُوا عَنْ التَّرْتِيلِ إِلَى التَّرْتِيبِ"⁽³⁾، والمُرَاد "التَّرْتِيلِ وَالتَّرْتِيبِ"، وقوله: "وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَقْوَاتِ قَلَّتْ، وَالسُّيُوفَ مِنَ الْمُصَارَعَةِ مَلَّتْ، وَالسَّوَادَ مِنَ الْمُصَادِمَةِ كَلَّتْ"⁽⁴⁾، والمراد "قَلَّتْ وَمَلَّتْ وَكَلَّتْ"، وقوله: "وَكَانَ الْعَدُوُّ فِي مِائَةِ أَلْفٍ مُقَابِلَ مُقَاتِلٍ، مُنَاصِلٍ مُنَاضِلٍ، مُصَارِمٍ مُصَادِمٍ، مُكَالِبٍ مُكَالِمٍ"⁽⁵⁾، والمراد "مُقَابِلَ وَمُقَاتِلٍ" و "مُنَاصِلٍ وَمُنَاضِلٍ"، و "مُصَارِمٍ وَمُصَادِمٍ"، و "مُكَالِبٍ وَمُكَالِمٍ"، وقوله: "وَجَعَلَ عَلَى اسْمِ اللَّهِ مِنْ قُفُولِ جُنُودِهِ مَا أَجْرَى مِنْهُمْ وَمَا أَرَسَى، مِمَّا رَدَّ بِأَسْأً، وَكَفَى بِأَسْأً"⁽⁶⁾، والمُرَاد "بِأَسْأً وَبِأَسْأً"، وقوله: "وَلَمَّا عَمَّتِ الْبَشَائِرُ، وَوَكَّلَ بِهَا مَوْلَانَا إِلَى كُلِّ مَنْ يَسْتَجْلِي حِسَانَ هَذِهِ الْعِرَائِسِ، وَيَسْتَحْلِي نَفِيسَ النَّفَائِسِ"⁽⁷⁾، والمُرَاد "يَسْتَجْلِي وَيَسْتَحْلِي"، وقوله: "وَهُوَ مِنَ التَّقْوَى بِالْمَحَلِّ الْأَسْمَى عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الطَّرَاقِ، وَالْمَكَانِ الْأَحْمَى"⁽⁸⁾، والمُرَاد "الْأَسْمَى وَالْأَحْمَى"، وقوله: "وَتَوَافَى هُوَ وَالصَّبْرُ، فَتَوَلَّى التَّسْلِيمُ بِتَبْيِينِ عَاسِيهِ، وَتَمَرِينَ قَاسِيهِ"⁽⁹⁾، والمراد "عَاسِيهِ وَقَاسِيهِ"، وقوله: "وَانْتَقَلَ سَارّاً بَارّاً صَالِحاً، وَمَا هَكَذَا كُلُّ الْمَوْتَى، نَعِيّاً وَلَا نَعْتاً"⁽¹⁰⁾، والمُرَاد "سَارّاً وَبَارّاً"، و "نَعِيّاً وَنَعْتاً"، وقوله: "وَأَلَّا تُشَقُّ لَدِينَا إِلَّا أَكْبَادُ أَكْنَادٍ"⁽¹¹⁾، والمراد "أَكْبَادُ وَأَكْنَادُ"، وقوله: "فِي الْمَشَارِكَةِ فِي جَمْعٍ بَيْنَ جَنَّةٍ وَنَارٍ، وَأَنْوَاءٍ وَأَنْوَارٍ"⁽¹²⁾، والمُرَاد "أَنْوَاءٍ وَأَنْوَارٍ"، وقوله: "فَلَمْ نَزَلْ نَمْرُ مَرَّ السَّحَابِ، وَنَقَفَ وَقُوفَ السَّرَابِ، حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ لَا يُعْرِفُ قَعْرَهُ، وَلَا

¹ انظر فيما سبق، ص 136.

² انظر فيما سبق، ص 136.

³ انظر فيما سبق، ص 150.

⁴ انظر فيما سبق، ص 153.

⁵ انظر فيما سبق، ص 176.

⁶ انظر فيما سبق، ص 176.

⁷ انظر فيما سبق، ص 182.

⁸ انظر فيما سبق، ص 202.

⁹ انظر فيما سبق، ص 208.

¹⁰ انظر فيما سبق، ص 209.

¹¹ انظر فيما سبق، ص 210.

¹² انظر فيما سبق، ص 214.

يُسْلِك وعِره⁽¹⁾، والمراد "السَّحَاب والسَّرَاب"، و"قعره و وعِره"، وقوله: "ولا يُسمع منه هديلٌ ولا هدير"⁽²⁾، والمراد "هديل وهدير"، وقوله: "أُسود من قَار، وأفسد من فار"⁽³⁾، والمراد "قار وفار"، وقوله: "ومتى خافت الرُّعود من الوعود"⁽⁴⁾، والمراد "الرُّعود والواعد"، وقوله: "هذه المكاتبه تُفهمه أَنَّ نِعَمَ الله وإن كانت مُتعدِّدة، ومِنْحُهُ وإن غدت بالبركاتِ مُتردِّدة، ومِنْنُهُ وإن أصبحت إلى القلوبِ متودِّدة"⁽⁵⁾، والمراد، "مُتعدِّدة ومتردِّدة ومتودِّدة"، وقوله: "ومِنَ الجواشنِ حَسَنَةُ التَّسامي والتَّسامت"⁽⁶⁾، والمراد "التَّسامي والتَّسامت".

ويُلاحَظ أَنَّ القسم الثالث من الجناس غير الحقيقي قليل الورد في رسائل ابن عبد الظاهر، ومن الأمثلة عليه قول الكاتب: "والثغورُ والحصون، فهم ذخائرُ الشَّدَّة.. ومقاعد للقتال، وكنائن الرِّجاء والرِّجال"⁽⁷⁾، والمراد "الرِّجاء و الرِّجال"، وقوله: "فلَمَّا عَلِمَ السلطان أَنَّهُم لا يفلحون، ولِغير التَّنَّار لا يصلحون"⁽⁸⁾، والمراد "يفلحون ويصلحون"، وقوله: "وتَسَلَّمْنَاهَا وقلعتها فتَحاً قريبا، وتَسَلَّمْنَاهَا مَرْتَعاً مُربِعا"⁽⁹⁾، والمراد "مَرْتَعاً ومُربِعا"، وقوله: "وجعلَ تدميرهم في تدبيرهم"⁽¹⁰⁾، والمراد "تدميرهم وتدبيرهم"، وقوله: "نحمدُهُ حَمْدَ مَنْ أَعْلَى صَوْتُهُ وصيِّتُهُ"⁽¹¹⁾، والمراد "صَوْتُهُ وصيِّتُهُ".

كما أَنَّهُ استخدَمَ الجناسَ المعكوس، فقال: "﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾"⁽¹²⁾، أو إلى سَبِيلٍ مِنْ خُرُوجٍ"⁽¹³⁾، وقال: "فلَمَّا تَوَكَّلَ مولانا السلطان وعزَمَ ، وعزم

¹ انظر فيما سبق، ص 220.

² انظر فيما سبق، ص 226.

³ انظر فيما سبق، ص 226.

⁴ انظر فيما سبق، ص 230-231.

⁵ انظر فيما سبق، ص 249-250.

⁶ انظر فيما سبق، ص 255.

⁷ انظر فيما سبق، ص 47.

⁸ انظر فيما سبق، ص 149.

⁹ انظر فيما سبق، ص 168.

¹⁰ انظر فيما سبق، ص 188.

¹¹ انظر فيما سبق، ص 201.

¹² سورة غافر، آية 11.

¹³ انظر فيما سبق، ص 134.

فتوكل⁽¹⁾، وقال: "وكذا يكونُ قرانُ السَّعد، وسَعْدُ القران"⁽²⁾، وقال: "ولا تنقصها عن تحسينها وترتيبها بواعثُ الاختلاف، ولا اختلاف البواعث"⁽³⁾، وقال: "ما مِنْهم إلَّا مَنْ نظرَ سَعده، وَمَنْ سَعده ينتظر"⁽⁴⁾.

أمَّا الجناس المُسمَّى بالمجنَّب فلم يرد في رسائل ابن عبد الظاهر، وقد قلَّ استخدامه للقسم الأخير من أقسام الجناس إلى حدٍّ كبير، ومن الأمثلة التي اقْتَنَصَتْ لأجل التَّمثِيل، قوله: "وفي الفداء بما عَرِضَ من عَرَض.. وفي جميع ما تَسْتَدْعِيهِ بواعثه في السرِّ والعلَن، وتسترعيه نوافثه من كَبَتٍ وَكَتَبٍ مُتَفَرِّقِينَ"⁽⁵⁾، فقد ساوى بينَ لفظي "كبت وكتب" وَغَيْرَ في ترتيب الحرفين الآخرين لهما، ومنها قوله: "نُعلمه أَنَّ المُنكرات التي أمرنا أن تُمَلَأ الصَّفاح بأجرها، وتُفَرِّغ الصَّحاف"⁽⁶⁾، والمُرَاد هنا "الصَّفاح والصَّحاف".

وقد ذكرَ ابنُ حَجَّة الحموي أنواعاً أخرى للجناس، منها ما تبيَّن استخدام الكاتب له في رسائله، كالجناس المُذَيَّل أو اللاحق، وفيه يزيدُ أحد اللفظين على الآخر بحرف في آخره⁽⁷⁾، من مثل قول ابن عبد الظاهر: "فلا سُلطان ذا قَدَر وقُدرة، وذا أمر وإمرة"⁽⁸⁾، إذ زادَ التاء المربوطة في "قدرة" و"إمرة"، وقوله: "وَمَنْ إذا سَحَّ سحابة الهطال، اعترف له بالهُموِّ والهمول"⁽⁹⁾، والمُرَاد "الهموُّ والهمول"، وقوله: "ما هذا موضع الغناء، بل هذا موضع الغنى"⁽¹⁰⁾، وقوله: "كم ضَرِيَّ وكم ضَرَّ، وكم ساء وما سرَّ، وما أبرأ قطُّ ولا أبرَّ"⁽¹¹⁾، والمُرَاد "ضَرِيَّ وضَرَّ"، و"أبرأ وأبرَّ".

¹ انظر فيما سبق، ص 179.

² انظر فيما سبق، ص 205.

³ انظر فيما سبق، ص 207.

⁴ انظر فيما سبق، ص 209.

⁵ انظر فيما سبق، ص 60.

⁶ انظر فيما سبق، ص 197.

⁷ انظر: ابن حَجَّة الحموي، تقي الدين أبو بكر علي (837 هـ)، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، ط 1، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1987م، 70/1.

⁸ انظر فيما سبق، ص 61.

⁹ انظر فيما سبق، ص 122.

¹⁰ انظر فيما سبق، ص 148-149.

¹¹ انظر فيما سبق، ص 227.

والنوع الثاني: الجنس المطرّف، وفيه يزيد أحد اللفظين على الآخر بحرف في أوله⁽¹⁾، ومنه قول محيي الدين بن عبد الظاهر: "وتطوف بهذه القرية جبالاً كأنها أسوار، بل سوار"⁽²⁾، والمراد "أسوار وسوار"، وقوله: "وأقرت الألسنة بهذه النعمة، وقرت العيون"⁽³⁾، والمراد "أقرت وقرت".

ومهما يكن، فإن الأمثلة السابقة ما هي إلا دلائل على تنويع الكاتب في استخدام الجنس، والمتتبع لرسائله كاملة، يقع على أمثلة أخرى تدل على ذلك.

3.2.4 الطّباق

أجمع الباحثون على أن الطّباق هو الجمع بين متضادّين في الكلام، كالليل والنّهار مثلاً، ويسمّى -أيضاً- المطابقة والتّطبيق، والتّضادّ، والتّكافؤ⁽⁴⁾، وهو يُساهم في إيضاح المعنى للمتلقّي وتبيينه، إذ إنّ اللفظين المتضادّين يُفسّران بعضهما بعضاً في معظم الأحيان.

ولعلّ الناظر في رسائل ابن عبد الظاهر، يلاحظ قلة استخدامه الطّباق، مقارنةً مع استخدامه الجنس، ويبدو أنّ ذلك عائدٌ إلى تفضيله استخدام النوع الذي يحتاج إلى إعمال الفكر إلى حدّ ما، على النوع الذي لا يحتاج إلى ذلك نوعاً ما.

ومن الأمثلة على هذا النوع من المحسّنات البديعيّة، قول الكاتب: "وخرج أمرٌ مولانا.. أن يكون للمقرّ العالي، المولويّ، السلطانيّ، الملكيّ، المنصوريّ.. كلّ ما فوّضه الله لمولانا أمير المؤمنين من حكمٍ في الوجود، وفي التّهائم والنّجود، وفي المدائن والخزائن، وفي الظواهر والبواطن، وفيما فتحه الله، وفيما سيفتحه"⁽⁵⁾، إذ طابق بين "التّهائم والنّجود"، و"المدائن والخزائن"، و"الظواهر والبواطن"، وقوله: "وأعداء الدين من أرمن وفرنج وتتار، فأدقّهم وبال أمرهم في كلّ إيرادٍ للغزو

¹ انظر: ابن حجة الحموي، خزانة الأدب، 84/1.

² انظر فيما سبق، ص 144.

³ انظر فيما سبق، ص 152.

⁴ انظر: ابن معصوم المدني، السيد علي صدر الدين (1120هـ)، أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق وترجمة شاكِر هادي شكر، ط 1، مكتبة العرفان، كربلاء، 1968م، 31/2، وابن حجة الحموي، خزانة

الأدب، 156/1، والحلي، حسن التّوسّل، ص 199.

⁵ انظر فيما سبق، ص 45.

وإصدار⁽¹⁾، فطابقَ بينَ "إيراد وإصدار"، وقوله: "وخرج أمرنا.. بأن يُكتب هذا التقليد لولدنا الملك السعيد.. بولاية العهد الشريف، على قُرب البلاد وبعدها، وغورها ونجدها.. وبرورها وبحورها، وولاياتها وأقطارها، ومُدنّها وأمصارها، وسهلها وجبلها، ومُعطلّها ومُعْتَلّها"⁽²⁾، فطابقَ بينَ: "قُربها وبعدها"، و"غورها ونجدها"، و"برورها وبحورها"، و"ولاياتها وأقطارها"، و"مدنها وأمصارها"، و"سهلها وجبلها"، و"مُعطلّها ومُعْتَلّها"، وقوله: "نحمدهُ على نعمه التي جمعت إلى الزهر الثمر.. وجمعت في لاذة الأوقات وطيبها بين رونق الآصال ورقّة البُكر"⁽³⁾، فطابقَ بينَ "الزهر والثمر"، و"الآصال والبُكر"، وقوله: "وعلى جميع العساكر، وعلى جميع الرعايا.. للقائنين فيها والمترددين، في البرّ والبحر، والسّهْل والجبل، في الليل والنهار"⁽⁴⁾، إذ طابقَ بينَ "القائنين والمترددين"، و"البرّ والبحر"، و"السّهْل والجبل"، و"الليل والنهار"، وقوله: "وكم بها موازين للأولياء ثقلت، وموازين للأعداء خفت"⁽⁵⁾، إذ طابقَ بينَ "الأولياء والأعداء"، و"ثقلت وخفت"، وقوله: "وهو شجرة الأحكام.. ومجتمع رفاق القضايا في الحلال والحرام"⁽⁶⁾، فطابقَ بينَ "الحلال والحرام"، وقوله: "فإنَّ الله سبحانه وتعالى لمّا مكنَ لنا في الأرض، وجعلَ بيدنا البَسْطَ والقَبْضَ"⁽⁷⁾، فطابقَ بينَ "البَسْطَ والقَبْضَ"، وقوله: "أن يفوّضَ له التّقْدِمة على العُربان بالشّام المحروس، وهم من يأتي ذكره على ما يستقرُّ عليه الحال في ترتيبهم، وأن يكونَ منازلُه اللّازم له حفظها بُعداً وقُرباً، حضراً وبدواً، عامراً وغامراً، رائحاً وغادياً، من الرّستن إلى الملوحة"⁽⁸⁾، فطابقَ بينَ "بُعداً وقُرباً"، و"حضراً وبدواً"، و"عامراً وغامراً"، و"رائحاً وغادياً"، وقوله: "ونشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، شهادةً يتزيّنُ بها المقال، ويتبيّنُ بها الحقُّ من الضّلال"⁽⁹⁾، فطابقَ بينَ "الحقُّ

¹ انظر فيما سبق، ص 47.

² انظر فيما سبق، ص 50-51.

³ انظر فيما سبق، ص 52.

⁴ انظر فيما سبق، ص 73.

⁵ انظر فيما سبق، ص 108.

⁶ انظر فيما سبق، ص 113.

⁷ انظر فيما سبق، ص 114.

⁸ انظر فيما سبق، ص 115.

⁹ انظر فيما سبق، ص 121.

والضَّلَال"، وقوله: "وما تهيأ من فتوح صافيتا، التي هي أم البلاد، ومُنْتَجَع الحاضر والباد"⁽¹⁾، فطابقَ بين "الحاضر والباد"، وقوله: "أطلقهم سيفنا، وأمله يمتدُّ إلى مَنْ هو أعزُّ منهم مالا.. وأهزُّ سيوفاً قصاراً، ورماحاً طوالاً"⁽²⁾، فطابقَ بين "سيوفاً ورماحاً"، و"قصاراً وطوالاً"، وقوله: "فلا حصن إلا وافترت ثنيته عن نصرٍ مُسهَّل، وفتحٍ مُعجَّل ومُوجَّل"⁽³⁾، فطابقَ بين "مُعجَّل ومُوجَّل"، وقوله: "فالحمدُ لله على أن صَبَّحَتْهُمْ عزائم المجلس بالويل، وعلى أن أولجَ النهار من السيف منهم في الليل.. وبينَ خيط السيف الأبيض من الخيط الأسود من فجر فجورهم"⁽⁴⁾، فطابقَ بين "النَّهار والليل"، و"الأسود والأبيض"، وقوله: "وشكرَ له عزمه الذي استبشَّرَ به وجه الزَّمن بعدَ القُطوب، وتحقَّقت بلاد الشمال به صلاح بلاد الجنوب"⁽⁵⁾، فطابقَ بين "بلاد الشمال وبلاد الجنوب"، وقوله: "ونشهدُ أنَّ محمداً عبده ورسوله، الذي بعثه تعالى بمكارم الأخلاق، ومُعَاداة ذوي النِّفاق، وساوَى بين الصَّغِير والكَبِير، من أولي الاستحقاق"⁽⁶⁾، فطابقَ بين "الصَّغِير والكَبِير"، وقوله: "الحمدُ لله موفِّق الآمال لأسعد حركة.. مُهيئ أسباب التَّوفيق العاجلة والآجلة"⁽⁷⁾، فطابقَ بين "العاجلة والآجلة"، وقوله: "فشكرنا الله على ما أعطى، وحمدناه على ما أخذ"⁽⁸⁾، فطابقَ بين "أعطى وأخذ"، وقوله: "وليست الإبل بأغلظ أكباداً ممَّنْ له قلبٌ لا يُبالي بالصدَّمات، كَثُرَتْ أوقلت، ولا بالتَّباريح حَقُرَتْ أو جَلَّتْ، ولا بالأزمات إن هي توالَتْ أو تولَّت"⁽⁹⁾، فطابقَ بين "كَثُرَتْ وقلَّتْ"، و"حَقُرَتْ وجَلَّتْ"، و"توالَتْ وتولَّت"، وقوله: "فتساعفَ مرسومه في توصيله طاعة بحرهِ وبرِّه، وله الشُّكرُ على مساهمة المولى في الفرح والتَّرح"⁽¹⁰⁾، فطابقَ بين "بحرهِ وبرِّه"، و"الفرح والتَّرح"، وقوله: "خرجنا إلى الصَّيْد

¹ انظر فيما سبق، ص 184.

² انظر فيما سبق، ص 184.

³ انظر فيما سبق، ص 184.

⁴ انظر فيما سبق، ص 188.

⁵ انظر فيما سبق، ص 189.

⁶ انظر فيما سبق، ص 200.

⁷ انظر فيما سبق، ص 203.

⁸ انظر فيما سبق، ص 208.

⁹ انظر فيما سبق، ص 208.

¹⁰ انظر فيما سبق، ص 210.

المُبَارَك بجنودٍ تملأ السَّهْلَ والجبل⁽¹⁾، فطابقَ بينَ "السَّهْلَ والجبل"، وقوله: "وسكنت نهاراً منَ العَجَاجِ في ظلام، وضائقَ عليها الأرض بما رحبت"⁽²⁾، فطابقَ بينَ "نهاراً وظلام"، و"ضائقَ ورحبت"، وقوله: "في المشاركة في جَمعِ بينَ جَنَّةٍ ونار"⁽³⁾، فطابقَ بينَ جَنَّةٍ ونار"، وقوله: "فقلتُ: إذا كان المبتدأ معرفةً، فلا يضرُّ تنكير الخبر"⁽⁴⁾، فطابقَ بينَ "المبتدأ والخبر"، و"معرفةً وتنكير"، وقوله: "يتزايد شوقي ويتناقص صبري، وتتسع همومي، فيضيقُ لها صدري"⁽⁵⁾، إذ طابقَ بينَ "يتزايد ويتناقص"، و"تتسع فيضيق"، وقوله: "وإن اتَّفقت الأجناس، واختلفت الأسماء للوضع والأسمى"⁽⁶⁾، فطابقَ بينَ "اتَّفقت واختلفت"، و"الوضع والأسمى"، وقوله: "ولا هو حيوان من بحرٍ يُنتفع به، ولا من برٍّ"⁽⁷⁾، فطابقَ بينَ "بحر وبر"، وقوله: "ومن أشقر كأنه النجمُ السَّريع، لا البطيء"⁽⁸⁾، فطابقَ بينَ "السَّريع والبطيء"، وقوله: "وكم سرَّت فحمدت المساء، إذا حمد غيرها منَ السَّارينَ الصَّباح"⁽⁹⁾، فطابقَ بينَ "المساء والصَّباح"، وقوله: "إذا انقضَّت، كانت للمنيَّة عروة، وإذا انبسطت، فهي للرزيَّة حزام"⁽¹⁰⁾، فطابقَ بينَ "انقضت وانبسطت"، وقوله: "قد أَمِنَ بأخذها من بلاد الدَّعوة النَّازح والمُقيم"⁽¹¹⁾، فطابقَ بينَ "النَّازح والمُقيم".

ولا يخفى ما للطِّبَاقَاتِ السَّابِقَةِ من دورٍ في توضيح المعنى المُراد، في الجُمْلِ التي وردت فيها، فعندَ إيرادها في أثناء إصدار أمر السلطان بتقليد شخصٍ ما ولاية العهد -مثلاً- وتحديد المناطق التَّابعة له باستخدامها، دلَّ ذلك على مدى اتساع نطاق دولة المُقلَد وامتدادها، وهكذا يجري الأمر في بقيَّة الرسائل.

¹ انظر فيما سبق، ص 211-212.

² انظر فيما سبق، ص 212.

³ انظر فيما سبق، ص 214.

⁴ انظر فيما سبق، ص 219.

⁵ انظر فيما سبق، ص 219.

⁶ انظر فيما سبق، ص 225.

⁷ انظر فيما سبق، ص 227.

⁸ انظر فيما سبق، ص 242.

⁹ انظر فيما سبق، ص 245.

¹⁰ انظر فيما سبق، ص 247.

¹¹ انظر فيما سبق، ص 253.

4.2.4 التَّورِيَّة

أولى كُتَّابُ العصرِ المملوكيِّ التَّورِيَّةَ اهتماماً خاصّاً؛ وذلك لأنها تدلُّ على تفوّق مُبدِعيها، وبراعته في تطويع الألفاظ كيفما شاء، إضافةً إلى أنها تتطلَّبُ من المُتلقِّي إعمال فكره؛ لأجل سَبَرِ أغوارها، حتى إذا ما تمَّ ذلك، تبدَّى له مدى إبداع مُنشئها.

وتُسمَّى أيضاً: الإيهام، والتَّوجيه، والتَّخيير، والتَّخييل، وتتمثَّلُ في إيراد الكاتب لفظاً ما له معنيان، الأوَّل قريب، والثَّاني بعيد، فيظنُّ المُتلقِّي للوهلة الأولى أنَّ المُراد هُوَ القريب، مع أنَّ الكاتب يرمي إلى المعنى البعيد⁽¹⁾.

وقد اقتفى الكُتَّاب في هذا النُّوع البديعيَّ أثرَ القاضي الفاضل، دليل ذلك قول الصَّفدي: "وقد حافظَ على التَّورِيَّة كثيرٌ من المُتأخِّرين، وسلكَ سبيلهم جماعة من النَّاظمين والنَّاثرين، وأظنُّ القاضي الفاضل -رحمه الله- ممَّن ذلَّلَ صعابها، ومهَّدَ بالأمنِ مخاوفها وشعابها، وأنزلَ النَّاسَ ساحتها ورحابها، حتى ارتشفَ هذه السُّلَافَةُ أهلَ عصره"⁽²⁾.

وقد أكَّدَ ذلك ابن حجة الحموي، ذاكراً أسماء الأدباء الذين تأثَّروا به، وسلكوا سبيله، ومن بينهم محيي الدين بن عبد الظاهر، حيث قال: "وقيلَ إنَّ الفاضل هو الذي عصر سُلَافَةَ التَّورِيَّة لأهلِ عصره، وتقدَّم على المُتقدِّمين بما أودعَ منها في نظمهِ ونثره، فإنَّه -رحمةُ الله تعالى- كشفَ بعدَ طولِ التَّحجُّبِ سِتَرَ حجابها، وأنزلَ النَّاسَ بعدَ تمهيدها بساحاتها ورحابها، وممَّن شربَ من سُلَافَةِ عَصْرِه، وأخذَ عنه، وانتظَمَ في سلكه بفرائدِ دُرِّه، القاضي السَّعيد ابن سنا المُلْك، ولم يزل هو ومَن عاصره مجتمعين على دَوْرِ كَاسِها، ومُتَمَسِّكين بطيبِ أنفاسِها، إلى أن جاءت بعدهم حلبة صاروا فرسان ميدانها، والواسطة في عقد جُمانها، كالسَّراج الورَّاق، وأبي الحسن الجزَّار، والنَّصير الحَمَّامي، وناصر الدين حسن بن النَّقيب، والحكيم شمس الدين بن دانيال، والقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر"⁽³⁾.

¹ انظر: ابن حجة الحموي، خزانة الأدب، 39/2، والحلي، حسن التَّوسُّل، ص 249.

² الصَّفدي، فضُّ الختام عن التَّورِيَّة والاستخدام، دراسة وتحقيق المحمَّدي عبد العزيز الحنَّاوي، ط 1، دار الطباعة المحمَّديَّة، القاهرة، 1979م، ص 124.

³ ابن حجة الحموي، خزانة الأدب، 43/2.

وقد أكثرَ ابن عبد الظاهر من استخدام التَّورية في رسائله، ومن الأمثلة عليها قوله في عهد سيف الدين قلاوون: "وأقامَ الخلافةَ العباسيَّة.. وأنفذَ كلمتها في ممالك الدولة العلويَّة بخيرِ سيفٍ مشحوذ، ماضي العزائم"⁽¹⁾، والتَّورية هنا في كلمة "سيف" فالمعنى القريب لها الأداة التي تُستخدم في القتال، وليس هذا ما يريده الكاتب، بل يريد سيف الدين قلاوون، وقوله في عهد السعيد بركة خان: "ويُنَجِّحُ مطالب الأُمَّة بإياليته، وكيفَ لا ينجحُ مطلبٌ يكونُ فيه بركة؟"⁽²⁾، والتَّورية هنا في كلمة "بركة"، فالمعنى القريب لها، النِّماء والزيَّادة، والمعنى البعيد المُراد، بركة خان.

ومنَ الأمثلة كذلك، قوله في عهد الصَّالح علاء الدين علي: "ومنَ يتحقَّق مِن والده الماضي الغرار، ومن اسمه العالي المنار، أن لا سيفَ إلَّا ذو الفقار، ولا فتى إلَّا علي"⁽³⁾، فالمعنى القريب لكلمة "علي" الصحابيُّ الجليل علي بن أبي طالب، بدلالة تقديم اسم سيفه "ذو الفقار"، أمَّا المعنى البعيد المُراد، فولِّي العهد المذكور.

وقوله في عهد الأشرف خليل: "والذي ما قيلَ لبناءٍ مُلك: هذا عليُّه قد وهى، إلَّا وقيل: هذا بناءٌ مثله، مِنْهُ أسمى مُلكاً وأشرف"⁽⁴⁾، فالتَّورية هنا في كلمة "عليه" والمعنى القريب لها المُرتفع، أمَّا المعنى البعيد المُراد، فعلاء الدين علي؛ نظراً لوفاته، وفي كلمة "أشرف" كذلك، والمعنى القريب لها، المُنتصب العالي، المشرف على ما حوله، والمعنى البعيد المُراد، الأشرف خليل؛ نظراً لتوليِّه العهد بعد وفاة أخيه.

ومنها قوله في العهد ذاته: "وكم أبرأُ مورده العذب هيم عطاش، ولا يُنكر الخليل إذا قيل عنه أنه أبراهيم"⁽⁵⁾، فالمعنى القريب لكلمة "أبراهيم"، سيِّدنا إبراهيم عليه السَّلام، والمعنى البعيد المُراد أنه (أي الأشرف خليل) أبرأُ هيماً، أي أطفأ ظمأ العطاش.

¹ انظر فيما سبق، ص 43.

² انظر فيما سبق، ص 50.

³ انظر فيما سبق، ص 54.

⁴ انظر فيما سبق، ص 59.

⁵ انظر فيما سبق، ص 59.

وقوله في وصفه لحال الجيش في أثناء رحلة فتح قيسارية: "فمنّا نومة السّليم"⁽¹⁾، فالمعنى القريب لكلمة "السّليم"، الخالي من الأذى، والمعنى البعيد المُراد الملدوغ.

ويقول عن حصن الأكراد: "تَشْكُو جَوْر جواره تلك الحصون والصّيّاصي، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها، وناهيك بمدمع العاصي"⁽²⁾، فالمعنى القريب لكلمة "العاصي"، الشّخص الخارج عن الطّاعة، أمّا المعنى البعيد المُراد، نهرُ حماة المعروف بالعاصي.

ويقولُ في إقطاع بدر الدين بيدرا: "الحمدُ لله الذي جعلَ بدر الدين تماماً على الذي أحسن"⁽³⁾، فالمعنى القريب لكلمة "بدر"، القمر ليلة كماله، والمعنى البعيد المُراد، بدرُ الدين بيدرا.

ويقولُ في صدّاق السّعيد بركة خان: "جامع أطراف الفخار لذوي الإيثار، حتى حصّلت لهم النّعمة الشّاملة، وحلّت عندهم البركةُ الكاملة"⁽⁴⁾، فالمعنى القريب لكلمة "بركة"، النّماء والزيّادة، والمعنى البعيد، السّعيد بركة.

كما أنه يقول في الصّدّاق ذاته: "وإبراز وُصلة يتجمّل بترصيع جوهَرها متنُ السّيف، الذي يغبطه على إبداع هذا الجوهَر به كُلُّ سيف"⁽⁵⁾، فالمعنى القريب لكلمة "سيف"، نوع من أنواع الأسلحة التي تُستخدم في القتال، والمعنى البعيد المُراد، سيف الدين قلاوون، الذي يُغبط من قِبَل الآخرين؛ لارتباط السّعيد بركة بابنته.

ومن الصّدّاق نفسه قوله: "ويختارُ لها أبرك طالع: وكيف لا تكون البركة في ذلك الطّالع وهو السّعيد؟"⁽⁶⁾، فالمعنى القريب لكلمة سعيد المُفرح، أمّا المعنى البعيد المُراد، فهو السّعيد بركة خان.

ومن الأمثلة كذلك، قوله في جواب التّعزية الذي بعثَ به لصاحب اليمن بسبب وفاة علاء الدين علي: "والرّغبة إلى الله تعالى في أن يجعل تلك المُصيبة للرّزايا

¹ انظر فيما سبق، ص 145.

² انظر فيما سبق، ص 185.

³ انظر فيما سبق، ص 201.

⁴ انظر فيما سبق، ص 204.

⁵ انظر فيما سبق، ص 204.

⁶ انظر فيما سبق، ص 204.

خاتمة.. وأن يجعلها بعد حَمَلِ هذا الهمِّ وفصاله على عليّه فاطمة⁽¹⁾، فالمعنى القريب لكلمة "فاطمة"، السيّدة فاطمة بنت الرّسول -صلى الله عليه وسلّم- زوج علي بن أبي طالب، ولكنّ المعنى البعيد المراد من هذه الكلمة، أن يجعل المصيبة التي فجّع بها السلطان قلاوون بوفاة ابنه علاء الدين علي، منقطعة عليه ومُتوقّفة، فلا يبتليهم بموت عزيز آخر.

ومنها قوله: "أخسُّ مخلوقات الله تعالى، وهو المُسمّى بالوطواط"⁽²⁾، فالمعنى القريب لكلمة "الوطواط"، الطائر المُسمّى بذلك، أمّا المعنى البعيد، فالكاتب المُسمّى بالوطواط الكتبي.

وقوله مُبشّراً بوفاء النيل: "فإنَّ أشملها.. نعمة أجزلتِ المنّ والمنح، وأنزلت في أبرك سفح المُقَطَّم أغزرَ سفح"⁽³⁾، فالمعنى القريب لكلمة "سفح" الثّانية، قمّة الجبل المذكور، أمّا المعنى البعيد المراد، فهو انصباب المطر. ويتّضح ممّا سبق جميعاً، أنّ محيي الدين بن عبد الظاهر نوع في استخدام المُحسنات البديعيّة، كما كان القاضي الفاضل من قبله، وقد عمل بصحبة معاصريه على تحسينها وتطويرها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، حتّى صارَ البديع في عصرهم، كما يقول الصفدي: "أحسن بدعة، وأوضح لمعة، وأملح طلعة.. به تُبنى بيوت الشعر في أشرف بقعة، وتبرز أبارك الأفكار منه في خلعة بعد خلعة، وإذا كان الشعرُ برّاً، فهو منه أعذب جرعة، والمكاتبات حلّة مرموقة، فهو طرازُ كلِّ رُقعة"⁽⁴⁾.

3.4 التّناصُّ ونثر محيي الدين بن عبد الظاهر

عُرِفَ التّناصُّ قديماً بِمُسمّيات مُتعدّدة، كالإقتباس، والتّضمين، وحلّ المنظوم، فكان الأديبُ يعمد إلى اجتراء شيءٍ من آيات القرآن الكريم، أو الحديث النبويّ الشريف، أو الموروث الشعريّ، أو الأمثال المُتداوِلة، أو الأحداث المُختلفة، سواء

¹ انظر فيما سبق، ص 210.

² انظر فيما سبق، ص 226-227.

³ انظر فيما سبق، ص 250.

⁴ الصفدي، جنان الجناس (في علم البديع)، تحقيق سمير حسين حليبي، ط 1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1987م، ص 14-15.

أكانت دينيَّة، أم تاريخيَّة، أم اجتماعيَّة، أم غير ذلك؛ ليُحلِّي بها إبداعه، سواء أكان نثراً أم نظاماً، وهو دالٌّ على اتِّساع ثقافة مُستخدِمِه.

ويقولُ ابن معصوم في تعريفه للاقتباس: "هو تضمينُ النظم أو النثر بعض القرآن الكريم، لا على أنه منه، بأن يُقال فيه: قال الله أو نحوه، فإنَّ ذلك حينئذٍ لا يكون اقتباساً... (و) المشهور تخصيصُ الاقتباس بكونه من القرآن، ومنهم من عدَّ المُضمَّن في الكلام من الحديث اقتباساً أيضاً"⁽¹⁾، وعلى ذلك يكون مفهوم الاقتباس خاصاً بالقرآن الكريم، والحديث النبويِّ الشريف.

ومُشابهةً للقولِ السابق، قولُ ابن حجة الحموي، إلّا أنه يُقسِّمُه إلى ثلاثة أقسام، أولّها: المقبول، وهو ما يردُّ في الخطب والمواعظ، والعهود، ومدح النبيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّم، وثانيها: المُباح، وهو ما يردُّ في الغزل والرسائل والقصص، وثالثها: المردود، وله نوعان، الأول: ما نسبهُ الله إلى نفسه من الآيات، ونقلهُ المُقتبس إلى نفسه، أمّا الثاني فهو تضمين آية كريمة في معنى هزل⁽²⁾.

ويُعرِّفُ الحمويُّ التَّضمين قائلاً: "هو أن يُضمَّن المُتكلِّم كلامه كلمة من بيت، أو من آية، أو معنى مجرداً من كلام، أو بيت شعر"⁽³⁾.

كما أنه يُعرِّف حلَّ المنظوم بقوله: "أن يتوخَّى هدم البيت المنظوم، وحلُّ فرائده من سلكه، ثم يرتَّب تلك الفرائد وما شابهها ترتيباً متمكِّناً، لم يحصره الوزن، ولا اضطرَّته القافية، ويبرزها في أحسن سلك، وأجمل قالب، وأصحَّ سبك، ويكملها بما يناسبها من أنواع البديع، إذا أمكن ذلك، من غير تكلفة"⁽⁴⁾.

وتجتمع معاني المُسمَّيات السَّابقة في مصطلح (التَّنَاص)، الناشئ في فترة السُّنِّيَّات، على يد بعض علماء الغرب، من أمثال جوليا كرستيفا، ورولان بارت، وريفاتير، وجيرار جنيت، ودريدا، وغيرهم، غير أنَّ بعض النُّقاد يرون أنَّ باختين أول القائلين بالتَّنَاص⁽⁵⁾.

1 ابن معصوم، أنوار الربيع، 217/2.

2 ابن حجة الحموي، خزانة الأدب، 455/1.

3 الحلبي، حسن التَّوسُّل، ص 238.

4 المصدر نفسه، ص 325-326.

5 كيوان، عبد العاطي، التَّنَاصُ القرآنيُّ في شعر أمل دنقل، ط 1، مكتبة النَّهضة المصريَّة، القاهرة، 1998م، ص 15.

وعلى الرغم من غربيّة ذلك المصطلح، إلّا أنّ له جذوراً عربيّة، تمثّلت بالمسمّيات السّابقة.

وقد عرفَ عبد العاطي كيوان التّناسّ بقوله: "هُوَ نوعٌ من تأويل النّص، أو هُوَ الفضاء الذي يتحرّك فيه القارئ الناقد بحريّة وتلقائيّة، معتمداً على مذكوره من المعارف والثّقافات، وذلك بإرجاع النّص إلى عناصره الأولى التي شكّلتُه وصولاً إلى فكِّ شفراته، إذ إنّ ثقافة المُبدع قد تكوّنت عبرَ دروبٍ مختلفة، لا يستطيع تبيانها في كلّ الأحوال"⁽¹⁾.

وأبسطُ من القول السّابق، قول أحمد الزعبي في تعريفه: "التّناسّ في أبسط صورهِ، يعني أن يتضمّن نصٌّ أدبيٌّ ما نصوصاً أو أفكاراً أخرى سابقة عليه، عن طريق الاقتباس، أو التّضمن، أو التّلميح، أو الإشارة، أو ما شابه ذلك من المقروء الثّقافي لدى الأديب، بحيث تندمج هذه النّصوص أو الأفكار مع النّصّ الأصليّ، وتتدغم فيه ليتشكّل نصٌّ جديدٌ واحد متكامل"⁽²⁾.

وعلى الرغم من اجتهاد الأديب وتفانيهِ في إذابة المُدخلات النّصيّة بين طيّات إبداعهِ، إلّا أنّه لا مفرّاً من ظهور بعض اللّمع والعلامات الدّالة عليها، والتّفاضل بين الأدباء في استخدام التّناسّ، يتمثّل في مقدرة الواحد منهم على تحويل تلك المُدخلات، وإدماجها في النّصّ الأصليّ، بحيث لا تكون مُنفصلة عنه وسائبة⁽³⁾.

وقد أكثرَ كُتّابُ العصر المملوكيّ من استخدام المسمّيات الدّاخلية في مفهوم التّناسّ، فاقْتَبَسُوا كثيراً من آيِ الذّكر الحكيم، والحديث النبويّ الشّريف، وضمّنوا نصوصهم شيئاً من الأشعار والأمثال، إضافةً إلى لجوئهم إلى حلّ المنظوم وتحويلهِ وإدماجه في النّصّ الأصليّ.

وقد ماشى محيي الدين كُتّابُ عصرهِ في ذلك، فظهرَ التّناسّ في رسائلهِ على نوعين: التّناسّ الديني، والتّناسّ الأدبيّ.

¹ كيوان، التّناسّ القرآني، ص17.

² الزّعبي، أحمد، التّناسّ نظريّاً وتطبيقيّاً، ط 2، مؤسسة عمّون للنشر والتوزيع، عمّان، 2000م، ص11.

³ انظر: عيد، رجاء، النّصّ والتّناسّ، علامات في النقد، جدّة، 1995م، ع 18، مج 5، 179/18.

1.3.4 التناصُ الدينيُّ

يعدُّ التناصُ الدينيُّ أكثر أنواع التناص استخداماً من قِبَل الكُتَّاب؛ وذلك أنَّه يُضفي على النصوص الأصلية مسحة دينية، ويُعطيها شيئاً من القداسة، وفيه يتمُّ استحضار شيء من آيات القرآن الكريم، أو عبارات الحديث النبوي الشريف، ويعمد إلى إدخالها في النصِّ الأصليِّ على صورتها الأصلية، أو على صورة مُغيرة لها؛ نظراً لإخضاعها لبعض عمليَّات التحويل والتَّحوير، "بحيث تتسجم مع السيِّاق... وتؤدِّي غرضاً فكريّاً أو فنيّاً، أو كليهما معاً"⁽¹⁾.

ومن الأمثلة على التناصِّ المباشر لآيات القرآن الكريم في رسائل ابن عبد الظاهر، قوله في عهد قلاوون على لسان الحاكم بأمر الله: "وزمام كُلِّ صلاح يجب أن يشغل به جميع أوقاته، هو تقوى الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾"⁽²⁾ (3).

ففي الفقرة السابقة، عمد الكاتب إلى إشعار المُتلقي بأنَّ النصَّ مقتبسٌ من أيِّ الذِّكر الحكيم، عن طريق التوطئة له بعبارة "قال الله تعالى"، وهذا لا يدخل في باب الاقتباس على رأي ابن معصوم، وقد رمى الكاتب من خلاله إلى إلزام المعهود إليه بتقوى الله؛ وذلك أنَّه سبحانه وتعالى أمر المؤمنين عامَّةً بطاعته، ومخافته، وعدم عصيانه، إذا فالنصُّ المقتبس هنا يفيذُ الإلزام؛ نظراً لقدسِيَّته.

وقال في عهد السَّعيد بركة خان: "ونشهدُ أنَّ محمداً عبده الذي أنزلَ في التَّسْلِيَةِ به: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾"⁽⁴⁾ (5).

وقد لجأ الكاتب هنا إلى استخدام عبارة أخرى، لإشعار المُتلقي بالنصِّ المُقتبس، وهي: "أنزلَ في التَّسْلِيَةِ به"، أضف إلى ذلك أنَّه وظَّفَه لخدمة غرضٍ في نفسه، يتمثَّل بالمُساهمة في تسليّة قلاوون وتصويره على مُصابه بوفاة ابنه الصالح علاء الدين عليٍّ أولاً، والتأكيد على استمراريّة الحياة وعدم انتهائها بموته ثانياً، كما أراد الله -سبحانه وتعالى- من قبل حثِّ المسلمين على ضرورة التمسُّك بما أتت به

¹ الزعبي، التناصُّ نظريّاً وتطبيقيّاً، ص 37.

² سورة آل عمران، آية 102.

³ انظر فيما سبق، ص 47.

⁴ سورة آل عمران، آية 144.

⁵ انظر فيما سبق، ص 58.

الرُّسُل، وإنْ فَقِدَ الرسولُ بموتٍ أو قتلٍ، وسببُ ذلك عائدٌ إلى هزيمتهم يومَ أُحُدٍ؛ نظراً لفرعهم نتيجةَ انتشارِ النبأِ الكاذبِ بوفاةِ الرسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

وقالَ في الرسالةِ السَّاخِرةِ التي أنشأها عن الظاهرِ بيبرسٍ لببند، مبشراً إيَّاهُ بفتحِ مدينةِ أنطاكية: "ولو شاهدتَ النيرانَ وهي في قصوركَ تخرقُ، والقتلى بنارِ الدُّنيا قبلَ نارِ الآخرةِ تخرقُ، وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان، وقد زلت كلُّ منهما وزالت، لكنك تقول: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾⁽¹⁾ (2).

فهو المُشهد الذي تبدَّى من خلال وصف الكاتب لمظاهر الدمار التي حلت بمدينة أنطاكية على أيدي الجيش الفاتح، حدا به إلى استحضر النصَّ القرآنيَّ المُناسب، الذي يُبينُ حالَ الكافر يومَ القيامة، فهو يتمنى أن يضمحلَّ ويتلاشى، فيصبح تراباً كما هو مصير البهائم حينها؛ نتيجةَ مُشاهدته أصناف العذاب التي أعدت لبقيَّة الكافرين، وهكذا -من دون شك- سيكون حال بيبند الصليبي، لو كان حاضراً ما حلَّ بمدينة.

وقالَ في التَّوقيع الذي أنشأه للشَّيخ المَهْدَب برئاسة اليهود: "فقلَّ لهم: هذه موهبةُ الدَّولة وإحسانها إليكم، ولطفها بكم، وعاطفتها عليكم، وبصرهم بذلك كلِّما تلا إحساننا إليهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾⁽³⁾ (4).

فأمرُ السلطان السابق بضرورة إشعار اليهود بإحسانه عليهم، حين أولاهم شيئاً من اهتمامه، فنصَّبَ لهم رجلاً يسوسُ أمورهم ويرعاهم، استدعى الكاتب لاستحضار النصِّ القرآني الملائم، وفيه يُخاطب الله بني إسرائيل مُذكِّراً إيَّاهم بنِعَمِهِ العديدة التي منَّ بها عليهم، والمتمثلة باستنقاذهم من أيدي فرعون وقومه، وإنزاله عليهم المنِّ والسَّلوَى، وتمكينه لهم في البلاد بعد أن كانوا مقهورين حينها، وغيرها من النعم، وكأنَّ الكاتب أراد من ذلك إلزام اليهود بطاعة السلطان، وعدم إثارة الشَّغب وزعزعة أمن الدَّولة، جزاءَ اهتمامه بهم.

¹ سورة النبأ، آية 40.

² انظر فيما سبق، ص 100.

³ سورة البقرة، آية 47.

⁴ انظر فيما سبق، ص 129.

وَوَصَفَ مُجَرِّياتِ المواجهة بين الجيش الفاتح لقيسارية والأعداء قائلًا:
 "واشتدَّت فرقة من العدو من جهة الميسرة، معرَّجينَ على السَّناجق الشَّريفة من
 خلفها، منقلبين بصفوفهم على صفِّها... فتأبَّ مولانا إليهم، ووثبَ عليهم، فضحَّى كُلُّ
 منهم بِكُلِّ أَشْمَط، وأفرى الأجسادَ فأفرط، ولحقَ مولانا السلطان منهم مَن قصدَ
 التَّحصينَ بالجبال، فأخذهم الأخذة الرَّابية، وقتلهم ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾؟⁽¹⁾»⁽²⁾.

فالنَّصُّ السَّابِقُ يَشِيرُ إلى فناء الأعداء على أيدي السلطان وجيشه الفاتح
 لقيسارية، كما أشار الله سبحانه وتعالى إلى فناء قوميِّ ثمود وهود؛ نتيجة إنزاله
 العذاب بهم، جزاء طغيانهم وكفرهم به، والسؤال الذي يفيدُه النصُّ المُقتَبَسُ موجَّهٌ
 إلى سيِّدنا محمَّد عليه الصَّلَاة والسَّلَام، وفيه تأكيد على تلاشي أولئك من على وجه
 البسيطة عن آخرهم، حتَّى أَنَّهُ سبحانه وتعالى لم يجعل لهم خَلْفًا.

وقالَ في الرسالة التي أنشأها عن المظفر قطز إلى صاحب اليمن؛ بسبب
 هزيمة التتار في عين جالوت: "وَقُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وذلك بما قدَّمت
 أيديهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾"⁽³⁾»⁽⁴⁾.

فمواجهة المسلمين للتتار وقتلهم، لم تكن عبثًا ولا ظلمًا، بل حدثت نتيجة
 جبروتهم وبغيهم، وإرهاقهم الإسلام وأهله، وإعمالهم الخراب في ديارهم، وهذا
 يتناسب مع النصِّ المُقتَبَسِ، وذلك أَنَّ الله يُبَيِّنُ للنَّاس أَنَّهُ لَا يُعَاقِبُ أَحَدًا إِلَّا عَلَى جُرْمٍ
 اقْتَرَفَهُ فِي الدُّنْيَا، أو على سبب ما، استحقَّ ذلك منه.

وقالَ في جواب التَّعْزِيَةِ المُرسَلِ لصاحب اليمن عن المنصور قلاوون:
 "وَيُطْلَعُ العِلْمُ الكَرِيمُ على ورودٍ مثاليٍّ كَرِيمٍ، لولا زُرْقَةُ طرسه، وزرقة لبسه، لقال:
 ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾"⁽⁵⁾»⁽⁶⁾.

والكاتبُ في النَّصِّ السَّابِقِ، يُبَيِّنُ أثر رسالة صاحب اليمن في نفس قلاوون،
 ومساهمتها في تصبيره على فقدان ولده الصَّالح علاء الدين، فلولاها لكان حاله

¹ سورة الحاقة، آية 8.

² انظر فيما سبق، ص 139-140.

³ سورة فصلت، آية 46.

⁴ انظر فيما سبق، ص 164.

⁵ سورة يوسف، آية 84.

⁶ انظر فيما سبق، ص 207-208.

كحال يعقوب، والد سيّدنا يوسف عليه السلام، وذلك أنّه كظَمَ الحُزنَ في قلبه، ولم يُفصح عنه، فكُفَّ بصره جرّاء ذلك.

ومن الأمثلة على التّناصُّ غير المباشر لآيات القرآن الكريم، قوله يوصي الأشرف خليل على لسان والده: "وحدود الله، فلا يتعدّها أحد، ولا يرأف فيها ولد بوالد ولا والد بولد، فأقمها وقم في أمرها حتى تتضبط أتمّ الضبط، ولا تجعل يدَ القتل مغلولة إلى عنقها، ولا تبسطها كلّ البسط، فلكلّ من الجنايات والقصاص شرط شرطه الله وحدّ حدّه، فلا يتجاوز أحد ذلك الحدّ، ولا يخرج عن ذلك الشرط"⁽¹⁾.

ففي النصّ السابق تناصّ الكاتب مع الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾⁽²⁾، إلّا أنّه قلبَ دلالتها، حيثُ نقلَ الآية من محيط الإنفاق والإمساك، إلى مُحيط الحدود ومُتعلّقاتها، دون التحوير في ألفاظها، فبدلاً من أن يكون الأمر فيها موجّهاً للرّسول -صلى الله عليه وسلّم- بعدم الإمساك عن النّفقة في حقوق الله، وعدم بسطها بالعطيّة كلّ البسط، فيبقى لا شيء عنده، وُجّهَ إلى الأشرف خليل لِحثّه على التزام حدود الله وضرورة تطبيقها على الأفراد الذين يستحقونها فقط، ضيّنَ الشروط التي وضعها سبحانه وتعالى.

وقوله في التقليد الذي أنشأه لبهاء الدين بن حنا بالوزارة: "قلّتزم الألسنة والأقلام والأقدام في خدمته أحسن الآداب، وليقلّ المتردّدون: حطّة إذا دخلوا الباب، ولا يغرنّهم فرطُ تواضعه لدينه وتقواه، فمَن تأدّب معه تأدّب معنا، ومَن تأدّب معنا تأدّب مع الله"⁽³⁾.

وقد تناصّ في قوله مع الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾⁽⁴⁾، فالخطابُ موجّهٌ في هذه الآية إلى قوم سيّدنا موسى -عليه السلام- إذ يأمرهم سبحانه وتعالى بدخول باب بيت المقدس، وطلب المغفرة منه بقولهم: احطط عنا خطايانا وهم ساجدين له، إلّا أنّ الكاتب غيرَ الدّالة هنا فوجّه الخطاب إلى

¹ انظر فيما سبق، ص 64.

² سورة الإسراء، آية 29.

³ انظر فيما سبق، ص 110.

⁴ سورة البقرة، آية 58.

الأفراد المترددين إلى مجلس الوزير، أمراً إياهم باحترامه وتقديره، إذا ما دخلوا باب مجلسه عن طريق انحنائهم له، تأدباً معه، فمن تأدب معه تأدب مع السلطان، ومن تأدب مع السلطان تأدب مع الله، كما يقول، فالسجود المطلوب في الآية الكريمة لطلب المغفرة من الله، أما الإحناء في نص الرسالة فلاحترام الوزير والتأدب معه.

وقوله في وصف رحلة الجيش الفاتح لقيسارية: "ورحلنا في يوم الأحد ثاني عشر شهر ذي القعدة، وكانت السماء فد حيت الأرض بتيجان أمطارها، وأغرقت الهوام في أحجارها، والفتخ في أوكارها، وأصبحت الأرض لا تتماسك حتى ولو لمرور الأرقام، والجبال لا تتماسك أن تكون للعصم عواصم، تضع بها من الدواب كل ذات حمل، وتزلق في صقيلا أرجل النمل"⁽¹⁾.

ففي النص السابق، تناص الكاتب مع قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾⁽²⁾، إلا أنه غير في دلالتها فنقلها من أجواء زلزلة الساعة وأحوالها، إلى أجواء وصف الطبيعة وأحوالها، فبدلاً من أن تضع كل ذات حمل حملها بسبب الفرع الذي يصيبها جرأ ما يحدث في ذلك اليوم، توضع الأحمال عن الدواب؛ خوفاً من ابتلالها، نتيجة الانهمال الغزير للمطر آنذاك.

ويقول في البشارة التي أنشأها عن الظاهر بيبرس لابن خلكان؛ بسبب فتح حصن الأكراد: "واحترقت حماة من النيران الموقدة بأحشاء حماه، فحينئذ بلغت روحه التراقي، وعجلت عليه المجانيق المذكورة التي أصابته بعين ما لها من راقى"⁽³⁾.

وقد تناص الكاتب في القول السابق مع قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾⁽⁴⁾، لكنه نقل الدلالة من جو الموت وسكراته إلى جو الحرب وأحوالها، وبدلاً من أن يكون الحديث عن حال الكافر في أثناء خروج روحه، حيث لا شافٍ ينفع ولا راقٍ يقدر على رد قضاء الله، وإصلاح حاله، تحول إلى وصف

¹ انظر فيما سبق، ص 144-145.

² سورة الحج، آية 2.

³ انظر فيما سبق، ص 171.

⁴ سورة القيامة، آية 26، 27.

حالِ حصن الأكراد بعد إتعاب الجيش الفاتح له، جرّاء نقب أسواره، ونصب المجانيق عليه وإضرار النار في أرجائه، إذ بدا ضعيفاً، مهدود القوى، لا مصلح لحاله نتيجة ذلك.

وقال في الرسالة التي تتضمن أمر السلطان بإبطال الحشيش بعد الخمر: "وأن الجماعة التي كانت ترضع ثدي الكأس عن ثديها ما فطمت، وأنها في النشوة ما خيَّب إبليس مسعاهاً، وأنها لما أخرج المنع عنها ماءها من الخمر، أخرج لها من الحشيش مرعاها"⁽¹⁾.

وفيها تناصّ مع الآية الكريمة: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾⁽²⁾، التي تدلُّ على قدرة الله تعالى، إذ إنّه أخرج من الأرض الماء والمرعى كي تستمر الحياة على سطحها، لكنّ الكاتب وظف الآية لخدمة غرضه، فالسلطان منع الماء عن الأفراد عند إصداره أمراً بعدم شرب الخمر، إلّا أنّ الشيطان لم يرضَ عن ذلك، فعوَّض أتباعه عن الخمر بالمرعى الحسن المتمثّل بالحشيش.

وقال في الاستدعاء الذي أرسله لصديقه، مادحاً قيمَ الحمّام: "وحسن صنعه فلا يمسك يداً إلّا بمعروف ولا يُسرّح إلّا بإحسان"⁽³⁾، وفيه تناصّ مع قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾⁽⁴⁾، إلّا أنّه وظف الدلالة في سياق المدح للقيم المذكور، وذلك أنّه ماهر في عمله، يُطهّر أجساد الدّاخلين إلى حمّامه، ويُسرّح شعورهم تسريحاً حسناً.

ويلاحظُ الناظرُ في رسائل محيي الدين بن عبد الظاهر قلّة تناصّ الحديث الشريف مقارنة مع تناصّ القرآن الكريم، وقد بيّن محمد الدروبي سبب ذلك، قائلاً: "إنّ قدسيّة النصّ القرآنيّ وارتفاعه عن مستوى التعبير البشريّ أعلّته المنزلة الأولى، فنظر إليه الكتّاب على أنّه الأنموذج الرّفع الذي يُحتذى، في حين ظلّ حديث الرسول -صلى الله عليه وسلّم- لا يرقى أسلوباً وتعبيراً ولفظاً ومعنىً إلى كلامه عزّ وجلّ"⁽⁵⁾.

¹ انظر فيما سبق، ص 197 - 198.

² سورة النازعات، آية 31.

³ انظر فيما سبق، ص 215.

⁴ سورة البقرة، آية 229.

⁵ الدروبي، الرسائل الفنيّة في العصر العبّاسي، ص 536.

ومن الأمثلة على التناصُّ المباشر للحديث الشريف قول الكاتب في الخطبة الاستفتاحية لعهد الصالح علاء الدين علي: "وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ عَنْهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَيُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ"⁽¹⁾ فَحَسُنَ الْاَلْتِمَاسُ بِذَلِكَ وَالْاِقْتِبَاسُ"⁽²⁾، فلا يخفى ما للعبارة الأخيرة من دلالة على توظيف الكاتب لهذا الحديث في خدمة غرضه، إذ إنَّ المقصود فيه الصَّحابيُّ الجليل علي بن أبي طالب، لكنَّ الكاتب أراد إخراجَه على لسان قلاوون، بحيث يُصبح المقصود فيه الصالح علاء الدين علي، مُستغلاً التوافق في الأسماء بينهما لخدمة مُرادِه.

ويقولُ في العهد ذاته في أثناء إصدار أمر السلطان بصيغته الرّسميّة: "ولايّة واستخلافاً تُسندُهُما الرُّواة، وتترنّم بهما الحُداة، وتعيهُما الأسماع، وتنطق بهما الأفواه، تفويضاً يُعلن لكافة الأمم، ولكلِّ ربِّ سيفٍ وقلم، ولكلِّ ذي عِلْمٍ وعِلْمٍ، بما قاله- صَلَّى الله عليه وسلم- لِسْمِيَّه- رضي الله عنه- حينَ أولاه من الفخار ما أولاه: "مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ"⁽³⁾، فقد وظَّفَ الحديث هنا لخدمة غرضه المتمثِّل بإعلام الناس كافة بتقليد ولاية العهد لعلاء الدين علي؛ كي يمتثلوا أوامره ويطيعوه، كما هو الحال مع والده السُّلطان.

أمّا التناصُّ غير المباشر، فيتمثِّل بقوله مصوراً فضل الصَّهارة على قلاوون: "وأشرفها عبوديّة كرّمت سلمانها بأن جعلته من أهل البيت"⁽⁵⁾.

فقد تناصَّ الكاتبُ في قوله السابق مع الحديث النبويِّ الشريف: "سلمان منّا أهل البيت"⁽⁶⁾، إلّا أنّه قلبَ دلالاته، فبدلاً من أن يكون المقصود به الصَّحابيُّ سلمان الفارسي، الذي شرّفه رسول الله ورفع قدره، عندما نسبه لآل بيته، أصبح المقصود فيه قلاوون، الذي شرّفه الظاهر بيبرس بصهارته له؛ نظراً لارتباط ابنه السعيد بركة بابنته غازيّة خاتون.

¹ مسلم، صحيح مسلم، 1440/3.

² انظر فيما سبق، ص 52-53.

³ الترمذي، سنن الترمذي، 633/5.

⁴ انظر فيما سبق، ص 55.

⁵ انظر فيما سبق، ص 205.

⁶ النيسابوري، المستدرك على الصَّحَّاحين، 691/3.

وقوله مخاطباً ابن غراب في الرسالة الهجائية التي عرضَ فيها بالوطواط الكتبي: "وليراقبه مراقبة أبيه إذا قنع من إيمانه بما اقتنع به صلى الله عليه وسلم من السّوداء بأن قال لها: أين الله؟ فقالت في السّماء"(1).

ففي النصّ السابق تناصّ الكاتب مع قوله صلى الله عليه وسلم للجارية الأعجمية السّوداء، التي حضرت برفقة سيّدها الذي أرادَ عتقَهَا: "أينَ الله عزَّ وجلَّ؟ قالت: في السّماء، قال: فَمَنْ أنا؟ قالت: أنتَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. قال: إنَّها مؤمنة فاعتقها"(2)، فالرسول -عليه الصّلاة والسلام- لم يُمكن الرّجل من اعتاق الجارية، إلّا بعد تأكّده من إيمانها، وكذلك الأمر بالنسبة لابن غراب، فإذا تأكّد من إيمان الوطواط وحسن نيّته، فلا داعي لقتله، بل يستعيّض عن ذلك بمراقبته المتواصلة، كما هو حال الابن مع ابنه.

وما سبق ذكره ما هوَ إلّا مقتطفات مُختارة للتّمثيل على طريقة استخدام الكاتب للتّناصّ الدينيّ، والنّاظرُ في رسائله يقع على كثيرٍ غيرها.

2.3.4 التّناصّ الأدبيّ

هُوَ تضمين النصّ الأصليّ، نصوصاً أدبيّة مُختارة، سواء أكانت نثراً أم نظاماً، بحيث يضمن الأديب انسجامها مع النصّ أوّلاً، وتدليلها على الفكرة المُرداة ثانياً(3). وقد عمدَ كثيرٌ من كتّاب العصر المملوكيّ إلى تضمين نصوصهم النثرية، شيئاً من الأشعار، فكانوا يأتون ببعض أبياتها كاملة أحياناً، ويعمدون إلى حلّها وتفكيكها أحياناً أخرى.

وإذا ما نظرَ القارئُ في رسائل ابن عبد الظاهر السّابقة، رأى أنّه لجأ فيها إلى استخدام الطّريقتين السّابقتين معاً، فمرةً كان يلجأ إلى استحضر البيت الشعريّ كاملاً، ومرةً يلجأ إلى حلّه.

1 انظر فيما سبق، ص 228.

2 النسائي، سنن النسائي، 17/3.

3 انظر: الزعبي، التناصّ نظرياً وتطبيقياً، ص 50.

وَمِنْ الْأَمْثَلَةِ عَلَى اسْتِحْضَارِ الْكَاتِبِ لِبَعْضِ الْأَبْيَاتِ كَامِلَةً، قَوْلُهُ فِي عَهْدِ الْأَشْرَفِ خَلِيلٍ: "لَا رَادًّا لِحُكْمِهِ، وَلَا نَاقِضَ لِبَرْمِهِ، وَلَا دَاحِضَ لِمَا أُثْبِتَتْهُ الْأَقْلَامُ مِنْ مَكْنُونِ عِلْمِهِ:

وَيَزِيدُهُ مَرًّا الْيَالِي جِدَّةً وَتَقَادُمُ الْأَيَّامِ حُسْنَ شَبَابٍ⁽¹⁾»(2).
فَفِي النَّصِّ السَّابِقِ وَظَفَّ الْكَاتِبُ بَيْتَ أَبِي تَمَّامٍ فِي خِدْمَةِ غَرَضِهِ، فَحَوَّلَهُ مِنْ نِطَاقِ الْمَدْحِ، إِلَى نِطَاقِ التَّعْبِيرِ عَنْ اسْتِمْرَارِيَّةِ الْعَهْدِ وَتَجَدُّدِهِ، عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ وَالسِّنِّينِ.

وقوله في الرسالة التي أنشأها للوزير بهاء الدين بن حنّاء؛ واصفا له رحلة الجيش الفاتح القيسارية: "وكان مولانا السلطان من حلب، قد أمر جميع عساكره بأدراع لامات حربهم، وحمل آلات طعنهم وضربهم:

فَجَازَ لَهُ حَتَّى عَلَى الشَّمْسِ حُكْمُهُ وَبَانَ لَهُ حَتَّى عَلَى الْبَدْرِ مَيْسَمُ
يَمْدُ يَدَيْهِ فِي الْمَقَاضَةِ ضَيْغَمٌ وَعَيْنِيهِ مِنْ تَحْتِ التَّرِيكَةِ أَرْقَمُ⁽³⁾»(4).
فَقَدْ غَيَّرَ وَجْهَةَ الْمَدْحِ فِي الْبَيْتَيْنِ السَّابِقَيْنِ، فَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَكُونَ الْمَقْصُودُ بِهِمَا سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْحَمْدَانِي، أَصْبَحَ الْمَقْصُودُ السُّلْطَانُ الْمَمْلُوكِي، سَيْفُ الدِّينِ قَلَاوُونَ، الَّذِي أَبْدَى شَجَاعَةً لَيْسَ لَهَا نَظِيرٌ فِي تِلْكَ الرَّحْلَةِ.

وقوله في الرسالة نفسها: "وَبَاتَ التَّنَارُ عَلَى أَجْمَلِ تَرْتِيبٍ لَأَنْفُسِهِمْ وَأَجْمَلِ مَنْظَرٍ.. وَلَمْ يَتَحَقَّقُوا قُدُومَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فِي جِيُوشِ الْإِسْلَامِ، وَلَا أَنَّهُ حَضَرَ بِنَفْسِهِ النَّفِيسَةَ لِيُقَوْمَ فِي نَصْرَةِ دِينِ اللَّهِ هَذَا الْمَقَامَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، عَاشِرَ ذِي الْقَعْدَةِ، تَتَابَعَ الْخَبَرُ بِأَنَّ الْقَوْمَ قَدْ قَرَّبُوا، وَأَنَّهُمْ ثَابُوا وَوَثَبُوا:

وَقَدْ تَمَنَّوْا غَدَاةَ الدَّرْبِ فِي لَجَبٍ أَنْ يُبْصِرُوهُ فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ عَمُوا⁽⁵⁾»(6).

¹ التبريزي، شرح ديوان أبي تَمَّام، 58/1.

² انظر فيما سبق، ص 61.

³ المتنبي، ديوان أبي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي، ص 290، 294.

⁴ انظر فيما سبق، ص 132-133.

⁵ المتنبي، ديوان أبي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي، وفيه "يبصروك" بدلا من "يبصروه" و"أبصروك" بدلا من "أبصروه"، ص 420.

⁶ انظر فيما سبق، ص 137.

ومع أنَّ الكاتب استحضرَ بيتَ المتنبي السابق كاملاً، إلّا أنَّه غيَّرَ بعض الضمائر المتصلة بالأفعال فيه، موجَّهاً إيَّاهَا مِنَ الخطابِ إلى الغيبة؛ كي تتلائم مع النصِّ الجديد الذي حوَّاهَا، وكما هي الحالُ في البيتين السابقين، حوَّلَ الكاتبُ وجهةَ المدحِ هنا إلى المنصور قلاوون، بدلاً من سيف الدولة الحمداني، فسوَّرَ رهبةَ التتار وتفاجئهم بسببِ قدومِ السلطان المذكور بصحبة جيشه الفاتح، الذي يهدف أولاً وأخيراً إلى نصرة الدين، ورفع رايته، والملاحظة الأخيرة تنطبقُ على جُلِّ الأبيات المنسوبة للمتنبي أصلاً، ولعلَّه أرادَ من ذلك أن يُلَمِّحَ من بعيدٍ إلى استحقاقِ سلطانه بمدائح ذلك الشاعر؛ نظراً لتفوقه على الممدوح المقصود فيها من وجهة نظره، بدليل قوله في الرسالة نفسها: "ومرَّ لا يفعلُ السَّيفُ أفعاله".

ومن الأمثلة -أيضاً- قوله في جواب رسالة التعزية، الذي بعث به عن المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن: "وفيما نحنُ بصددهِ مِنْ اشتغالٍ بالحروبِ ما يهَوِّنُ ما يَهولُ من الكروبِ، وفيما نحنُ عاكفونَ عليه من مكافحاتِ الأعداءِ ما بين المرءِ وبين قلبه يحولُ، ومثله عن تخيلِ أسفٍ في خاطرٍ يجول:

إذا اعتادَ الفتى خوضَ المنايا فأهونُ ما يمرُّ بهِ الوُحُولُ^{(1)»(2)}.

ويبيِّنُ في النصِّ السابق تغلُّبَ السلطان على مُصابه، المتمثِّلُ بوفاةِ ابنه علاء الدين علي؛ وذلك أنَّه لم يبقَ أسيرَ الحزنِ والأسى، بل شغلَ نفسه بما هو أجلُّ وأسمى، موجَّهاً نظره إلى جهادِ الأعداءِ وقتالهم، فاستحضرَ البيتَ الشعريَّ المُعَبَّرُ - إلى حدِّ ما - عما ذُكِرَ.

وقوله في الرسالة التي هجا فيها عائبه: "وها أنا قد وجدتُ مكانَ القولِ ذا سعة، والسَّيفُ أقطعُ ما يكونُ إذا هُزَّ، والجوادُ أسرعُ ما يكونُ إذا لُزَّ، وإنَّ مع اليومِ غداً، ولو تُركَ القطا لهدا، وعداوةُ الشعراءِ بئسَ المُقتنى!:

وَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ حُمَةُ الْأَفَاعِي يَعِيشُ -إِنْ فَاتَهُ أَجْلٌ- عَلِيلاً^{(3)»(4)}.

¹ المتنبي، ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، ص 253.

² انظر فيما سبق، ص 209.

³ أبو العلاء المعري، سقط الزند، ص 270.

⁴ انظر فيما سبق، ص 235.

فقد أرادَ الكاتبُ -مما سبق- أن يبيِّنَ لعائبه أنه ليسَ رجُلًا سهلاً، يرضى بانتقاد الأفراد لشخصه ويسكت، بل يردُّ عليهم ردًّا موجعا، يبقى أثره في نفوسهم طويلاً، كما هو حالُ تأثيرِ سُمِّ الأفعى فيمن تنهشه، إذ يبقى أسيرَ المرضِ مدى الحياة، إذا ما تخطَّفه الأجل، وهذا ما استدعاه إلى استحضار بيت أبي العلاء المعريِّ الوارد في النصِّ؛ لتضمينه التشبيه الأخير.

وفي ذلك القدر كفاية للتمثيل على استحضار الكاتب لبعض الأبيات الشعرية كاملةً في رسائله، أمّا آليَّةُ حلِّ الأشعار وتفكيكها، فتتمثَّل بقوله في عهد الأشرف خليل: "فإنَّ من ألطاف الله بعباده، واكتناف عواطفه ببلاده، أن جعلنا كلِّما وهي للملكِ رُكنٌ شديد، شيدنا رُكنًا عِوضه.. فأطلعنا في أفق السِّلطنة كوكبَ سعد، كان لحسن الاستخلاف مُعدًّا، ومَن لقبيل المسلمين خيرٌ ثواباً وخيرٌ مردًّا.. ومَن لم يبقَ إلَّا به أنسنا بعدَ ذهاب الذين نحُبُّهم وبقي كالسيفِ فرداً"⁽¹⁾.

وقد تناصَّ الكاتبُ -فيما سبق- مع قول عمر بن معدٍ يكرِب الزبيدي:
ذَهَبَ الَّذِينَ أَحَبُّهُمْ وَبَقِيَ مِثْلَ السَّيْفِ فَرْدًا⁽²⁾

فالشاعرُ في هذا البيت، يُبيِّن مدى فجعيته بأحبَّائه، ويُصوِّر حاله بعدهم، إذ بقيَ مُنفرداً بالسيادة، ماضياً بالأمور كالسيف، وهكذا كان حالُ الأشرف خليل الذي فُجعَ بوفاة أخيه الصالح علاء الدين علي، فعلى الرِّغم من تأثره الشديد بالحدَث، إلَّا أنَّه ظلَّ ثابتاً، وتفرَّدَ بعدَه بولاية العهد، التي أوكلت إليه من قبل والده سيف الدين قلاوون.

ويقولُ في أثناء مدحه لملك الغرب، الذي تعودَ إحقاق الحقِّ، ونُصرة المظلوم:
"فببارقةٍ يُضيءُ لديه الحالِك، وبلَمَحَةٍ يهتدي بحيث اهتَدت أمُّ النُّجوم الشَّوابِك"⁽³⁾.
وفيه أوردَ ابن عبد الظاهر عجز بيت لتأبط شراً، والبيت بأكمله:

يَرى الوَحْشَةَ الأُنْسَ الأُنيسَ ويهتدي بحيث اهتَدت أمُّ النُّجوم الشَّوابِك⁽⁴⁾

¹ انظر فيما سبق، ص 58.

² أبو تمام، ديوان الحماسة، ص 57.

³ انظر فيما سبق، ص 69.

⁴ أبو تمام، ديوان الحماسة، ص 39.

وقد أراد الشاعر في هذا وصف علم ممدوحة بالطَّرْق، واستغنائها عن الدَّلِيل، غير أنَّ الكاتب وظَّفَهُ لخدمة الفكرة التي أراد إيصالها للملك المذكور في هذه الرسالة، حيث إنَّه عمد إلى مدحه، وإعلاء شأنه؛ كي يحقق مبتغاه، المتمثل بمعرفة مَنْ اعتدى على غلام القاضي زين الدين بن حباسة، وسلبه ما معه، ولا غرو في ذلك، فهو يستطيع الوصول إلى المعتدين، والتَّعرُّف إليهم، دون حاجة لدليل؛ نظراً لقدرته وفطنته.

وفي معرض حديثه عن فتح النوبة يقول: "والشكرُ لله على إذلال ملكهم الذي لَانَ وهَانَ، وأذالَهُ ببأسِهِ الذي صرَّحَ به شرُّ كُلِّ منهم في قتاله، فأَمسى وهو عريان، وإزهاقهم بالأسنة التي غدا طعنهم كفم الزَّقِّ غدا، والزَّقُّ ملآنٌ"⁽¹⁾.

وقد عمد ابن عبد الظاهر في قوله السابق إلى حل أبيات الفند الزماني، التي نظمها في بني ذهل، حيث قال:

فَأَمْسَى وَهُوَ عُرْيَانُ	فَلَمَّا أَصْبَحَ الشَّرُّ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعَدَا	نَ دِنَاهُمْ كَمَا دَانُوا
وَطَعَنَ كَفَمِ الزَّقِّ	غَدَا وَالزَّقُّ مَلَأْنُ ⁽²⁾

فالشَّرُّ جنى على النوبيين، كما هو حال أبناء القبيلة المذكورة، الذين عادوا قبيلة الشَّاعر، وأظهروا الشَّرَّ لأفرادها، ممَّا دفعهم إلى أعمال السَّيف فيهم، حتى غدت دماء الذهلين لكثرة انصبابها، كالشراب المندفع من فَمِ الزَّقِّ وهو ملآن. ويقول في الإهداء الذي أرسله إلى جماعة الكُتَّاب: "لَمَّا ظَعَنَ وَالِدِي وَقَطَنْتَ، وتحركَ للرَّحْلة وسكنت، قلقتُ لبُعْدِهِ.. فَبَقِيتُ لَا التَّذُّ بِطَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ، وَلَا آوِي إِلَى أَهْلٍ وَلَا أَصْحَابٍ، وَلَا اتَّخِذُ مَكَاناً فِي الْأَرْضِ إِلَّا ظَهَرَ سَابِحٌ، وَلَا جَلِيساً إِلَّا كِتَابٌ"⁽³⁾.

ففي النصِّ السابق تناصُّ مع قول المتنبي:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا سَرَجٌ سَابِحٌ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابٌ⁽⁴⁾

¹ انظر فيما سبق، ص 189.

² أبو تمام، ديوان الحماسة، ص 30.

³ انظر فيما سبق، ص 219.

⁴ المتنبي، ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، ص 480.

وهكذا يكون الكاتب قد اختار أعزَّ مكان، وخيرَ جليس له في وحدته، على رأي المتنبي.

كما أنه يقول في هجائه لعائبه: "ولست -لحاك الله- من بني صُريم، الذين تَلَقَّتْهُمُ التَّهائمُ والنُّجود، ولا من بني عمرو، الذين لبيوتهم سَمَتْ صَعْبُ الصُّعود، ولا فيكَ ما في أبي قابوس، من حَزْمٍ ونائل"⁽¹⁾.

وفيه تناصُّ مع قول حُجر بن خالد:

سَمِعْتُ بِفَعْلِ الْفَاعِلِينَ فَلَمْ أَجِدْ كَمِثْلِ أَبِي قَابُوسَ حَزْماً وَنَائِلاً⁽²⁾

ففي بيت الشاعر مدحٌ للنعمان بن المنذر، المكنى بأبي قابوس؛ نظراً لحزمه، وضبطه لأمر مملكته، وعطائه الوفير، إلا أن الكاتب وظف المدح في نطاق ذمِّ عائبه، وانتقاص قدره، والسخرية منه، فعدم اتصافه بصفات أبي قابوس المذكورة، يجعله غير مؤهلٍ لذم الآخرين وانتقادهم.

ويدخل في باب التناصُّ الأدبي، تناصُّ الأمثال، أو الأقوال المأثورة، كما تُسمَّى في بعض الأحيان، وقد أورد محيي الدين بن عبد الظاهر شيئاً منها في رسائله، فجاء بها كاملة تارة، ومعكوسة تارة، ومفككة تارة أخرى.

ومن الأمثلة على النوع الأول منها، قول الكاتب في التوقيع الذي أنشأه للشيخ المذهب برئاسة اليهود: "وارفق بهم فإنَّ المُنْبِتَّ لا أرضاً قطعَ ولا ظهراً أبقى، فإيَّاكَ أن تكونَ ذلكَ المُنْبِتَّ"⁽³⁾.

فأورد المثل في النصِّ السابق كاملاً، وهو: "المُنْبِتُّ لا أرضاً قطعَ، ولا ظهراً أبقى"⁽⁴⁾، والمُنْبِتُّ، هو الرَّجُلُ الْمُنْقَطِعُ عن أصحابه في السَّفر، والظَّهْرُ، الدَّابَّةُ التي يركبها في سَفَره، ويُضرب فيمن يُبالغ في طلب الشيء، ويُفِرط، ويبدو أن الكاتب أراد منه حثَّ الشيخ المذكور على الرِّفق باليهود، وعدم المبالغة في سياسة أمورهم، وتطبيق الأحكام عليهم.

¹ انظر فيما سبق، ص 231-232.

² أبو تمام، ديوان الحماسة، ص 532.

³ انظر فيما سبق، ص 128.

⁴ الميداني، مجمع الأمثال، 7/1.

ومن الأمثلة -أيضاً- قوله في أثناء وصفه رحلة عودة الجيش الفاتح لمدينة قيسارية: "ورحلنا في يوم الخميس، ثالث عشرين من ذي القعدة... ولمّا خَفَّتِ البرور، ولم يبقَ إلّا المرور، ركبَ فرسه وعبرَ الماء، والألسنةُ له داعية، وعليه من الله واقيةٌ باقية، فنزلَ في وادٍ به مرعى ولا كالسَّعدان"(1).

فاخضرارُ الوادي الذي نزل فيه السلطان بصحبة جيشه وجماله، حدا بالكاتب إلى تذكر المثل الموروث "مرعى ولا كالسعدان"(2)، والسَّعدان من أفضل أنواع الأعشاب وأجودها، وذلك لأنَّه يزيد في إدرار الحليب عند الإبل حين تأكله.

أمّا آليَّةُ عكس الأمثال التي لجأ إليها الكاتب، فتتمثّل بقوله في التقليد الذي أنشأه عن السعيد بركة خان، لبهاء الدين بن حنا: "فكما كانَ والدنا الشهيد -رحمه الله- يخاطبه بالوالد، قد خاطبناه بذلك وخطبناه.. لأنَّه ما ظلم من أشبه أباه"(3).

فأصلُ المثل في قوله السابق: "مَنْ شابهَ أباهُ فما ظلم"(4)، والغاية من إيرادِه واضحة، فالسلطان قد نهَجَ نهَجَ والده في مخاطبة الوزير المذكور بالوالد، ولا يخفى ما لهذا من دلالة على رفعة منزلته لديهما.

وقد عمدَ إلى حلِّ المثل، في التقليد الذي أنشأه للقاضي تقي الدين، ابن القاضي تاج الدين بن بنت الأعزّ، حيث قال: "الحمدُ لله على أن أعطى قوس ذلك المحراب باريها"(5)، فاستحقاقُ القاضي المذكور لتولّي التدريس في المدرسة الصلاحية، جعلَ الكاتب يستذكرُ المثل الملائم لذلك، وهو: "أعطِ القوسَ باريها"(6)، فقد عمدَ السلطان إلى وضع الرَّجُل المناسب في المكان المناسب، مُطبّقاً أمرَ النَّاصح في هذا المثل.

وقال -أيضاً- في التوقيع ذاته: "وأما غير ذلك من الوصايا، فهو -بحمد الله- صاحبُ إلهامها، وجالبُ أقسامها، وجُهينةُ أخبارها، ومطلعُ أنوارها، فلا يُعادُ عليه ما منه يُستفاد"(7).

¹ انظر فيما سبق، ص 157.

² الميداني، مجمع الأمثال، 275/2.

³ انظر فيما سبق، ص 110.

⁴ الميداني، مجمع الأمثال، 300/2.

⁵ انظر فيما سبق، ص 123.

⁶ الميداني، مجمع الأمثال، 19/2.

⁷ انظر فيما سبق، ص 125.

ففي الفقرة السابقة حلُّ للمثل الموروث "عند جُهينة الخبر اليقين"⁽¹⁾. وقد وظَّفه الكاتب ليدلُّ على سعة اطلاع المُقلِّد، وطول تجربته للأمور، حتى إنه لا يحتاج إلى كثيرٍ من الوصايا نظراً لذلك، وهذا ما يفهم من المثل المطروح، على الرغم من قلة كلماته.

وبعد الانتهاء من الحديث عن التناصِّ بأنواعه، لعلَّ القارئَ لرسائل محيي الدين بن عبد الظاهر كاملة، يلاحظ أنَّ تركُّزه في الرسائل السياسية، والإدارية، والحربية أكثر منه من الرسائل الأخرى، ويبدو أنَّ ذلك عائدٌ إلى تنوع الموضوعات المتناوِلة في الرسالة الواحدة من الرسائل المذكورة أولاً، ممَّا ساعد على فتح المجال أمام كاتبها لاستحضار كثيرٍ من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأشعار والأمثال، وفقاً لمُناسبتها لها.

الخاتمة

يُمكنُ للمتنبِّع لرسائل محيي الدين بن عبد الظاهر -كاملة- ملاحظة تنويعه في موضوعاتها، إذ إنه لم يقتصر على إنشاء الرسائل السياسية، والإدارية، والحربية، التي تطلَّبها منه عمله في ديوان الإنشاء المملوكي، بل أنشأ إلى جانبها رسائل اجتماعية، وإخوانية، وأدبية، نهج في كلِّ نوع منها نهجاً مُعيَّناً، ففي الوقت الذي فرضت عليه الرسائل الأولى قواعدَ مُعيَّنة لكتابتها، فتحت الرسائل الثانية المجالَ أمامه لإرخاء عنانِ فكره وخياله، حتى يصول ويجول في اختيار موضوعاتها، وألفاظها، والتفنُّن في إنشاء عباراتها كيفما شاء.

ومن الناحية الموضوعية، اختصَّت رسائل الكاتب السياسية، والإدارية، والحربية بحملِ أوامر الحاكم فيما يتعلَّقُ بشؤون الدولة الداخلية والخارجية، فأنشأ رسائل العهود -التابعة للنوع الأوَّل منها- لإعلام الأفراد آنذاك بوليِّ عهدهم المستقبلي، المعين من قبل السلطان أو الخليفة؛ كي لا يدبَّ العداء بين أمرائهم من أجل الاستيلاء على العرش في حالٍ إن كان شاغراً.

¹ الميداني، مجمع الأمثال، 3/2.

وقد بيّنت الرسائلُ التي تخصُّ العلاقاتَ الخارجيّةَ مدى طيبِ العلاقةِ وسوئها بينَ سلاطينِ الممالكِ وحكّامِ بعضِ الدولِ، سواءَ أكانتِ إسلاميّةً أم غيرَ إسلاميّةً، وذلكَ عن طريقِ إنشاءِ العباراتِ التي تبيّنُ قوّةَ روابطِ الصّدّاقةِ والمحبّةِ، ومدحِ المقصودينَ بها، إن كانت العلاقةُ طيّبةً، وإنشاءِ العباراتِ المليئةِ بالسخريةِ، والذمِّ، والأدعيةِ السيّئةِ، إن كانت العلاقةُ سيّئةً.

أمّا الرسائلُ الإداريّةُ التي تضمُّ التقاليدَ والمراسيمَ والتّواقيعَ، فقد أنشأها الكاتبُ بأمرِ السلطانِ للأفرادِ الذينَ تمَّ اختيارهم ليشغلَ بعضَ المناصبِ المرموقةِ في الدولةِ، وما يميّزُ تلكَ الرسائلَ الإطنابُ في المدحِ، والإكثارُ منَ الوصايا التي تُحدّدُ المسارَ الذي يجبَ أن يسيرَ عليه المقصودُ في المنصبِ الموكّلِ إليه، ومع أنَّ الكاتبَ أصدرَها في رسائله على لسانِ السلطانِ، إلا أنَّه هوَ المُصدرُ الحقيقيُّ لها؛ فهوَ أقربُ رجالِ الدولةِ لسلاطينِ الممالكِ الأعاجمِ بحُكمِ طبيعةِ عمله في ديوانِ الإنشاءِ.

واختصّتِ الرسائلُ الحربيّةُ بوصفِ رحلاتِ الجيشِ في أثناءِ مسيره لفتحِ بعضِ المعازلِ الخاضعةِ لسيطرةِ الأعداءِ، سواءَ أكانوا فرنجَ أم تترَ، وزفَّ البشاراتِ، وإرسالِ التهاني لحكّامِ الدولِ الإسلاميّةِ المجاورةِ، وبعضِ أعيانها في حالِ تحقيقِ النّصرِ والفتحِ، والقارئُ لهذا النوعِ منَ الرسائلِ الحربيّةِ، يلاحظُ مدى طيبِ العلاقةِ التي ربطتِ سلاطينَ الممالكِ بحكّامِ اليمنِ -خاصّةً- في ذلكَ الوقتِ.

وبعدَ انتهاءِ القتالِ وفتحِ المدنِ والقلاعِ المرادةِ، يُعيّنُ السلطانُ نواباً لها وولاية؛ يقومونَ بإدارةِ شؤونها، وحفظها منَ الأعداءِ، ويستوجبُ هذا الأمرُ إنشاءَ رسائلٍ لهم في أثناءِ فترةِ عملهم فيها، ويسمّى هذا النوعُ منَ الرسائلِ الحربيّةِ بالتذكّرِ، ويتّضحُ في الرسالةِ التي أنشأها محيي الدين بن عبد الظاهر عن المنصور لنائب قلعة صرخد، وواليتها.

وقد اختصّتِ الرسائلُ الاجتماعيّةُ التي أنشأها الكاتبُ برصدِ بعضِ المظاهرِ التي شاعت في العصرِ المملوكي، كاستمرارِ تطبيقِ نظامِ الإقطاعِ، الذي يستفيدُ منه أصحابُ الطبقةِ العليا، على حسابِ العامّةِ، وإقبالُ الأفرادِ على تناولِ الحشيشِ بعدَ إصدارِ أمرٍ منعِ شربِ الخمرِ، ولجوءِ السلاطينِ إلى ممارسةِ الصّيْدِ للترفيهِ عن نفوسهم المنهكةِ من شؤونِ الحكمِ ومتعلّقاته، وضرورةُ إنشاءِ خطبٍ للصدّاقِ في أثناءِ

إقامة حفلات عقود زواج الأسر المرموقة في المجتمع، فهي بمثابة إعلان رسمي للحدث الجلل، وتتمثل بخطبة الصداق الذي أنشأه ابن عبد الظاهر للسعيد بركة خان ابن السلطان الظاهر بيبرس على ابنة المنصور سيف الدين قلاوون، إضافة إلى ذلك يجب التعبير عن تقدير الحكام الذين يشاركون السلاطين مصابهم، وهذا ما تبين في الرسالة التي أنشأها الكاتب عن المنصور قلاوون لحاكم اليمن؛ جواباً عن الرسالة التي بعثها له، معزياً إياه بسبب وفاة ابنه الصالح علاء الدين علي.

وقد أظهرت الرسائل الأدبية التي تضمنت المدح، والهجاء، والوصف تمكناً من تطويع الألفاظ المختلفة وصياغتها في عبارات تدل على إبداعه وقدرته الفنية، وفقاً للموضوع المراد، فقد عمد في مدحه إلى حشد كثير من العبارات التي تتضمن الشكر والثناء، والدعاء الحسن، وانقطاع النظر للشخص الممدوح، وفي هجائه انتقى العبارات الجارحة التي تتضمن السخرية والهزل، وانتقاص القدر، أمّا في وصفه فقد عمد إلى استخدام العبارات الرقيقة السلسة، القريبة من النفس الإنسانية في وصف المظاهر، ورسم الصور المختلفة.

وعند الانتقال إلى الناحية الفنية لرسائل محيي الدين بن عبد الظاهر، يلاحظ أنها امتازت بخصائص عدة تمثلت بالتزامه شكل الرسالة المتعارف عليه منذ القدم، مع إضافة بعض التجديدات أحياناً، وتنويعه في أسلوب عرضه لها، وتزيينها ببعض الآيات القرآنية، وعبارات الحديث النبوي الشريف، إضافة إلى بعض الأحداث التاريخية، وهذا من دون شك - أكبر دليل على سعة المخزون الثقافي لديه، أضف إلى ذلك أنه استقى صورها من مصادر مختلفة من أهمها القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والتراث الأدبي المتمثل بالأشعار والأمثال الموروثة، إضافة إلى الطبيعة بنوعها: الصائتة والصامتة، فطرحها في رسائله على أنماط متعددة قوامها اللون والحركة.

ولم يكتف بذلك فحسب، بل عمد إلى تنميق رسائله كافة بأنواع المحسنات البديعية المتوارثة عن القاضي الفاضل وغيره من كتّاب العصر الأيوبي، المتمثلة بالسجع، والجناس، والطباق، والتورية، التي ساهمت في إنزاله بمنزلة الكتاب المبدعين في عصره.

أما موضوعُ التَّنَاص -النَّاشئ عن الدراسات النقدية الحديثة- فقد تمَّ تناوله
لتأكيد وجود جذور هذا المنهج في رسائل محيي الدين بن عبد الظاهر خاصة، ولكنه
جاء -بلا شك- تحت مسمياتٍ عُرِفَتْ في عصره، كالاقتباس، والتَّضمين، وحلِّ
المنظوم.

المراجع

- الأبشيهي، شهاب الدين محمد (ت850هـ-)، (1986م)، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق مفيد محمد قميحة، (ط2)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله (ت637هـ-)، (1995م)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (د.ط)، المكتبة العصرية، بيروت.
- أحمد، أحمد عبد الرزاق، (1979م)، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك "دراسة عن الرشوة"، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- الأسنوي، جمال الدين (ت772هـ-)، (1987م)، طبقات الشافعية، تحقيق كمال يوسف الحوت، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الأصفهاني، أبو الفرج (ت356هـ-)، (د.ت)، الأغاني، تحقيق سمير جابر، (ط2)، دار الفكر، بيروت.
- امروء القيس (ت565م)، (2000م)، ديوان امرئ القيس وملحقاته، شرح أبي سعيد السكري، دراسة وتحقيق أنور عليان أبو سويلم ومحمد علي الشوابكة، (ط1)، إصدار مركز زايد للتراث والتاريخ، دولة الإمارات العربية المتحدة.
- أمين، فوزي محمد، (2003م)، أدب العصر المملوكي الأول "ملاحح المجتمع المصري"، (ط2)، دار المعرفة الجامعية.
- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي (ت930هـ-)، (1982م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققه وكتب له المقدمة محمد مصطفى، (ط2)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- الباشا، عبد الرحمن رأفت، (1978م)، الصيد عند العرب، أدواته وطرقه - حيوان الصائد والمصيد، (ط2)، دار النفائس، بيروت.
- باشا، عمر موسى، (1967م)، أدب الدول المتتابعة (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك)، (ط1)، دار الفكر الحديث، مصر.
- البحثري، (1962م)، ديوان البحثري، (د.ط)، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت.

بدوي، أحمد أحمد، (د.ت)، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، (د.ط)، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة.

بروكلمان، كارل، (1977م)، تاريخ الأدب العربي، ترجمة رمضان عبد التواب، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة.

البصري، صدر الدين علي (ت656هـ)، (1999م)، الحماسة البصرية، تحقيق وشرح ودراسة عادل سليمان جمال، (ط1)، مكتبة الخانجي، القاهرة.

البغدادي، إسماعيل باشا، (1992م)، هدية العارفين، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت.

البقلي، محمد قنديل، (1983م)، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

البوصيري، شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد (ت696 هـ)، (1973م)، ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاني، (ط2)، ملتزم الطبع والنشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

التبريزي، الخطيب، (1992م)، شرح ديوان أبي تمام، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر، (ط1)، دار الكتاب العربي، بيروت.

الترمذي، محمد بن عيسى (ت279هـ)، (د.ت)، سنن الترمذي، حققه أحمد محمود شاكر وآخرون، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن (ت874هـ)، (1985م)، المنهل الصافي والمستوفى في بعد الوافي، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن (ت874هـ)، (د.ت)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد والنشر، القاهرة.

أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي (ت231هـ)، (د.ت)، ديوان الحماسة، برواية أبي منصور موهوب بن محمد بن الخضر الجواليقي، تحقيق عبدالمنعم أحمد صالح، (د.ط)، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، العراق.

الجمال، أحمد صادق، (1966م)، الأدب العامي في مصر العصر المملوكي، (د.ط.)،
الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

الجويني، مصطفى الصاوي، (1970م)، ملامح الشخصية المصرية في الدراسات
البيانية في القرن السابع الهجري، (د.ط.)، الهيئة المصرية العامة للتأليف
والنشر، القاهرة.

ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر (ت779هـ—)، (1976م)، تذكرة
النبيه في أيام المنصور وبنيه، حققه ووضع حواشيه، محمد محمد أمين،
راجعه سعيد عبد الفتاح عاشور، (د.ط.)، مطبعة دار الكتب، مصر، وزارة
الثقافة، مركز تحقيق البحوث.

ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد (ت837هـ—)، (1997م)،
ثمرات الأوراق، تحقيق وتعليق محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط3)، دار الجيل،
بيروت.

ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد (ت837هـ—)، (1987م)،
خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، (ط1)، دار ومكتبة الهلال،
بيروت.

الحجّي، حياة ناصر، (1984م)، أحوال العامة في حكم المماليك، (ط1)، شركة
كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت.
حسن، علي إبراهيم، (د.ت.)، تاريخ المماليك البحريّة، (ط3)، مكتبة النهضة
المصريّة، القاهرة.

حسين، علي صافي، (1964م)، الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري
"دراسة في الأدب المصري"، (د.ط.)، دار المعارف، القاهرة.

الحلبي، شهاب الدين محمود (ت725هـ—)، (1980م)، حسن التوسّل إلى صناعة
الترسّل، تحقيق أكرم عثمان يوسف، (د.ط.)، دار الرشيد للنشر، الجمهوريّة
العراقيّة.

حمادة، محمد ماهر، (1982م)، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم
الإسلامي، (ط2)، مؤسسة الرسالة، بيروت.

حمادة، محمد ماهر، (1983م)، الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، (ط2)، مؤسسة الرسالة، بيروت.

حمزة، عبد اللطيف، (1968م)، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، (ط8)، دار الفكر العربي، دمشق.

الخزاعي، دعبل بن علي (ت246هـ-)، (1983م)، ديوان دعبل الخزاعي، صنعة عبد الكريم الأشتر، (ط2)، مجمع اللغة العربية، دمشق.

الخزرجي، علي بن حسين، (1983م)، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، عني بتصحّحه وتنقيحه محمد بسيوني عسل، (ط2)، دار الآداب، بيروت.

الدروبي، سمير، (2003م)، أصناف التراجمة في ديوان الإنشاء المملوكي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، الأردن، ع65.

الدروبي، سمير، (2002م)، حركة الترجمة والتّعريب في ديوان الإنشاء المملوكي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، الأردن، ع62.

الدروبي، محمد محمود، (1999م)، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، (ط1)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن.

الزرقاني، محمد بن عبد الباقي، (د.ت)، شرح الزرقاني على موطأ مالك، (د.ط)، دار الفكر، بيروت.

الزركلي، خير الدين، (1984م)، الأعلام، (ط6)، دار العلم للملايين، بيروت.

الزّعبي، أحمد، (2000م)، التّناصُّ نظريًا وتطبيقيًا، (ط2)، مؤسّسة عمّون للنشر والتوزيع، عمّان.

زيدان، جرجي، (د.ت)، تاريخ آداب اللغة العربية، راجعه وعلّق عليه شوقي ضيف، (د.ط)، دار الهلال، بيروت.

السّبكي، تاج الدين عبد الوّهاب (ت771هـ-)، (1983م)، مُعيد النّعم ومُبيد النّقم "الإصلاح السياسي والإداري في الدول العربية الإسلامية"، (ط1)، دار الحداثة، بيروت.

سلام، محمد زغلول، (د.ت)، الأدب في العصر المملوكي، (د.ط)، منشأة المعارف، الإسكندرية.

سليم، محمود رزق، (د.ت)، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، (د.ط)، مكتبة الأدب ومطبعتها بالجمايز، مصر.

السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت562هـ—)، (1988م)، الأنساب، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، (ط1)، دار الجنان، بيروت.

السموأل، أبو عبد الله نفطوية، (1996م)، ديوان سموأل، تحقيق وشرح واضح الصمد، (ط1)، دار الجيل، بيروت.

السيد الحميري (ت173هـ—)، (د.ت)، ديوان السيد الحميري، جمعه وحققه وشرحه وعلق عليه وعمل فهارسه شاكر هادي شكر، قدم له محمد تقي الحكيم، (د.ط)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ—)، (1968م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط1)، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ—)، ديوان الحيوان، مخ، المكتبة الملكية تحت الرقم 2946.

شافع بن علي، ناصر الدين (ت730هـ—)، (1989م)، حسن المناقب السريّة المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق ونشر عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، (ط2)، الرياض.

الشماخ بن ضرار، (د.ت)، ديوان الشماخ، حققه ونشره صلاح الدين الهادي، (د.ط)، دار المعارف، مصر.

صالح، بشرى موسى، (1994م)، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، (ط1)، المركز الثقافي العربي، بيروت.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ—)، (1998م)، أعيان العصر وأعوان النصر، (ط1)، دار الفكر، دمشق.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ—)، (د.ت)، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (د.ط).

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت764هـ-)، (1987م)، جنان الجناس "في علم البديع"، تحقيق سمير حسين حلي، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت764هـ-)، (1990م)، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، (ط2)، دار الكتب العلمية، بيروت.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت764هـ-)، (1979م)، فضُّ الختام عن التورية و الاستخدام، دراسة وتحقيق المحمّدي عبد العزيز الحناوي، (ط1)، دار الطباعة المحمّدية، القاهرة.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت764هـ-)، (1911م)، نكت الهميان في نكت العميان، وقف على طبعه أحمد زكي بك، (د.ط)، المطبعة الجمالية بمصر.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت764هـ-)، (1991م)، الوافي بالوفيات، باعثناء دوروتيا كرافولسكي، (ط2)، يطلب من دار النشر فرانز شتاينز شتوتغارت، ألمانيا.

ضيف، شوقي، (د.ت)، عصر الدّول والإمارات مصر- الشّام، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة.

عاشور، عبد الفتّاح، (1976م)، العصر المماليكي في مصر والشّام، (ط2)، دار النهضة العربيّة، القاهرة.

عاصي، حسين، (1993م)، محيي الدين بن عبد الظاهر "عصره و تراثه التاريخي"، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت.

العبدّادي، أحمد مختار، (1986م)، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشّام، (د.ط)، دار النهضة العربيّة، بيروت.

ابن عبد الظاهر، محيي الدين (ت692هـ-)، (1902م)، الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية، نشر الجزء الثالث موبرغ.

ابن عبد الظاهر، محيي الدين (ت692هـ-)، (1961م)، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، (ط1)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة.

ابن عبد الظاهر، محيي الدين (ت692هـ-)، (د.ت)، الدرّ النظم من ترسل عبد الرّحيم، تحقيق أحمد أحمد بدوي، (د.ط)، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة.

ابن عبد الظاهر، محيي الدين (ت692هـ-)، (1976م)، الرّوض الزّاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، (ط1)، الرياض.

العجلوني، إسماعيل بن محمد (ت1162هـ-)، (1405هـ-)، كشف الخلفاء، حقّقه أحمد القلاش، (ط4)، مؤسسة الرسالة، بيروت.

العسقلاني، ابن حجر (ت852هـ-)، (د.ت)، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تحقيق محمد سيّد جاد الحق، (ط2)، مطبعة المدني، القاهرة.

ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت1089)، (د.ت)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (د.ط)، دار احياء التراث العربي، بيروت.

العمري، ابن فضل الله (ت749هـ-)، (1992م)، التعريف بالمصطلح الشريف، دراسة وتحقيق سمير الدروبي، (ط1)، منشورات جامعة مؤتة، الأردن.

العمري، ابن فضل الله (ت749هـ-)، (1996م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، (ط2)، مكتبة مدبولي، القاهرة.

عيد، رجاء، (1995م)، النصّ والتّناص، علامات في النقد، جدّة، ع18، مج5.

العيني، بدر الدين محمود (ت855هـ-)، (1989م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حققه ووضع حواشيه محمد أمين، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

غرس الدين الظاهري، خليل بن شاهين (ت873هـ-)، (1894م)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، صحّحه بولس داوبس، طبع في مدينة باريس.

الغريب، سلامة هليل، (2003م)، الرسائل الفنية في العصر المملوكي الأول، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة مؤتة، الأردن.

الغزولي، علاء الدين علي بن عبد الله البهائي، (1299هـ-)، مطالع البدور في منازل السرور، (ط1)، مطبعة إدارة الوطن.

فاخوري، حنا، (د.ت)، تاريخ الأدب العربي، (د.ط)، المطبعة البوليسية.

أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود (ت732هـ)، (1997م)، المختصر في أخبار البشر، علّق عليه ووضع حواشيه محمود دُيُوب، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن الفُرات، ناصر الدين محمّد عبد الرّحيم (ت696 هـ)، (1939م)، تاريخ ابن الفُرات، حقّقه وضبط نصّه قسطنطين زريق ونجلاء عزّ الدين، (د.ط)، المطبعة الأميركانية، بيروت.

فروخ، عمر، (د.ت)، تاريخ الأدب العربي، (ط3)، دار العلم للملايين، بيروت. الفقي، محمد كامل، (1984م)، الأدب العربي في العصر المملوكي، (ط3)، دار الموقف العربي، مصر.

القلقشندي، أبو العبّاس أحمد (ت821هـ)، (د.ت)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة مصوّرة عن الطّبعة الأميريّة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصريّة العامّة للتّأليف والتّرجمة والطّباعة والنّشر، القاهرة.

القلقشندي، أبو العبّاس أحمد (ت821هـ)، (د.ت)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق محمد حسين شمس الدين، طبعة دار الكتب العلميّة، القاهرة. القيرواني، ابن رشيق، (د.ت)، ديوان ابن رشيق القيرواني، جمعه ورتّبّه عبد الرحمن ياغي، (د.ط)، دار الثقافة، بيروت.

القيسي، فايز عبد النّبي فلاح، (1989م)، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، (ط1)، دار البشير للنشر والتوزيع، عمّان.

الكتبي، محمّد بن شاكر (ت764 هـ)، (د.ت)، فوات الوفيات والذّيل عليها، تحقيق إحسان عبّاس، (د.ط)، دار صادر، بيروت.

ابن كثير، (1987م)، البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون، (ط3)، دار الكتب العلمية، بيروت.

كيوان، عبد العاطي، (1998م)، التّناسُّ القرآنيُّ في شعر أمل دنقل، (ط1)، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة.

المتنبّي، أبو الطيّب أحمد بن الحسين (ت354هـ-)، (1944م)، ديوان أبي الطيّب المتنبّي، صحّحه وقارن نسخه وجمع تعليقاته عبد الوهاب عزام، (د.ط)، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

محمّد، محمود سالم، (1996م) المدائح النبويّة حتى نهاية العصر المملوكي، (ط1)، دار الفكر، دمشق.

مسلم، أبو الحسين القشيري النيسابوري (ت261هـ-)، (د.ت)، صحيح مسلم، حقّقه محمد فؤاد عبد الباقي، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

مسلم، أبو الحسين القشيري النيسابوري (ت261هـ-)، (1992م)، صحيح مسلم، (د.ط)، دار الكتب العالمية، بيروت.

المعريّ، أبو العلاء (ت494هـ-)، (1990م)، سقط الزند، شرحه أحمد شمس الدين، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن معصوم المدني، السيد علي صدر الدين (ت1120هـ-)، (1968م)، أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق وترجمة شاكر هادي شكر، (ط1)، مكتبة العرفان، كربلاء.

المقريزي، تقيّ الدين أحمد بن علي (ت845هـ-)، (1940م)، إغاثة الأمة بكشف الغمّة، نشره محمّد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، (د.ط)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

المقريزي، تقيّ الدين أحمد بن علي (ت845هـ-)، (1957م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، صحّحه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، طبعة منقّحة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

المقريزي، تقيّ الدين أحمد بن علي (ت845هـ-)، (1998م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشّرقاوي، (ط1)، مكتبة مدبولي، القاهرة.

المنصوري، ركن الدين بيبرس (ت725هـ-)، (1987م)، التّحفة الملوكيّة في الدولة التركيّة، نشره ووضع حواشيه عبد الحميد صالح حمدان، (ط1)، الدّار المصريّة اللبنانيّة، القاهرة.

المنصوري، ركن الدين بيبرس (ت725 هـ)، (1998م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالدس ريتشاردز، (د.ط)، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـ—)، (د.ت)، لسان العرب، (د.ط)، دار إحياء التراث، بيروت.

موير، وليم، (1995م)، تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، (ط1)، مكتبة مدبولي، القاهرة.

الميداني، أبو الفضل أحمد النيسابوري (ت518هـ—)، (د.ت)، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (د.ط)، دار المعرفة، بيروت.

ناصر، مصطفى، (د.ت)، الصورة الأدبية، (د.ط)، دار الأندلس، بيروت.

النسائي، أحمد بن شعيب (ت303هـ—)، (1986م)، سنن النسائي "المجتبى"، حققه عبد الفتاح أبو غزه، (ط2)، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.

النواجي، شمس الدين محمد بن الحسن، حلبة الكميت في الأدب و النواذر المتعلقة بالخدمات، مخ.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت732 هـ—)، (د.ت)، نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة.

النيسابوري، محمد بن عبد الله (ت405هـ—)، (1990م)، المُستدرك على الصحيحين، حققه مصطفى عبد القادر عطا، (ط1)، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن واصل، جمال الدين (ت697 هـ—)، (د.ت)، مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، حققه ووضع حواشيه حسنين محمد ربيع، راجعه وقَدَّم له سعيد عبد الفتّاح عاشور، (د.ط).

ابن الوردي، زين الدين عمر (ت749هـ—)، (1969م)، تاريخ ابن الوردي، (د.ط)، منشورات المطبعة الحيدريّة، النجف.

الهاشمي، أحمد، (د.ت)، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، (د.ط)، دار
الكتب العلميّة، بيروت.

اليونيني، قطب الدين موسى (ت726هـ)، (1955م)، ذيل مرآة الزمان، (ط1)،
مطبعة مجلس المعارف العثمانية، الهند.

الاسم: إيمان فاضل القبيلات

الكلية: الآداب

التخصص: ماجستير اللغة العربية

السنة: 2006م

تلفون نقال: (0777401671)

البريد الإلكتروني: najimq1@yahoo.com